عون الرحمن في تفسير القرآن

وبيان ما فيه من الهدايات والفوائد والأحكام

تأليف
أ. د. سليمان بن إبراهيم بن عبدالله اللاحم
الأستاذ في قسم القرآن وعلومه
بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة القصيم

المجلد السابع عشر

تفسير سورة الروم ولقمان والسجدة والأحزاب

دار ابن الجوزي

بسم الله الرحمن الرحيم

عون الرحمن في تفسير القرآن

١٧

ح دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ١٤٤١هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
اللاحم، سليمان بن إبراهيم بن عبد الله
عون الرحمن في تفسير القرآن وبيان ما فيه من الهدايات والفوائد والأحكام./ سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم.- الدمام، ١٤٤١هـ
٥١٥ ص؛ ١٧×٢٤سم
ردمك: ٨ - ٩٥ - ٨٢٧٤ - ٦٠٣ - ٩٧٨
١ - القرآن - تفسير ٢ - علوم القرآن ٣ - القرآن - أحكام
أ. العنوان
ديوي ٢٢٧,٣ ١٤٤١/٥٤٤٣

دار ابن الجوزي
للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية:
الدمام - حي الريان - شارع عثمان بن عفان
ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٩٣
ص ب. واصل: ٨١١٤
الرمز البريدي: ٣٢٢٥٦
الرقم الإضافي: ٤٩٧٣
فاكس: ٨٤١٢١٠٠
الرياض - تلفاكس: ٢١٠٧٢٢٨
جوّال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨
الأحساء - ت: ٥٨٨٣١٢٢
جدة - ت: ٠١٢٦٨١٤٥١٩
جوّال: ٠٥٩٢٠٤١٣٧١

لبنان:
بيروت - ت: ٠٣/٨٦٩٦٠٠
فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١

مصر:
القاهرة - تلفاكس: ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠
جوّال: ٠١٠٠٦٨٢٣٧٣٨٨

aljawzi@hotmail.com
+966503897671
aljawzi
eljawzi
aljawzi.net

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٤١هـ

الباركود الدولي: 9786038274958

حقوق الطبع محفوظة © ١٤٤١هـ، لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي نظام ميكانيكي أو إلكتروني يمكن من استرجاع الكتاب أو ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.

تَفۡسِيرُ سُورَةِ ٱلرُّومِ

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة الروم»؛ لأنه ذكر فيها اسم «الروم» ووقوع الغلبة عليهم، والبشارة بأنهم بعد غَلَبهم سيَغْلبون، في قوله: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾.

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ- فضلها:

عن عبد الملك بن عمير، سمعت شبيب أبا روح يحدث عن رجل من أصحاب النبي ﷺ: أن رسول الله ﷺ صلى الصبح فقرأ فيها الروم، فأوهم، فقال: إنه يلبس علينا القرآن، فإن أقوامًا منكم يصلون معنا، لا يحسنون الوضوء، فمن شهد الصلاة معنا، فليحسن الوضوء[1]. قال ابن كثير[2]: «وهذا إسناد حسن، ومتن حسن».

د- موضوعاتها:

١- افتتحت «سورة الروم» بقوله تعالى: ﴿الٓمٓ﴾ إشارة إلى إعجاز القرآن الكريم، ثم ذكر حصول الغلبة على الروم في أدنى الأرض ﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٦﴾.

٢- إثبات أن وعده عز وجل حق، وخبره صدق، ولكن أكثر الناس لا يعلمون حقيقة ذلك، ولا يعلمون العلم الذي ينفعهم ويقربهم إلى الله تعالى؛ ولهذا قال: ﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾.

---

(١) أخرجه أحمد ٣/ ٤٧١، ٥/ ٣٦٨.

(٢) في «تفسيره» ٦/ ٣٣٣.

٣- تقريع وتوبيخ الكافرين الغافلين عن الآخرة؛ لعدم تفكرهم في أنفسهم في خلق السموات والأرض وما بينهما وأن الله ما خلقهما إلا بالحق، أي: ما خلقهما إلا لأجل عبادته عز وجل، وأجل مسمى ينتهي بهم إلى البعث بعد الموت والحساب والجزاء ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾.

٤- تقريعهم وتوبيخهم لعدم تأملهم كيف كان عاقبة المكذبين قبلهم، وهم يسيرون في الأرض ويرون آثارهم، و﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾.

٥- أن السيئة سبب للسيئة بعدها ولما هو أسوأ منها، وأن الجزاء من جنس العمل ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾.

٦- إثبات البعث ورجوع الخلائق إلى الله تعالى، وتمام قدرة الله تعالى على ذلك، وإبلاس المجرمين في ذلك اليوم، وتخلي شركائهم عنهم، وكفرهم بشركائهم. وتفرق الناس في ذلك اليوم، ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلْءَاخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾﴾.

٧- مشروعية تسبيح الله تعالى في جميع الأوقات بتنزيهه عن النقائص والعيوب وعن مماثلة المخلوقين، وبأداء الصلوات في أوقاتها، والأذكار في الصباح والمساء. واختصاصه عز وجل بالحمد في السموات والأرض في جميع الأوقات ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾﴾.

٨- بيان تمام قدرته عز وجل في إخراج الحي من الميت وإخراج الميت من الحي، وإحياء الأرض بعد موتها، وعلى إخراج الناس بعد الموت من قبورهم.

٩- بيان عظيم آياته وتمام نعمته، في خلق بني آدم من تراب، فإذا هم بشر ينتشرون، وفي خلقه لهم من أنفسهم أزواجًا؛ ليسكنوا إليها وجعله بينهم مودة ورحمة، وفي خلق السموات والأرض، واختلاف ألسنتهم وألوانهم، وفي منامهم بالليل والنهار وابتغاؤهم من فضله، وفي إراءتهم البرق خوفًا وطمعًا، وإنزال الماء من السماء، وإحياء

الأرض بعد موتها، وفي قيام السماء والأرض بأمره، ثم إذا دعاهم دعوة من الأرض إذا هم يخرجون.

١٠- بيان عموم ملكه عز وجل للسموات والأرض، وخضوع جميع الخلائق وطاعتهم له كونا، أو كونًا وشرعًا، وبدؤه الخلق ثم إعادته وهو أهون عليه، وله وحده المثل الأعلى في السموات والأرض ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾.

١١- ضربه عز وجل للمشركين الذين أشركوا معه غيره مثلاً من أنفسهم، كيف يجعلون له شريكًا من خلقه ومملوكاته، وهم لا يرضون أن يكون مماليكهم لهم شركاء فيما رزقهم الله يستوون هم وإياهم في ذلك الرزق، وبيان أنهم ظلموا واتبعوا أهواءهم بغير علم، وأنه لا هادي لمن أضل الله، وما لهم من ناصرين.

١٢- أمره عز وجل له ﷺ بإقامة وجهه للدين حنيفًا فطرة الله التي فطر الناس عليها، وبيان أن ذلك هو الدين القيم، وهو أمر له ولأمته؛ ولهذا قال: ﴿ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

١٣- بيان أن من طبيعة الناس إذا مسهم الضر دعاء الله والإنابة إليه ثم إذا أذاقهم منه رحمة وكشف الضر عنهم إذا فريق منهم بربهم يشركون ويكفرون بنعمة الله تعالى، ووعيده وتهديده لهم.

١٤- بيان أن من طبيعة الناس الفرح عندما تصيبهم رحمة الله من الله تعالى، والقنوط عندما تصيبهم سيئة وشدة، بسبب ما قدمته أيديهم، وتوبيخهم في عدم تأملهم في أنه عز وجل يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، وبيان أن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون.

١٥- الحث على إيتاء صاحب القربى حقه والمسكين وابن السبيل ابتغاء وجه الله والترغيب في ذلك والتحذير من الربا ﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

١٦- بيان تفرده عز وجل بالخلق والرزق والإماتة والإحياء، وإبطال ما يمليه المشركون من عبادة غير الله، ونفي أن يكون من شركائهم من يفعل من ذلك من شيء،

وتنزيهه عز وجل عن شركهم وشركائهم.

١٧- بيان أن ظهور الفساد في البر والبحر بسبب ما كسبته أيدي الناس من الكفر والشرك والمعاصي؛ لأجل أن يذيقهم عقوبة بعض الذي علموا لعلهم يرجعون، والأمر بالسير في الأرض والنظر والتأمل كيف كان عاقبة الذين من قبل الهلاك، لأن أكثرهم مشركون.

١٨- تأكيد أمره عز وجل له ﷺ بإقامة وجهه للدين حنيفًا، وهو أمر له ﷺ ولأمته، وذلك قبل إتيان يوم لا مرد له من الله، وهو يوم القيامة يومئذ يتصدعون ويتفرقون، فالكافر يحمل عاقبة كفره، ومن عمل صالحًا فقد مهد لنفسه ويجزيه الله تعالى من فضله لمحبته له، دون الكافرين.

١٩- بيان أن من آياته عز وجل، دلائل قدرته ورحمته إرسال الرياح بين يدي السحاب، تبشر بالمطر والرحمة؛ ولتجري الفلك بأمره؛ لابتغاء الرزق وشكره عز وجل، وتثير السحاب واستبشار الناس بنزول المطر، وإن كانوا قبل نزوله لمبلسين قانطين. والتوجيه إلى النظر والتأمل في آثار رحمة الله، كيف يحي الأرض بالمطر بعد موتها، والاستدلال بذلك على قدرته على إحياء الموتى، وأنه على كل شيء قدير، وذكر عودة المشركين إلى الكفر بنعمة الله عندما يصفر هذا النبات ويموت.

٢٠- تسلية النبي ﷺ، وأنه كما لا يستطيع إسماع الموتى والصم الدعاء إذا ولو مدبرين، ولا يستطيع هداية العمي عن ضلالتهم، فهو لا يستطيع هداية من أضله الله ولا إسماعه. ما يُسمع إلا من يؤمن بآيات الله فهم مسلمون.

٢١- بيان أطوار خلق الإنسان، وأن الله عز وجل خلقه من ضعف ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡقَدِيرُ﴾ [الآية:٥٤].

٢٢- إقسام المجرمين يوم تقوم الساعة ما لبثوا في الدنيا غير ساعة، واستقلالهم لبثهم وتعميرهم فيها بسبب غفلتهم وعدم استعدادهم للآخرة. ورد الذين أوتوا العلم والإيمان عليهم بقولهم: ﴿لَقَدۡ لَبِثۡتُمۡ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡبَعۡثِۖ فَهَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡبَعۡثِ وَلَٰكِنَّكُمۡ كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٥٦﴾.

وبيان انقطاع المعاذير في ذلك اليوم فلا ينفع الذين كفروا معذرته ولا هم يستعتبون.

٢٣- بيان إقامته عز وجل الحجة على الناس بضربه في القرآن من كل مثل.

٢٤- تسليته ﷺ وتقوية قلبه، وأنه لو جاءهم بكل آية ﴿لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ۝٥٨﴾. فهذا ديدنهم؛ لطبعه عز وجل على قلوبهم كغيرهم من الذين لا يعلمون العلم الذي ينفعهم حقًا، وهو المعرفة بربهم ما يجب له، ثم أمره ﷺ بالصبر، وبيان أن وعده عز وجل حق، فقال: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ۝٦٠﴾.

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓمٓ ١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ٥ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٦ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ٧ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ ٨ أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٩ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ ١٠﴾.

قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ٥ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٦ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ٧﴾:

قوله: ﴿الٓمٓ﴾؛ سبق الكلام عن الحروف المقطعة أوائل السور في مطلع سورة البقرة.

﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾، أي: هُزِمتْ وقُهِرتْ دولة الروم، وهم أصحاب قيصر، وذلك بانتصار الفرس أصحاب كسرى؛ وهما الدولتان الكبيرتان في ذلك العهد، الروم من النصارى من أهل الكتاب، والفرس ليسوا أهل كتاب، بل يعبدون النار.

وبُني الفعل «غُلبت» للمفعول ولم يذكر الفاعل، والحكمة- والله أعلم- لسببين:

الأول: ليكون ذلك أعظم إهانة للفرس، وأنهم ليسوا أهلًا للذكر.

والثاني: ليكون هذا أخف بالنسبة لذل الروم وخذلانها، بحيث لم يقل: غلبت

فارس الروم.

والروم: من سلالة العيص بن إسحاق بن إبراهيم، وهم أبناء عم بني إسرائيل، ويقال لهم: بنو الأصفر، وكانوا على دين اليونان، وكان مَن مَلَك الشام مع الجزيرة منهم يقال له: «قيصر»، ودخلوا النصرانية بعد ذلك، واستمروا عليها، كلما هلك قيصر خلفه آخر بعده، حتى كان آخرهم «هرقل»، فناوأه كسرى ملك الفرس وغزاه في بلاده فغلبه وقهره(١).

﴿فِىٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾، أي: في أقرب أرض الروم من أرض الشام إلى فارس،، أي: استولى الفرس على الجزء المجاور لهم من أرض الروم، ففرح بذلك المشركون، وحزن المسلمون، فأخبرهم الله ووعدهم وبشرهم بقوله: ﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾.

وإنما فرح كفار مكة بانتصار الفرس على الروم؛ لأن الفرس أهل أوثان مثلهم، والروم أهل كتاب، فتفاءلوا بذلك أن ينتصروا على المسلمين؛ لأن المسلمين أهل كتاب، وهم أهل أوثان كالفرس.

﴿وَهُم﴾، أي: الروم، ﴿مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ﴾، أي: من بعد هزيمة الفرس لهم، وظهورهم عليهم، وغلبتهم إياهم.

﴿سَيَغۡلِبُونَ﴾، أي: سيغلبون الفرس، وينتصرون عليهم، وهذا خبر ووعد من الله بنصرهم.

وقد أكد هذا الوعد بغلبة الروم للفرس، بكون الجملة اسمية دالة على الثبوت والدوام، وبالسين الدالة على قربه وتحققه.

وفي قوله: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ﴾؛ تنبيه على عظم تلك الهزيمة عليهم؛ بحيث يظن أنه لا نصر لهم بعدها، ولتعظيم منة الله عليهم، وإظهار قوة وقع ذلك في نفوسهم، حيث صاروا غالبين، بعد أن كانوا مغلوبين، كما قال تعالى للمؤمنين: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنًا﴾[النور:٥٥].

---

(١) انظر:«تفسير ابن كثير» (٦/ ٣٠٨).

﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾؛ البضع: ما بين الثلاث إلى التسع، وقيل: إلى العشر، أي: في أمد غير طويل، والمعنى: خلال بضع سنين، في أولها، أو آخرها، أو في وسطها، وليس المعنى: بعد بضع سنين.

وفي الإخبار بهذا الأمر الغيبي معجزة من معجزات القرآن؛ كما أن فيه بشارة للمسلمين، وتحديًا للمشركين، وإرغامًا لأنوفهم؛ لكراهيتهم انتصار الروم.

﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ اللام في «لله»: للاختصاص، و«ال» في «الأمر» للاستغراق، أي: لله وحده الأمر من قبل ذلك ومن بعده، أي: من قبل غلبة الروم لفارسَ، ومن بعد غلبتهم إياهم.

والمراد بالأمر هنا: الأمر الكوني القدري، أي: أن الله قدر غَلَب الروم وقدر انتصارهم قبل أن يقعا، وله وحده الأمر كله، يقضي في خلقه ما يشاء، ويحكم ما يريد، يؤتي الملك من يشاء، وينزعه عمن يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء؛ كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ [آل عمران:٢٦].

وقد غَلَب الروم وانتصروا على الفرس في مدة لا تتجاوز سبع سنين إلى تسع من غلبة الفرس لهم.

عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما، في قول الله تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ﴾؛ قال: «غُلِبت وغلَبت، كان المشركون يحبون أن يظهر أهل فارس على الروم؛ لأنهم وإياهم أهل أوثان، وكان المسلمون يحبون أن يظهر الروم على فارس؛ لأنهم أهل كتاب، فذكروه لأبي بكر، فذكره أبو بكر لرسول الله ﷺ، قال: «**أما إنهم سيغلبون**». فذكره أبو بكر لهم، فقالوا: اجعل بيننا وبينك أجلًا، فإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا، وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا. فجعل أجلًا خمس سنين، فلم يظهروا، فذكروا ذلك للنبي ﷺ، فقال: «**ألا جعلته إلى دون**» قال: أراه «العشر». قال سعيد بن جبير: والبضع: ما دون العشر، قال: ثم ظهرت الروم بعد، قال: وذلك قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾﴾، إلى قوله: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾

بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾»(١).

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: «كان فارس ظاهرًا على الروم، وكان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس؛ لأنهم أهل كتاب، وهم أقرب إلى دينهم، فلما نزلت: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾، قالوا يا أبا بكر، صاحبك يقول: إن الروم تظهر على فارس في بضع سنين؟ قال: صدق. قالوا: هل لك أن نقامرك بذلك. فبايعوه على أربع قلائص إلى سبع سنين، فمضت السبع ولم يكن شيء، ففرح المشركون بذلك، وشق على المسلمين، فذكر ذلك للنبي ﷺ، فقال: «**ما بضع السنين عندكم؟**» قالوا: دون العشر. قال: «**اذهب فزايدهم، وازدد سنتين في الأجل**» قال: فما مضت السنتان حتى جاءت الركبان بظهور الروم على فارس، ففرح المؤمنون بذلك، وأنزل الله: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ إلى قوله: ﴿لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ﴾»(٢).

﴿وَيَوۡمَئِذٖ﴾، أي: ويوم يغلب الروم الفرس ﴿يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ﴾، أي: بنصر الله تعالى للروم على الفرس؛ لأن الروم أهل كتاب في الجملة؛ لأنهم على دين النصارى، فهم أقرب من الفرس؛ لأنهم مجوس يعبدون النار؛ كما قال تعالى: ﴿۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانٗا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ۝٨٢ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٨٣﴾ [المائدة:٨٢- ٨٣].

﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾، أي: ذو العزة التامة في انتقامه من أعدائه، ونصره لأوليائه.

---

(١) أخرجه الترمذي في تفسير سورة الروم ٣٢٤٥، وأحمد ١/ ٢٧٦، ٣٠٤، وقال الترمذي: «حديث صحيح غريب».

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٨/ ٤٥٥-٤٥٦، وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ٣٠٥.

﴿ٱلرَّحِيمُ﴾؛ رحمة خاصة بالمؤمنين، ورحمة عامة بجميع الخلق.

﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ﴾؛ «وعد»: مفعول مطلق منصوب، أي: هذا الذي أخبرناك به يا محمد من غلبة الروم وانتصارهم على الفرس، وفرح المؤمنون بذلك- وعد الله، وهو ما جرت به سنته الكونية من نصر من كان أقرب إلى الحق، وجعل العاقبة له.

﴿لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ﴾، أي: أن وعده آتٍ لا بد من تحققه ووقوعه كما وعد عز وجل؛ لأنه لا يخلف وعده؛ لتمام صدقه في خبره، كما قال: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ﴾[الأنعام:١١٥]، أي: صدقا في الأخبار، وعدلًا في الأحكام.

ولكمال قدرته في تنفيذ وعده، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا﴾[فاطر:٤٤].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا﴾ [مريم:٦١]، وقال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾ [يونس:٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ [الزمر:٢٠].

ولهذا لما جاء الأجل الذي ضربه الله تعالى، انتصر الروم على الفرس وغلبوهم وأجلوهم عن البلاد التي أخذوها منهم، وتحقق وعد الله تعالى.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾، أي: لا يعلمون أن وعد الله حق، ولا ما يهتدون به إلى الحق، ولا يعلمون بواطن الأمور وعواقبها، ولا حكمة الله تعالى في أحكامه وأفعاله؛ ولهذا قال:

﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾؛ من وجوه كسب المعاش والمال فيها، والتمتع بلذاتها وشهواتها، وزينتها وزخارفها؛ لانصراف قلوبهم إليها، وتعلقهم بها، مع الجهل بباطنها وحقيقتها.

فهم إنما يعلمون ظاهرًا من الحياة الدنيا، ولا يعلمون كل ظاهرها. أما خفيها وباطنها فإنهم لا يعلمونه، ولا يعلمون أنها مجاز ومعبر إلى الآخرة، يُتزود منها بالطاعات، وأيامها ولياليها خزائن للأعمال الصالحات.

﴿وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ﴾، أي: ساهون عنها، متناسون لها، معرضون عنها، لا يعملون لها، كما قال تعالى: ﴿بَلۡ قُلُوبُهُمۡ فِي غَمۡرَةٖ مِّنۡ هَٰذَا وَلَهُمۡ أَعۡمَٰلٞ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمۡ لَهَا

عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ [المؤمنون:٦٣].

قال الحسن البصري: «والله لبلغ من أحدهم بدنياه أنه يقلب الدرهم على ظفره فيخبرك بوزنه، وما يحسن أن يصلي»(١).

فعندهم من العلم والمعرفة والفطنة والذكاء في ظاهر أمر الدنيا ما يحير العقول، ويدهش الألباب من العجائب، والتفنن في أنواع الصناعات الذرية والكهربائية والآلية، مع الخواء الروحي، وعدم المعرفة بربهم وما يجب له، بل وعدم المعرفة بحقيقة أنفسهم، والغفلة عما خلقوا له؛ ولهذا بدل أن تثمر هذه العلوم والمعارف الرقي العالمي، والحياة الطيبة، ومساعدة البشرية أثمرت هبوط الأخلاق، وأسباب الفناء والتدمير؛ بسبب أن كثيرًا منها بني على الإلحاد.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾.

لما بين أن أكثر الناس لا يعلمون العلم الذي ينفعهم في معادهم، وإنما يعلمون ظاهرًا من الحياة الدنيا مع جهلهم بباطنها وحقيقتها، وغفلتهم عن الآخرة، أنكر عليهم عدم التفكر والتأمل في أنفسهم، وفي خلق السموات والأرض، والسير في الأرض، والنظر في عاقبة المكذبين.

قوله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ﴾ الاستفهام: للإنكار. و«التفكر»: إعمال الفكر، والنظر والتدبر والتأمل في الأدلة، أي: أولم يتفكر هؤلاء المشركون المكذبون لرسل الله ولقائه- في أنفسهم بما منحهم الله من عقول وأفهام- في خلق السموات والأرض، وفي آيات الله تعالى في أنفسهم في كيفية خلقهم وأطوار حياتهم، وما جعل الله لهم من

---

(١) «تفسير ابن كثير» ٦/ ٣١٢.

السمع والأبصار والأفئدة، وتسوية خلقهم، وتعديل صورهم، وحكمة ذلك، فيستدلوا بذلك على وجود الله وعظمته ووحدانيته في ربوبيته وإلهيته، وتمام قدرته على بعثهم بعد موتهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ۝٧٨﴾ [النحل:٧٨]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ [الانفطار:٦-٨]، وقال تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ﴾ [غافر:٦٤، التغابن:٣].

﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ﴾، أي: ما أوجد عز وجل هذه المخلوقات العظيمة: السموات والأرض وما بينهما من المخلوقات العظيمة أيضًا، كالشمس والقمر والنجوم، والرياح والسحاب.

﴿إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾؛ «إلا»: أداة حصر، والباء: للملابسة، أي: إلا خلقًا ملابسًا ومصاحبًا للحق، أي: إلا بالأمر الثابت العدل الموافق للحكمة والصواب، أي: لم يخلق ذلك عبثًا ولا باطلًا، بل خلق السموات والأرض وما بينهما من المخلوقات لأمر عظيم، وحكمة بالغة، ومقصد جليل، وهو أن يعبده الخلق ويطيعوه؛ ليبلوهم أيهم أحسن عملًا، ثم يصيرون إليه فيجازيهم على أعمالهم.

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواۚ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ۝٢٧﴾ [ص:٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝١٦﴾ [الأنبياء:١٦]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ﴾ [هود:٧]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ﴾ [الملك:٢].

﴿وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ﴾؛ معطوف على «الحق»، أي: ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وبأجل مسمى. والأجل: غاية الشيء، أي: وقت مقدر محدد معيَّن، بدءًا ونهاية، فابتداؤها بأجل؛ لأن الله أوجدها بعد أن كانت معدومة، وانتهاؤها بأجل؛ وهو انتهاء الدنيا وفناء هذه المخلوقات كلها، ومصير الخلائق كلهم إليه عز وجل للحساب

والجزاء؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾ [إبراهيم:٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الجاثية:٢٢].

وقال تعالى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾﴾ [يونس:٤].

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾؛ اللام: للتوكيد، أي: لجاحدون للقاء ربهم منكرون المقام بين يديه، مكذبون بالبعث والحساب والجزاء على الأعمال؛ ولهذا لم يستعدوا لهذا اللقاء الثابت العظيم، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾﴾ [الانشقاق:٦].

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ الاستفهام: إنكاري، أي: أولم يسيروا في الأرض الواسعة بأقدامهم ﴿فَيَنظُرُوا۟﴾، أي: فينظروا بأبصارهم، ويتأملوا ببصائرهم، ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، أي: كيف كانت نهاية الذين من قبلهم من المكذبين؛ كعاد وثمود وقوم لوط وأمثالهم؛ حيث كانت عاقبتهم أسوأ عاقبة، دمر الله عليهم وللكافرين أمثالهم، فيأخذوا من ذلك العظة والعبرة.

﴿كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾، أي: وكان أولئك الأقوام- الذين أهلكهم الله ودمرهم بسبب تكذيبهم رسله- أشد من مشركي قريش قوة، كما قالت عاد: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت:١٥]، وقال تعالى في وصفهم ووصف ثمود وفرعون: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾﴾ [الفجر:٦-١٠].

﴿وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾، أي: حفروا فيها الآبار، وحرثوها وقلّبوها وزرعوها، وغرسوا فيها الأشجار، واستخرجوا خيراتها ومعادنها، وغير ذلك.

﴿وَعَمَرُوهَآ﴾، أي: شيدوا عليها المباني والقصور والمصانع، وغير ذلك.

﴿أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾، أي: أكثر مما عمرها هؤلاء المشركون من أهل مكة؛ لما

أعطى الله أولئك الأمم من الشدة والقوة وطول الأعمار؛ مما لم يكن لهذه الأمة.

﴿وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ﴾، أي: بالآيات البينات، والدلائل الواضحات، والحجج الظاهرات، والبراهين القاطعات، وأنواع المعجزات، على صدقهم وصحة ما جاؤوا به من الحق، فكذبوا رسل الله فأهلكهم الله، فلم تغن عنهم شدة قوتهم، وإثارتهم الأرض، وكثرة عمرانهم لها، ولم تدفع عنهم عذاب الله.

﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ﴾ فيما أحل بهم من العذاب والنكال والهلاك، ﴿لِيَظۡلِمَهُمۡ﴾؛ اللام: للتوكيد، أي: ليهلكهم بلا سبب، وبلا جرم ارتكبوه، أي: هذا ممتنع غاية الامتناع.

﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾؛ بتكذيبهم رسل الله وكفرهم، فكان سبب إهلاكهم ظلمهم لأنفسهم.

﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾؛ قرأ نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بالرفع: «عَاقِبَةُ»: اسم «كان»، وقرأ الباقون بالنصب: ﴿عَٰقِبَةَ﴾ على أنه خبر «كان» مقدم على اسمها.

﴿ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ﴾، أي: الذين عملوا الأعمال السيئة، أي: ثم كان عاقبة المسيئين، وهم كفار قريش، ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾: مؤنث «الأسوأ»، وهي اسم «كان» مؤخر على قراءة الجمهور، أو خبرها على قراءة نافع ومن معه.

و﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾: العاقبة أو الحالة السيئة المتناهية في السوء، أي: أسوأ العواقب والأحوال، وهي تعذيبهم في الدنيا بالقتل، ومصيرهم في الآخرة إلى النار، وبئس القرار.

﴿أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الشرعية والكونية التي أنزلها على رسله وأيدهم بها، و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر بحرف جر محذوف هو الباء أو اللام، أي: بتكذيبهم، أو لتكذيبهم، أي: بسبب تكذيبهم، أو لأجل تكذيبهم بآيات الله، وكفرهم بها وجحودها، وعدم الإيمان بها وتصديقها.

﴿وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾، أي: يسخرون بها بأفعالهم وأقوالهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ۝٥﴾ [الفرقان:٥].

والاستهزاء بالآيات أشد من التكذيب؛ لأنه جامع بين التكذيب والسخرية.

ويحتمل: أن تكون ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ منصوبة مفعولًا لـ«أساؤوا»، أي: ثم كان عاقبة الذين عملوا الأعمال السيئة ﴿أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، أي: تكذيبهم بآيات الله فتكون جملة: ﴿أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ في محل جر بحرف جر محذوف، أي: بأن كذبوا بآيات الله.

فيكون المعنى: أن عملهم السوأى كان سببًا لتكذيبهم واستهزائهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام:١١٠]، وقوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ [المائدة:٤٩].

والمعنى الأول أقرب؛ وهو الظاهر.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات إعجاز القرآن الكريم والتحدي به؛ لقوله تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾﴾.

٢- هزيمة الروم في أول الأمر، وظهور الفرس عليهم باستيلائهم على أدنى أرضهم؛ لقوله تعالى: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ﴾.

٣- إخباره عز وجل بأن الروم سيغلبون في بضع سنين، ووقوع ذلك كما أخبر عز وجل، وفي ذلك إثبات علم الله بالغيب، وهو من معجزات القرآن، وفيه بشارة للمؤمنين، وتحدٍّ للمشركين وإرغام لأنوفهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ﴾.

٤- في ذكر هزيمة الروم وغَلبتهم إشارة إلى عظمة دولتهم في ذلك العهد، وفي ذكرهم دون الفرس إشارة إلى مزيتهم على الفرس؛ لأنهم أقرب إلى الحق لأنهم أهل كتاب؛ كما أن في تحاشي القرآن عن ذكر اسم الفرس إشارة إلى حقارتهم ودناءتهم؛ لما هم عليه من عبادة النار وشدة الكفر وغير ذلك.

ويظهر هذا جليًّا في موقف هرقل «الحميد» من كتاب رسول الله ﷺ ومن أصحابه(١)، وفي موقف كسرى «السيئ» الذي مزَّق كتاب رسول الله ﷺ، فدعا عليهم

(١) كما جاء في حديث أبي سفيان الطويل، الذي أخرجه البخاري في بدء الوحي ٧، ومسلم في الجهاد والسير ١٧٧٣.

رسول الله ﷺ؛ كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «أن رسول الله ﷺ بعث بكتابه رجلًا، وأمره أن يدفعه إلى عظيم البحرين، فدفعه عظيم البحرين إلى كسرى، فلما قرأه مزقه، فحسبت أن ابن المسيب قال: فدعا عليهم رسول الله ﷺ أن يمزَّقوا كل ممزَّق»(١).

٥- الرد على الجبرية الذين يقولون: لا اختيار للإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿سَيَغْلِبُونَ﴾ فنسب الغَلَب لهم.

٦- أن لله تعالى وحده الأمر والتقدير، من قبل غلبة الروم لفارس، ومن بعد غلبتهم لهم، يؤتي الملك من يشاء، وينزعه عمن يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء؛ لقوله تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾، وفي هذا الرد على القدرية الذين يزعمون استقلال العبد بفعله.

٧- فرح المؤمنين بنصر الروم على الفرس؛ لأن الروم أقرب إلى الحق؛ لأنهم أهل كتاب على دين النصارى، بخلاف الفرس فهم مجوس يعبدون النار؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾؛ كما أغاظ ذلك المشركين وأحزنهم.

٨- جواز فرح المؤمنين بانتصار بعض الكفار على بعض، إذا كان في ذلك مصلحة للإسلام والمسلمين.

٩- جواز تسمية ذلك نصرًا؛ لقوله تعالى: ﴿بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾.

١٠- أن النصر بيد الله عز وجل ينصر من يشاء بمقتضى حكمته سبحانه؛ لقوله تعالى: ﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُ﴾.

١١- إثبات المشيئة له تعالى وهي الإرادة الكونية، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن؛ لقوله تعالى: ﴿مَن يَشَآءُ﴾.

١٢- إثبات اسمين من أسماء الله عز وجل؛ وهما: «العزيز» و«الرحيم»، وصفتي العزة التامة، والرحمة الواسعة لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾؛ فبعزته عز وجل ينتقم من أعدائه، وبرحمته يرحم عباده المؤمنين.

١٣- أن ما أخبر به عز وجل عن غلبة الروم وظهورهم هو وعد الله المحقق؛ لأنه

---

(١) أخرجه البخاري في العلم ٦٤.

عز وجل لا يخلف وعده، بل وعده آتٍ وحق وصدق؛ لقوله تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾.

١٤- أن أكثر الناس لا يعلمون أن وعد الله حق، ولا ما يهتدون به إلى الحق، ولا يعلمون بواطن الأمور وعواقبها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

١٥- قصور علم الخلق، وأن أكثر الخلق إنما يعلمون ظاهرًا من الحياة الدنيا: من وجوه الكسب والصناعات، والأعمال الدنيوية، والتمتع في الدنيا وما فيها من اللذات والشهوات، ونحو ذلك، مع الجهل بباطنها وحقيقتها، وأنها مجاز إلى الآخرة، يجب أن تعمر بطاعة الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

١٦- أن العلم الحقيقي هو العلم بالله وبما يجب له، والاستعداد للقائه والدار الآخرة.

١٧- غفلة كثير من الناس عن الآخرة، وعن الاستعداد لها؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾، وفي هذا ذم لهم.

١٨- إثبات الدار الآخرة وما فيها من الحساب والجزاء على الأعمال.

١٩- أن من آثر دنياه أضر بأخراه، وخسر دينه ودنياه وأخراه، فيجب الحذر من ذلك.

٢٠- الإنكار على المشركين عدم تفكرهم بما منحهم الله من العقول والأفهام في آيات الله تعالى في خلق السموات والأرض، وفي أنفسهم، وكيفية خلقهم وأطواره وتسويته، وما منحهم الله من الحواس والقوى، وعدم استدلالهم بذلك على كمال ربوبية الله تعالى وإلهيته وقدرته التامة على البعث؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم﴾.

٢١- ينبغي أن يتفكر الإنسان في نفسه في خلق السموات والأرض، وفي خلقه، وما أعطاه الله من الحواس والقوى والقدرات البدنية والعقلية وغيرها؛ ففي ذلك أعظم العبرة لمن وفقه الله تعالى؛ كما قال تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات:٢١].

٢٢- إثبات أن الله عز وجل هو الذي خلق السموات والأرض وما بينهما من المخلوقات، وأنه ما خلقهما وما بينهما إلا بالحق الثابت والعدل ولحكمة عظيمة، وهي عبادته وذكره وشكره، ومجازاة الخلائق بأعمالهم: المحسن بالحسنى، والمسيء بعمله، ولم يخلقهما باطلًا ولا عبثًا؛ لقوله تعالى: ﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾.

٢٣- ينبغي للعاقل تدبر هذه الحكمة التي من أجلها خلق الخلق، وأن يأخذ بالجد في حياته، كما قيل:

الأمر جِدٌّ وهْو غير مزاحِ ... فاعمل لنفسك صالحًا يا صاحِ(١)

وقال الآخر:

قد رشحوك لأمرٍ لو فطِنتَ له ... فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمَلِ(٢)

٢٤- أن الله عز وجل جعل لهذه المخلوقات كلها أجلًا مسمًّى، بداية؛ حيث ابتدأها من العدم، ونهاية؛ وهو انتهاء هذه الدنيا وفناؤها، ومن ثم بَعْث الخلائق كلهم ورجوعهم إليه للحساب والجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

٢٥- أن لكل شيء نهاية وأجلًا مسمًّى، ودوام الحال من المحال، والبقاء للحي القيوم سبحانه وتعالى.

٢٦- أن أكثر الناس بلقاء ربهم كافرون، مكذبون بالبعث، منكرون للحساب والجزاء على الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾.

٢٧- لا ينبغي الاغترار بما عليه أكثر الناس، فأكثرهم على ضلال.

٢٨- إثبات البعث ولقاء الله تعالى، والحساب والجزاء.

٢٩- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّهِمْ﴾.

٣٠- الإنكار على المشركين المكذبين في عدم النظر والتأمل بما حل بالمكذبين قبلهم، وبما أخذوا به من العقوبات الشديدة، وعدم الاعتبار والاتعاظ بذلك، مع أن أولئك كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر منهم، فما نفعهم ذلك ولا دفع عنهم عذاب الله لما حل بهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾.

٣١- أن كل قوة ليست بشيء أمام قوة الله تعالى ذي القوة المتين.

---

(١) البيت لنشوان الحميري، في «معجم الأدباء» ٥/ ٥٤٩.

(٢) البيت للطغرائي. انظر: «شرح لامية العجم» ص١٢٤.

٣٢- أن إثارة الأرض وعمرانها من أسباب القوة.

٣٣- أن الله عز وجل كما أقام الحجة على المشركين المكذبين من قريش ببعثة النبي ﷺ، وإنزال القرآن عليه؛ فقد أقام الحجة على الأمم السابقة، بإرسال الرسل إليهم بالآيات البينات؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾.

٣٤- أن الله عز وجل حين عذب أولئك المكذبين لم يكن ليظلمهم، فيعذبهم بلا جرم منهم، وإنما عذبهم بسبب ظلمهم لأنفسهم بتكذيب رسلهم، والكفر بآيات الله البينات؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

٣٥- كمال عدل الله عز وجل، وأنه لا يظلم أحدًا من خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾، فنفي الظلم عنه يدل على كمال عدله؛ لأن الصفات السلبية يؤتى بها لإثبات كمال ضدها.

٣٦- أن نفس الإنسان أمانة ووديعة عنده يجب عليه أن يرعاها حق رعايتها، وينأى بها عن أسباب الهلاك، وإن لم يفعل فقد ظلمها.

٣٧- أن الإنسان بمعصيته لا يضر ولا يظلم إلا نفسه.

٣٨- إثبات الاختيار للإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ فأثبت الظلم منهم لأنفسهمن وفي هذا رد على الجبرية.

٣٩- عقوبة المسيئين بأسوأ العواقب في الدنيا والآخرة؛ بسبب تكذيبهم؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾.

٤٠- عقوبة الذين عملوا السوء بأن حملهم ذلك على التكذيب بآيات الله، والاستهزاء بها؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥]، وكانت عاقبتهم النار وبئس القرار؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ۝١٠﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْءَاخِرَةِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْءَاخِرَةِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾﴾:

قوله: ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾، أي: الله وحده الذي يبدأ الخلق، ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾، أي: ثم هو يعيده، أي: يرجعه إلى ما كان عليه بعد فنائه خلقًا جديدًا، فكما قدر على بداءته فهو على إعادته أقدر؛ كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ﴾ [الروم:٢٧]، وقال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء:١٠٤].

وقوله: ﴿يَبْدَؤُا۟﴾، ولم يقل: «بدأ»؛ لأن الخلق مستمر كل وقت، وكل آن يكون فيه ابتداءُ خلق، من الأجنة، وغير ذلك.

﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾؛ قرأ أبو عمرو وأبو بكر وروح بالغيب: ﴿يرجعون﴾.

وقرأ الباقون بالخطاب: ﴿ترجعون﴾.

أي: ثم إليه عز وجل وحده يوم القيامة تردون؛ ليحاسبكم ويجازيكم على أعمالكم، وفي هذا تنبيه على أنه إنما خلقهم؛ ليعبدوه ويجازيهم على أعمالهم، لم يخلقهم عبثًا، ولن يتركهم سدى؛ ولهذا قال:

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾، أي:ويوم تقوم القيامة، ﴿يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾، أي: ييأس المجرمون بالكفر والشرك والمعاصي، من النجاة من العذاب، ويتيقنون بأنهم صائرون إلى النار.

والإبلاس: اليأس الشديد، كما قال تعالى: ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾﴾[الروم:٤٩].

ومنه سمي «إبليس»؛ لأنه أُبلس من رحمة الله، أي: يئس من رحمة الله.

وقيل: معنى ﴿يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾، أي: يسكتون؛ لانقطاع حجتهم، ولا منافاة بين القولين، أي: ييأسون فيسكتون.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ﴾، أي: من آلهتهم الذين عبدوهم من دون الله، وأشركوهم مع الله، ﴿شُفَعَٰٓؤُا۟﴾ يشفعون لهم في دفع العذاب عنهم، أو رفعه عنهم، أو تخفيفه عنهم؛ كما كانوا يزعمون أنهم إنما يعبدونهم؛ ليتوسلوا بهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣].

﴿وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾، أي: منكرين لشركائهم، جاحدين عبادتهم إياهم، متبرئين منهم؛ فكما تبرأ شركاؤهم منهم، ولم يشفعوا لهم، كذلك هم يتبرؤون من شركائهم، ويكفرون بهم، وينكرونهم.

كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [العنكبوت:٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [القصص:٦٢- ٦٤].

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾؛ كرر لزيادة التهويل، ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ «يومئذ»: تأكيد للظرف السابق، أي: وقتئذ يتفرق الخلائق من موقف الحساب، فُرقةً لا اجتماع بعدها، فسالك طريق اليمين إلى الجنة، وإلى أعلى عليين، وهم المؤمنون؛ نسأل الله من

فضله، وسالك- نسأل الله السلامة- طريق الشمال إلى النار، وإلى أسفل سافلين، وهم الكافرون؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ۞﴾ [الزلزلة:٦]، وقال تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى:٧]؛ ولهذا قال:

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ هذه الآية والتي بعدها تفصيل وبيان للتفرق و«أما»: حرف شرط وتفصيل في الموضعين، أي: فأما الذين آمنوا بقلوبهم، وعملوا الأعمال الصالحات بجوارحهم؛ إخلاصًا لله تعالى، ومتابعة لرسوله ﷺ.

﴿فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ﴾ الفاء في الموضعين: رابطة لجواب الشرط، و«روضة»: اسم جنس، وهي مفرد روضات؛ كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [الشورى:٢٢].

قال الأعشى(١):

ما روضةٌ من رياض الحَسنِ مُعْشِبةٌ ... خضراءُ جادَ عليها مُسْبِلٌ هَطِلُ
يُضاحكُ الشمسَ منها كوكبٌ شَرِقٌ ... مؤزَّرٌ بعميمِ النَّبتِ مُكْتَهِلُ
يومًا بأطيبَ منها نَشْرَ رائحةٍ ... ولا بأحسنَ منها إذ دنا الأُصُلُ

والروضة: الأرض الطيبة المستوية التي يستقر فيها الماء مدة، ثم تعشب بعد ذلك، وتنبت مختلف النباتات، ذات الألوان البديعة، والثمار، والأزهار، والروائح الطيبة، ونحو ذلك.

﴿يُحْبَرُونَ﴾؛ الحبور: الفرح والسرور، والغبطة، أي: فهم في روضة يسرون وينعمون، ويتلذذون بما فيها مما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين؛ من المآكل والمشارب، والحور العين، والخدم والولدان، والمناظر البهيجة الخلابة والروائح الزكية، والأصوات الجميلة، بألحان الحور العين، وغير ذلك.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، أي: جحدوا ألوهية الله تعالى وحدانيته، وأنكروا نعمته.

(١) انظر: «ديوانه» ص٥٧.

﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾؛ الكونية والشرعية التي أرسلنا بها رسلنا الدالة على صدقهم وصحة ما جاؤوا به من عند الله تعالى.

﴿وَلِقَآيِٕ ٱلْأَخِرَةِ﴾، أي: وكذبوا بلقاء الآخرة، فأنكروا البعث ولقاء الله تعالى يوم القيامة، والحساب والجزاء على الأعمال، والجنة والنار.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ أشار إليهم بإشارة البعيد تحقيرًا لهم.

﴿فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾، أي: مأتيٌّ بهم إلى العذاب، مسوقون إليه، مقيمون فيه أبد الآباد، لا يغيبون عنه، ولا يخرجون منه؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ [الصافات:١٥].

قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾﴾.

قوله: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾؛ «سبحان»: مفعول مطلق منصوب بفعل محذوف، أي: سبح سبحان، أو سبحوا سبحان. وفيه تنزيه من الله عز وجل لنفسه المقدسة، وأمر لعباده أن يسبحوه، بتنزيهه عن النقائص والعيوب، وعن مماثلة المخلوقين، وبتعظيمه بعبادته بالصلاة، والذكر، والتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير وقراءة القرآن، وغير ذلك.

﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾، أي: حين حلول وقت المساء باقتراب غروب الشمس، وحلول الليل، وهذا ينتظم صلاة المغرب والعشاء، والأذكار بعدهما، وسننهما، وأذكار المساء، وقيام الليل، وغير ذلك.

﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾، أي: حين حلول وقت الصباح بطلوع الفجر، وقرب طلوع الشمس، ودخول النهار، وفيه صلاة الفجر والراتبة قبلها، والأذكار بعدها، وأذكار الصباح، وغير ذلك.

﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: وله وحده ﴿ٱلْحَمْدُ﴾، أي: الثناء التام والوصف بصفات الكمال على ما خلق في السموات والأرض، وهو وحده المحمود في السموات والأرض.

﴿وَعَشِيًّا﴾؛ العشي: ما بعد العصر، فيه صلاة العصر والأذكار بعدها، ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ بحلول وقت الظهيرة بزوال الشمس وانتصاف النهار، وفيه صلاة الظهر، والراتبتان قبلها وبعدها، والنوافل والأذكار بعدها، وغير ذلك.

﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾؛ قرأ نافع وحفص وحمزة: ﴿ٱلْمَيِّتِ﴾ بتشديد الياء، وقرأ الباقون: ﴿الميْت﴾ بالتخفيف.

وقوله: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾؛ كما في إخراج النبات من الأرض الميتة، وإخراج الزرع من الحبة، والشجرة من النواة، والفرخ من البيضة، والإنسان من النطفة.

وهذا فيما يظهر لنا أن النطفة ميتة، لكنها في المجهر، وعند التحليل تحتوي على ما لا يحصى من الحيوانات المنوية، فهي فيما يظهر ميتة وجماد، لكن باعتبار الحقيقة- والله أعلم- ليست كذلك، وهكذا البيضة.

كما أنه عز وجل يخرج الحي من الميت إخراجًا معنويًّا، بإخراج المؤمن من الكافر.

﴿وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾؛ بعكس المذكور، فيخرج الحب من النبات، والبيضة من الدجاجة، والنطفة من الإنسان؛ كما يخرج الكافر من المؤمن.

﴿وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾؛ بإنزال المطر عليها، فتهتز وتربو وتُنبت أصناف النباتات؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج:٥]، وقال تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[الروم:٢٤].

وقال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ۝٣٣ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ۝٣٤﴾ [يس:٣٣- ٣٤]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [فصلت:٣٩]، وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ [ق:٩- ١١]، وقال تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ

مَوْتِهَا﴾ [الحديد:١٧].

﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾.

لما ذكر عز وجل قدرته على إخراج الحي من الميت، وإخراج الميت من الحي، وإحياء الأرض بعد موتها، استدل بذلك على قدرته على البعث وإحياء الناس، وإخراجهم من قبورهم بعد موتهم.

قرأ حمزة والكسائي بفتح التاء: «تَخْرُجونَ»، وقرأ الباقون بضمها: ﴿تُخْرَجُونَ﴾.

والواو: عاطفة، والكاف: للتشبيه بمعنى: مثل، أي: كما قدرنا على إحياء الأرض بعد موتها، فكذلك نقدر على إخراجكم من قبوركم بعد موتكم؛ كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف:٥٧]، وقال تعالى في سورة الحج: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾﴾ [الآيتان:٦، ٧].

وقال تعالى: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الروم:٥٠]، وقال تعالى في سورة فصلت: ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الآية:٣٩]، وقال تعالى في سورة ق: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾ [الآية:١١].

الفوائد والأحكام:

١- إثبات قدرة الله تعالى التامة على إعادة الخلق كما بدأه أول مرة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾.

٢- ثبوت حدوث العالم بعد أن كان عدمًا، وفي هذا رد على الفلاسفة القائلين بقدم العالم.

٣- إثبات البعث والمعاد، ورجوع الخلائق كلهم إلى الله تعالى للحساب والجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، وقوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾، وقوله: ﴿وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾، وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾.

٤- التنبيه على أنه عز وجل إنما خلق الخلق؛ ليعبدوه، ثم يجازيهم على أعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾.

٥- يأس المجرمين يوم القيامة من النجاة، وسكوتهم وانقطاع حجتهم، وتيقنهم بمصيرهم إلى النار؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ١٢﴾.

٦- تخلي شركائهم الذين كانوا يرجون شفاعتهم عنهم، وبراءتهم منهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمۡ شُفَعَـٰٓؤُاْ﴾.

٧- كفر هؤلاء المجرمين في ذلك اليوم بشركائهم، وبراءتهم منهم حيث لا ينفعهم ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ كَـٰفِرِينَ﴾.

٨- تفرق الخلائق في ذلك اليوم حسب تفرق واختلاف أعمالهم تفرقًا لا اجتماع بعده، فسالكٌ ذات اليمين إلى الجنة- وهم المؤمنون- نسأل الله أن يجعلنا منهم وذريتنا وأزواجنا ووالدينا وأقاربنا وجميع المسلمين.

وآخذٌ ذات الشمال إلى النار- نسأل الله السلامة- وهم الكفار؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ ١٤﴾.

٩- بشارة المؤمنين بمآلهم إلى روضات الجنات يُسَرُّون فيها، ويتنعمون فيها بألوان النعيم، وأصناف اللذات مما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين، ويطرب الأسماع؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَٰتِ فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ ١٥﴾.

١٠- لا بد من الجمع بين إيمان القلب، وعمل الأعمال الصالحة بالجوارح؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَٰتِ﴾.

١١- لا بد من كون العمل صالحًا؛ خالصًا لله تعالى، موافقًا لشرعه وسنة نبيه ﷺ.

١٢- أن الجنات روضات معشبات، فيها أنواع النبات والثمار والزهور، وتمام الحبور والسرور.

١٣- الترغيب في الإيمان والعمل الصالح.

١٤- الوعيد والتهديد للكافرين المكذبين بآيات الله ولقائه، والمعاد والحساب، والجزاء على الأعمال، بإحضارهم في العذاب قسرًا، وخلودهم فيه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلۡأٓخِرَةِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ١٦﴾.

١٥- جمع القرآن بين الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب.

١٦- تقديم الوعد على الوعيد، والترغيب على الترهيب؛ لأن رحمة الله تعالى سبقت غضبه.

١٧- تسبيح الله تعالى وتنزيهه لنفسه المقدسة، وأمره عباده أن يسبحوه ويحمدوه ويعظموه، بأداء الصلوات الخمس في أوقاتها، والرواتب والنوافل، وبالأذكار من التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير وقراءة القرآن، وغير ذلك في جميع الأوقات؛ لقوله تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾﴾.

١٨- أن لله عز وجل وحده الحمد والثناء التام، والوصف بصفات الكمال على كل ما خلق في السموات والأرض، وفي جميع الأماكن والأوقات على الدوام؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾﴾.

١٩- بيان أوقات الصلوات الخمس مفصلة، وأوقات الأذكار، وحكمة الله تعالى في ذلك.

٢٠- كمال قدرة الله تعالى؛ حيث يخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي، ويحيي الأرض بالنبات بعد موتها؛ لقوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾.

٢١- الاستدلال بذلك على إثبات تمام قدرته عز وجل على إحياء الموتى، وإخراجهم من قبورهم، للحساب والجزاء على الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾:

هذا شروع في ذكر عدد من أدلة وحدانيته عز وجل، وتمام قدرته ونعمته، وكمال عظمته، وتفرده بالإلهية، وأنه لا رب غيره، ولا معبود بحق سواه.

قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾، أي: ومن آياته الدالة على كمال عظمته، وتمام قدرته ووحدانيته في ربوبيته وإلهيته، وقدرته على البعث: ﴿أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ بخلق أبيكم آدم من تراب، الذي هو أصلكم، ومنه تفرعتم وتناسلتم.

و«أنْ» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل رفع مبتدأ مؤخر، أي: ومن آياته خلقُكم من تراب.

﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾، أي: تتكاثرون وتتوالدون وتنتشرون في الأرض.

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾﴾ [المؤمنون:١٢، ١٣].

وعن أبي موسى، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، جاء منهم الأبيض والأحمر والأسود، وبين ذلك، والخبيث والطيب، والسهل والحزن، وبين ذلك**»(١).

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾، أي: أن خلق لكم من جنسكم أزواجًا.

﴿لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا﴾؛ اللام: للتعليل، أي: لأجل أن تسكنوا إليها، وتأنسوا بها؛ كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف:١٨٩].

فلو كانت الأزواج من جنس آخر غير بني آدم، إما من الجان، أو حيوان آخر، لم يسكنوا إليها، ولم يأنسوا بها، ولم يحصل الائتلاف بينهم.

﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم﴾، أي: وصير بينكم وبين أزواجكم، ﴿مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾، أي: محبة ورأفة وتعاطفًا وألفة.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾؛ الإشارة إلى خلق أبيهم من تراب، وانتشارهم وتفرعهم منه بشرًا ينتشرون في الأرض، وإلى خلقه لهم من أنفسهم أزواجًا، وجعله بينهم مودة ورحمة.

﴿لَءَايَٰتٍ﴾؛ اللام: للتوكيد في المواضع الأربعة، أي: لَدلائلُ على كمال قدرة الله تعالى ووحدانيته وعظمته وحكمته، وعنايته بعباده، ورحمته بهم.

﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، أي: لقوم يُعمِلون أفكارهم وعقولهم، ويتدبرون آيات الله، ويتأملونها، ويتفكرون في عظيم خلق الله وحكمته ورحمته وغير ذلك.

وخصهم دون غيرهم؛ لأنهم هم الذين ينتفعون بأفكارهم وعقولهم، ويهتدون بها إلى الحق؛ بخلاف غيرهم، فهم كالبهائم، بل هم أضل سبيلًا.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ

---

(١) أخرجه أبو داود في السنة، باب القدر ٤٦٩٣، والترمذي في تفسير سورة البقرة ٣٩٥٥، وأحمد ٤/ ٤٠٠، ٤٠٦، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

﴿وَأَلْوَٰنِكُمْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلْعَٰلِمِينَ ٢٢ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوْمٖ يَسْمَعُونَ ٢٣﴾:

قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: إيجادهما وما فيهما من المخلوقات وما بينهما، بتقدير ونظام بديع.

﴿وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْۚ﴾، أي: ومن آياته اختلاف ألسنتكم وألوانكم، أي: تغاير لغاتكم وتمايزها، فهذا يتكلم بالعربية، وهذا بالعجمية، وهذا بالحبشية، وهذا بالرومية، وهذا بالكردية، وهذا بالفارسية، وهذا بالهندية، وهذا بالأرمنية، إلى ما لا يحصى من اللغات.

وأيضًا: اختلاف ألسنتكم وتباينكم في النطق مع أن الأصل واحد، ومخارج الحروف واحدة، ومع ذلك لا تكاد تجد صوتين متطابقين من كل وجه، مهما تقاربت الأصوات، واختلاف ألسنتهم فصاحة وبلاغة، وعِيًّا، واختلاف لهجاتهم وغير ذلك.

ومن أعجب ذلك وأدقه أن الإنسان ينطق بخروج الهواء من الرئتين، ثم مروره بمخارج الحروف، كلما مرّ على مخرج تغيّر، والهواء واحد، فإذا مرّ على مخرج الصاد صار صادًا، وإذا مرّ على مخرج الدال صار دالًا، وإذا مرّ على مخرج القاف صار قافًا.

﴿وَأَلْوَٰنِكُمْۚ﴾، أي: واختلاف ألوانكم، فهذا أبيض، وهذا أسود، وهذا أحمر، وهذا بين ذلك، وهذا طويل، وهذا قصير، وهذا ثخين، وهذا نحيف، وهذا جميل، وهذا دميم، وهذا بين ذلك، إلى غير ذلك، فلا تكاد تجد شخصين يشبه أحدهما الآخر من كل وجه مهما تقاربت صفاتهما، مع أن أصل خلقتهم جميعًا واحد، فأبوهم آدم وأمهم حواء عليهما السلام.

واكتفى بذكر الاختلاف في الألسن والألوان، دون ذكر الاختلاف بكبر أجسامهم وصغرها ونحو ذلك؛ لأن القدرة على خلقهم باختلاف ألسنتهم وألوانهم أبلغ في القدرة، فالقدرة على غيره من باب أولى.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾، أي: في خلق السموات والأرض، واختلاف ألسنة بني آدم وألوانهم.

﴿لَأٓيَٰتٖ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾؛ قرأ حفص بكسر اللام: ﴿لِلْعَالِمِينَ﴾، وقرأ الباقون بفتحها:

«لِلْعَالِمِينَ».

أي: إن في ذلك لدلائل على عظيم قدرة الله تعالى ووحدانيته، وعنايته بعباده ورحمته بهم في إيجاد هذه المخلوقات العظيمة، وتقدير الاختلاف بينهم في ألسنتهم وألوانهم؛ لئلا يقع التشابه، فيحصل الاضطراب ويفوت كثير من المقاصد والمطالب.

والمراد بالعالِمين: ذوو العلم والفهم والبصيرة، الذين يفهمون العبر ويتدبرون الآيات؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٣].

وعلى القراءة بفتح اللام وكسرها يكون المعنى: إن في ذلك لآيات لجميع الخلق، وبخاصة أهل العلم الذين يتدبرون ويتأملون. ويكون في الآية ترغيب في التأمل في الآيات.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾، أي: ما جعل لكم من صفة النوم بالليل والنهار الذي تحصل فيه الراحة وسكون الحركة، وذهاب الكلل والتعب.

وقدم الليل؛ لأن الليل هو وقت النوم في الأصل، والنوم فيه أنفع، ولا يعوضه نوم النهار مهما طال وقته.

﴿وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾، أي: طلبكم الرزق في النهار والليل من فضل الله عز وجل وعطائه.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾، أي: في منامكم بالليل، وطلبكم الرزق في النهار من فضله عز وجل دلائل على كمال قدرة الله تعالى ووحدانيته، ورحمته بكم؛ كما قال تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [القصص:٧٣].

وخص طلب الرزق في النهار لأنه هو الأصل؛ لأنه وقت الحركة والعمل.

وفي استعمال أسلوب اللف والنشر في الآية هنا، وفي آية سورة القصص ما يشير إلى أن الأولى أن يكون النوم بالليل، وطلب الرزق بالنهار، وفقًا للفطرة التي فطر الله الخلق عليها، وأنه لا بأس أن يكون النوم في النهار، وطلب الرزق في الليل خصوصًا عند الحاجة إلى ذلك.

﴿لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾؛ سماع تدبر وفهم وانتفاع بما في الآيات من المعاني والدلائل

والعبر.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾﴾:

قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾، أي: ومن آياته الدالة على كمال قدرته ووحدانيته ورحمته إراءتكم البرق، وهو النور الذي يسطع في السحاب ﴿خَوْفًا﴾؛ منصوب على المفعول لأجله، أي: إخافة أو تخويفًا لكم من خطف البرق لأبصاركم، ومن الصواعق، ومن أن يكون أرسل عقوبة.

﴿وَطَمَعًا﴾ معطوف على ﴿خَوْفًا﴾، أي: وإطماعًا لكم في الغيث والمطر.

﴿وَيُنَزِّلُ﴾ شيئًا فشيئًا، ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، أي: من السحاب الذي في العلو ﴿مَآءً﴾؛ وهو المطر العذب الزلال.

﴿فَيُحْيِۦ بِهِ﴾، أي: بسببه ﴿ٱلْأَرْضَ﴾ بأنواع النباتات والأشجار والثمرات.

﴿بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾، أي: بعد أن كانت ميتة هامدة يابسة، لا نبات فيها ولا شيء؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج:٥]، وقال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [يس:٣٣- ٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [فصلت:٣٩].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾، أي: في كونه يريكم البرق خوفًا وطمعًا، وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها.

﴿لَءَايَٰتٍ﴾، أي: لَدلائل على عظمة الله ووحدانيته ونعمته ورحمته.

﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، أي: يتدبرون ويتفهمون بعقولهم وينتفعون بها، فيستدلون بهذه الآيات على تمام قدرة الله عز وجل ووحدانيته ورحمته وعظيم نعمته عليهم.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾، أي: ومن آياته قيام السماء والأرض بأمره، أي: استقرارهما وثباتها وبقاؤهما البقاء الكامل الدائم، فلا تزولان، ولا تتزلزلان، ولا تسقط السماء على الأرض، ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾، أي: بأمره الكوني القدري، وتسخيره إياهما.

كما قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ [فاطر:٤١]، وقال تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ [الحج:٦٥].

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا اجتهد في اليمين يقول: «لا والذي تقوم السماء والأرض بأمره»(١).

فالسماء والأرض قائمة بأمره عز وجل الكوني، وتسخيره، فإذا كان يوم القيامة بدلت الأرض غير الأرض والسموات، وبرز الخلائق من قبورهم للحساب؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾ [إبراهيم:٤٨]؛ ولهذا قال هنا:

﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً﴾ «دعوة»: مفعول مطلق منصوب، ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ متعلق بـ«دعاكم»، أي: ثم إذا دعاكم عز وجل دعوة واحدة وأنتم في الأرض.

﴿إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ «إذا»: فجائية، أي: إذا أنتم تخرجون فجأة وبسرعة من قبوركم أحياء، وتتجهون لموقف الحساب؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾ [الإسراء:٥٢]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾ [النازعات:١٣- ١٤].

وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزمر:٦٨]، وقال تعالى:

---

(١) «تفسير ابن كثير» ٦/ ٣١٧.

﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [يس:٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾[القمر:٥٠].

قوله تعالى: ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

لما ذكر عز وجل آياته في خلقه، ودلائل قدرته ووحدانيته ونعمه عليهم، أتبع ذلك ببيان أن الخلق كلهم ملك له، منقادون لأمره، خاضعون له.

قوله: ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، أي: وله عز وجل وحده كل الذي في السموات والأرض من المخلوقات؛ خلقًا وملكًا وتدبيرًا.

﴿كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾، أي: كل من في السموات والأرض له وحده قانتون، أي: مطيعون منقادون لأمره الكوني، خاضعون له على الدوام.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾:

قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾؛ كرر هذا اهتمامًا وتأكيدًا لقوله: ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾ [الروم:١١]، وليبني عليه قوله: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾، أي: وإعادة الخلق أهون عليه، وهذا بالنسبة للأذهان والعقول، وإلا فإنه سبحانه وتعالى ليس هناك شيء غير هيِّن عليه، بل كل شيء هين عليه؛ بدء الخلق وإعادته، وغير ذلك؛ لأنه لا يعجزه شيء، فاسم التفضيل «أهون» في حقه تعالى بمعنى «هيِّن».

وإنما قال: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ للرد على المشركين المنكرين للمعاد مع إقرارهم بابتدائه الخلق، أي: إذا كان قادرًا على الابتداء الذي تقرون به فقدرته على الإعادة أولى وأحرى؛ لأنها أهون.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «**قال الله: كذبني ابن آدم، ولم يكن له ذلك، وشتمني، ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي: فقوله: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته، وأما شتمه إياي: فقوله:** ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾،

وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد»(١).

﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: وله عز وجل وحده الصفة العليا في السموات والأرض، أي: أن كل صفة كمال فله عز وجل أعلاها وأكملها، وكل صفة نقص فهو منزه عنها؛ كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

وبهذا نعلم أن كل ما وصف الله به نفسه فهو صفة كمال، وأن كل صفة كمال فالله مستحق لها، وأهل لها، وأولى بها، وأن كل صفة نقص فالله منزه عنها.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾؛ «العزيز» و«الحكيم» من أسمائه عز وجل، أي: ذو العزة التامة، والحكم التام، والحكمة البالغة.

الفوائد والأحكام:

١ - أن من آيات الله عز وجل الدالة على عظمته وكمال قدرته ووحدانيته وقدرته على البعث: أن خلق آدم أبا البشر من تراب، ثم تفرعوا منه وانتشروا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

٢- أن أصل خلق البشر كلهم واحد، خلقهم الله من التراب بخلق أبيهم من ذلك، مما يوجب عليهم أن يؤدي بعضهم حق بعض، وألا يفخر أحد على أحد؛ كما قال ﷺ: «**يا أيها الناس، ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى، أبلغت؟**» قالوا: بلغ رسول الله ﷺ(٢).

٣- إبطال نظرية دارون- «نظرية النشوء والتطور»- التي يزعم فيها أن أصل الإنسان كان حشرة، ثم قردًا، ثم تطور بطول الزمن فصار إنسانًا. فالإنسان خلقه الله من التراب وسواه بشرًا سويًّا منذ خلقه.

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الإخلاص ٤٩٧٤، والنسائي في الجنائز ٢٠٧٨، وأحمد ٢/ ٣٥٠.

(٢) أخرجه أحمد ٥/ ٤١١، من حديث أبي نضرة:حدثني من سمع خطبة رسول الله ﷺ في وسط أيام التشريق.

٤- أن من آيات الله تعالى وحكمته، ونعمته على العباد، ورحمته بهم وعنايته: أن خلق لهم من جنسهم أزواجًا ليطمئنوا إليها، ويأنسوا بها، وجعل بينهم مودة ورحمة؛ لتتم الألفة بينهم، ويسعدوا في حياتهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾.

٥- أنه لو كان الأزواج من غير جنس بني آدم، كأن يكنَّ من الجان أو حيوان آخر؛ ما سكن الأزواج بعضهم لبعض، وما أنس بعضهم ببعض، وما حصلت بينهم مودة ورحمة.

٦- أنه إنما ينتفع بالآيات في خلقه عز وجل آدم من تراب، وانتشار البشر من ذريته، وفي خلقه لهم من جنسهم أزواجًا؛ ليسكنوا إليها، وجعل المودة والرحمة بينهم: أهل التفكر، الذين يُعملون أفكارهم في آيات الله تعالى وينتفعون بها؛ لقوله تعالى: ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، وفي هذا ترغيب وحث على التفكر في آيات الله.

٧- أن من أعظم آيات الله تعالى، ودلائل كمال قدرته ووحدانيته لذوي العلم والفهم والبصيرة وللخلق جميعًا: خلق السموات والأرض، واختلاف ألسنة الخلق وألوانهم وأشكالهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

٨- فضيلة العلم وأهله، والحث على التدبر في آيات الله.

٩- أن من آيات الله الدالة على كمال قدرته ومنته على العباد لمن يسمع الآيات سماع تدبر وفهم وانتفاع: جعل النوم في الليل فيه الراحة لهم، وسكون الحركة، وذهاب التعب، وجعل النهار يبتغون فيه الرزق من فضل الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

١٠- جواز النوم نهارًا وطلب الرزق ليلًا، وبخاصة عند الحاجة.

١١- أن الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وكذا البهائم والطيور وغير ذلك: كون النوم في الليل، وطلب الرزق والمعاش في النهار. وعكس ذلك تبديل للفطرة.

١٢- مشروعية طلب الرزق من الله تعالى، والسعي في ذلك، ووجوب الاستغناء عن الناس.

١٣- أن من آيات الله، ودلائل كمال قدرته ونعمته لذوي العقول، الذين يتأملون بعقولهم في الآيات وينتفعون بها: أنه عز وجل يُري العبادَ البرقَ خوفًا وطمعًا، وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

١٤- إثبات تمام قدرته تعالى على البعث؛ لإحيائه الأرض بعد موتها.

١٥- أنه لا ينتفع بالآيات عمومًا إلا الذين يتفكرون فيها من ذوي العلم والفهم والبصيرة، ويسمعونها سماع تدبر وفهم، ويتأملونها بعقولهم.

١٦- أن من آيات الله تعالى الدالة على كمال ربوبيته وإلهيته وعظمته: قيام السماء والأرض، وثباتهما واستقرارهما، وديمومتهما بأمره الكوني؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ﴾.

١٧- إثبات الكلام لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿بِأَمْرِهِۦ ۚ﴾، وقوله: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾.

١٨- إثبات بعث الخلائق، وإخراجهم من قبورهم بدعوته عز وجل إياهم دعوة واحدة؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾.

١٩- عموم ملك الله، وسعته، وأن له عز وجل وحده كل ما في السموات والأرض من المخلوقات؛ خلقًا وملكًا وتدبيرًا، مطيعون له، منقادون لأمره الكوني على الدوام؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

٢٠- تفرده عز وجل وحده ببدء الخلق ثم إعادته؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾.

٢١- أن الخلق حادث بعد أن لم يكن؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾، وفي هذا رد على الفلاسفة القائلين بقدم العالم.

٢٢- أن إعادته عز وجل للخلق أهون عليه من بداءته؛ لأنه لا يعجزه شيء، ولأنه لما قدر على بدئه فقدرته على إعادته أولى وأحرى؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ﴾.

٢٣- أن لله عز وجل المثل الأعلى، والوصف الأتم الأكمل في السموات والأرض وأن كل كمال فهو أولى به، وله أكمله، وأن كل نقص فهو منزه عنه، وفي هذا رد على من ينكرون صفات الله تعالى من المعطلة والجهمية والمعتزلة وغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

٢٤- أن كل صفة وصف الله بها نفسه فهي صفة كمال.

٢٥- إثبات اسمي الله عز وجل: «العزيز»، و«الحكيم»، وصفة العزة التامة، والحكم التام، والحكمة البالغة له سبحانه؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

٢٦- في اقتران اسميه: «العزيز» و«الحكيم» وصفة العزة التامة، والحكم التام، والحكمة البالغة، في حقه عز وجل كمال إلى كمال.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ * مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾:

قوله: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا﴾؛ الخطاب للمشركين الذين عبدوا مع الله غيره، وضرب المثل تشبيه أمرٍ معنوي معقول بأمر محسوس؛ لتقريب فهم المعقول. وقد يكون بتشبيه أمر معنوي بأمر معنوي أظهر منه، أو بتشبيه أمر حسي بأمر حسي أوضح منه.

والمثل: الشَّبه، أي: ضرب لكم مثلًا؛ لبيان بطلان ما أنتم عليه من الشرك بالله.

﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، أي: من ذات أنفسكم وأحوالكم، تشهدونه وتفهمونه.

﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم﴾؛ الاستفهام: للإنكار والنفي، و«ما»: موصولة، أي: هل لكم من الذي ملكته أيمانكم من العبيد والإماء، أي: من الذين ملكتموهم ﴿مِّن شُرَكَاءَ﴾؛ «من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة- من حيث المعنى- لعموم النفي، أي: من أيِّ شركاء.

﴿فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾، أي: في الذي رزقناكم من الأموال، وغير ذلك.

﴿فَأَنتُمْ فِيهِ﴾، أي: فأنتم ومماليككم في الذي رزقناكم ﴿سَوَاءٌ﴾، أي: شركاء متساوون في التصرف فيه من غير مزية، أي: فهل أنتم ومماليككم سواء فيما رزقناكم؟

﴿تَخَافُونَهُمْ﴾، أي: تخافون هؤلاء المماليك أن ينازعوكم في قسمة ذلك الرزق.

﴿كَخِيفَتِكُمْ﴾؛ الكاف: للتشبيه، أي: كخوفكم من ﴿أَنفُسَكُمْ﴾، أي: كخوفكم من منازعة الشركاء الأحرار مثلكم.

أي: ليس الأمر كذلك، فليس لكم مما ملكت أيمانكم أيّ شركاء فيما رزقناكم تستوون أنتم وهم فيه، بل أنتم تأنفون من أن يكون مماليككم شركاء لكم في رزقكم، ولا ترضون بذلك مع أنكم لستم الذين خلقتموهم، بل أنتم وهم مخلوقون لله، مملوكون مربوبون له، فكيف ترضون أن تجعلوا لله شركاء من مماليكه وخلقه، تجعلونهم أندادًا له في العبادة، وأنتم لا ترضون مشاركة مماليككم لكم في رزقكم، ولا مساواتهم لكم في ذلك؟!

﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾، أي: مثلَ هذا التفصيل نفصل ونبين الآيات والأدلة والبراهين ونوضحها.

﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، أي: لقوم يتفكرون بعقولهم، ويتأملون في الآيات، وينتفعون بها ويتدبرون؛ بخلاف من عداهم ممن قال الله فيهم: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف:١٧٩].

قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

لما بيّن بطلان ما هم عليه من الشرك، وأظهر سفاهة عقولهم في اتخاذ شركاء لله من خلقه، أتبع ذلك بيان أن الذي حملهم على ذلك هو اتباع الهوى بغير علم.

قوله: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ﴾ «بل»: للإضراب الانتقالي، ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾؛ بالشرك والكفر والتكذيب للنبي ﷺ وإنكار البعث ﴿أَهْوَآءَهُم﴾، أي: ما تهواه وتميل إليه نفوسهم الأمارة بالسوء، ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، أي: بغير هدى، ولا يقين، ولا برهان، بل جهلًا وسفهًا منهم.

﴿فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾؛ الفاء: عاطفة، والاستفهام للنفي، أي: لا أحد يهدي من أضل الله، أي: من كتب الله عليه الضلالة كونًا وقدرًا، فلا عجب من عدم هدايتهم؛ لأن الله أضلهم بسبب ظلمهم؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ

قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥].

﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾؛ ينصرونهم من دون الله، ويدفعون عنهم عذاب الله، حين تحق عليهم كلمة العذاب، وتتقطع بهم الأسباب.

و«من»: زائدة؛ لتأكيد عموم النفي، أي: وما لهم أيّ ناصر ينصرهم.

قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ * مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾:

لما بيّن عز وجل اتباع الظالمين أهواءهم فيما هم عليه من الشرك وغيره، بغير علم؛ وأنه لا ناصر لهم يدفع عنهم عذاب الله، أمر النبي ﷺ بالاستقامة على دين الله، وهو أمر له ولأمته.

قوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾، أي: وجِّهْ وجهك والخطاب للنبي ﷺ ولأمته؛ لأن لهم به أسوة؛ ولهذا قال بعد ذلك: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ﴾ بالجمع.

﴿لِلدِّينِ﴾، أي: لدين الإسلام، أي: توجه إليه بكليتك، بقلبك وقالبك، وقصدك وبدنك؛ مخلصًا لله، متبعًا لشرعه.

﴿حَنِيفًا﴾؛ مستقيمًا على التوحيد، مائلًا عن الشرك، مخلصًا لله تعالى، معرضًا عما سواه. وفي هذا تسلية له ﷺ، وتثبيت لقلبه، أي: استمر على ذلك، ولا تبالهم.

كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾ [آل عمران:٢٠]، وقال تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ [هود:١١٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف:١٠٨].

﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾؛ «فطرة»: مفعول به منصوب لفعل محذوف على الإغراء، أي: الزموا فطرة الله، ﴿ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾؛ الاسم الموصول في محل نصب صفة لـ«فطرة»، أي: التي خلق الله الناس وطبعهم عليها، وهي معرفته وتوحيده ودينه

الحنيف، حيث فطر الله الناس وخلقهم على الإقرار بالخالق وتوحيده والتوجه إليه؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ [الأعراف:١٧٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال النبي ﷺ: «**كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه**»(١).

وعن جابر بن عبدالله رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه، فإذا عبر عنه لسانه، إما شاكرًا وإما كفورًا**»(٢).

قال ابن القيم: «فبين سبحانه أن إقامة الوجه، وهو إخلاص القصد، وبذل الوسع لدينه، المتضمن محبته وعبادته حنيفًا مقبلًا عليه، معرضًا عما سواه، هو فطرته التي فطر الله عباده عليها، فلو خُلُّوا ودواعي فِطَرهم لما رغبوا عن ذلك، ولا اختاروا سواه، ولكن غُيِّرت الفِطَر وأُفْسِدت»(٣).

﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾؛ الجملة خبرية مبيِّنة لمعنى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾، أي: لا تبديل لدين الله، فهو الدين الحنيف الذي فطر الله الناس كلهم وخلقهم وطبعهم وجبلهم عليه، فلا تبديل له.

ويجوز كون الجملة خبرًا بمعنى الطلب، أي: لا تبدلوا خلق الله، أي: لا تبدلوا دين الله وما فطركم عليه، من التوحيد إلى الشرك، ولا تغيروا ما خلق الله عليه أبدانكم؛ كما قال تعالى عن الشيطان: ﴿وَلَأٓمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾ [النساء:١١٩].

وعن عياض بن حمار رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ خطب ذات يوم فقال في خطبته: «**إن ربي عز وجل أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني في يومي هذا: كل مال نحلته عبادي حلال، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم**

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز ١٣٨٥، ومسلم في القدر ٢٦٥٨، وأبو داود في السنة ٤٧١٤، والترمذي في القدر ٢١٣٨.

(٢) أخرجه أحمد ٣/ ٣٥٣.

(٣) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٣٩١.

عن دينهم، وحرَّمَتْ عليهم ما أحللتُ لهم، وأمَرَتْهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانًا»(١).

﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾، أي: إقامة وجهك للدين حنيفا هو الدين القيم، الذي أمرناك به، والذي فطر الله الناس عليه، أي: الدين القيم، الكامل في قيامه، العدل المستقيم، الذي لا اعوجاج فيه، ولا نقص، وهو عبادة الله تعالى وحده والإخلاص له، المتضمن للإحسان في عبادة الله تعالى إخلاصًا له، ومتابعة لشرعه، والإحسان إلى خلقه بأداء حقوقهم الواجبة والمستحبة.

كما قال تعالى: ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [يوسف:٤٠]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا﴾ [الأنعام:١٦١]، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ﴾ [الأنعام:١٥٣]، وقال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾﴾ [الكهف:١].

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي: لا يعلمون العلم الذي ينفعهم في دينهم، ويسعدهم في دنياهم وأخرهم، وهو معرفة الله تعالى، وما يجب له، والاهتداء إلى الصراط المستقيم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف:١٠٣].

﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ حال، أي: حال كونكم منيبين إليه، أي: راجعين إلى الله تعالى بالتوبة وإخلاص التوحيد له بقلوبكم.

وهذا تفسير وبيان لقوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ﴾، وأن الخطاب في هذا له ﷺ وللمؤمنين.

﴿وَٱتَّقُوهُ﴾؛ بجوارحكم بفعل المأمورات، وترك المنهيات، وخافوه وراقبوه.

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾؛ هذا من ذكر الخاص بعد العام، فأمر عز وجل بتقواه، وهي: فعل ما أمر الله به، وترك ما نهى الله عنه، ثم أمر

---

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٦٥.

بإقام الصلاة؛ لأنها أعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين، وأعظم العبادات، وهي سبب للتوفيق وصلاح بقية الأعمال؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُۗ﴾ [العنكبوت:٤٥]، ونهى عن الشرك به؛ لأنه أعظم الذنوب.

مر عمر بن الخطاب بمعاذ بن جبل رضي الله عنهما، فقال: «ما قوام هذا الأمر؟ قال معاذ: ثلاث، وهن المنجيات: الإخلاص، وهو الفطرة ﴿ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ﴾، والصلاة، وهي الملة، والطاعة، وهي العصمة. فقال عمر: صدقت»(١).

﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ﴾ بدل من قوله: ﴿مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، أي: من الذين فرقوا دينهم، فآمنوا ببعض وكفروا ببعض، وتفرقوا فيه، فمنهم من يعبد الأوثان والأصنام، ومنهم من يعبد الشمس والقمر، ومنهم من يعبد الأولياء والصالحين، ومنهم من يعبد الملائكة، ومنهم من يعبد الجن، ومنهم من يعبد شجرًا، ومنهم من يعبد حجرًا، وغير ذلك.

﴿وَكَانُوا۟ شِيَعًاۖ﴾، أي: فرقًا، وأحزابًا، وجماعات.

﴿كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾، أي: كل حزب منهم، أي: كل طائفة بالذي عندهم وما هم عليه من الباطل ﴿فَرِحُونَ﴾ فَرَحَ تعصب ومنابذة لغيرهم، يرون أن ما هم عليه هو الحق، وأن ما عداهم على الباطل؛ ولهذا توعدهم الله تعالى في الآية الأخرى، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الأنعام:١٥٩].

وفي هذا تحذير للمسلمين من التفرق بطريق التعريض؛ كما قال تعالى: ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِۚ﴾ [الشورى:١٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُۚ﴾ [آل عمران:١٠٥].

وقال ﷺ: «**افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على**

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٨/ ٤٩٣-٤٩٤، وانظر «تفسير ابن كثير» ٦/ ٣٢٣.

اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة». قالوا: ومن هم يا رسول الله؟ قال: «**ما أنا عليه وأصحابي**»(١).

الفوائد والأحكام:

١- ضرب الأمثال في القرآن؛ لتقريب المعاني، وزيادة الإيضاح والبيان، وإقامة الحجة؛ نعمة من الله تعالى ورحمة للعباد؛ لقوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾.

٢- ضربه عز وجل للمشركين الذين عبدوا مع الله غيره مثلًا من أنفسهم؛ لبيان بطلان ما هم عليه من جعل شركاء له من خلقه؛ إذ كيف يشركون مع الله بعض مخلوقاته وعبيده، وهم لا يقبلون أن يكون لهم شركاء من مماليكهم فيما رزقهم الله، يساوونهم فيه، يخافون منازعتهم لهم في القسمة؛ كخوفهم من الشركاء من أنفسهم، أي: الأحرار مثلهم؟ لقوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾.

٣- بلاغة القرآن الكريم بضرب الأمثال؛ لتقريب المعاني؛ ولهذا امتن عز وجل على العباد بضربها، فقال: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٣].

٤- تسفيه عقول المشركين، وإظهار عتوّهم وعنادهم ومكابرتهم.

٥- أن ضرب المثل من ذات نفس الشخص وأحواله أقرب للفهم، وأقوى للحجة.

٦- إثبات ملك اليمين؛ لقوله تعالى: ﴿مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم﴾.

٧- أن الرزاق هو الله تعالى وحده؛ لقوله تعالى: ﴿فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾.

٨- أن المماليك لا يَملِكون؛ لأنه إذا انتفت مشاركتهم لأسيادهم في أموالهم،

(١) أخرجه أبو داود في السنة ٤٥٩٦، والترمذي في الإيمان، افتراق هذه الأمة ٢٦٤٠، وابن ماجه في الفتن، افتراق الأمة ٣٩٩١-٣٩٩٣، وأحمد ٢/ ٣٣٢؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرجه أيضًا ٣/ ١٢٠؛ من حديث أنس رضي الله عنه.

فانتفاء انفرادهم بالملك من باب أولى.

٩- أن هؤلاء كما أنهم لا يقبلون مشاركة مماليكهم ومساواتهم لهم فيما رزقهم الله؛ فإنه لو كان لهم شركاء في أموالهم من أنفسهم، أي: شركاء أحرار مثلهم لخافوا منازعتهم قسمتها؛ لقوله تعالى: ﴿كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾.

١٠- أنه عز وجل كما فصل هذه الآيات، فصل غيرها من آيات القرآن الكريم، لمن يتدبرون ويتأملون بعقولهم، إيضاحًا للمحجة، وإقامة للحجة؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

١١- أنه لا يستفيد من تفصيل الآيات، ويهتدي بها إلا أصحاب العقول النيرة، الذين ينتفعون بعقولهم بالنظر في الآيات؛ لهذا خصهم بقوله: ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

١٢- اتباع الظالمين من أهل الشرك والكفر والمعاصي ما تهواه أنفسهم بغير علم ولا هدى ولا برهان؛ لقوله تعالى: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

١٣- أن من لم ينتفع بعلمه في معرفة ما يجب عليه لربه فليس بعالم، وإن حوى علوم الدنيا كلها، بل هو أجهل من حمار أهله.

١٤- ينبغي الحذر من اتباع الهوى؛ لأنه مُردٍ ومهلك.

١٥- من يضلل الله فلا هادي له؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾. وفي هذا رد على القدرية، وإثبات أن فعل العبد بتقدير الله تعالى.

١٦- أنه لا ناصر للظالمين المتبعين لأهوائهم بغير علم؛ يدفع عنهم العذاب عند حلوله بهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾.

١٧- أمر الله عز وجل لنبيه ﷺ بإقامة وجهه للدين مستقيمًا على التوحيد، مائلًا عن الشرك، متوجهًا إلى الله عز وجل بقلبه وبدنه، مخلصًا له، معرضًا عما سواه، وهو أمر له ولأمته؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾، وفي هذا تثبيت له، وتقوية لقلبه، وتعريض له بعدم المبالاة بمن خالفه.

١٨- وجوب الإخلاص لله تعالى بعبادته وحده، والبعد عن الشرك.

١٩- أن الاستسلام لله تعالى، والانقياد له، وتوحيده، هو فطرة الله تعالى السوية، التي فطر الله الناس وخلقهم وطبّعهم عليها؛ لقوله تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ

ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ﴾. كما قال ﷺ: «**كل مولود يولد على الفطرة**»(١).

٢٠- إثبات أن الخلق لله، وأنه هو الخالق وحده.

٢١- لا تبديل لدين الله؛ فهو الدين الحنيف الذي فطر الله الناس وطبعهم عليه، ولا يجوز تبديل ما فطر الله الناس عليه من التوحيد إلى الشرك؛ كما لا يجوز تغيير خلق الله في الأبدان؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ﴾.

٢٢- أن الدين الحنيف الذي فطر الله الناس عليه- وهو توحيد الله والإخلاص له- هو الدين القيّم الذي لا اعوجاج فيه، ولا نقص، وهو الذي أمر الله به الناس وفطرهم عليه.

٢٣- أن أكثر الناس لا يعلمون العلم الذي ينفعهم في دينهم، ويسعدهم في دنياهم وأخراهم، وهو معرفة الله وما يجب له، والاهتداء إلى الصراط المستقيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾، فلا يغتر بالكثرة، وما عليه الأكثرون.

٢٤- وجوب الإنابة إلى الله تعالى وتقواه، باطنًا وظاهرًا بالقلوب والجوارح؛ بفعل الأوامر وترك النواهي؛ لقوله تعالى: ﴿۞ مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ وَٱتَّقُوهُ﴾.

٢٥- أن الخطاب للنبي ﷺ خطاب لأمته؛ لقوله تعالى: ﴿۞ مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ وَٱتَّقُوهُ﴾ وقوله تعالى قبله: ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ﴾.

٢٦- وجوب إقام الصلاة، بشروطها وأركانها وواجباتها، وأن المهم في أمر الصلاة إقامتها إقامة تامة كما شرعها الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

٢٧- النهي عن الشرك، صغيره وكبيره، ووجوب الحذر منه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾.

٢٨- عظم أمر الصلاة في الإسلام؛ لأنها أعظم أركانه بعد الشهادتين، وهي أعظم العبادات؛ ولهذا خصت في الآية بالأمر بإقامتها دون سائر العبادات.

٢٩- خطر الشرك؛ لأنه أعظم الذنوب، ومنافٍ للإيمان، مبطل للأعمال؛ لهذا خصه الله تعالى بالنهي في الآية.

---

(١) سبق تخريجه.

٣٠- ذم المشركين بتفريقهم دينهم، والإيمان ببعض، والكفر ببعض، وتفرقهم في معبوداتهم، وتفرقهم جماعات وأحزابًا، كل حزب بما لديهم فرحون، يرون أنهم على الحق، وغيرهم على الباطل، وجميعهم على الباطل؛ لقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًاۖ كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

٣١- التعريض بتحذير المسلمين من التفرق في الدين؛ كما هو حال المشركين من أهل الكتاب وغيرهم؛ لأن التفرق في الدين قاصمة الظهر، وهو سبب ضعف المسلمين اليوم، وتسلط الأعداء عليهم، وغزوهم في عقر دارهم، ولن يعود لهم عزهم ومجدهم، وتكون لهم في المحافل الدولية كلمتهم؛ حتى يعودوا إلى دينهم، ويجتمعوا على كلمة سواء، ويعتصموا بحبل الله جميعًا ولا يتفرقوا.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾:

قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ﴾؛ ضرب عز وجل مثلًا للمشركين؛ لبيان بطلان ما هم عليه من اتخاذ الشركاء مع الله، ورغّب في الإنابة الاختيارية التي تكون في حال العسر واليسر، والسعة والضيق، والتي تنفع صاحبها في الدنيا والآخرة، ثم نبّه عن الإنابة الاضطرارية التي تكون وقت الضيق فقط، والتي لا تنفع صاحبها، لا في الدنيا ولا في الآخرة، وهي حال كثير من الناس إلا من رحم الله تعالى.

قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ﴾، أي: إذا أصابهم ضر من مرض، أو خوف، أو شدة وفقر، ونحو ذلك.

والمراد بالناس: الكفار، ويحتمل أن المراد بهم عموم الناس؛ المؤمنون والكفار؛ لقوله بعد هذا: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾، وهذاأولى.

و«الضُّرُّ» بضم الضاد: سوء الحال في البدن أو العيش أو المال ونحو ذلك؛ كالشِّدة

والقحط الذي أصاب قريشًا، حتى أكلوا العظام والميتة.

﴿دَعَوۡاْ رَبَّهُم﴾، أي: ابتهلوا إلى ربهم وحده؛ لكشف ما أصابهم من ضر، ﴿مُّنِيبِينَ إِلَيۡهِ﴾؛ حال، أي: راجعين إليه وحده دون شركائهم؛ لعلمهم أنه لا يكشف الضر إلا هو سبحانه وتعالى، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [العنكبوت:٦٥]، فإذا أصيبوا بالشدة عرفوا الله، خلاف ما أمر به النبي ﷺ في قوله: «**تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة**»(١).

لكنهم أخف حالًا من مشركي زماننا الذين شركهم في الرخاء والشدة.

﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنۡهُ رَحۡمَةً﴾، أي: إذا أعطاهم منه رحمة بكشف ما بهم من ضر، وإزالة ما بهم من شدة، وجلب الخير لهم.

﴿إِذَا﴾ فجائية، ﴿فَرِيقٌ مِّنۡهُم﴾، أي: طائفة منهم، ﴿بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ﴾، أي: يعودون إلى الشرك بربهم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ ١٥﴾ [الدخان:١٥].

ومفهوم قوله:﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنۡهُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ﴾ أن فريقًا منهم لا يشركون بربهم، بل يثبتون على الإخلاص لله، وهم المؤمنون.

﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ﴾، أي: ليكفروا بالذي أعطيناهم من الرحمة، من كشف الضر والشدة عنهم، وجلب الخير لهم، ويجحدوا ذلك، متناسين دعاءهم إياه حال الضر والشدة. واللام: للتعليل، أي: لتعليل تقييض الله لهم ذلك، وتقديره عليهم. ويقال لها: لام العاقبة.

﴿فَتَمَتَّعُواْ﴾؛ الأمر للتهديد والوعيد، و«التمتع»: الانتفاع بالنعم مدة تنقضي.

﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾: معطوف على «تمتعوا»، و«سوف» تفيد التراخي والتحقيق، أي: فسوف تعلمون عاقبة شرككم وكفركم نعمة الله تعالى وتمتعكم.

وفي الكلام التفات من الغيبة إلى الخطاب للتنبيه، وتأكيد الوعيد والتهديد وتشديده.

﴿أَمۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنًا﴾؛ «أم»: هي المنقطعة، بمعنى: «بل» التي للإضراب

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ٣٠٧ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

الانتقالي، وهمزة الاستفهام الإنكاري، أي: بل أأنزلنا عليهم سلطانًا، أي: حجة واضحة، ودليلًا قاطعًا، وبرهانًا ساطعًا.

﴿فَهُوَ﴾؛ الفاء: عاطفة، أي: فهو، أي: ذلك السلطان، ﴿يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ﴾، أي: ينطق، ويأمرهم بالشرك، أو يدل على الذي كانوا به يشركون؛ كما قال تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الجاثية:٢٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [النمل:٧٦].

والجواب: لا، فلم ينزل الله عليهم سلطانًا، وليس لديهم حجة ولا دليل، لا من الفطرة ولا من الشرع، على ما هم عليه من الشرك وعبادة الأصنام؛ كما قال تعالى: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الروم:٢٩].

بل السلطان المنزَّل يدل على بطلان شركهم، وكذا الفطرة السوية التي فطر الله الناس عليها.

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً﴾، أي: نعمة من أهل وولد وصحة وسعة ورخاء وأمن وغير ذلك، ﴿فَرِحُوا۟ بِهَا﴾ فرح بطر وأشر، وفخر واختيال، لا فرح حمد وشكر.

والمراد بهذا: الكفار.

﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ﴾، أي: شدة من مرض وفقر وحاجة، ونحو ذلك مما يسوؤهم ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾؛ الباء: للسببية، و«ما»: موصولة، أي: بسبب الذي قدمته أيديهم، أو مصدرية، أي: بسبب تقديم أيديهم، أي: بسبب عملهم وكسبهم من الذنوب والمعاصي؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشورى:٣٠]، وقال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [النساء:٦٢]، وقال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ [الروم:٤١].

وأضاف التقديم إلى الأيدي؛ لأنها الآخذة والمعطية، وآلة الفعل غالبًا، والمراد: بما قدموا وعملوا.

﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾؛ قرأ أبو عمرو والكسائي بكسر النون: «يَقْنِطُونَ»، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿يَقْنَطُونَ﴾.

«إذا»: فجائية، أي: إذا هم ييأسون أشد اليأس من روح الله، ومن زوال ما هم فيه من الشدة؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ۝ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝﴾ [هود:٩، ١٠]، وقال تعالى: ﴿لَا يَسْأَمُ الْإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ۝ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت:٤٩، ٥٠].

وهذا بخلاف حال أهل الإيمان؛ ولهذا قال ﷺ: «**عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له**»(١).

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾: الاستفهام للإنكار والتوبيخ والتقرير، أي: توبيخ لهم كيف يفرحون عند النعمة فرح بطر واختيال، ويقنطون وييأسون عند السيئة، وهم يرون أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر؟!

وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾: معطوف على مقدر، أي: أغفلوا ولم يروا، و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب سد مسد مفعولي «يروا».

أي: أولم يبصروا ويشاهدوا ويعلموا أن الله يوسع الرزق للذي يشاء من عباده، ﴿وَيَقْدِرُ﴾، أي: ويقدر الرزق، أي: يضيقه على من يشاء على مقتضى عدله وحكمته وعلمه بما هو أصلح لهم، فيختار عز وجل لعبده ما يختار، من بسط الرزق أو تضييقه ابتلاءً وامتحانًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ۝﴾[الأنبياء:٣٥]، وقال سليمان عليه السلام: ﴿قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾[النمل:٤٠].

والابتلاء ببسط الرزق يقتضي شكرًا، وبتضييقه يقتضي صبرًا، كما جاء في حديث صهيب رضي الله عنه المتقدم.

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق ٢٩٩٩، وأحمد ٤/ ٣٣٢، ٣٣٣؛ من حديث صهيب رضي الله عنه.

قال الشاعر:

جلّ من قسَّم الحظوظ فهذا يتغنى وذاك يبكي الديارا[1]

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾، أي: في كونه عز وجل يبسط الرزق لمن يشاء ويضيقه على من يشاء، ﴿لَأٓيَٰتٍ﴾ اللام: للتوكيد، أي: لدلائل على تمام قدرته، وبالغ حكمته، وواسع علمه ورحمته.

ولهذا ترى بعض الناس يكدح ليل نهار، ويطرق الأسفار، ويركب البحار، ويتحمل الأخطار؛ في طلب الرزق، فلا يكاد يجد قوته وقوت عياله وأهله. وتجد بعضهم يبذل بعض الأسباب، فيبارك له ويثري ثراءً عظيمًا، مما يدل على أن الأمور لا تنال بالسعي فقط، فالسعي سبب، وفوق ذلك كله إرادة الله تعالى وتقديره وتوفيقه، وكمال تدبيره.

﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ خاصة؛ لأنهم هم الذين ينتفعون بالآيات، وهذه الآية كقوله تعالى في سورة الزمر: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [الروم:٣٨- ٤٠]:

قوله: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾؛ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، أي: إن كان الرزق بيد الله فآتِ ذا القربى، والخطاب لكل من يصلح له، أي: فأعط صاحب القربى، أي: صاحب القرابة ﴿حَقَّهُۥ﴾ الواجب والمندوب، من البر بالوالدين والصلة لهما ولغيرهما من القرابة، بالنفقة والهدية والنصيحة والإكرام والزيارة والسلام، والعفو عن الزلة، والمسامحة عن الهفوة، وغير ذلك.

﴿وَٱلْمِسْكِينَ﴾، أي: وآتِ المسكين الذي لا يجد كفايته ﴿حَقَّهُۥ﴾، أي: ما يسد

---

(١) البيت لحافظ إبراهيم. انظر: «ديوانه» ص٢٥٢.

خلته أو بعضها من الصدقة والمساعدة.

﴿وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِۚ﴾؛ وهو المسافر المنقطع، وحقه ما يحتاج إليه في سفره.

﴿ذَٰلِكَ﴾، أي: إيتاء ذي القربى حقه والمسكين وابن السبيل.

﴿خَيۡرٞ﴾؛ خيريَّة مطلقة في الدنيا والآخرة ﴿لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِۖ﴾، أي: للذين يريدون بعملهم مرضاة الله تعالى، والنظر إلى وجهه الكريم يوم القيامة، الذي هو غاية المطالب، وأعلى وأفضل ما لأهل النعيم من المناقب والمراتب.

كما قال تعالى: ﴿۞ لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ١١٤﴾ [النساء:١١٤].

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ الذين عملوا هذه الأعمال ويريدون وجه الله.

﴿هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ في الدنيا والآخرة، الفائزون بالجنة والثواب، الناجون من النار والعذاب، وأكد وحصر الفلاح فيهم بكون الجملة اسمية، معرَّفة الطرفين، وبضمير الفصل «هم».

﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ تُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ﴾؛ لما ذكر خيرية إيتاء ذي القربى حقه والمسكين وابن السبيل للذين يريدون وجه الله، وذكر فلاحهم، أتبع ذلك ببيان أنه لا يثاب من أعطى لأجل أن يزداد ماله، ويرد إليه الناس أكثر مما أعطى، وأن الذي يثاب على ذلك ويضاعف له الثواب هو الذي أراد بذلك وجه الله تعالى.

قوله: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا﴾، أي: وما أعطيتم من ربا، و«الربا»: الزيادة، و«ما»: شرطية في الموضعين، و«من»: بيانية في الموضعين.

﴿لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾؛ قرأ نافع وأبو جعفر ويعقوب بالخطاب وضم التاء وإسكان الواو: «لِتُرْبُوا»، وقرأ الباقون بالغيب وفتح الياء: ﴿لِّيَرۡبُوَاْ﴾، واللام: للتعليل، أي: لأجل أن يربو، أي: يزيد في أموال الناس، أي: ليردوا إليكم أكثر مما أعطيتموهم من مال، قرضًا كان أو بيعًا، أو هدية، أو هبة، وغير ذلك.

﴿فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ الفاء: رابطة لجواب الشرط، أي: فلا يزيد ولا يضاعف عند الله؛ لأنكم لم تقصدوا بذلك وجه الله، وإنما قصدتم بذلك زيادة أموالكم، وأن يرد الناس إليكم أكثر مما أعطيتموهم، وهذا دائر بين أمرين: إما أن يكون محرمًا، كربا الفضل والنسيئة في البيع، أو كالقرض الذي جر نفعًا، فهذا لا يربو ولا يزيد ولا يضاعف عند الله، بل يحصل به المحق والسحت للمال الطيب.

والربا من كبائر الذنوب، وهو محاربة لله تعالى ورسوله، ومن السبع الموبقات.

وإما أن يكون مباحًا، لكن لا ثواب فيه؛ كالهدية والإحسان بقصد نفع دنيوي، كأن يرد إليه المهدى إليه أكثر من هديته، أو يُحسن إليه بمنفعة من المنافع.

﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ﴾؛ الواو: عاطفة، و«ما»: شرطية، و«من»: بيانية، أي: وما أعطيتم من صدقات ونفقات، واجبة أو مستحبة؛ لتزكية وتطهير أنفسكم وأموالكم، وأنفس من تدفعونها إليهم؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ١٨﴾ [الليل:١٨]، أي: يتطهر.

﴿تُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ﴾، أي: تريدون بإيتائها وجه الله، أي: خالصة لوجه الله تعالى.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ الفاء: رابطة لجواب الشرط، أي: فأولئك الذين يؤتون الزكاة لوجه الله تعالى.

﴿هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ﴾، أي: الذين ضاعفوا ثوابهم وأجورهم بإيتاء الزكاة وإرادة وجه الله تعالى. وفي الكلام التفات من الخطاب إلى الغيبة، فلم يقل: فلأنتم المضعفون، وإنما قال: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ﴾، وفي هذا- مع التنبيه- تعظيم لشأنهم.

والمراد: فأولئك الذين تضاعف لهم النفقات والحسنات والأجور؛ كما قال تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚ﴾ [البقرة:٢٤٥]، وقال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [البقرة:٢٦١].

وقال ﷺ: «**من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب، وإن**

الله يتقبلها بيمينه فيربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فلوه حتى تكون مثل الجبل»[(١)].

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾، أي: الله وحده الذي خلقكم، أي: الذي أوجدكم من العدم؛ كما قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١﴾ [الإنسان:١].

﴿ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾، أي: ثم أعطاكم الرزق، منذ كنتم في بطون أمهاتكم، وبعد ولادتكم، وفي مدة حياتكم.

﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾؛ أي: ثم بعد هذا الخلق والإعداد، والرزق والإمداد، وبعد انتهاء أعماركم، واستيفائكم أرزاقكم وأعمالكم وآجالكم يميتكم.

﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ خلقًا آخر يوم القيامة؛ للحساب والجزاء، حياة ليس بعدها فناء.

﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم﴾؛ الاستفهام: للإنكار والنفي، و«مِن»: تبعيضية. ﴿مَّن يَفْعَلُ﴾، «مَن»: موصولة.

﴿مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ﴾، «مِن» في قوله: ﴿مِّن شَىْءٍ﴾ زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة للنفي من حيث المعنى، أي: هل من شركائكم- الذين أشركتموهم، مع الله في العبادة- الذي يفعل من ذلكم أيَّ شيء.

والإشارة للخلق والرزق والإماتة والإحياء. والجواب: لا أحد من شركائكم يفعل شيئًا من ذلكم، وهذا على سبيل التحدي، أي: فإذا كان هؤلاء الشركاء لا يفعلون شيئًا من ذلك، فعبادتهم باطلة؛ كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾[لقمان:٣٠].

﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، أي: تنزه عز وجل وتقدس ﴿وَتَعَٰلَىٰ﴾، أي: وتعاظم ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؛ «ما»: موصولة، أي: عن الذي يشركونه.

الفوائد والأحكام:

١- إخلاص الناس الدعاء لربهم، والإنابة إليه في حال الشدة والاضطرار؛ لقوله

(١) أخرجه البخاري في الزكاة ١٤١٠، ومسلم في الزكاة ١٠١٤؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾.

٢- رجوع فريق منهم ومبادرتهم إلى الشرك بالله بعد إذاقتهم رحمته بكشف الضر عنهم، وجلب الخير لهم؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾، ومفهوم هذا أن فريقًا منهم يثبتون على الإخلاص؛ وهم المؤمنون.

٣- أن الشر ليس إلى الله تعالى، وأن الخير والرحمة بيديه، ومنه وإليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ﴾، فلم ينسب ذلك عز وجل إليه، بينما نسب الرحمة إليه بقوله: ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً﴾؛ كما قال: ﴿لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَاهُمْ﴾ فنسب الإيتاء إليه، وكذا في قوله: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾.

٤- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّهُم﴾، وقوله: ﴿بِرَبِّهِمْ﴾.

٥- أن الرحمة بكشف الضر، وإزالة المكروه، وجلب الخير من الله تعالى وحده تفضلًا منه وامتنانًا؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً﴾، وقوله: ﴿لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَاهُمْ﴾، وقوله: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً﴾.

٦- تقييض الله لهؤلاء الفريق الرجوع إلى الشرك بعد إزالة الشدة عنهم، وتقديره ذلك عليهم؛ ليكفروا بما آتاهم الله من الرحمة، من كشف الضر عنهم، وجلب الخير لهم؛ ولتكون العاقبة كفرهم بما آتاهم الله، فتحل عليهم كلمة العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَاهُمْ﴾.

٧- أن الله يبتلي بالنعم كما يبتلي بالمصائب والنقم؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَاهُمْ﴾، وكما قيل:

قـد يُـنعم اللهُ بـالبلوى وإن عظُمـت ... ويبـتلي الله بعـض القـوم بـالنِّعَم(١)

٨- تهديد المشركين ووعيدهم بأمرهم بالتمتع وانتظار سوء العاقبة المحقق؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، وفي هذا إثبات الجزاء.

---

(١) البيت لأبي تمام. انظر: «ديوانه» ص٥٧٧.

٩- أن الله لم ينزل على المشركين سلطانًا ولا كتابًا ينطق أو يدل على ما هم عليه من الشرك، ولا حجة، ولا برهانًا؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾﴾، بل أنزل عز وجل السلطان والحجة في نفي الشرك، والنهي عنه، وتحريمه، والوعيد عليه؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ:٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء:٣٦].

وقال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [الأنعام:١٥١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة:٧٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾[الأنبياء:٢٥].

١٠- أن من طبيعة الناس- من الكفار، ومن ضعاف الإيمان- الفرح بما يصيبهم من رحمة فرح بطر وأشر واختيال، والقنوط عندما تصيبهم شدة ومحنة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

١١- ذم الفرح الذي يحمل على الأشر والبطر وكفر النعم، وتحريمه.

١٢- أن ما يصيب الناس من المصائب هو بسبب ما كسبت أيديهم من المعاصي والذنوب؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾.

١٣- ذم القنوط من رحمة الله تعالى،وتحريمه.

١٤- إثبات الاختيار للإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾.

وفي هذا رد على الجبرية الذين يزعمون أن الإنسان مجبر على جميع تصرفاته وأفعاله.

١٥- توبيخ المشركين والإنكار عليهم في فرحهم عند النعمة فرح بطر واختيال، وقنوطهم عندما تصيبهم السيئة، مع أنهم يرون ويعلمون أن الله عز وجل يوسع الرزق لمن يشاء من عباده، ويضيقه على من يشاء بحكمته؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾.

١٦- إثبات المشيئة لله تعالى، وهي الإرادة الكونية.

١٧- تقرير تفرده عز وجل ببسط الرزق وتقديره بعلمه وحكمته، وأن في كونه عز وجل يبسط الرزق لمن يشاء ويضيقه على من يشاء، دلائل لأهل الإيمان على تمام قدرته، وبالغ حكمته، وواسع علمه ورحمته وكمال تدبيره؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

١٨- أنه لا ينتفع بالآيات إلا المؤمنون؛ لهذا خصهم الله بالذكر.

١٩- أن لذي القربى، من الوالدين وغيرهما من القرابة، والمسكين وابن السبيل حقوقًا ينبغي أداؤها لهم، منها الواجب والمندوب؛ لقوله تعالى: ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾.

٢٠- أن إعطاء المذكورين حقوقهم خير خيرية مطلقًا في الدين والدنيا والآخرة، للذين يريدون بذلك وبأعمالهم الصالحة مرضاة الله تعالى ورؤية وجهه الكريم في جنات النعيم؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾.

٢١- أن العمل لا يقبل إلا إذا كان خالصًا لوجه الله تعالى طلبًا لمرضاته؛ لقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾، وقوله: ﴿تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾.

٢٢- إثبات الإرادة للإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ﴾، ﴿تُرِيدُونَ﴾، وفي هذا رد على من يقولون بأنه مجبور على أفعاله.

٢٣- إثبات صفة الوجه والذات لله عز وجل، وإثبات رؤية المؤمنين له عز وجل يوم القيامة.

٢٤- بشارة المذكورين بالفلاح في الدنيا والآخرة، وتأكيد ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

٢٥- أن ما أعطي من زيادة في الأموال لأجل أن يزيد في أموال الناس، ويردوا أكثر منه، لا يزيد عند الله؛ لأنه لا يقصد به وجه الله، وقد يكون محرمًا كربا النسيئة والفضل، والقرض الذي جر نفعًا، وقد يكون مباحًا لكن لا ثواب فيه كالهدية والإحسان لأجل نفع دنيوي؛ كأن يرد إليه أكثر مما أهدى إليه، ونحو ذلك.

٢٦- أن ما أعطي من الأموال تزكية لها ولنفوس الباذلين لها والآخذين، مقصودًا

به وجه الله تعالى وحده؛ فهو المقبول المضاعَف ثوابه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ تُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ﴾.

٢٧- وجوب الإخلاص في اعطاء الزكاه وغيرها من الأعمال.

٢٨- الترغيب والإغراء والحث على إيتاء ذي القربى والمسكين وابن السبيل حقوقهم، وإعطاء الزكاة والصدقة تزكية للنفوس وللأموال؛ لما وعد الله تعالى على ذلك من الفلاح، ومضاعفة الأجور.

٢٩-كمال قدرة الله تعالى، وتفرده عز وجل بالخلق والرزق والتدبير، وأفعال الربوبية كلها، خلق الخلق ورزقهم، ثم يميتهم ثم يحييهم، لا رب لهم غيره، ولا معبود بحق سواه؛ لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ ثُمَّ رَزَقَكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۖ﴾.

٣٠- عجز آلهة المشركين، وانتفاء قدرتها على أي شيء مما ذكر، وبطلانها والإنكار على المشركين وتقريعهم وتوبيخهم في عبادتهم مع الله شركاء لا يملكون من الأمر شيئًا؛ لقوله تعالى: ﴿هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفۡعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيۡءٖۚ﴾.

٣١- ثبوت التلازم بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية، وأن من أقر بتوحيد الربوبية لزمه الإقرار بتوحيد الألوهية، وأن من لا يملك شيئًا من أفعال الربوبية لا تجوز عبادته.

٣٢- أن الرازق هو الله تعالى وحده، ويجب طلب الرزق منه وحده، مع بذل الأسباب.

٣٣- تنزيه الله تعالى وتقديسه وتعاليه وتعاظمه عن الذي يشركون به؛ لقوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾﴾:

قوله: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾، أي: بان واتضح الفساد في البر والبحر، من القحط والجدب، ونقص الأموال والأنفس والثمرات، وكثرة الآفات والأمراض، ونفوق الحيوانات والطيور والحيتان، ونضوب مياه الآبار والأنهار، وغير ذلك من المصائب والآفات.

﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ الباء: للسببية، و«ما» موصولة، أو مصدرية، أي: بسبب الذي كسبته أيدي الناس، أو بسبب كسب أيديهم، أي: بسبب كسبهم من الذنوب والمعاصي(١).

وعن قتادة بن ربعي الأنصاري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن العبد الفاجر إذا مات يستريح منه العباد والبلاد، والشجر والدواب**»(٢).

﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾؛ قرأ روح: ﴿لِنُذِيقَهُم﴾ بالنون.

وقرأ الباقون بالياء: ﴿لِيُذِيقَهُم﴾.

واللام: للتعليل، أي: لأجل أن يذيقهم، أي: أن يُمِسَّهم جزاء وعقوبة بعض الذي عملوه واكتسبوه من المعاصي والذنوب، لا كله.

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» ٢٨/ ١٢٨-١٧٣.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٥١٢، ومسلم في الجنائز ٩٥٠، والنسائي في الجنائز ١٩٣٠.

والإذاقة أعلى أنواع الإدراك الحسي، فالإنسان يسمع بالشيء ثم يراه، ثم يشمه، ثم يمسه، ثم يذوقه، وهي بمعنى الإصابة؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ۝٣٠﴾ [الشورى:٣٠].

ليكون ذلك عظة وعبرة وتذكيرًا بما هو أشد منه من عذاب الدنيا والآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ۝٦١﴾ [النحل:٦١]، وقال تعالى: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرَۢا ۝٤٥﴾ [فاطر:٤٥].

وقال تعالى: ﴿لَّهُمۡ عَذَابٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَقُّۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ ۝٣٤﴾ [الرعد:٣٤]، وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلۡعَذَابُۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ۝٣٣﴾ [القلم:٣٣].

وفي الحديث: «**ولم ينقصوا في المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين، وشدة المؤونة، وجور السلطان عليهم، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطَروا**»(١).

وقوله: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ﴾، ولم يقل: ليذيقهم العقوبة؛ لبيان أن سبب العقوبة هو العمل، وأن الجزاء على قدر العمل.

وقوله: ﴿بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ﴾، ولم يقل: الذي عملوا، أو كل الذي عملوا؛ لأنه عز وجل لو عاقبهم بكل الذي عملوا لأهلكهم، ولكنه عز وجل يمهلهم ويعفو عن كثير.

﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾، أي: لأجل أن يرجعوا إلى الله تعالى، وينيبوا إليه، ويقلعوا عما هم عليه من الذنوب والمعاصي، التي كانت سببًا لخراب البلاد، وفساد العباد؛ كما قال تعالى: ﴿وَبَلَوۡنَٰهُم بِٱلۡحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ [الأعراف:١٦٨].

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الفتن ٤٠١٩؛ من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما.

قال ابن القيم: «نَزِّل هذه الآية على أحوال العالم، وطابق بين الواقع وبينها، وأنت ترى كيف تحدث من تلك الآفات والعلل كل وقت في الثمار والزروع والحيوان، وكيف يحدث من تلك الآفات آفات أخر متلازمة، بعضها آخذ برقاب بعض، وكلما أحدث الناس ظلمًا وفجورًا أحدث لهم ربهم تبارك وتعالى من الآفات والعلل في أغذيتهم وفواكههم، وأهويتهم ومياههم، وأبدانهم وخلقهم وصورهم وأشكالهم وأخلاقهم من النقص والآفات ما هو موجب أعمالهم وظلمهم وفجورهم».

وقال أيضًا: «فإن الله سبحانه بحكمته وعدله يظهر للناس أعمالهم في قوالب وصور تناسبها، فتارة بقحط وجدب، وتارة بولاة جائرين، وتارة بأمراض عامة، وتارة بهموم وآلام وغموم تحضرها نفوسهم، لا ينفكون عنها، وتارة بمنع بركات السماء والأرض عنهم، وتارة بتسليط الشياطين عليهم تؤزهم إلى أسباب العذاب أزًّا؛ لتحق عليهم الكلمة، وليصير كل منهم إلى ما خلق له، والعاقل يسيِّر بصيرته بين أقطار العالم فيشاهده وينظر مواقع عدل الله وحكمته»(١).

﴿قُلْ﴾ الخطابُ للنبي ﷺ ولكل من يصلح له، ﴿سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟﴾، أي: سيروا في الأرض بأقدامكم وأبدانكم، وانظروا بأبصاركم، وتأملوا وتفكروا واعتبروا بقلوبكم وبصائركم، والخطاب للكفار، أو لعامة الناس.

﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾، أي: كيف كانت نهاية الذين من قبلكم من المكذبين للرسل، المفسدين في الأرض؟ حيث كانت عاقبتهم أسوأ العواقب، ومآلهم شَرَّ المآلات، استأصلهم العذاب في الدنيا الموصول بعذاب الآخرة؛ كما قال تعالى عن آل فرعون: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر:٤٦].

﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾، أي: كان أكثرهم مشركين مثلكم، فاحذروا أن يحل بكم مثل ما حل بهم، فلستم خيرًا منهم؛ كما قال تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ﴾ [القمر:٤٣].

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٣٩٤، ٣٩٥.

وكان المتوقع أن يقول: أهلكناهم أو دمرناهم، أي: عاقبتهم: أنا دمرناهم وأهلكناهم، كما ترون، لكنه عدل إلى قوله: ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾، أي: عدل لبيان سبب إهلاكهم، وهو الأهم، وهو كون أكثرهم مشركين، ونُجِّي الرسل، وأتباعهم المؤمنون، كما هي سنة الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾:

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾؛ هذا فيه تأكيد لما سبق في قوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ [الآية:٣٠] من هذه السورة.

وفيه- بعد تهديد المكذبين وتوعدهم بأن يحل بهم ما حل بالمكذبين قبلهم من العذاب-: تقوية لقلب النبي ﷺ، وتثبيت له على الدوام على الإسلام، وعدم المبالاة بمن خالفه.

أي: أقبل بوجهك وقصدك وبدنك، وقلبك وقالبك ﴿لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾، أي: للدين الكامل في قيامه، العدل المستقيم، الذي لا اعوجاج فيه ولا نقص، دين الإسلام وعبادة الله وحده والإخلاص له، وهذا أمر له ﷺ ولأفراد أمته.

﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾؛ وهو: يوم القيامة الذي إذا أراد الله كونه، فلا أحد يقدر على رده، ولا بد من إتيانه، ونُكِّر للتعظيم، أي: يوم عظيم ثقيل، عبوس قمطرير.

﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾؛ أصلها: «يتصدعون»، فأدغمت التاء في الصاد.

و«التصدع»: التفرق والتمايز والتشتت، أي: يتفرقون بعد الحساب، فريق إلى الجنة، وفريق إلى النار؛ كما قال تعالى: ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى:٧]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الروم:١٤-

١٦]، وقال تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَصۡدُرُ ٱلنَّاسُ أَشۡتَاتٗا لِّيُرَوۡاْ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٦﴾ [الزلزلة:٦].

﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِأَنفُسِهِمۡ يَمۡهَدُونَ ٤٤﴾: هذا كالتفسير لقوله: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَصَّدَّعُونَ﴾؛ أي: يتفرقون فريقين.

قوله: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ﴾؛ «من»: شرطية، و«كفر»: فعل الشرط، وجوابه: ﴿فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥ﴾، واقترن بالفاء؛ لأنه جملة اسمية.

والمعنى: فعليه وحده عاقبة كفره ووباله؛ لأنه لا تزر وازرة وزر أخرى.

﴿وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِأَنفُسِهِمۡ يَمۡهَدُونَ﴾؛ الجملة شرطية كالأولى، أي: ومن عمل عملًا صالحًا، أي: خالصًا لله تعالى، موافقًا لشرعه، جامعًا بين إيمان القلب، وعمل الجوارح.

﴿فَلِأَنفُسِهِمۡ﴾؛ متعلق بـ﴿يَمۡهَدُونَ﴾؛ وقدم عليه لإفادة الحصر، ومراعاة الفاصلة. والفاء: رابطة لجواب الشرط، أي: فلأنفسهم خاصة، لا لغيرها.

﴿يَمۡهَدُونَ﴾، أي: يجعلون لأنفسهم مهادًا، أي: فراشًا، والمهاد: الفراش، أي: يهيئون ويعمرون لهم منازلهم في الجنة، ويستعدون للفوز بمنازلها وغرفاتها وقصورها.

﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ اللام: للتعليل، أي: لأجل أن يجزي ويثيب الذين آمنوا بقلوبهم، ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، أي: وعملوا الأعمال الصالحات الخالصة لله تعالى، الموافقة لشرعه وسنة نبيه ﷺ بجوارحهم.

﴿مِن فَضۡلِهِۦٓۚ﴾، أي: بالفضل والزيادة، الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمئة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، لمحبته عز وجل لهم بسبب إيمانهم وأعمالهم الصالحة؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾؛ تعليل لمقدر، أي: يجزي الكافرين بكفرهم، عدلًا منه؛ لأنه لا يحبهم، بل يبغضهم بسبب كفرهم.

الفوائد والأحكام:

١- أن سبب كثرة المصائب والفساد في البر والبحر: من القحط والجدب، والجوع والخوف، ونقص الأموال والأنفس والثمرات، ومحق البركات وقلة الخيرات، وكثرة

الأمراض والآفات، وهلاك الحرث والنسل، وجعل الديار بلاقعَ؛ هي ذنوب بني آدم ومعاصيهم؛ لقوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ﴾.

وكما أن المعاصي والذنوب سبب للمصائب الدنيوية، فهي أيضًا سبب للمصائب الدينية، من وقوع الفتن، والمشاكل والاختلاف، واستمراء المعاصي؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ [الصف:٥]، وقال تعالى: ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٤﴾ [المطففين:١٤].

٢- إثبات الأسباب، وأن الأمور مقرونة بأسبابها، وقد جعل الله لكل شيء سببًا؛ وأن أفعال الله تعالى كلها معللة ولحكمة؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ﴾، وقوله: ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ﴾.

٣- إثبات الاختيار والكسب للإنسان، وأنه غير مجبر على فعله، كما تقول الجبرية؛ ولهذا يعاقب على عمله؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لعلهم يرجعون﴾.

٤- أن الإيمان والتقوى واكتساب الخير، سبب لصلاح البر والبحر، والعباد والبلاد؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٩٦﴾ [الأعراف:٩٦].

٥- حكمة الله تعالى البالغة في مؤاخذة العباد ببعض آثار ذنوبهم ومعاصيهم، بما يصيبهم من المصائب في أنفسهم وأموالهم وحروثهم، وغير ذلك؛ ليرجعوا ويتوبوا؛ لقوله تعالى: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾.

٦- نعمة الله تعالى في تخفيف الابتلاء على العباد، وسعة رحمته، وأنها سبقت غضبه؛ لقوله تعالى: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ﴾، أي: بعض ما عملوه من المعاصي، لا كله.

٧- أن الجزاء من جنس العمل؛ لقوله تعالى: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ﴾، أي: جزاءه.

٨- أن الابتلاء بالعقوبات قد يكون سببًا للرجوع إلى الله، لمن وفقه الله، وفي الحديث: «**إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم**».

وقال ﷺ: «**من يرد الله به خيرًا يصب منه**»(١).

وقد يكون الابتلاء بذلك سببًا للعتوّ والنفور، نسأل الله الهداية.

٩- أمر المشركين المكذبين له ﷺ بالسير في الأرض، والتأمل والتفكر والاعتبار، كيف كانت عاقبة المكذبين قبلهم السيئة، ونهايتهم المؤلمة؛ ليحذروا أن يحل بهم مثل ما حل بأولئك؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾.

١٠- وجوب السير في الأرض والنظر والتفكر والاعتبار، كيف كانت نهاية المشركين المكذبين للرسل، وما حل بهم من العقوبات؛ للحذر من مسالكهم، والسعيد من وعظ بغيره.

١١- أنه إنما عوقب كثير من الأمم السابقة بأسوأ العواقب، وأهلكوا بأشد العقوبات؛ لأن أكثرهم مشركون بالله، مكذبون بما جاءت به الرسل؛ لقوله تعالى: ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾.

١٢- أن العقوبات قد تعم الصالح والطالح، وقد ينجي الله المؤمنين، كما أنجى الرسل ومن آمن معهم.

١٣- وجوب إقامة الوجه والاستقامة على الدين القيم، دين الإسلام، والمبادرة إلى ذلك في الحياة؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ﴾، وهذا أمر له ﷺ ولأمته.

١٤- أن الدين القيم العدل المستقيم الذي لا اعوجاج فيه هو دين الإسلام، الذي جاء به محمد ﷺ، وهو الحنيفية السمحة ملة إبراهيم عليه السلام.

١٥- إثبات يوم القيامة وعظمته وشدة هوله، وما فيه من الحساب والجزاء على الأعمال، وأنه آت لا محالة، إذا أراد الله كونه فلا مرد له؛ لقوله تعالى: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ

(١) سبق تخريجها.

﴿يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ﴾.

١٦-تفرد الله تعالى وحده بالملك والأمر والتدبير.

١٧- تصدع الناس في ذلك اليوم وتفرقهم تفرقًا لا لقاء بعده، فآخذ طريق اليمين إلى الجنة، نسأل الله التوفيق، وسالك طريق الشمال إلى النار، نسأل الله السلامة.

١٨- أن من كفر يجزى بكفره وحده دون غيره، عدلًا من الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ﴾.

١٩- أن من عمل صالحًا من الإيمان والطاعات؛ فإنهم إنما يمهدون لأنفسهم خاصة، ويهيئون منازلهم في الآخرة ويعمرونها، ويستعدون للفوز بمنازلها وغرفاتها؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِأَنفُسِهِمۡ يَمۡهَدُونَ﴾.

٢٠- التنويه بشأن من سلكوا طريق الحزم والكياسة بالاستعداد لما أمامهم، وتوطئة خير المنازل لأنفسهم، في ربوع الجنات، وأعلى المقامات، بجوار رب الأرض والسموات.

٢١- مجازاة الله عز وجل الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالفضل والزيادة والمضاعفة؛ كرمًا منه وجودًا؛ لأنه لا يجب عليه شيء لخلقه، لكنه أوجب ذلك على نفسه؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ﴾.

٢٢- لا بد من الجمع بين الإيمان بالقلب، وعمل الصالحات بالجوارح.

٢٣- لا بد من كون العمل صالحًا، أي: خالصًا لله تعالى، موافقًا لسنة نبيه ﷺ.

٢٤- جمع القرآن بين الترغيب في الإيمان والعمل الصالح، وذم الكفر والتحذير منه.

٢٥- كمال عدل الله عز وجل بمجازاة كل على عمله، فالكافر يجازى على كفره، والمؤمن يثاب على إيمانه. ومن عمل الإنسان ما كان سببًا فيه؛ كما قال ﷺ: «**من سن في الإسلام سنة حسنة، فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، من غير أن ينتقص من أجورهم شيئًا، ومن سن في الإسلام سنة سيئة، فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة، لا ينقص ذلك من أوزارهم شيئًا**»[1].

---

(١) سبق تخريجه.

٢٦- أنه عز وجل لا يحب الكافرين، بل يبغضهم بسبب كفرهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

٢٧- إثبات المحبة لله تعالى، وأنه يحب عباده المؤمنين؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾﴾:

قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾؛ «مِن»: تبعيضية، أي: ومن دلائل عظمته عز وجل ووحدانيته، وتمام قدرته، وواسع علمه، وحكمته، ورحمته، وسابغ نعمته على العباد: ﴿أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ﴾ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل رفع مبتدأ مؤخر، أي: ومن آياته إرسال الرياح.

﴿مُبَشِّرَٰتٍ﴾: حال منصوبة، وعلامة النصب: الكسرة، أي: مبشرات برحمته والغيث والمطر؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الأعراف:٥٧]، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الفرقان:٤٨].

﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾؛ الواو: عاطفة، واللام: للتعليل في المواضع الثلاثة، أي: وليذيقكم بإرسال الرياح مبشرات ﴿مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾.

والمراد برحمته هنا: المطر، أي: وليذيقكم من المطر والغيث، الذي به حياة العباد والبلاد؛ كما قال تعالى: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ [الروم:٥٠]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾

[الشورى:٢٨].

﴿وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ﴾، أي: ولأجل أن تجري السفن في البحر بأمره وقوله القدري ومشيئته، بسبب الرياح.

﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾، أي: ولأجل أن تطلبوا الرزق والمعاش من فضل الله عز وجل في التجارات والأسفار بين الأقاليم بواسطة السفن؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[النحل:١٤]، وقال تعالى: ﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الجاثية:١٢].

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، أي: ولأجل أن تشكروا الله على ما أنعم به عليكم من إرسال الرياح، وإنزال المطر والغيث، وتسخير السفن تمخر عباب البحار، وتحملكم في أسفاركم وتجاراتكم، وغير ذلك من النعم الظاهرة والباطنة، التي لا تعد ولا تحصى.

والشكر: القيام بطاعة المنعم، ويكون بالقلب واللسان والجوارح، وذلك بالاعتراف بها في القلب، ونسبتها باللسان إلى مسديها وهو الله عز وجل، والثناء عليه بها، واستعمالها في طاعته، والاستعانة بها على مرضاته.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾:

قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾ يا محمد ﴿رُسُلًا﴾ كثيرين ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ من الأمم السالفة؛ قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم:٤]، وقال ﷺ: «**وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة**»[(١)].

﴿فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ الباء: للمصاحبة، أي: فجاؤوهم بالآيات البينات، والدلائل الظاهرات، والحجج والبراهين الواضحات، على وحدانية الله تعالى وصحة ما جاؤوا به.

---

(١) سبق تخريجه

﴿فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾، أي: فعاقبنا الذين أجرموا من أولئك الأقوام بسبب إجرامهم، بتكذيب رسلهم، والكفر والشرك بالله، وإنكار وحدانيته، وأخذناهم وأهلكناهم. والإجرام: فعل ما يكون سببًا في الإثم والعقوبة.

﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا﴾، أي: واجبًا علينا ﴿نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ على من اعتدى عليهم، وإظهارهم على من خالفهم، وإنجاؤهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (٥١)﴾[غافر:٥١].

وهذا حقٌّ أحقه الله عز وجل وأوجبه على نفسه تفضلًا وإحسانًا منه، وجودًا وكرمًا.

قال ابن القيم: «فهذا حق أحقه الله على نفسه، فهو طلب وإيجاب على نفسه بلفظ: «الحق»، ولفظ: «على»»[١].

كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:١٥٦].

وفي حديث معاذ رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ، قال: «**حق الله على العباد: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، وحق العباد على الله: ألا يعذب من لا يشرك به شيئًا**»[٢].

فهو عز وجل لا يجب عليه شيء لخلقه، بل هو المنعم المتفضل عليهم؛ كما قال ابن القيم[٣]:

ما للعباد عليه حق واجب ... هو أوجب الأمر العظيم الشان

كلا ولا عمل لديه ضائع ... إن كان بالإخلاص والإحسان

إن عذبوا فبعدله أو نعموا ... فبفضله والفضل للمنان

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٣٩٧.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) في «النونية» ص١٤٩، ١٥٠.

وَيَجۡعَلُهُۥ كِسَفٗا فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ۝٤٨ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡهِم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمُبۡلِسِينَ ۝٤٩ فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٥٠ وَلَئِنۡ أَرۡسَلۡنَا رِيحٗا فَرَأَوۡهُ مُصۡفَرّٗا لَّظَلُّواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ يَكۡفُرُونَ ۝٥١﴾:

قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾، أي: الله وحده الذي بتدبيره وتمام قدرته ونعمته ورحمته يرسل الرياح.

﴿فَتُثِيرُ سَحَابٗا﴾، أي: تحركه وتنشئه وتسوقه وتنشره؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشۡرٗا ۝٣﴾ [المرسلات:٣]، أي: الرياح تنشر السحاب، وهو الغيم.

﴿فَيَبۡسُطُهُۥ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾، أي: فيمده ويوسعه ويكثره وينشره في الجو الأعلى، فينشئ سحابًا فيُرى في رأي العين مثل الترس، ثم يبسطه ويمده حتى يملأ أرجاء الأفق.

﴿وَيَجۡعَلُهُۥ كِسَفٗا﴾، أي: متراكبًا، قد طبق بعضه فوق بعض أسود مدلهمًّا ثقيلًا قريبًا من الأرض؛ كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ رُكَامٗا﴾ [النور:٤٣]، وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ﴾ [الأعراف:٥٧].

﴿فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ﴾، أي: المطر، وهو القطر، والخطاب لكل من يتأتى خطابه، ﴿يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦۖ﴾، أي: يخرج من خلال السحاب، أي: من فتوقه وشقوقه وخلله.

قال الشاعر:

فـــلا مزنـــة ودقـــت ودقهـــا ... ولا أرض أبقـــل إبقالهـــا[1]

﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ﴾، أي: فإذا أصاب بالغيث والمطر الذي يشاؤه من عباده رحمةً بهم.

﴿إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾؛ «إذا»: فجائية، أي: يبشر بعضهم بعضًا بنزوله؛ لشدة حاجتهم واضطرارهم إليه.

---

(١) البيت لعامر بن جوين الطائي. انظر: «الكتاب» لسيبويه ٢/ ٤٦، «المحكم والمحيط الأعظم» ٨/ ٢١٩.

﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡهِم﴾ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر بالإضافة، أي: وإنهم كانوا من قبل تنزيل الغيث والمطر عليهم.

﴿مِّن قَبۡلِهِۦ﴾؛ تأكيد للأول، وعلى هذا يعود الضمير إلى الودق، أي: المطر، أي: من قبل إنزال المطر عليهم. ويحتمل عوده إلى الاستبشار المأخوذ من قوله: ﴿يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾، أي: من قبل الاستبشار، فيكون على هذا تأسيسًا لا توكيدًا.

﴿لَمُبۡلِسِينَ﴾؛ اللام: للتوكيد، ومعنى «مبلسين»، أي: قانطين يائسين من نزوله أزلين؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحۡمَتَهُۥۚ وَهُوَ ٱلۡوَلِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ۝٢٨﴾ [الشورى:٢٨].

﴿فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ﴾؛ قرأ نافع وأبو جعفر وأبو عمرو ويعقوب وابن كثير وأبو بكر عن عاصم بقصر الهمزة، وحذف الألف على الإفراد: «أَثَرِ».

وقرأ الباقون بمد الهمزة وألف بعد التاء على الجمع: ﴿ءَاثَٰرِ﴾.

والمراد برحمة الله هنا: المطر والغيث، أي: فانظر إلى آثار المطر والغيث. فأطلق عز وجل على المطر أنه رحمته في هذه الآية؛ كما أطلق ذلك على الجنة، فقال تعالى في الحديث القدسي للجنة: «**أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي**»(١)؛ لأن كلًّا من المطر والجنة أثر من آثار رحمته الفعلية.

وقيل: المراد برحمة الله الرحمة التي هي صفة من صفاته، والتي من آثارها المطر وإحياء الأرض بعد موتها.

والأول أظهر، أي: فانظر إلى آثار الغيث والمطر، الذي هو رحمة من الله عز وجل.

﴿كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ﴾، أي: كيف يحيي الله به الأرض بالنبات والاخضرار ﴿بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ﴾، أي: بعد أن كانت ميتة يابسة جرداء؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٤٨٥٠، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها ٢٨٤٦؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

[الحج:٥]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [فصلت:٣٩].

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾، أي: الذي أحيا الأرض بعد موتها وهو الله عز وجل، ﴿لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰٓ﴾؛ اللام: للتوكيد، أي: لقادر على إحياء الموتى، وإخراجهم من قبورهم أحياء.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، أي: وهو ذو القدرة التامة على كل شيء؛ كما قال تعالى في آية سورة فصلت: ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت:٣٩]، وقال تعالى في سورة الأعراف: ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف:٥٧].

﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا﴾؛ الواو: استئنافية، واللام: موطئة للقسم، أي: والله لئن أرسلنا ريحًا مضرة متلفة على النبات وما زرعوه.

و«الريح» بالإفراد تطلق على ما يضر غالبًا كما في هذه الآية، وكما في كثير من مواضع ذكرها في القرآن؛ كقوله تعالى: ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾ [الذاريات:٤١- ٤٢]، وقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ﴿١١٧﴾﴾ [آل عمران:١١٧]، وغير ذلك.

وقد تطلق «الريح» على ما ينفع؛ كقوله تعالى: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ [يونس:٢٢]، وفي الحديث: «**اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح، وخير ما فيها، وخير ما أمرت به، ونعوذ بك من شر هذه الريح، ومن شر ما فيها، وشر ما أمرت به**»(١).

عن يعلى بن عطاء، عن أبيه، قال: «الرياح ثمانية: أربعة منها رحمة، وأربعة منها عذاب، فأما الرحمة: فالناشرات والمبشرات والمرسلات والذاريات، وأما العذاب: فالعقيم والصرصر، وهما في البر، والعاصف والقاصف، وهما في البحر»(٢).

---

(١) أخرجه الترمذي في الفتن ٢٢٥٢؛ من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه.

(٢) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ٣٢٩.

﴿فَرَأَوۡهُ مُصۡفَرّٗا﴾، أي: فرأوا ما حيي بالماء الذي نزل من السماء، وهو النبات مصفرًّا، بعد اخضراره، قد تداعى إلى التلف والفساد واليبوس والسواد والهلاك.

﴿لَّظَلُّواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾؛ اللام: واقعة في جواب القسم، أي: لظلوا من بعد اصفرار نباتهم وزروعهم ﴿يَكۡفُرُونَ﴾، أي: يجحدون ما تقدم من النعم وينسونها، ويبادرون إلى الكفر؛ كما قال: ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَحۡرُثُونَ ۞ ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ۞ لَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَٰهُ حُطَٰمٗا فَظَلۡتُمۡ تَفَكَّهُونَ ۞ إِنَّا لَمُغۡرَمُونَ ۞ بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ ۞﴾ [الواقعة:٦٣- ٦٧].

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ ۞ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسۡلِمُونَ ۞﴾:

قوله: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾، أي: فإنك يا محمد لا تستطيع أن تسمع الموتى؛ لأنهم موتى لا يسمعون.

﴿وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ﴾؛ قرأ ابن كثير «وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ» بالياء مفتوحة، وقرأ الباقون بالتاء مضمومة: ﴿وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ﴾ على أنه خطاب للنبي ﷺ، أي: ولا تستطيع أن تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين؛ لأنهم لا يسمعون بسبب صممهم وإدبارهم عنك.

والمراد: أن هؤلاء الكافرين بالله ونعمه لا حيلة فيهم، ولا ينفع فيهم وعظ ولا زجر؛ لأنهم أشبه بالموتى الذين لا يسمعون، والصم إذا ولوا مدبرين.

﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ﴾؛ قرأ حمزة: «تَهْدِي» بالتاء، وبدون ألف بعد الهاء على الخطاب، ونصب «العُمْيَ» على المفعولية، وقرأ الباقون: ﴿بِهَادِي﴾ بالباء الموحدة، وبألف بعدها مع إضافة «هادي» إلى ﴿العُمْيِ﴾.

أي: وما أنت يا محمد بهادي العمي الذين لا يبصرون عن ضلالتهم، أي: عن متاهتهم إذا تاهوا في الطريق، فكذلك ماأنت بقادر على هداية العمي عن الحق من الكافرين عن ضلالتهم.

فاجتمع فيهم أنهم لا يسمعون كالموتى والصم المدبرين، ولا يهتدون كالعمي

الضالين، فلا أمل فيهم، ولا مطمع بهدايتهم.

﴿إِن تُسْمِعُ﴾؛ «إن» نافية بمعنى: «ما»، أي: ما تسمع إسماع إفهام وانتفاع ﴿إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾؛ «إلا»: أداة حصر، و«من»: موصولة، أي: إلا الذي يؤمن، أي: يصدق بآياتنا، وينقاد لها، ويعمل بها.

﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾، أي: مستسلمون لله بالتوحيد، منقادون لطاعته، مخلصون له العبادة وحده لا شريك له.

وهذا كقوله تعالى: ﴿۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأنعام:٣٦].

الفوائد والأحكام:

١- أن من آيات الله تعالى الدالة على تمام قدرته، ووحدانيته، وحكمته، وواسع علمه ورحمته، ونعمه على العباد: إرسال الرياح مبشرات بالمطر، ولإجراء السفن بأمره الكوني؛ لحملهم في أسفارهم في طلب معاشهم وتجاراتهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ﴾.

٢- كثرة منافع الرياح وتعددها، فهي تنشئ السحاب وتلقحه، وتبشر بالمطر، وتجري السفن في البحر، بأمر الله الكوني، إلى غير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾ الآية، وقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾.

٣- إثبات أمر الله تعالى وقوله الكوني؛ لقوله تعالى: ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾.

٤- إثبات الحكمة والعلة في أفعال الله، وأن الله تعالى أنعم على العباد بإرسال الرياح مبشرات، ويذيقهم من رحمته، بإنزال المطر، ويجري السفن في البحر تحملهم في أسفارهم في تنقلاتهم، وفي طلب معاشهم وتجاراتهم، وغير ذلك من النعم؛ ليشكروه بقلوبهم وألسنتهم وجوارحهم، بالاعتراف بهذه النعم، ونسبتها إليه عز وجل، واستعمالها في طاعته، والاستعانة بها على مرضاته؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

٥- تسلية النبي ﷺ، وتثبيت قلبه، وتهديد وتحذير المكذبين له؛ بإخباره بأنه عز وجل أرسل من قبله رسلًا كثيرين إلى قومهم وأيّدهم بالآيات البينات، ومع ذلك

كذبهم أقوامهم، فانتقم عز وجل من المجرمين، ونصر المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾.

٦- أن الله عز وجل ما أرسل رسولًا إلا أيده بالآيات البينات، والدلائل والحجج الواضحات.

٧- إحقاقه عز وجل على نفسه نصر المؤمنين، وإيجابه ذلك على نفسه؛ بسبب إيمانهم، تفضلًا منه وإحسانًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

٨- إثبات تفرده عز وجل، وتمام قدرته، وعظيم منته، بإرسال الرياح تثير السحاب، وبسطه في السماء كيف يشاء، وجعله كسفًا، وإنزال المطر منه؛ لقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾.

٩- أن السماء يطلق على كل ما علا؛ لأن السحاب ليس في السماء التي هي السقف المحفوظ، وإنما هو في العلو بين السماء والأرض؛ كما قال تعالى: ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة:١٦٤].

١٠- حكمة الله تعالى في جعل المطر ينزل من السماء؛ ليعم المرتفعات دون أن يغرق المنخفضات.

١١- إثبات المشيئة لله تعالى؛ وهي الإرادة الكونية؛ لقوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَشَاءُ﴾، وقوله: ﴿مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾.

١٢- تصريفه عز وجل المطر بين العباد كيف يشاء بحكمته؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ﴾ [النور:٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفرقان:٥٠].

١٣- إثبات عبودية الخلق كلهم العامة لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْ عِبَادِهِ﴾.

١٤- فرح العباد واستبشارهم بالمطر؛ لشدة حاجتهم إليه؛ لأنه سبب حياتهم وحياة أرضهم ومواشيهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾، وهذا أمر فطري وجائز.

١٥- شدة يأس الناس وقنوطهم من نزول المطر إذا تأخر عنهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن

كَانُوا۟ مِن قَبۡلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡهِم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمُبۡلِسِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

١٦- الحث على النظر والتأمل في آثار رحمة الله بالمطر والغيث، وكيف يحيي الله الأرض بالنبات والاخضرار، بعد أن كانت يابسة هامدة جرداء، والامتنان على العباد بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ﴾.

١٧- إثبات تمام قدرة الله تعالى على إحياء الموتى، والاستدلال على ذلك بإحيائه الأرض بعد موتها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ﴾، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾﴾ [فاطر:٩].

١٨- عموم قدرته تعالى التامة على كل شيء، فلا يعجزه شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾.

١٩- مبادرة كثير من الخلق إلى كفر نعمة الله تعالى عليهم بإنزال المطر، وإحياء الأرض بالنبات، وجحودهم لها، عندما يبتلون بإرسال الريح فيصفر وييبس؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَئِنۡ أَرۡسَلۡنَا رِيحٗا فَرَأَوۡهُ مُصۡفَرّٗا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعۡدِهِۦ يَكۡفُرُونَ ﴿٥١﴾﴾.

٢٠- أن الله يبتلي العباد بالنعم؛ كما يبتليهم بالنقم؛ لينظر من يشكر ومن يكفر، ومن يجزع ومن يصبر.

٢١- تسليته ﷺ والإعذار له، بأنه لا يستطيع إسماع الكافرين سماعًا ينتفعون به؛ كما أنه لا يستطيع إسماع الموتى؛ لأنهم موتى لا يسمعون، وكما أنه لا يستطيع إسماع الصم إذا ولوا مدبرين؛ لأنهم صم وقد تولوا مدبرين عنه؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡا۟ مُدۡبِرِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

٢٢- أنه ﷺ لا يقدر على هداية العميان عن الحق من الكفار عن ضلالتهم، وفي هذا أيضًا تسلية له ﷺ وإعذار، وإرشاد له بألا يجهد نفسه في طلب هدايتهم، فلا سبيل إلى ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ﴾.

٢٣- شدة عتو كفار قريش، وانسداد طرق الهداية لديهم، فهم صم عن الحق فلا يسمعونه، وعمي عنه فلا يبصرونه، فقلوبهم في أكنة لا يصل الهدى إليها، ولا

طريق له إليها.

٢٤- أنه ﷺ إنما يسمع الحق ويستجيب لداعيه الذين يؤمنون بآيات الله، ويصدقون بها، فهم مستسلمون لله تعالى، منقادون لطاعته، مخلصون له العبادة وحده لا شريك له؛ لقوله تعالى: ﴿إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسۡلِمُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾.

في هذه الآية بيان كمال قدرة الله تعالى، وبيان حال الإنسان وضعفه.

قوله: ﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾: قرأ عاصم وحمزة بفتح الضاد في المواضع الثلاثة: ﴿ضَعْفٍ﴾، وقرأ الباقون بضمها: «ضُعف».

أي: الله الذي أوجد أصلكم من تراب، ثم من نطفة ثم علقة ثم مضغة، ثم يكون جنينًا في بطن أمه، ثم طفلًا وليدًا، ثم صبيًّا صغيرًا، ثم حدثًا، ثم مراهقًا، ثم شابًّا، إلى أن يبلغ أشده.

﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾، أي: من بعد حالة الضعف منذ كان الإنسان نطفة وطفلًا ضعيف القوى البدنية والعقلية، إلى أن وصل إلى مرحلة الشباب وبلغ أشده، فكملت قوته، واكتملت عنده جميع القوى البدنية والعقلية، الظاهرة والباطنة.

﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ﴾؛ «شيبة»: اسم مصدر من «شاب»، أي: ثم جعل من بعد قوة ضعفًا وشيبة، أي: رجع بعد اكتمال قوته إلى الضعف، فاكتنف قوته ضعفان، فهو من ضعف إلى ضعف؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾

[النساء:٢٨].

وهذا يوجب على الإنسان أن يعرف قدر نفسه، فلا يطغى، ولا يتكبر، ولا يتجبر، ورحم الله امرأً عرف قدر نفسه، وقد أحسن القائل:

إذا كنت تبغي العز فابغ توسطا ... فعند التناهي يقصر المتطاول

توقى البدور النقص وهي أهلة ... ويدركها النقصان وهي كوامل(١)

﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾، أي: يخلق الذي يشاء، ويتصرف في خلقه كيف يشاء؛ لسعة علمه، وتمام قدرته؛ ولهذا قال: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾، أي: ذو العلم الواسع الذي وسع كل شيء؛ كما قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه:٩٨].

وذو القدرة التامة فلا يعجزه شيء؛ كما قال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر:٤٤].

وباجتماع سعة العلم وتمام القدرة جاء خلقه على أكمل الوجوه وأتمها؛ كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق:١٢].

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

قوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾، أي: ويوم تقوم القيامة، ويبعث الناس من قبورهم.

﴿يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾، أي: يحلف مرتكبو الجرائم من الكفر والشرك، وغير ذلك من الموبقات.

---

(١) البيتان لأبي العلاء المعري. انظر: «ديوانه» ص٣٢١، وروي الشطر الأول من البيت الأول بلفظ: «إذا كنت تبغي العيش...». انظر: «ربيع الأبرار» ٥/ ٣٤٥، «الحماسة المغربية» ٢/ ١٢٦٨.

﴿مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍۚ﴾، أي: ما أقاموا في الدنيا إلا ساعة واحدة، أي: فترة قصيرة، ومدة قليلة من الزمن، يعني: أنهم لم يمهلوا وينظروا مدة يُعذر فيها إليهم، وتقوم بها الحجة عليهم. وهم بهذا كاذبون؛ ولهذا رد الله تعالى عليهم بقوله:

﴿كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ﴾؛ الكاف: للتشبيه بمعنى: مثل، أي: مثل هذا الإفك الذي يصرفون به عن قول الحق يوم القيامة في إقسامهم أنهم ما لبثوا غير ساعة، كذلك كانوا يصرفون عن اتباع الحق في الدنيا.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾، أي: الذين وفقوا للعلم النافع، والعمل الصالح، اللَّذَينِ أرسل الله رسوله ﷺ بهما؛ كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ [التوبة:٣٣]، [الفتح:٢٨]، [الصف:٩].

﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾؛ اللام: لام القسم لقسم مقدر، أي: والله ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾، أي: في قضائه وحكمه وقدره الذي كتبه الله عليكم في سابق علمه ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِۖ﴾، أي: من يوم خلقكم إلى أن بعثتم، أي: أنكم عمرتم عمرًا يتذكر فيه من وفق للتذكر؛ كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ﴾ [فاطر:٣٧].

﴿فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ﴾؛ ها قد بعثتم فيه، وأوقفتم للحساب.

﴿وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ العلم الذي فيه نجاتكم وسعادتكم في الدارين؛ ولهذا لعدم علمكم وجهلكم المركب أنكرتم البعث، ولم تستعدوا له في الدنيا، وأقسمتم في القيامة أنكم ما لبثتم في الدنيا غير ساعة.

﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾، أي: ففي ذلك اليوم يوم القيامة ﴿لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾؛ قرأ حمزة والكسائي وعاصم بالياء: ﴿لَّا يَنفَعُ﴾، وقرأ الباقون بالتاء: «لَا تَنْفَعُ».

أي: لا ينفع الذين ظلموا- بالكفر والشرك وارتكاب الجرائم والموبقات- ﴿مَعْذِرَتُهُمْ﴾، أي: اعتذارهم عما قضوا به حياتهم، وضيعوا فيه أعمالهم من الباطل واللهو واللعب، ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾، أي: ولا هم يرجعون إلى الدنيا ليستعتبوا؛

كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾ [فصلت:٢٤].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾؛ لبيان الحق وإيضاحه، وإقامة الحجة عليهم.

﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾، أي: من كل الأمثلة، مما يحتاج إليه في بيان الحق، وتقريب الأمور المعنوية المعقولة، بتمثيلها بالأمور المحسوسة؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الزمر:٢٧]، وذلك كقوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ﴾ [البقرة:٢٦١].

﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ﴾؛ الواو: عاطفة، واللام: موطئة للقسم، أي: والله لئن جئتهم يا محمد ﴿بِـَٔايَةٍ﴾، أي: بأي آية تدل على صدقك، وصحة ما جئت به من الحق، ﴿لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾؛ اللام: واقعة في جواب القسم، أي: ليقولن الذين كفروا منهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ﴾؛ «إن»: نافية بمعنى «ما»، أي: ما أنتم أيها الرسل وأتباعكم ﴿إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾؛ «إلا»: أداة حصر، أي: إلا أصحاب باطل، وما جئتم به باطل وكذب.

فهم كما قال الله تعالى في سورة يونس: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾.

﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي: كذلك يختم الله كونًا وقدرًا على قلوب الذين لا يعلمون العلم الذي به نجاتهم وسعادتهم في دنياهم وأخراهم، فتكون قلوبهم غلفًا في أكنة، لا يصل إليها خير، كما ختم على قلوب هؤلاء الكافرين

المكذبين من قومك.

﴿فَٱصۡبِرۡ﴾ على ما أمرت به وعلى دعوتهم، وعلى تعنتهم ومخالفتهم وعنادهم.

﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾؛ تعليل للأمر بالصبر، أي: لأن وعد الله حق، أي: ثابت وواقع لا محالة؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ٥١﴾ [غافر:٥١]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٧١ إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ١٧٢ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ١٧٣﴾ [الصافات:١٧١-١٧٣].

﴿وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾، أي: لا يحملنك على الاستعجال وترك الصبر الذين لا يوقنون بلقاء الله، ولا يصدقون بوعده، ولا وعيده، وبما جاءت به الرسل، بل اصبر على ما أنت عليه من الحق، واصبر على دعوتهم وعلى أذاهم؛ فإن العاقبة للمتقين.

الفوائد والأحكام:

١- تنبيه العباد وتذكيرهم بأطوار ومراحل خلقهم، وتفرده عز وجل بذلك، وعظيم قدرته، وبالغ حكمته في التدرج بخلقهم، حيث خلقهم من ضعف، ثم جعل من بعد ضعف قوة، ثم ردهم إلى ضعف وشيبة، فذكّرهم أن قوتهم محفوفة بضعفين؛ ليعلموا أن القوة لله جميعًا، ويستمدوا قوتهم من قوته عز وجل بتقواه؛ لقوله تعالى: ﴿۞ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗۚ﴾.

٢- التدرج في الأمور؛ لأن الله تعالى لو أراد خلق الإنسان كامل القوى في لحظة واحدة لفعل؛ لأنه لا يعجزه شيء، وإذا أراد شيئًا إنما يقول له: كن، فيكون.

٣- أن كل قوة آيلة إلى ضعف، وكل كمال آيل إلى نقص، إلا قوة الله القوي المتين، من له وحده الصفات الحسنى، والمثل الأعلى في السموات والأرض، وهو العزيز الحكيم، وأنه ما علا شيء وارتفع إلا كان على الله عز وجل أن يضعه.

٤- قدرته عز وجل التامة على خلق ما يشاء، وفعل ما يشاء، وأن له التصرف التام

في خلقه؛ لسعة علمه، وتمام قدرته؛ لقوله تعالى: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾.

٥- إثبات اسمين من أسماء الله عز وجل، وهما: «العليم» و«القدير»، وصفة العلم الواسع، والقدرة التامة له عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾.

فالذي يخلق ويستحق اسم الخالق هو الله سبحانه وتعالى وحده؛ لأن من لازم ذلك سعة العلم وكماله، وتمام القدرة، وليس ذلك لأحد سواه عز وجل: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون:١٤].

٦- إثبات القيامة والبعث، والحساب والجزاء على الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾، وقوله: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ﴾.

٧- إقسام المجرمين وحلفهم كذبًا يوم القيامة: أنهم ما لبثوا إلا ساعة واحدة، أي: مدة قصيرة غير كافية للإعذار إليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾.

٨- أن الانشغال باللهو والمعاصي واتباع الشهوات والملذات يذهب بركة العمر؛ ولهذا قال ﷺ لابن عمر: «**كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل**»، وكان ابن عمر يقول: «**إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك**»(١).

٩- صرفهم عن قول الحق يوم القيامة، بإقسامهم كذبًا أنهم ما لبثوا غير ساعة؛ كما صرفوا عن اتباع الحق في الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ﴾.

١٠- أن من مات على شيء بعث عليه؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ﴾.

١١- رد الذين أوتوا العلم والإيمان على إقسام المكذبين بأنهم ما لبثوا غير ساعة، بالإقسام بأنهم لبثوا في كتاب الله إلى يوم البعث، أي: مدة طويلة كافية لإقامة الحجة عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤١٦، والترمذي في الزهد ٢٣٣٣، وابن ماجه في الزهد ٤١١٤؛ من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما.

﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡبَعۡثِۖ﴾.

١٢- فضيلة العلم وأهله، وأنه سبب لمعرفة الحق، والصدع به، ورد الباطل، بتوفيق الله تعالى.

١٣- أن العلم قبل الإيمان والعمل، وهو سبب لهما؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ﴾، فقدم العلم على الإيمان؛ كما قال تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد:١٩].

١٤- إثبات قدر الله تعالى، وحكمه الكوني وقضائه؛ لقوله تعالى: ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾.

١٥- جهل هؤلاء المكذبين وعدم علمهم؛ ولهذا أنكروا البعث، وزعموا أنهم لم يلبثوا في الدنيا إلا ساعة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّكُمۡ كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

١٦- أنه في يوم القيامة لا تنفع الظالمين معذرتهم، ولا هم يرجعون إلى الدنيا؛ ليستعتبوا، ويطلبوا العفو؛ لأن الآخرة دار جزاء لا دار عمل؛ لقوله تعالى: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعۡذِرَتُهُمۡ وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ۝٥٧﴾.

١٧- الامتنان على الناس بضرب الأمثال الكثيرة المختلفة في القرآن؛ لزيادة الإيضاح والبيان، وإقامة الحجة عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ﴾.

١٨- تكذيب المشركين بكل ما جاء به الرسول ﷺ من الآيات الدالة على صدقه، وصحة ما جاء به، واتهامهم الرسول ﷺ وغيره من المرسلين بأنهم من المبطلين؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَئِن جِئۡتَهُم بِـَٔايَةٖ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُبۡطِلُونَ﴾.

١٩- ختم الله عز وجل على قلوب الذين لا يعلمون من كفار قريش وغيرهم، فلا تؤمن قلوبهم بالحق، ولا تهتدي إليه، ولا تقبله؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٥٩﴾.

٢٠- ذم الجهل وأهله، الذين لا يعلمون العلم الذي به سعادتهم ونجاتهم في الدنيا والآخرة، وهو معرفة ربهم وما يجب له، وأن ذلك هو سبب الطبع على قلوبهم.

٢١- تثبيت الله عز وجل لنبيه ﷺ، وتقوية قلبه، بأمره له بالصبر على ما أمره الله به، وعلى تعنت قومه وعنادهم، وتسليته له بأن وعده له بنصره والانتقام منهم حق آتٍ لا محالة؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ﴾.

٢٢- نهيه عز وجل له ﷺ أن يحمله تكذيب المشركين له- الذين لا يوقنون بلقاء الله، ولا يصدقون بوعده ولا وعيده، ولا بما جاءت به الرسل- على الاستعجال وترك الصبر؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾.

* * *

تَفْسِيرُ سُورَةِ لُقْمَان

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة لقمان»؛ لتنويه الله عز وجل بذكر لقمان فيها، وما أعطاه الله من الحكمة، وأمره عز وجل إياه بشكره، وذكر جمل من مواعظه وحكمه التي أدب بها ابنه. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ [الآية:١٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾، وقال تعالى: ﴿يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ [الآيات:١٦-١٩].

ب- مكان نزولها:

نزلت سورة لقمان بمكة، وقيل: إلا ثلاث آيات منها؛ وهي قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ...﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾ [الآيات:٢٧-٢٩].

والصحيح أنها كلها مكية؛ لأن السورة إذا كانت مكية أو مدنية لا يستثنى منها شيء إلا بنص صريح واضح؛ لأن الأصل أن السورة تكون متتالية، والرسول ﷺ يأمر بوضع كل آية في مكانها.

جـ- موضوعاتها:

١- افتتحت السورة بتعظيم القرآن، وبيان إعجازه وما فيه من الحكمة والهدى والرحمة، وبخاصة للمحسنين في عبادة الله تعالى بإقام الصلاة، وإلى عباد الله بإيتاء الزكاة، الذين يوقنون بالآخرة، وامتداح طريقهم وأنهم على هدى من ربهم، وحصر الفلاح فيهم.

٢- ذم فريق من الناس، وهم الكفرة والمشركون الذين يشترون لهو الحديث للإضلال عن سبيل الله واتخاذ آيات الله هزواً، وإذا قرئت على أحدهم آيات الله ولى مستكبراً كأن لم يسمعها، وتوعدهم بالعذاب المهين، وبشارتهم بالعذاب الأليم.

٣- الترغيب في الإيمان والعمل الصالح ببيان ما أعده الله عز وجل للذين آمنوا

وعملوا الصالحات من جنات النعيم والخلود فيها، وعداً عليه حقًّا وهو العزيز الحكيم.

٤- إثبات وحدانية الله تعالى وتمام قدرته وتفرده بالخلق، وذم الظالمين المشركين بالله لظلالهم المبين: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿١١﴾﴾.

٥- الامتنان على لقمان عليه السلام بإيتائه الحكمة؛ ليشكر لله، وبيان أن من يشكر فإنما يشكر لنفسه، ومن كفر فإن الله غني عن العالمين.

٦- ذكر وصية لقمان الكبرى لابنه ووعظه إياه بالموعظة العظمى: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ﴿١٣﴾﴾.

٧- وصية الله تعالى الإنسان بالإحسان إلى والديه، وبيان عظم معاناة أمه في حمله وفصاله في عامين، في إشارة لعظم حقها، وأمره بالشكر لله عز وجل، ولوالديه، ونهيه عن طاعتهما في الإشراك بالله ما ليس له به علم، وأمره بمصاحبتهما في الدنيا بالمعروف، وبيان أن مصير الخلق إليه ورجوعهم كلهم إليه، فينبئهم بأعمالهم ويحاسبهم ويجازيهم عليها.

٨- بيان لقمان لابنه كمال عدل الله عز وجل في محاسبة الخلائق: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴿١٦﴾﴾.

٩- أمره لابنه بإقام الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر على ما أصابه في سبيل ذلك، وأن ذلك من عزم الأمور.

١٠- نهيه لابنه عن الكبر وتصعير خده للناس كبراً، والمشي في الأرض مرحاً واختيالا؛ لأن الله لا يحب كل مختال فخور.

١١- أمره بالقصد في مشيه والغض من صوته؛ لأن أنكر الأصوات صوت الحمير.

١٢- التقرير والتذكير بتسخير الله تعالى للعباد كل ما في السموات وما في الأرض وإسباغ نعمه عليهم ظاهرة وباطنة.

١٣- ذم فريق من الناس ينكر هذه النعم ويجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير، ويعدلون عن اتباع ما أنزل الله، ويتبعون ما وجدوا عليه آباءهم مما يدعوهم

به الشيطان إلى عذاب السعير.

١٤- الثناء على من أخلص العمل لله واتبع شرعه باستمساكه بالعروة الوثقى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾﴾.

١٥- تسليته ﷺ وطمأنة قلبه فلا يحزنه كفر من كفر، فمرجعهم إلى الله فينبئهم بالذي عملوا، ويحاسبهم ويجازيهم عليه؛ لأنه عليم بذات الصدور، وتهديدهم ووعيدهم: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾.

١٦- ذمهم على عبادتهم غير الله مع إقرارهم بربوبيته، وأنه الذي خلق السموات والأرض، وله وحده الحمد، وبيان أن أكثرهم لا يعلمون؛ إذ كيف يعبدون غيره مع إقرارهم بربوبيته؟!

١٧- بيان سعة ملكه عز وجل وغناه، وأنه المحمود في غناه، وفي كل صفاته، وإثبات الكلام له عز وجل كما يليق بجلاله وعظمته، وأن كلماته الشرعية لا تنفد؛ قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾.

١٨- إثبات تمام قدرته على البعث: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾.

١٩- تقرير تمام قدرته ونعمته تعالى في إيلاج الليل في النهار والنهار في الليل، وتسخير الشمس والقمر؛ كل يجري إلى أجل مسمى، وتمام علمه وخبرته بأعمال العباد، والاستدلال بذلك كله على أنه عز وجل هو الحق وأن ما يدعوه المشركون من دونه هو الباطل، وأنه عز وجل هو العلي الكبير.

٢٠- إثبات تمام قدرته تعالى في إجراء الفلك في البحر بنعمته؛ ليري العباد من آياته، وأن في ذلك آيات لكل صبار شكور.

٢١- دعاء المشركين الله مخلصين له الدين وقت الشدة، إذا غشيهم موج كالظلل في البحر، فإذا نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد، ومنهم جاحد لآيات الله ونعمه، ختار كفور.

٢٢- وجوب تقوى الله، وخشية يوم القيامة وأهواله، يوم لا يجزي والد عن ولده، ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً، وبيان أن وعد الله حق، والتحذير من

الاغترار بالحياة الدنيا، ومن الاغترار بالشيطان.

٢٣- بيان اختصاص الله عز وجل بعلم الغيب: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ ٣٤﴾.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ٢ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ ٣ ٱلَّذِينَ
يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ
وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٥ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ
ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٦ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا
وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٧ إِنَّ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ٨ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ
وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٩ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن
تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ
كَرِيمٍ ١٠ هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي
ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ١١﴾.

قوله: ﴿الٓمٓ﴾: سبق الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة البقرة.

﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾: سبق الكلام على هذا في مطلع سورة يونس.

والإشارة لآيات القرآن العظيم، وأشار إليها بإشارة البعيد «تلك» تعظيمًا لها.

و«ال» في «الكتاب» للعهد، وللتعظيم، أي: الكتاب المعهود المعلوم، الذي إذا أطلق اسم «الكتاب» انصرف الذهن إليه لعظمته، وكونه أفضل الكتب على الإطلاق.

﴿ٱلۡحَكِيمِ﴾: نعت لـ«الكتاب»، أي: المحكم المتقن، المشتمل على الحكم، وعلى الحكمة في ألفاظه ومعانيه، وهديه ومواعظه، وأوامره ونواهيه، وأحكامه وأخباره، الدال على أنه من عند العليم الحكيم؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء: ٨٢].

﴿هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ﴾: قرأ حمزة بالرفع: «هُدًى وَرَحْمَةٌ» على أنه خبر ثانٍ عن اسم الإشارة، وقرأ الباقون بالنصب: ﴿هُدٗى وَرَحۡمَةٗ﴾ على الحال.

أي: فيه الهدى والنور والعلم، الذي يعصم بإذن الله من الضلال والعمى والجهل؛

كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة:٣٣]، [الفتح:٢٨]، [الصف:٩].

وقال تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ۝١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [المائدة:١٥- ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ﴾ [الشورى:٥٢]، وقال تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ﴾ [التغابن:٨].

﴿وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ﴾؛ معطوف على «هدى»، أي: هدى ورحمة للمحسنين، هداية خاصة بهم، ورحمة خاصة لهم؛ لأنهم هم الذين يهتدون وينتفعون به، وهم المؤمنون الذين أحسنوا في عبادة ربهم بالإخلاص له، والمتابعة لشرعه وسنة نبيه ﷺ، وأحسنوا إلى عباد الله بأداء حقوقهم الواجبة والمندوبة، فاهتدوا إلى الصراط المستقيم، وسعدوا به في الدنيا والآخرة، وفازوا بالجنة والنجاة من النار.

﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾؛ هذه نعوت للمحسنين، وخص هذه الصفات الثلاث؛ لأنها من أهم صفاتهم، ومن أعظم وأفضل العبادات.

أي: الذين يقيمون الصلاة إقامة تامة بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها؛ كما شرعها الله، واجبها ونفلها.

﴿وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، أي: ويعطون الزكاة المفروضة في أموالهم، ويدفعونها إلى مستحقيها.

وخص الصلاة والزكاة بالذكر من بين سائر العبادات؛ لأن الصلاة أعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين، وأعظم العبادات البدنية، ومن أقامها كما شرع الله وُفق لإقامة ما عداها من شعائر الدين، وقبلت وقبل سائر عمله، وخف حسابه.

ولأن الزكاة قرينة الصلاة، وهي أعظم أركان الإسلام بعد الصلاة، وأعظم

العبادات المالية.

﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾؛ الواو: عاطفة، أي: وهم بالدار الآخرة والقيامة، ﴿هُمۡ يُوقِنُونَ﴾، أي: يصدقون التصديق التام بها، وبما فيها من الحساب والجزاء على الأعمال.

وقد أكد قوة يقينهم بالآخرة، وصدق إيمانهم بها بكون الجملة اسمية معرفة الطرفين، وبضمير الفصل «هم».

فجمعوا بين الإحسان في عبادة الله تعالى، وإلى عباد الله، وبين الإيمان الظاهر بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وبين الإيمان الباطن باليقين والإيمان التام بالآخرة، والاستعداد لها.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ الإشارة إلى المحسنين، الموصوفين بالصفات المذكورة، وأشار إليهم بإشارة البعيد «أولئك» في الموضعين تنويهًا بهم، ورفعة لشأنهم.

﴿عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ﴾؛ نكَّر «هدى» للتعظيم، أي: على هدى عظيم تام في دينهم، ويزيده تمامًا وكمالًا كونه من ربهم.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾، أي: هم الفائزون في دنياهم وأخراهم، الناجون من النار والعذاب، الظافرون بالجنة والثواب.

وأكَّد فلاحهم، بل وحصر الفلاح فيهم، بكون الجملة اسمية، وبضمير الفصل «هم»، أي: وأولئك هم المفلحون دون غيرهم.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٦ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٧﴾ [لقمان:٦- ٧].

لما أثنى على القرآن الكريم، وامتدح المحسنين الذين يهتدون به، وينقادون له ظاهرًا وباطنًا، وأنهم على هدى من ربهم، ووعدهم بالفلاح في دنياهم وأخراهم، أتبع ذلك بذم المعرضين عنه، المستبدلين به لهو الحديث، المستهزئين به، المستكبرين عن اتباعه.

قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾؛ الواو: عاطفة، و«من»: تبعيضية، أي: وبعض الناس.

﴿مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾؛ «من»: موصولة، أي: الذي يشتري ما يلهي عن طاعة الله تعالى، فيشتري القينات، والجواري المغنيات؛ لاستماع الغناء والمزامير، ويختار

ويستبدل عن سماع القرآن بذلك وبسماع اللهو واللغو والأباطيل، والسمر بالأساطير والأحاديث التي لا أصل لها، والتحدث بالخرافات والمضحكات وفضول الكلام، وما لا ينبغي، مما يصرف عن استماع القرآن، وعن اتباع الحق، وعن الانتفاع بالوقت وعمارته بما ينفع في دينه ودنياه وأخراه، ولعل من أعظم ذلك وأخطره اليوم الانشغال بمتابعة ما تنقله وسائل الاتصال عبر بواباتها المختلفة، وما تبثه القنوات المرئية والمسموعة والمقروءة وغير ذلك، مما أهدر كثيرًا من الأوقات، وألهى عن كثير من الواجبات والمسؤوليات.

وهذا لا ينافي ما روي عن السلف من تفسير «لهو الحديث» بالغناء؛ كما قال ابن مسعود رضي الله عنه: قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾؛ قال: «الغناء، والذي لا إله إلا هو»، يرددها ثلاث مرات.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «الغناء، وأشباهه، أو ونحوه»[(١)].

وكذا روي عن جمع من التابعين أنه الغناء[(٢)].

فكل ما ألهى وشغل عن طاعة الله تعالى، وعن سماع القرآن، من الغناء واللغو والباطل من قول أو فعل ؛ فهو من لهو الحديث، والغناء من أشد ذلك وأعظمه.

قال ابن القيم، بعد أن ذكر أن لهو الحديث يشمل الغناء وغيره من الباطل: «إذا عرف هذا، فأهل الغناء ومستمعوه لهم نصيب من هذا الذم، بحسب اشتغالهم بالغناء عن القرآن، وإن لم ينالوا جميعه، فإن الآيات تضمنت ذم من استبدل لهو الحديث بالقرآن؛ ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوًا، وإذا يتلى عليه القرآن ولى مستكبرًا كأن لم يسمعه، كأن في أذنيه وقرًا وهو الثقل والصمم، وإذا علم منه شيئًا استهزأ به، فمجموع هذا لا يقع إلا من أعظم الناس كفرًا، وإن وقع بعضه للمغنين ومستمعيهم فلهم حصة ونصيب من هذا الذم.

يوضحه أنك لا تجد أحدًا عُني بالغناء وسماع آلاته إلا وفيه ضلال عن طريق الهدى علمًا وعملًا، وفيه رغبة عن استماع القرآن إلى استماع الغناء، بحيث إذا عرض له

---

(١) أخرجه عنهما الطبري في «جامع البيان» ١٨/ ٥٣٥.

(٢) انظر:«جامع البيان» ١٨/ ٥٣٦-٥٣٨.

سماع الغناء وسماع القرآن، عدل عن هذا إلى ذاك، وثقل عليه سماع القرآن، وربما حمله الحال على أن يسكت القارئ ويستطيل قراءته، ويستزيد المغني ويستقصر نوبته، وأقل ما في هذا أن يناله نصيب وافر من هذا الذم، إن لم يحظ به جميعه.

والكلام في هذا مع من في قلبه بعض حياة يحس بها، فأما من مات قلبه، وعظمت فتنته، فقد سد على نفسه طريق النصيحة: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٤١]»[١].

وقال رحمه الله في النونية[٢]:

حب الكتاب وحب ألحان الغنا ... في قلب عبدٍ ليس يجتمعانِ

﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: قرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء: «لِيَضِلَّ»، أي: ليضل بنفسه عن سبيل الله، وقرأ الباقون بضمها: ﴿لِيُضِلَّ﴾.

واللام: للتعليل، أي: لأجل أن يضل غيره، بعد أن ضل بنفسه عن سبيل الله وصراطه المستقيم.

﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، أي: بجهل منه بربه، وما يجب له، وبحقيقة ما خلق له.

﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾: قرأ حمزة والكسائي وخلف ويعقوب وحفص بالنصب: ﴿وَيَتَّخِذَهَا﴾، عطفًا على ﴿لِيُضِلَّ﴾.

وقرأ الباقون بالرفع: ﴿ويتخذُها﴾ عطفًا على ﴿يَشْتَرِى﴾.

والضمير في ﴿وَيَتَّخِذَهَا﴾ يعود إلى ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أي: ويجعل سبيل الله وآياته وما فيها من الحق سخرية يسخر بها، وبمن جاء بها من عند الله، وبمن تمسك بها.

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾: أولئك اللاهون الضالون المضلون المستهزئون، لهم عذاب يوم القيامة في جهنم يهينهم ويذلهم؛ بسبب اشترائهم لهو الحديث،

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٤٠٥.
(٢) ص٣٢٦.

وإعراضهم عن آيات الله، وضلالهم وإضلالهم عن سبيل الله، واستهزائهم بها، والجزاء من جنس العمل، وأشار إليهم بإشارة البعيد تحقيرًا لهم.

وأتى بالجملة الاسمية ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ﴾ للدلالة على الثبوت والدوام، وقدم الخبر وهو قوله: ﴿لَهُمْ﴾؛ لإفادة الحصر والاستحقاق.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ﴾، أي: وإذا تقرأ على هذا الذي اتخذ لهو الحديث ليضل عن سبيل الله ويتخذها هزوًا ﴿ءَايَٰتُنَا﴾، أي: آيات القرآن؛ ليتأمل فيها، ويؤمن بها، وينقاد لها.

﴿وَلَّىٰ﴾، أي: ولي عنها ببدنه، وأعرض عنها بقلبه، ﴿مُسْتَكْبِرًا﴾: حال، أي: حال كونه مستكبرًا، أي: متعاليًا متعاظمًا في نفسه، عن قبول الحق، والانقياد له، والسين والتاء للمبالغة.

﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ الجملة: حالية، أي: كأنه لم يسمعها، وكأنها ما تليت عليه؛ لعدم انتفاعه بها بسبب توليه وإعراضه واستكباره.

﴿كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾؛ قرأ نافع بسكون الذال: «أُذْنَيْهِ»، وقرأ الباقون بضم الذال على الأصل: ﴿أُذُنَيْهِ﴾.

والجملة أيضا: حالية، وبيان للأولى، أي: كأن في أذنيه صممًا وثقلًا مانعًا من السماع.

﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، أي: فبشره بعذاب مؤلم موجع؛ حسيًّا لبدنه، ومعنويًّا لقلبه يوم القيامة.

والبشارة في الأصل: الإخبار بما يسر، وأطلقت هنا على البشارة بما يحزن ولا يسر على طريق التهكم والسخرية به؛ كما سخر بآيات الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ۝٨ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٩﴾:

لما توعَّدَ المكذبين بآيات الله، المعرضين عنها، بالعذاب المهين، والعذاب الأليم، ذكر ما أعدَّه للذين آمنوا وعملوا الصالحات من النعيم المقيم، جمعًا بين الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، أي: آمنوا بقلوبهم، وعملوا بجوارحهم الأعمال الصالحات، التي جمعت بين الإخلاص لله تعالى، والمتابعة لرسوله ﷺ.

﴿لَهُمْ﴾، أي: لهم خاصة ﴿جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾، أي: التي فيها كل أنواع النعيم وألوانه: نعيم الروح والقلب والبدن، من المآكل والمشارب والملابس، والمساكن والمراكب والأزواج، والسماع والمناظر والبهجة والسرور، وغير ذلك.

كما قال ﷺ: «**فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**»، ثم قرأ قول الله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة:١٧](١).

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾، أي: مقيمين وماكثين فيها أبدًا، لا يبغون عنها حولًا، ولا يُخرَجون منها.

﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾؛ «وعد»: مفعول مطلق، و«حقًا»: مفعول مطلق مؤكد لمضمون الجملة، أي: وعدًا من الله لهم ﴿حَقًّا﴾، أي: محققًا ثابتًا آتيًا ولا بد، وواقعًا لا محالة؛ لأنه سبحانه لا يخلف الميعاد، وهذه بشارة لهم بما قدموه، وقِرًى لهم بما أسلفوه.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، أي: ذو العزة التامة، عزة القوة والقهر والامتناع، الذي قهر كل شيء، القادر على كل شيء.

وذو الحكم التام والحكمة البالغة في خلقه وقدره وشرعه وجزائه، في أقواله وأفعاله، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، يضع الأمور مواضعها، ويجازي كلًّا بما عمل.

ومع أن صفات المخلوق لا تقارن بصفات الخالق، فصفاته عز وجل أعلى وأجل، وأعظم وأكمل، فقل أن تجتمع هاتان الصفتان: العزة والحكمة في أحد من الخلق، فإن وجدتَ شخصًا قويًّا عزيزًا وجدته غشيمًا فاقدًا للحكمة غالبًا، وإن وجدت شخصًا حكيمًا وجدته ضعيفًا عاجزًا قليل الحيلة غالبًا.

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ

(١) سبق تخريجه.

وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾﴾:

قوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾، أي: أوجدها وجعلها سقفًا للمخلوقات، وأمسكها بقدرته بغير عمد، ولو كان لها عمد لرؤيت وشوهدت. وقيل: لها عمد لكن لا تُرى(١).

﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: وركز في الأرض ووضع فيها جبالًا.

﴿رَوَٰسِىَ﴾، أي: ثوابت، أرسى بها الأرض، وثبتها بها، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾﴾ [النازعات:٣٢].

﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾، أي: لئلا تميد بكم، أي: لئلا تضطرب وتميل بكم وتتحرك.

﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍۚ﴾، أي: ونشر في الأرض وفرّق فيها وذرأ من كل أنواع الدواب وأصنافها، التي سخرها الله لبني آدم ومصالحهم ومنافعهم، مما تُعلم الحكمة من خلقه، ومما لا تعلم.

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾.

لما قرر أنه الخالق، نبه على أنه الرازق، فقال: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ الآية.

قوله: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾؛ هو المطر، وفي الآية التفات من الغيبة إلى التكلم، والمراد بالسماء: العلو.

﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾، أي: فأنبتنا في الأرض من كل صنف من أصناف النباتات وأنواعها، ﴿كَرِيمٍ﴾ بهيج نافع حسن المنظر.

﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ﴾، أي: هذا مخلوق الله، أي: هذا المذكور من خلق السموات من غير عمد، وترسية الأرض بالجبال، وبث أنواع الدواب فيها، وإنزال المطر من السماء عليها، وإخراج أصناف النباتات النافعة منها، وغير ذلك، أي: هذا كله خلق الله تعالى

---

(١) انظر تحقيق القول في هذا في سورة الرعد.

وحده؛ ولهذا استحق العبادة دون غيره.

﴿فَأَرُونِي﴾، أيها المشركون، والأمر للتحدي والتعجيز، ﴿مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ «ماذا»: اسم استفهام، أو «ما»: استفهامية، و«ذا»: اسم موصول، أي: ما الذي خلق الذين تعبدونهم غيره من الشركاء؟ أي: أروني إياهم، وأحضروهم لي؛ كما قال الشاعر:

أريني جوادًا مات هزلًا لعلني … أرى ما ترين أو بخيلًا مخلَّدَا(١)

والاستفهام للتهكم والنفي، أي: أنهم لم يخلقوا شيئًا، فلا يستحقون أن يعبدوا مع الله؛ كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [الروم: ٤٠].

قال ابن القيم في كلامه على قوله تعالى: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾: «فلله ما أحلى هذا اللفظ وأوجزه، وأدله على بطلان الشرك! فإنهم إن زعموا أن آلهتهم خلقت شيئًا مع الله طولبوا بأن يُرُوه إياه، وإن اعترفوا بأنهم أعجز وأضعف وأقل من ذلك كانت إلهيتها باطلًا ومحالًا»(٢).

﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾؛ «بل»: للإضراب الانتقالي، أي: بل الظالمون بالشرك بالله وعبادة غيره معه ﴿فِى ضَلَٰلٍ﴾، أي: في جهل وعمى، وبُعد عن الحق شديد، وتيه بعيد، ﴿مُّبِينٍ﴾، أي: بيِّن واضح، ظاهر جلي في عبادتهم من دون الله شركاء لا يخلقون شيئًا وهم يخلقون، ولا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا، ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا.

الفوائد والأحكام:

١ - إثبات إعجاز القرآن الكريم، والتحدي به؛ لقوله تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾﴾.

٢ - تعظيم الله لآياته وكتابه المبين؛ لقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

---

(١) البيت لحاتم الطائي. انظر: «ديوانه» ص١٦.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٤٠٦.

٣- إثبات عظمة الله تعالى ووحدانيته وكمال حكمته، وصدق رسوله ﷺ؛ لدلالة القرآن الكريم على ذلك؛ ولهذا سماه الله تعالى: ﴿ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾.

٤- أن الكتاب إذا أطلق فالمراد به: القرآن العظيم، أعظم الكتب على الإطلاق وأفضلها.

٥- إحكام القرآن الكريم وإتقانه، واشتماله على الحكم بين الناس، وعلى الحكمة في هديه ومواعظه وأحكامه وأخباره، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلۡحَكِيمِ﴾.

٦- أن القرآن هدى ورحمة للمحسنين خاصة؛ لأنهم هم الذين يؤمنون به، وينقادون له، فيحسنون في عبادة الله تعالى إخلاصًا لله تعالى، ومتابعة لشرعه، ويحسنون إلى عباده بأداء حقوقهم الواجبة والمندوبة؛ لقوله تعالى: ﴿هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

٧- امتداح المحسنين بأعظم أعمالهم من إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والتصديق الجازم بالآخرة والاستعداد لها؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤﴾.

٨- عظم مكانة الصلاة والزكاة بين أركان الإسلام وبين العبادات؛ لأن الله خصهما بالذكر، فالصلاة أعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين، وأعظم العبادات البدنية، والزكاة قرينة الصلاة وأعظم العبادات المالية.

٩- إثبات الآخرة وما فيها من الحساب والجزاء على الأعمال، ووجوب الاستعداد لها؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾.

١٠- ثناء الله على المحسنين المتصفين بالصفات المذكورة بتوفيق ربهم تعالى لهم، وسيرهم على هداه، وبشارته لهم خاصة بالفلاح؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥﴾. وفي هذا ترغيب وحث على الاتصاف بتلك الصفات.

١١- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة للمحسنين؛ لقوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّهِمۡ﴾.

١٢- ذم الذين يشترون لهو الحديث من الغناء واللغو والباطل؛ ليَضلوا ويُضلوا عن سبيل الله، ويجعلونها هزوًا، وتوعدهم بالعذاب المهين المذل لهم؛ وفي هذا تعريض

بالمشركين، وتهديد لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾﴾.

١٣- تحريم الغناء؛ لأنه أول ما يدخل تحت لهو الحديث، والآية عامة له ولغيره.

١٤- أن كل ما ألهى وشغل عن طاعة الله تعالى من قول أو فعل، أو كان سببًا في تضييع الوقت بلا فائدة، أو شغل عما هو أهم وأوجب فهو من اللهو الذي يجب اجتنابه.

١٥- ذم كل ما يضل عن سبيل الله ويصد عن دينه.

١٦- تحريم الاستهزاء بآيات الله، وكفر من فعل ذلك، كما قال تعالى في المستهزئين به وبآياته: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ﴾[التوبة:٦٦].

١٧- ذم هذا الصنف من الناس بتوليهم بأبدانهم عن آيات الله إذا تليت عليهم، وإعراضهم عنها بقلوبهم استكبارًا؛ كمن لم يسمعها، أو كمن في أذنيه صمم وثقل؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ﴾.

١٨- بشارة هذا المتولي عن آيات الله استكبارًا، الأصم عن سماعها؛ بعذاب مؤلم موجع تهكمًا به، وهذا وعيد وتهديد له؛ لقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

١٩- وعد الله المؤكد الثابت المحقق للذين آمنوا وعملوا الصالحات؛ بأن لهم جنات النعيم خالدين فيها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ﴾.

٢٠- جمع القرآن بين الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب.

٢١- لا بد من الجمع بين إيمان القلب وعمل الجوارح الظاهرة؛ لقوله تعالى: ﴿ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

٢٢- لا بد من كون العمل صالحًا، خالصًا لله تعالى، موافقًا لشرعه وسنة نبيه ﷺ.

٢٣- إثبات الجنات، وأنها لا تفنى ولا يفنى نعيمها، ولا يموت أهلها، ولا يُخرَجون منها؛ لقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾.

والمراد بالخلود: الخلود الأبدي؛ كما دل على ذلك كثير من الآيات.

٢٤- أن وعد الله حق لا يمكن أن يُخلف؛ لقوله تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ﴾، وذلك لتمام قدرته فلا يعجزه شيء، ولصدق وعده؛ كما قال تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ [الروم:٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:١١١].

٢٥- إثبات اسمين من أسماء الله عز وجل وهما: «العزيز» و«الحكيم»، وصفة العزة التامة، والحكم التام، والحكمة البالغة لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٩﴾.

٢٦- في اجتماع كمال العزة وكمال الحكم والحكمة في حقه عز وجل كمال إلى كمال.

٢٧- قدرة الله تعالى التامة على الخلق والرزق وغير ذلك، وعظيم خلقه وحكمته ونعمته، حيث خلق السموات وأمسكها بقدرته بغير عمد، وركز في الأرض جبالًا راسخة ثابتة؛ لئلا تضطرب بأهلها، ونشر فيها من كل أنواع الدواب، وأنزل من السماء ماءً فأنبت فيها من جميع أصناف النباتات النافعة؛ لقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَاۖ وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝١٠﴾.

٢٨- إثبات الأسباب وتأثيرها في مسبباتها بقدرة الله تعالى؛ لقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝١٠﴾.

٢٩- إثبات كمال ربوبيته عز وجل، وتفرده بالخلق والرزق، وغير ذلك، والاستدلال بذلك على وجوب إفراده بالألوهية، وبطلان ما يعبد من دونه من آلهة لا تخلق شيئًا، ولا تملك لنفسها ولا لغيرها ضرًّا ولا نفعًا؛ لقوله تعالى: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ﴾.

٣٠- إغراق الظالمين بشركهم بالله، وعبادتهم آلهة من دونه بالضلال البين الظاهر، وبعدهم كل البعد عن الحق المبين؛ لقوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾:

قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾؛ الواو: استئنافية، واللام: لام القسم لقسم مقدر، و«لقمان»: هو لقمان بن عنقاء بن يثرون، والجمهور على أنه رجل حكيم صالح، أعطاه الله حكمة ودراية، ورأيًا سديدًا، وتصرفًا رشيدا، ويدل عليه ظاهر الآية.

وقيل: كان نبيًّا، ولا دليل على هذا.

قيل: كان عبدًا حبشيًّا، وقيل: من بلاد النوبة، وقيل: من سواد مصر.

أي: ولقد أعطينا لقمان الحكمة، والحكمة: موافقة الصواب والفقه والفهم والمعرفة بالأحكام، وما فيها من الأسرار والإحكام.

والحكمة مستلزمة للعلم النافع، والعمل الصالح؛ ولهذا قال:

﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ «أن»: تفسيرية، أي: وأمرناه أن يشكر لله على ما أعطاه ووهبه من الحكمة والعلم والفهم، واللام في قوله: ﴿لِلَّهِ﴾: للاختصاص والاستحقاق، أي: أن اشكر لله وحده، بالاعتراف بنعمة الله تعالى بالقلب، والثناء عليه بها باللسان، واستعمال الجوارح في طاعته، والاستعانة بها على مرضاته.

﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾، أي: فإنما يعود نفع شكره وثوابه على نفسه، والله غني عن شكره؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم:٤٤]، وقال تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت:٤٦، الجاثية:١٥].

﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾، أي: ومن جحد نعمة الله تعالى عليه بنسبتها لغير الله، أو الاستعانة بها على معصية الله.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾: الفاء: رابطة لجواب الشرط، ﴿غَنِىٌّ﴾، أي: ذو الغنى التام عن خلقه، فلا تضره معصية العاصي؛ كما لا تنفعه طاعة المطيع؛ كما قال تعالى في الحديث القدسي: «**يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم، كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئًا، يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم، كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم، ما نقص ذلك من ملكي شيئًا**»(١).

﴿حَمِيدٌ﴾، أي: محمود في غناه؛ لكرمه وجوده، يده سَحَّاء بالليل والنهار؛ كما قال ﷺ: «**يد الله ملأى، لا تغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار، وقال: أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماء والأرض؟ فإنه لم يغض ما في يده**»(٢).

ولهذا كثيرًا ما يقرن عز وجل بين اسميه: «الغني» و«الحميد»؛ لأنه المحمود على غناه؛ لعظيم كرمه وجوده وإحسانه.

وهذا بخلاف كثير من الخلق؛ فإنه قد يُذم بسبب غناه؛ لشحه وبخله، وهو سبحانه محمود على جميع صفاته وأفعاله، وأقواله الشرعية والقدرية.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾:

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٨٨؛ من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير ٤٦٨٤، ومسلم في الزكاة ٩٩٣، والترمذي في التفسير ٣٠٤٥، وابن ماجه في المقدمة ١٩٧؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ﴾؛ الواو: استئنافية، و«إذ»: ظرف بمعنى: «حين» متعلق بمحذوف، أي: واذكر حين قال لقمان لابنه، يقال اسم ابنه: «ثاران».

﴿وَهُوَ يَعِظُهُۥ﴾؛ الواو: حالية، أي: واعظًا له. والوعظ والموعظة: الأمر والنهي مقرون بالترغيب والترهيب.

﴿يَٰبُنَيَّ﴾؛ النداء للتنبيه والاهتمام والتعظيم، والتصغير للشفقة عليه، والتحبب إليه.

﴿لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾، أي: لا تشرك بالله أيَّ شيء من الشرك، لا في ربوبيته، ولا في ألوهيته، ولا في أسمائه وصفاته، لا شركًا أكبر، ولا شركًا أصغر، ولا شركًا خفيًّا، ولا تشرك به أي شيء من الأشياء، أي: لا تعبد غير الله، بل أخلص العبادة لله تعالى وحده لا شريك له.

وبدأ بالنهي عن الشرك؛ لأنه أعظم الذنوب، وقدم ذلك على بقية النصائح والأوامر؛ لأن التخلية قبل التحلية.

﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾؛ تعليل للنهي عن الشرك بالله، وبهذا جمع لقمان عليه السلام لابنه بين نهيه عن الشرك وبيان الحكمة في ذلك.

و«إنّ» واللام: للتوكيد، أي: إن الشرك بالله أظلم الظلم، وأعظمه وأفظعه، وأشده وأبشعه؛ لما فيه من صرف العبادة- التي هي حق الرب الخالق المالك المدبر العظيم- لمخلوق ضعيف، لا يملك نفعًا ولا ضرًّا، ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، فلا أعظم ولا أشد ظلمًا ممن أشرك مع الله غيره.

عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، قال: لما نزلت: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام:٨٢]، شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، وقالوا: أينا لم يلبس إيمانه بظلم؟ فقال رسول الله ﷺ: «**إنه ليس بذاك، ألا تسمعوا إلى قول لقمان:** ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾؟»(١).

وفي لفظ قال: لما نزلت ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ قال أصحاب

---

(١) أخرجه البخاري في استتابة المرتدين ٦٩١٨.

رسول الله ﷺ: أينا لم يظلم؟ فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾[(١)].

وفي لفظ: لما نزلت: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾ شق ذلك على المسلمين، فقالوا: يا رسول الله، أينا لا يظلم نفسه؟ قال: «**ليس ذلك، إنما هو الشرك، ألم تسمعوا ما قال لقمان لابنه وهو يعظه** ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾؟»[(٢)].

وفي لفظ: فقال رسول الله ﷺ: «**ليس هو كما تظنون، إنما هو كما قال لقمان لابنه:** ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾»[(٣)].

قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ۝١٤ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝١٥﴾:

هاتان الآيتان استئناف من كلام الله تعالى وليس من قول لقمان، ويقوي هذا اقتران شكر الله وشكر الوالدين في الأمر في قوله: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ﴾، ولأن لقمان على الصحيح ليس بنبي، وإنما هو رجل حكيم صالح.

قوله: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ﴾ الوصية: العهد بأمر هام، أي: عهدنا إليه وأمرناه وأوجبنا عليه الإحسان إليهما بعد شكر الله تعالى والقيام بعبادته وحده؛ كما قال تعالى: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ إِحۡسَٰنًاۖ﴾ [الأحقاف:١٥]، وقال تعالى: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ﴾ [الإسراء:٢٣]، وقال تعالى: ﴿۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا﴾ [النساء:٣٦].

﴿حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ﴾؛ اعترض بهذا بين قوله:

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان ٣٢.

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء ٣٤٢٩، والترمذي في التفسير ٣٠٦٧.

(٣) أخرجه البخاري في استتابة المرتدين ٦٩٣٧، ومسلم في الإيمان ١٢٤.

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾، وقوله: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾؛ لبيان السبب الموجب للوصية بهما، وذكر معاناة الأم خاصة للتدليل على عظيم حقها، وشدة معاناتها في أبلغ صورها.

أي: حملته أمه في بطنها ضَعفًا على ضعف، ومشقة على مشقة، وجهدًا على جهد، فلا تزال تعاني المشاق من حين كان نطفة، من الوحم والمرض والثقل، وتغير الحال، ثم مشقة الطلق، ثم الولادة وآلامها الشديدة؛ كما قال تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ [الأحقاف:١٥].

﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾، أي: وتربيته وإرضاعه بعد وضعه في عامين فيهما من العناء والتعب ما لا يعلمه إلا الله، تسهر لسهره، وتتألم لألمه، وتحمله وتطوف به إذا بكى، وتقوم على إصلاح شأنه، وتنظيفه وتنظيف ثيابه، وغير ذلك، فهي في تعب من حين يحمل إلى أن يُفصل؛ كما قال تعالى: ﴿۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة:٢٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف:١٥].

﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى﴾؛ «أن» تفسيرية، فالجملة تفسير لقوله: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾، ويجوز كون «أن» مصدرية، والمصدر المؤول في محل جر بباء محذوفة متعلق بـ«وصينا»:، أي: وصيناه بالشكر لي ولوالديه.

أي: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى﴾ بإخلاص العبادة لي وطاعتي، والبعد عن معصيتي.

﴿وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾؛ الواو: عاطفة، أي: واشكر لوالديك بالإحسان إليهما، والتواضع لهما، وإكرامهما وإجلالهما، والقيام بحقوقهما وطاعتهما، والحذر من عقوقهما.

﴿إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾، أي: إليَّ المرجع والمآب، فأجزيك على ذلك أوفر الجزاء.

وفصّل عز وجل في حق الأم دون حق الأب- وإن كان حقه عظيمًا- لأن الأم أشد معاناة، وأعظم شفقة ورحمة، وحقها أعظم؛ ولأنها لضعفها قد تؤذى ويعتدى عليها، ويضيع حقها.

ومثل هذا تقديم الوصية على الدَّين في آيات المواريث، مع أنه مقدم عليها في

الإخراج، وذلك عناية بها لأنها في الغالب لفقراءَ ومساكينَ، وربما تساهل فيها الورثة وربما جحدوها.

قوله تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٥﴾.

سبب النزول:

عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، قال: «حلفت أم سعد ألا تكلمه أبدًا حتى يكفر بدينه، ولا تأكل ولا تشرب، قالت: زعمت أن الله أوصاك بوالديك، وأنا أمك، وأنا آمرك بهذا. قال: مكثتْ ثلاثًا حتى غشي عليها من الجهد، فقام ابن لها- يقال له: عمارة- فسقاها، فجعلت تدعو على سعد، فأنزل الله في القرآن هذه الآية: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ﴾ [العنكبوت:٨]، ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي﴾، وفيها ﴿وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ﴾»(١).

وفي رواية: «فأنزلت: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ﴾، وقرأ حتى بلغ: ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾»(٢).

قوله: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي﴾: «أن» والفعل «تشرك» في تأويل مصدر في محل جر، أي: وإن جاهداك على الشرك بي.

والمعنى: وإن كان والداك مشركين، وجاهداك على أن تشرك بي، أي: بذلا جهدهما وحرصا على أن تشرك بي وتتبعهما على دينهما الباطل.

﴿مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ﴾: «ما»: موصولة، أي: الذي ليس لك به علم.

أي: على أن تجعل معي شريكًا لا علم لك به، أي: في إشراك ما لا تعلمه مستحِقًّا للعبادة، كما في قوله: ﴿وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾[المؤمنون:١١٧].

---

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة، فضل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ١٧٤٨.

(٢) أخرجها أحمد ١/ ١٨١، ١٨٦.

أو في إشراك ما ليس بشيء من الأصنام ونحوها؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٍۚ﴾ [العنكبوت:٤٢].

﴿فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ﴾، أي: فلا تطعهما في ذلك، أي: لا تشرك بالله طاعة لهما، فليس طاعتهما في هذا من البر؛ لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق؛ كما قال تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَآۚ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٨﴾ [العنكبوت:٨].

وعن عمران بن حصين رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»(١).

ولم يقل: فاعصمهما؛ لأن قوله: ﴿فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ﴾ أهون وأخف على النفس، كما لم يقل: «فلا تبرهما»، أو: «فعقهما»، بل قال: ﴿فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ﴾، أي: في الشرك، وأما بِرُّهما فواجب، فاستمر عليه؛ ولهذا قال:

﴿وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا﴾، أي: عاشرهما في هذه الحياة الدنيا، وشؤونها، ﴿مَعۡرُوفٗاۖ﴾، أي: صحبة معروف وإحسان إليهما، وبرٍّ بهما وصلة لهما.

فليس في كونهما مشركين وفي حرصهما على أن يتبعهما على الشرك بالله، مبرر لترك مصاحبتهما بالمعروف والإحسان إليهما؛ وذلك لعظم حقهما على الولد، وأنه ليس بالأمر الهيِّن.

﴿وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ﴾، أي: واسلك طريق الذي رجع وتاب إلي، وهم المؤمنون الموحدون، المستسلمون لربهم، المنيبون إليه.

والإنابة إلى الله: الرجوع إليه؛ الرجوع من الشرك به إلى توحيده، ومن معصيته إلى طاعته.

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ١٨/ ١٧٠ رقم ٣٨١. وقد سبق ذكر الأحاديث في هذا في تفسير قوله تعالى في سورة النساء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [الآية:٥٩].

﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ﴾، أي: ثم إليَّ وحدي مردكم جميعًا: الأولاد ووالديهم، والخلائق كلهم.

﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾، أي: فأخبركم بالذي كنتم تعملونه كله، أو بعملكم وأحاسبكم وأجازيكم عليه. وفي هذا وعد لمن أطاع الله وبر بوالديه، ووعيد لمن عصا الله وعق والديه، وطمأنة لمن دعاه والداه إلى الشرك بالله فلم يطعهما.

قوله تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ١٦ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٧ وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ١٨ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ١٩﴾:

قوله: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ﴾؛ كرر النداء بقوله: ﴿يَٰبُنَيَّ﴾ لتأكيد تنبيهه له وشفقته عليه، وتحننه إليه.

﴿إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ﴾؛ قرأ نافع وأبو جعفر: «مِثْقَالُ» بالرفع على أنه فاعل «تك» من «كان» التامة.

وقرأ الباقون بنصب ﴿مِثۡقَالَ﴾ على أنه خبر «تك» من «كان» الناقصة، واسمها ضمير مستتر، أي: إن تكن الخطيئة أو المظلمة والخصلة السيئة، أو الخصلة الحسنة﴿مِثۡقَالَ حَبَّةٖ﴾.

و«تك»: فعل مضارع مجزوم بـ«إنْ»، وعلامة جزمه السكون على النون المحذوفة للتخفيف.

﴿مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ﴾، أي: زنة ومقدار حبة من خردل، والتي هي أصغر الأشياء، وأحقرها، وسمي الوزن مثقالًا؛ لأن الشيء، يوزن، لِيُعلم ثِقلُه من خِفّتِه.

﴿فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ﴾، أي: محجبة محصنة داخل صخرة.

﴿أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ أو غائبة ذاهبة في أرجاء السموات والأرض في هذا الكون العظيم.

﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُۚ﴾ «يأت»: جواب الشرط «إنْ»، وعلامة جزمه حذف الياء.

أي: يحضرها الله، ويحاسب ويجازي عليها حين وضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تفوت عليه، ولاتهرب منه؛ كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔاۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء:٤٧]، وقال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة:٧- ٨]، وقال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَاۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًاۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف:٤٩].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ﴾؛ «اللطيف»: ذو المعرفة بأسرار الأمور وحكمها الدقيقة، وذو الإحسان إلى عباده، والتيسير عليهم؛ قال ابن القيم[١]:

وهْــو اللطيــف بعبــده ولعبــده ... واللطــف في أوصــافه نوعــانِ

إدراك أسرار الأمــور بحكمــة ... واللطـف عنـد مواقـع الإحسـانِ

﴿خَبِيرٌ﴾، أي: ذو الخبرة والاطلاع على بواطن الأمور وخفاياها، و«اللطيف» أخص منه، فاللطيف يدرك الدقيق، والخبير يدرك الخفي، وبلطفه عز وجل الدقيق، وخبرته بالخفي، يأتي بأعمال العباد ويبديها ويظهرها مهما دقت، ومهما خفيت، ولو كان مثقال ذرة في صخرة.

قال رسول الله ﷺ: «**لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة؛ لخرج عمله للناس كائنًا ما كان**»[٢].

وهذا يوجب مراقبة الله تعالى في السر والعلن، والإكثار من عمل الطاعات، والحذر من المعاصي.

﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الآية.

---

(١) «النونية» ص١٤٩.

(٢) أخرجه أحمد ٣/ ٢٨؛ من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

بعد أن نهى ابنه عن الشرك وحذره منه، وبيَّن له ثبوت الحساب والجزاء على الأعمال ودقته، وهي أصول العقيدة، انتقل إلى تعليمه أصول الأعمال الصالحة، وبدأ بأمره بإقام الصلاة؛ لأنها أعظم العبادات.

أي: أقم الصلاة بحدودها؛ كما شرعها الله تعالى، بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها، فرضها ونفلها.

﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾، أي: افعل المعروف بنفسك، وأْمر به غيرك.

والمعروف: ما أمر به الشرع من الطاعات وفعل الخيرات والقربات.

﴿وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾، أي: اجتنبه بنفسك، وانه غيرك عنه وحذره منه.

والمنكر: ما أنكره الشرع من المعاصي والشرور والموبقات.

قال ابن القيم: «فأمره بالمعروف يتناول فعله بنفسه، وأمره غيره به، وكذلك نهيه عن المنكر، أما من حيث إطلاق اللفظ فتدخل نفسه وغيره فيه، وأما من حيث اللزوم الشرعي فإن الآمر الناهي لا يستقيم له أمره ونهيه حتى يكون أول مأمور ومنهي»(١).

﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ﴾ بعد ما أمره بإقام الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أمره بالصبر على ما أصابه؛ لأن من سلك هذا الطريق وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر لا بد أن يؤذى ويعادى، فلا بد أن يتسلح بالصبر، أي: واصبر على الذي يصيبك في سبيل ذلك صبرًا على فعل ما أمر الله به، وعلى ترك ما نهى الله عنه، وعلى أقدار الله، وعلى ما يصيبك من الأذى.

قال ابن القيم: «فالصبر متعلق بالمأمور، والمحظور، والمقدور؛ بالخلق والأمر: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ﴾»(٢).

أي: واصبر على ما أصابك في سبيل ذلك كله، فطريق الجنة ليس مفروشًا بالورود

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٤٠٧.
(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٤٠٦.

والرياحين، قال ﷺ: «**حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات**»(١).

قال الشاعر:

فـدرب الصـاعدين كـما علمـتم ... بـه الأشـواك تكثـر لا الـورود

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾؛ الإشارة إلى الأمورالأربعة التي أمره بها في قوله: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾، وهي: إقام الصلاة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والصبر على ما أصابه.

﴿مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾، أي: من الأمور التي أمر الله بها عزيمة، أي: أوجبها، ومن الأمور التي يعزم عليها ويوفق لها أولو العزم وأصحاب الهمم العالية؛ كما قيل:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم ... وتأتي على قدر الكرام المكارم

وتكبر في عين الصغير صغارها ... وتصغر في عين الكبير العظائم(٢)

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ﴾ الآية.

بعدما أمر ابنه بإقام الصلاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصبر في سبيل ذلك، وهي أصول الأعمال الصالحة، انتقل إلى تعليمه الأخلاق والآداب في معاملة الناس وفي نفسه.

قوله: ﴿وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾؛ قرأ ابن كثير وأبو جعفر وابن عامر وعاصم ويعقوب بتشديد العين من غير ألف: ﴿وَلَا تُصَعِّرۡ﴾.

وقرأ الباقون بتخفيفها وألف قبلها: ﴿وَلَا تُصَاعِرْ﴾.

«التصعير»: الإمالة، أي: ولا تُمِلْ وجهك وتُعرض به عن الناس إذا كلمتهم أو كلموك؛ استكبارًا وتعاظمًا واحتقارًا، قال عمرو بن حُنَيٍّ التغلبي:

وكنا إذا الجبار صعر خده ... أقمنا له من ميله فتقوما(٣)

---

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٢٣، والترمذي في صفة الجنة ٢٥٥٩؛ من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) البيتان للمتنبي. انظر: «ديوانه» ٢/ ٢٧٢.

(٣) انظر: «مجاز القرآن» ٢/ ١٢٧، و«جامع البيان» ١٨/ ٥٥٩.

والمراد: ألن جانبك، وابسط وجهك إليهم.

كما قال ﷺ: «**ولا تحقرن شيئًا من المعروف، وأن تكلم أخاك وأنت منبسط إليه وجهك إن ذلك من المعروف**»(١).

﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾، أي: بطرًا مختالًا متبخترًا، متعاليًا متكبرًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾ [الإسراء:٣٧].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾؛ تعليل للنهي قبله، أي: إن الله لا يحب كل مختال بمشيته، متكبر على الناس بفعله وهيئته، معجب بنفسه، ﴿فَخُورٍ﴾؛ متعاظم عليهم بقوله.

﴿وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾.

بعد أن بين له آداب حسن المعاملة مع الناس، قفاها ببيان حسن الآداب الخاصة في مشيه وكلامه.

قوله: ﴿وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ «القصد»: التوسط في الأمور كلها، كما قال ﷺ: «**وأسألك القصد في الفقر والغنى**»(٢).

قال الشاعر:

ولا تغل في شيء من الأمر واقتصد ... كلا طرفي قصد الأمور ذميم(٣)

والمعنى: خذ بالقصد والتوسط والاعتدال في مشيك؛ كما هو المعتاد بين الناس، الذي لا يلفت نظرهم، وسطًا بين مشي السريع المفرط المستخف، ومشي البطيء المثبط المتهاوت، أي: ليكن مشيك وسطًا بين هذا وهذا، دالًّا على القوة والنشاط كما كان نبينا

---

(١) أخرجه أبو داود في اللباس، ما جاء في إسبال الإزار ٤٠٨٤، وأحمد ٤/ ٦٥، ٥/ ٦٤؛ من حديث جابر بن سليم رضي الله عنه.

(٢) أخرجه النسائي في السهو، باب آخر من الدعاء ١٣٠٥، وأحمد ٤/ ٢٦٤، من حديث عمار بن ياسر رضي الله عنه.

(٣) البيت لأبي سليمان الخطابي كما في «العزلة» له ص٩٧، ونسبه له ابن أبي الدنيا في« قرى الضيف» ٤/ ٣٨٥.

ﷺ إذا مشى تكفأ تكفؤًا؛ كأنما انحط من صبب(١).

﴿وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ﴾، أي: اخفضه ولا ترفعه فوق الحاجة، ولم يقل: اغضض صوتك، بل قال: ﴿مِن صَوۡتِكَ﴾؛ لأن المطلوب حصول المقصود، فكما أن رفع الصوت عاليًا لا يحمد، فكذلك خفضه جدًّا لا يحمد، وإنما المحمود ما كان بقدر الحاجة، ولكل مقام مقال، فقد يستدعي الأمر رفع الصوت؛ لكثرة الناس وبُعدهم، وقد يستدعي الأمر ضد ذلك؛ لقلتهم وقربهم، ونحو ذلك.

﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ﴾؛ تعليل للأمر قبله، يحتمل أن يكون تكملة من كلام لقمان، ويحتمل أن يكون مستأنفًا من كلام الله، ختمت به الآية.

أي: لأن أنكر الأصوات، أي: أقبحها وأبغضها، وأفظعها وأشنعها وأبشعها، وليس أعلاها؛ لأن في الحيوان ما هو أعلى صوتًا من صوت الحمير، واللام في قوله: ﴿لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ﴾: للتوكيد.

والمراد: النهي عن رفع الصوت، وأنه منكر، وبيان أن غاية ما فيه التشبه بالحمير التي صوتها أنكر الأصوات وأبغضها.

وهذا يقتضي ذم رفع الصوت بلا حاجة، وذمه غاية الذم، وقد قال ﷺ: «**ليس لنا مثل السوء**»(٢)، وقال ﷺ: «**وإذا سمعتم نهيق الحمير فتعوذوا بالله من الشيطان؛ فإنها رأت شيطانًا**»(٣).

الفوائد والأحكام:

١ - امتنان الله تعالى على لقمان عليه السلام بإيتائه الحكمة المستلزمة للعلم النافع، والعمل الصالح، وأمره عز وجل له بشكره؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا لُقۡمَٰنَ ٱلۡحِكۡمَةَ

---

(١) أخرجه الترمذي في المناقب ٣٦٣٧؛ من حديث علي رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الهبة، لا يحل لأحد أن يرجع في هبته ٢٦٢٢، والنسائي في الهبة ٣٦٩٨، والترمذي في البيوع ١٢٩٨؛ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٣٠٣، ومسلم في الذكر -استحباب الدعاء عند صياح الديكة ٢٢٩، وأبو داود في الأدب ٥١٠٢، والترمذي في الدعوات -ما يقول إذا سمع نهيق الحمير ٣٤٥٩ -من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِۚ﴾.

٢- أن لقمان لم يكن نبيًّا ولا رسولًا؛ ولهذا لم يقل: «ولقد أرسلنا لقمان»؛ كما هي طريقة القرآن في إثبات الرسالات، وهذا ما عليه جمهور المفسرين، وإنما هو رجل حكيم صالح، وفي هذا دلالة على أن الحكمة قد ينالها من ليس بنبي. وقيل: إنه نبي. ولا دليل على هذا.

٣- وجوب شكر الله تعالى وحده؛ لأنه الجالب للنعم، والدافع للنقم؛ لقوله تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِۚ﴾، وقوله: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى﴾.

٤- أن مَن شكر نعمة الله تعالى بنسبتها إلى الله عز وجل، واستعملها في طاعته، والاستعانة بها على ذلك، فإنما تعود منفعة شكره لنفسه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾.

٥- أن من كفر نعمة الله، فنسبها لغيره، أو استعملها في معصيته، أو استعان بها على ذلك؛ فإن الله غني عنه، ولن يضر إلا نفسه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾.

٦- غنى الله التام عن جميع الخلق، وأنه لا ينفعه شكر الشاكر وطاعته، ولا يضره كفر الكافر ومعصيته؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾، كما قال سليمان عليه السلام: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [النمل: ٤٠].

٧- امتداح الله تعالى نفسه بكونه المحمود على غناه؛ لعظيم جوده وكرمه، والمحمود على كل شيء، وإثبات صفتي الغنى والحمد له عزوجل؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾.

٨- كمال عدل الله عز وجل؛ حيث يجازي كلًّا بعمله، فمن شكر فله ثوابه لا لغيره، ومن كفر فعليه عقابه لا على غيره.

٩- الترغيب والحث على شكر الله تعالى وشكر نعمه، والترهيب والتحذير من الكفر بالله وكفر نعمه.

١٠- موعظة لقمان لابنه بنهيه عن الشرك بالله، مبينًا له الحكمة في نهيه عنه أولًا،

وهو كونه أظلم الظلم وأعظمه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾.

١١- تصديره الخطاب لابنه بالنداء تنبيهًا له، ونداؤه له بلفظ التصغير: ﴿يَٰبُنَيَّ﴾ شفقة عليه، وتحببًا إليه وتلطفًا معه؛ لأن هذا أدعى لإصغائه إليه، وقبوله منه، وقد قال ﷺ: «**إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على ما سواه**»(١).

وفي رواية: «**إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه**»(٢).

وهكذا يحسن بالوالدين في ندائهم لأولادهم؛ كما قال نوح عليه السلام: ﴿يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا﴾ [هود:٤٢]، وقال إبراهيم عليه السلام: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ﴾ [الصافات:١٠٢]، وقال يعقوب عليه السلام: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ﴾ [يوسف:٥].

١٢- أن من أعظم حقوق الأولاد على والديهم: تعليمهم أمر دينهم، وأمرهم ونهيهم، ونصحهم ووعظهم ترغيبًا وترهيبًا؛ ليسعدوا في دنياهم وأخراهم، وليس حقهم فقط العمل على تأمين حياتهم المادية؛ كما هو حال الكثيرين، وقد قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنفال:٢٧]، والأولاد من أعظم الأمانات.

١٣- أن الموعظة إنما تكون بذكر الأحكام من الأمر والنهي، مقرونة بالترغيب والترهيب، وقرن الأحكام بعللها.

١٤- وجوب الحذر من الشرك بالله، وأنه أعظم الذنوب، وأظلم الظلم وأعظمه، ووجوب توحيد الله تعالى؛ لقوله: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.

ولهذا بدأ لقمان موعظته لابنه بنهيه عن الشرك بالله، وفي هذا أمر له بإخلاص

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب، الرفق في الأمر كله ٦٠٢٤، ومسلم في البر والصلة، فضل الرفق ٢٥٩٣؛ من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجها مسلم ٢٥٩٤، وأبو داود في الجهاد ٢٤٧٨، من حديث عائشة رضي الله عنها.

العبادة لله تعالى وحده.

١٥- وجوب العناية بالعقيدة أولًا؛ وأن التخلية قبل التحلية؛ فنهى عن الشرك أولًا؛ لأن العبادة لا تصح مع وجود الشرك بالله.

١٦- وصية الله تعالى الإنسان بالإحسان إلى والديه؛ لعظم حقهما عليه؛ ولهذا قرن عز وجل حقهما بحقه في مواضع كثيرة من كتابه؛ لقوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾ الآية، كما قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء:٢٤].

١٧- عظم ما عانته الأم من المشقة والجهد، والضعف والتعب في حمل الولد وفصاله؛ لقوله تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾.

وهذا يدل على عظم حق الأم؛ ولهذا فهي أعظم حقًّا من الأب وأعظم أجرًا؛ لقوله تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾.

وفي الحديث: أن رجلًا سأل النبي ﷺ، قال: من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: «**أمك**». قال: ثم من؟ قال: «**أمك**». قال: ثم من؟ قال: «**أمك**». قال: ثم من؟ قال: «**أبوك**»(١).

١٨- رحمة الله تعالى بالأولاد ووالديهم، وأنه سبحانه أرحم بهم من أنفسهم، فأوصى الولد بوالديه؛ كما في هذه الآية وغيرها؛ كما أوصى الوالدين بأولادهما؛ كما في قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾ [النساء:١١].

١٩- أن كمال فصال المولود وفطامه في عامين؛ لقوله تعالى: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾.

كما قال تعالى: ﴿۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ﴾ [البقرة:٢٣٣].

ومن هنا استنبط ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: أن أقل مدة الحمل ستة أشهر؛ لقوله تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ﴾ [الأحقاف:١٥].

٢٠- وجوب شكر الوالدين بعد شكر الله تعالى، وذلك بالإحسان إليهما، والبر

(١) أخرجه البخاري في الأدب ٥٩٧١، ومسلم في البر والصلة ٢٥٤٨؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

بهما، وطاعتهما بالمعروف، والتواضع لهما؛ لقوله تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾.

٢١- إثبات البعث والحساب والجزاء، وأن مصير الخلائق كلهم ومرجعهم إلى الله تعالى، إليه إيابهم، وعليه حسابهم وجزاؤهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾، وقوله: ﴿ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، وفي هذا وعد لمن شكر الله وأطاعه، وشكر لوالديه، ووعيد لمن كفر بالله وعصاه، وجحد حق والديه.

٢٢- نهي الولد عن طاعة والديه بالشرك بالله إن جاهداه على ذلك، وتحريم ذلك؛ لأنه ليس ذلك من برهما، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾.

٢٣- أن كل ما يعبد من دون الله من الأصنام لا يستحق العبادة، وليس بشيء؛ لقوله تعالى: ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾.

٢٤- أن كون الوالدين مشركين ويجاهدان ولدهما على أن يشرك بالله؛ لا يسقط حقهما في وجوب مصاحبتهما في الدنيا بالمعروف وطاعتهما في غير معصية الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾.

وفي هذا تأكيد على عظم حق الوالدين، وتحريم عقوقهما حتى ولو كانا مشركين ويدعوانه إلى الشرك؛ ولهذا قال: ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾، أي: في الإشراك بالله، ولم يقل: فعقهما.

٢٥- وجوب اتباع سبيل من أناب ورجع إلى الله تعالى؛ وهم المؤمنون الموحدون، السالكون صراط الله المستقيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ﴾.

٢٦- أن مرجع جميع الخلائق ومردهم إلى الله تعالى وحده، إليه إيابهم، وعليه حسابهم وجزاؤهم؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

٢٧- إثبات الكلام لله تعالى؛ لقوله: ﴿فَأُنَبِّئُكُم﴾، والإنباء: الإخبار.

٢٨- تعظيم أمر الحساب والجزاء، لقوله: ﴿فَأُنَبِّئُكُم﴾، والنبأ: الخبر الهام؛ ولهذا لم يقل: فأخبركم.

٢٩- أن الجزاء من جنس العمل؛ لقوله تعالى: ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، وفي هذا ترغيب في طاعة الله تعالى، وتحذير من معصيته.

٣٠- تأكيد لقمان النداء لابنه ثانية وثالثة، بقوله: ﴿يَٰبُنَيَّ﴾ تنبيهًا له، وشفقة عليه، وتحببًا إليه.

٣١- إحاطة علم الله تعالى بجميع أعمال العباد وبكل شيء، وإحضارها يوم القيامة والمحاسبة والمجازاة عليها، وإن كان ذلك زنة حبة من خردل في وسط صخرة أو في أرجاء السموات والأرض؛ لقوله تعالى: ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾.

٣٢- ينبغي عدم تهوين أمر المعصية مهما صغرت، وعدم تحقير أمر الطاعة مهما قلّت.

٣٣- إثبات سعة لطفه عز وجل، وإدراكه لأسرار الأمور وحكمها الدقيقة، وإحسانه إلى عباده والتيسير عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ﴾.

٣٤- إثبات سعة خبرته عز وجل، واطلاعه على بواطن الأمور وخفاياها؛ لقوله تعالى: ﴿خَبِيرٌ﴾.

٣٥- وجوب إقام الصلاة إقامة تامة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر كما شرع الله تعالى؛ لقوله: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾.

٣٦- وجوب الصبر على ما يصيب المرء في ذات الله صبرًا على طاعة الله تعالى، وصبرًا عن معصيته، وصبرًا على أقدار الله المؤلمة؛ لقوله: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾.

٣٧- أن الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر لا بد أن يناله ما يناله من الأذى، فعليه التحلي بالصبر مع الحكمة، وعدم استعجال النتائج.

٣٨- أن هذه الخصال العظيمة الأربع، وهي: إقام الصلاة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والصبر في سبيل ذلك؛ مما ينبغي أن يوصي به الآباء أبناءهم، ويتواصى به المسلمون فيما بينهم؛ لأنها من عزائم الأمور التي أمر الله بها وأوجبها، ومن عزائم الأمور التي يتحلى بها ذوو العزائم والنهى؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾.

٣٩- ينبغي الإغراء بالأعمال الصالحة، والترغيب فيها، وامتداح أهلها؛ لقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾.

٤٠- النهي عن سوء الأخلاق مع الناس بالتكبر والتعاظم عليهم، والاحتقار لهم، وإمالة الوجه والإعراض عنهم عند التكلم معهم ونحو ذلك، ووجوب لين الجانب وبسط الوجه إليهم، والنهي عن المشي في الأرض مشية المرح البطر المختال؛ لقوله: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾.

٤١- عدم محبة الله تعالى لمن كان مختالًا متكبرًا على الناس بفعله وهيئته، فخورًا عليهم بقوله؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾.

٤٢- إثبات المحبة لله تعالى، وأنه سبحانه يحب من كان متخلقًا بآداب الإسلام، غير مختال ولا فخور.

٤٣- الأمر بالقصد والاعتدال في المشي؛ بين مشي السرعة والخفة، ومشي البطء والتهاوت، والأمر بالغض من الصوت وعدم رفعه فوق الحاجة؛ لما في ذلك من النكارة؛ لقوله: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾.

٤٤- ذم أصوات الحمير، وأنها أنكر الأصوات وأقبحها وأشنعها وأبشعها صوت نهيق الحمير؛ لقوله: ﴿إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾، فأوله زفير وآخره شهيق.

كما قال تعالى عن النار وأهلها: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾﴾ [الفرقان:١٢]، وقال تعالى: ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴿٧﴾﴾ [الملك:٧]، وقال تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾﴾ [هود:١٠٦]، والزفير يكون خارجًا، والشهيق يكون باطنًا في الصدر.

٤٥- عظم ما أعطاه الله تعالى من الحكمة للقمان عليه السلام؛ فقد جمع في هذه المواعظ الجليلة لابنه أمهات الحكم، وأعظم الوصايا وأنفعها في الاعتقاد والأعمال، وآداب المعاملة، وآداب النفس، والتي تستلزم ما لم يذكر، ورتبها بالتدرج من الأهم فالمهم، فبدأ بالعقيدة، فنهى عن الشرك، ثم بين ثبوت الحساب والجزاء، ودقته، ثم أمر بإقام الصلاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصبر، ثم نهى عن سوء الأخلاق في المعاملة، وفي النفس، وأمر بحسنها.

وقد ورد عنه من الحكم والمواعظ أشياء كثيرة، ذكر منها قوله: «يا بني، إن الدنيا بحر عميق، وقد غرق فيه أناس كثيرون، فاجعل سفينتك فيها تقوى الله، وحشوها

إيمان بالله، وشراعها التوكل على الله تعالى لعلك تنجو، وما أراك ناجيًا!»[١].

وقوله: «من كان له من نفسه واعظ، كان له من الله حافظ، ومن أنصف الناس من نفسه زاده بذلك عزًّا، والذل في طاعة الله أقرب من التعزز بالمعصية»[٢].

* * *

(١) انظر: «الزهد والرقائق» لابن المبارك، «الزهد» لنعيم بن حماد ١/ ١٩٠ (٥٣٧)، «الزهد» لابن أبي الدنيا ص٨٧ (١٧٩)، «الزهد الكبير» للبيهقي ص٣٣٥ (٩٠٢).

(٢) انظر: «الزهد» للإمام أحمد بن حنبل ص٨٧ (٥٣٤).

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾ * وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾:

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟﴾؛ الاستفهام: للتقرير، والخطاب عام لجميع الناس، أي: ألم تعلموا وتشاهدوا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم﴾؛ «أن» وما بعدها في تأويل مصدر في محل نصب سد مسد مفعولي «تروا»، أي: ألم تعلموا ببصائركم، وتشاهدوا بأبصاركم، أن الله ذلل لأجلكم ولمصالحكم ومنافعكم.

﴿مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ «ما»: موصولة في الموضعين تفيد العموم، أي: جميع الذي في السموات من الشمس والقمر والنجوم والرياح والسحاب وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [الأعراف:٥٤]، [النحل:١٢]، وقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾﴾ [إبراهيم:٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾

[البقرة:١٦٤].

﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: وسخر لكم جميع الذي في الأرض من الحيوانات والأشجار، والزروع والثمار والأنهار، والمعادن وغير ذلك، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة:٢٩].

﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ﴾؛ قرأ نافع وأبو جعفر وأبو عمرو وحفص بفتح العين، وهاء مضمومة، على التذكير والجمع: ﴿نِعَمَهُۥ﴾، وقرأ الباقون بإسكان العين، وتاء منونة منصوبة، على التأنيث والإفراد: «نِعْمَةً»، والتنكير فيها للتعظيم، والمراد بها: الجنس، فاستوى فيها الواحد والجمع؛ أي: وأتم وأوسع عليكم نعمه، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم:٣٤، النحل:١٨].

﴿ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾؛ منصوبة على الحال على قراءة الجمع، وصفة لـ«نعمة» على قراءة الإفراد.

ومعنى ﴿ظَٰهِرَةً﴾، أي: ظاهرة للعيان شاملة لجميع الخلق، مشاهَدة محسوسة واضحة، ﴿وَبَاطِنَةً﴾، أي: خفية معقولة، لا تشاهد، أو لا يعرفها إلا من أنعم الله عليه بها، أو لا يتبين أنها نعمة حتى يرى آثارها بعد ذلك.

ومن أعظم هذه النعم: إرسال الرسل، وإنزال الكتب، والصحة في الأبدان، والأمن في الأوطان، وإدرار الخيرات والأرزاق، ودفع النقم، وغير ذلك.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾؛ الواو: استئنافية، و«من»: تبعيضية، أي: وبعض الناس الجاحدين لنعمة الله تعالى.

﴿مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ﴾؛ «من»: موصولة، أي: الذي يخاصم وينازع في ذات الله، وفي وحدانيته تعالى، في ربوبيته وإلهيّته وأسمائه وصفاته، وفي شرعه، وماجاءت به رسله من الحق، وفي قدره.

﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، أي: بلا علم عنده، ومن غير بصيرة ولا عقل.

﴿وَلَا هُدًى﴾؛ من غيره يهتدي به عن الرسل وأتباعهم.

﴿وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾، أي: مضيء للطريق، مبين للحق، منقذ من ظلمة الجهل

والضلال، من الكتب المنزلة من عند الله عز وجل.

فلا معقول، ولا منقول، ولا اقتداء بالمهتدين، بل بجهل وضلال، ومكابرة ومعاندة، وتقليد للضالين من الآباء وغيرهم، وجدالٍ بالباطل؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ﴾ [غافر:٥].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾، أي: لهؤلاء المجادلين في وحدانية الله تعالى، وفيما جاءت به الرسل: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾، أي: اتبعوا الذي أنزل الله على رسوله ﷺ في القرآن الكريم والسنة.

﴿قَالُواْ﴾؛ معاندين ومعارضين: ﴿بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾؛ «بل»: للإضراب الانتقالي، أي: بل نتبع الذي وجدنا عليه آباءنا، فلم يكن لهم حجة إلا اتباع آبائهم، وتقليدهم إياهم تقليدًا أعمى على جهل وضلال.

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ١٧٠﴾ [البقرة:١٧٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ١٠٤﴾ [المائدة:١٠٤]، وقال تعالى: ﴿بَلۡ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ ٢٢ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ٢٣﴾ [الزخرف:٢٢– ٢٣].

﴿أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾؛ الاستفهام: للإنكار، أي: أيتبعون آباءهم ولو كان الشيطان يدعوهم بتزيينه لهم اتباع آبائهم على جهل إلى موجبات عذاب السعير؟ أو ولو كان الشيطان يدعو آباءهم بتزيينه لهم ما هم عليه من الشرك والباطل إلى عذاب السعير؟ أي: فكيف يتبعون آباءهم الذين هم أتباع الشيطان، دعاهم إلى الباطل المفضي بهم إلى عذاب السعير فأطاعوه؟!

ويحتمل عود الضمير إليهم هم وآبائهم، أي: أولو كان الشيطان يدعوهم جميعًا إلى عذاب السعير، وفي هذا ذم لهم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ أَلۡفَوۡاْ ءَابَآءَهُمۡ ضَآلِّينَ ٦٩ فَهُمۡ

عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ يُهۡرَعُونَ ۝٧٠﴾ [الصافات:٦٩- ٧٠].

و«السعير»: النار المستعرة المتوقدة، وهي «فعيل» بمعنى مفعول، أي: النار المسعورة الموقدة.

قوله تعالى: ﴿۞ وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ۝٢٢ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحۡزُنكَ كُفۡرُهُۥٓۚ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٢٣ نُمَتِّعُهُمۡ قَلِيلٗا ثُمَّ نَضۡطَرُّهُمۡ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٖ ۝٢٤﴾:

قوله: ﴿وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾، أي: يخلص قصده وعمله إلى الله، قال تعالى: ﴿فَإِنۡ حَآجُّوكَ فَقُلۡ أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ﴾ [آل عمران:٢٠].

وقال عز وجل في الحديث القدسي: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك معي فيه غيري تركته وشركه**»(١).

﴿وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾؛ في عمله، أي: متبع شرع الله وسنة نبيه ﷺ، محسن في عبادة الله تعالى بالقيام بحقوقه، ومحسن إلى عباد الله بإعطائهم حقوقهم الواجبة والمندوبة، يعبد الله كأنه يراه، فإن لم يكن يراه فإنه يراه.

قال ﷺ: «**من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد**»(١)، «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**»(١).

وهذان شرطا صلاح العمل وصحته وقبوله: الإخلاص لله تعالى، والمتابعة لشرعه وسنة نبيه ﷺ؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۗ﴾ [النساء:١٢٥]، وقال تعالى: ﴿بَلَىٰۚ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [البقرة:١١٢].

﴿فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ﴾؛ الفاء: رابطة لجواب الشرط؛ لاقترانه بـ«قد»، و«استمسك» أبلغ من «أمسك»، أي: فقد اعتصم وتعلق ﴿بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰۗ﴾، أي: بأوثق عرى الإيمان،

---

(١) سبق تخريجه.

وبـ«لا إله إلا الله محمد رسول الله»، وبأعظم الأسباب الموصلة إلى رضوان الله تعالى وجنته، والنجاة من النار، كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة:٢٦٥].

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾، أي: وإلى الله تعالى وحده نهاية الأمور ومآلها ومرجعها، فإليه عز وجل وحده مرجع الخلائق كلهم، وعليه حسابهم.

﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾؛ قرأ نافع بضم الياء وكسر الزاي: «يُحْزِنْكَ»، وقرأ الباقون بفتح الياء وضم الزاي: ﴿يَحْزُنكَ﴾.

أي: ومن كفر بالله، وبما جئت به يا محمد، فلا يحزنك كفره، فليس عليك إلا البلاغ، وقد بلَّغْت، وهداية القلوب بيد علام الغيوب.

ولا تحزن أيضًا على إمهال الله لهم، وعدم مبادرتهم بالعذاب، مع ما هم عليه من شدة الكفر والعناد، والصد عن دين الله؛ فإن الله لهم بالمرصاد، ويمهلهم ولا يهملهم، وإذا أخذهم أخذهم أخذ عزيز مقتدر.

﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾؛ الجملة في موقع التعليل لما قبلها، أي: إلينا وحدنا مردهم ومصيرهم.

﴿فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟﴾، أي: فنخبرهم بعملهم، أو بالذي عملوه، ونحاسبهم ونجازيهم عليه؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ۝٢٦﴾ [الغاشية:٢٥- ٢٦].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾؛ تعليل لقوله: ﴿فَنُنَبِّئُهُم﴾، أي: لأن الله عليم، أي: ذو علم واسع ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، أي: بصاحبة الصدور، وهي القلوب، وما تنطوي عليه من المعتقدات والأسرار، والمكنونات والمضمرات، وعلمه لما ظهر من باب أولى.

﴿نُمَتِّعُهُمْ﴾، أي: نمتعهم في الدنيا ﴿قَلِيلًا﴾، أي: تمتيعًا قليلًا، أي: نعطيهم ونمنحهم في الدنيا المتاع، أي: الشيء القليل قيمة وزمنًا، استدراجًا لهم؛ كما قال تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٨٢ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ۝١٨٣﴾

[الأعراف:١٨٢، ١٨٣].

﴿ثُمَّ نَضۡطَرُّهُمۡ﴾، أي: ثم نلجئهم ﴿إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾، أي: فظيع عظيم شديد؛ كما قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ۝٦٩ مَتَٰعٞ فِي ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ۝٧٠﴾ [يونس:٦٩، ٧٠]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ۝١٢﴾[محمد:١٢].

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٢٥ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ۝٢٦﴾:

قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم﴾، أي: ولئن سألت يا محمد هؤلاء المشركين الذين يعبدون الأصنام والأوثان، ويشركونها مع الله؛ لتقيم عليهم الحجة في بطلان عبادتها، ووجوب إخلاص العبادة لله تعالى وحده.

﴿مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾، أي: من الذي أوجد السموات والأرض وما فيهما وما بينهما من المخلوقات والعوالم؟

﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾؛ اللام: واقعة في جواب القسم، أي: ليقولن: الله الذي خلقهن، مقرين بربوبيته عز وجل لجميع الخلق، وخلقه السموات والأرض، وخلقهم وخلق معبوداتهم.

﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ﴾، أي: قل الحمد لله وحده، الذي أبان الحق، وأقام الحجة باعترافكم، وأظهر الاستدلال عليكم من أنفسكم، وجعل دلائل توحيده وبراهينه من الوضوح بحيث لا يستطاع إنكارها.

﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾؛ «بل»: للإضراب الانتقالي، أي: لا يعلمون العلم الذي ينفعهم، ويهتدون به إلى الحق؛ إذ لو كانوا يعلمون لعرفوا بأن المتفرد بالخلق والملك والتدبير هو المستحق للعبادة وحده لا شريك له، وهوالله عزوجل.

﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾، أي: لله تعالى وحده كل الذي في السموات

والأرض، خلقًا وملكًا وتدبيرًا، فلا يستحق العبادة فيهما غيره.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾ أي: الغني بنفسه؛ لأن كل شيء فهو له عز وجل، والغني عن غيره، أي: ذو الغنى الواسع، فلا يحتاج إلى أحد من خلقه، وكلهم فقراء إليه؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾ [الذاريات:٥٦– ٥٨]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩٧﴾[آل عمران:٩٧].

﴿ٱلْحَمِيدُ﴾، أي: المحمود بلسان الحال والمقال في غناه، وفي ذاته وصفاته، وأقواله وأفعاله، وفي خلقه وشرعه وقدره.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٢٧ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝٢٨﴾:

قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾؛ الواو: عاطفة، و«لو»: حرف شرط غير جازم، «ما»: موصولة تفيد العموم ﴿مِن شَجَرَةٍ﴾؛ «من»: بيانية، أي: ولو فرض أن جميع ما في الأرض من الأشجار أقلام يكتب بها.

﴿وَٱلْبَحْرُ﴾؛ قرأ أبو عمرو ويعقوب بنصب الراء: «وَالبَحْرَ»، عطفًا على اسم «إن»، وقرأ الباقون بالرفع: ﴿وَٱلْبَحْرُ﴾ على أن الواو للحال.

و«ال» في «البحر» للجنس، فالمراد بالبحر: جميع بحور الأرض.

﴿يَمُدُّهُۥ﴾، أي: يزيده، أي: يزيد هذا البحر الموجود مدادًا ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾، أي: من بعد نفاده ﴿سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ أخرى، وذكر السبعة للمبالغة في الكثرة، وليس للحصر، فالمعنى: والبحر يمده من بعد نفاده أبحر كثيرة مهما كثرت.

﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ﴾، أي: ما انتهت كلمات الله.

والمعنى: لو أن كل ما في الأرض من الشجر أقلام يكتب بها، والبحر الموجود مداد، يمده من بعد نفاده سبعة أبحر أخرى لكتابة كلمات الله تعالى؛ لفنيت تلك الأقلام، ونفدت مياه تلك البحار كلها، وما نفدت كلمات الله ولا انتهت؛ لأنها لا تنفد

ولا تنتهي؛ لأنه عز وجل الباقي بلا نهاية، فلا شيء بعده؛ كما أنه الأول فلا شيء قبله، قال تعالى: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا ١٠٩﴾ [الكهف:١٠٩].

قال ابن القيم: «ومعنى هذا: أنه لو فرض البحر مدادًا، وبعده سبعة أبحر تمده كلها مدادًا، وجميع أشجار الأرض أقلامًا، وهو ما قام منها على ساق من النبات، والأشجار المثمرة وغير المثمرة، وتستمد بذلك المداد، لفنيت البحار والأقلام، وكلمات الرب لا تفنى، ولا تنفد، فسبحان الله وبحمده، عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته»(١).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾، أي: ذو العزة التامة، الذي عز كل شيء وقهره وغلبه، وذو الحكم التام، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وذو الحكمة البالغة في خلقه وشرعه وقدره، وغير ذلك.

﴿مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ﴾، أي: ما خلقكم أيها الناس، ولا بعثكم يوم القيامة بالنسبة لقدرة الله تعالى ﴿إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍ﴾؛ «إلا»: أداة حصر، أي: إلا كخلق وبعث نفس واحدة؛لأن الكثرة والقلة عنده على حد سواء؛ لتمام قدرة الله تعالى، فلا يعجزه شيء؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ٥٠﴾ [القمر:٥٠]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ ١٣ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ١٤﴾ [النازعات:١٣- ١٤].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾، أي: ذو السمع الواسع لجميع الأصوات، المجيب الدعوات، وذو البصر العام لجميع المبصرات والمرئيات.

الفوائد والأحكام:

١- تقرير العباد بما سخر الله لهم من المخلوقات في السموات والأرض، وبما أسبغ عليهم من نعمه الظاهرة والباطنة؛ ليذكروه ويشكروه؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٤٠٧-٤٠٨.

سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ﴾.

٢- أن كل ما في السموات والأرض مسخر لبني آدم، ومخلوق لهم؛ كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾ [البقرة:٢٩].

٣- توافر نعم الله تعالى على العباد ظاهرة وباطنة، مما لا يمكن حصره ولا تعداده؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ [إبراهيم:٣٤، النحل:١٨].

٤- ذم الذين يجادلون في ذات الله ووحدانيته، وما جاءت به الرسل من الحق، مجادلة بالباطل، بلا علم ولا بصيرة، ولا عقل ولا نقل، ولا هدى، بل بجهل، وتقليد للضالين من الآباء وغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾.

ومفهوم هذا أن من جادل بالعلم والهدى من الكتاب والسنة فليس بمذموم، وقد قال عز وجل: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [النحل:١٢٥].

٥- أن الحق إنما يعرف من طريق العلم، والاقتداء بالمهتدين من الرسل وأتباعهم، والكتب المنزلة من عند الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾.

٦-تأكيد ذم هؤلاء المجادلين لرفضهم اتباع ما أنزل الله من الحق، واتباعهم ما كان عليه آباؤهم من الباطل على جهل وضلال؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾.

٧- أن القرآن منزل من عند الله تعالى غير مخلوق؛ لقوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾.

٨- إثبات علو الله تعالى على خلقه بذاته وصفاته؛ لقوله تعالى: ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾.

٩- الإنكار عليهم، والتعجب منهم: كيف يتبعون آباءهم الذين دعاهم الشيطان إلى ما فيه هلاكهم وعذابهم فأجابوه؟ وكيف دعاهم هم بأنفسهم إلى تقليد آبائهم المفضي بهم إلى ذلك فأجابوه؟! لقوله تعالى: ﴿أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ٢١﴾.

١٠- ذم الجدال بالباطل بلا علم ولا هدي ولا كتاب منير، وتقليد الآباء على

جهل وضلال، والتعصب لما هم عليه من الباطل مع ظهور الحق.

١١- وجوب الحذر من الشيطان ودعوته؛ لأنه عدو مبين، يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير، فمن أطاعه وخالف أمر الله دخل النار.

١٢- إثبات النار وسعيرها وعذابها، التي أعدها الله للكافرين.

١٣- امتداح من أخلص العمل لله تعالى، واتبع شرع الله وسنة رسوله ﷺ باعتصامه بأوثق عرى الإيمان، والأسباب الموصلة إلى رضوان الله تعالى وجنته والنجاة من النار؛ لقوله تعالى: ﴿۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾.

١٤- لا بد للاستمساك بالعروة الوثقى من كون العمل صالحًا، أي: خالصًا لله تعالى، موافقًا لشرعه، وأن من لم يكن كذلك فهو هالك لا متمسَّك له.

١٥- أن عاقبة الأمور كلها ومآلها ومرجعها إلى الله تعالى، إليه وحده مرجع الخلائق كلهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾، وقال تعالى: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الشورى:٥٣].

١٦- تسلية الله تعالى للنبي ﷺ، وإرشاده له بألا يحزن على كفر من كفر من قومه؛ لأنه ليس عليه إلا البلاغ، وقد بلّغ البلاغ المبين، وحسابهم على الله تعالى، إليه مرجعهم فيخبرهم بأعمالهم ويجازيهم عليها؛ لأنه لا يخفى عليه منها شيء مهما أسروه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾﴾.

١٧- أنه ﷺ كان يحزن لكفر من كفر؛ رحمة بأمته، وحزنًا على ما فات الإسلام من كثرة المتبعين.

١٨- إثبات البعث والمعاد ورجوع الخلائق إلى الله تعالى، ومحاسبتهم ومجازاتهم على أعمالهم خيرها وشرها؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟﴾، وقوله: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾.

١٩- إثبات سعة علم الله تعالى، ووجوب مراقبته في السر والعلن؛ لعلمه بما تنطوي عليه القلوب والضمائر، وما تكنه الصدور؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ

ٱلصُّدُورِ﴾.

٢٠- استدراج الكافرين بتمتيعهم في الدنيا قليلًا؛ لقوله تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا﴾.

٢١- قلة متاع الدنيا، قيمة وزمنًا، كما قال تعالى: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾ [التوبة:٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾ [يونس:٤٥].

وقال ﷺ: «**لموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما فيها**»، وقال ﷺ: «**لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها شربة ماء**»(١).

٢٢- وعيدهم وتهديدهم بإلجائهم في الآخرة إلى عذاب غليظ شديد؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾.

٢٣- اعتراف الكفار وإقرارهم بربوبية الله تعالى، وأنه هو الذي خلق السموات والأرض، وما فيهما من المخلوقات، وخلقهم وخلق معبوداتهم، وغير ذلك، لكن ذلك لا ينفعهم، بل هو حجة عليهم؛ لإنكارهم توحيد الألوهية؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾.

٢٤- حمد الله تعالى لنفسه إذ أبان الحق، وجعل دلائل التوحيد وبراهينه واضحة جلية، وأظهر الاستدلال على هؤلاء المشركين من أنفسهم بوجوب عبادته وحده باعترافهم بربوبيته؛ لقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

٢٥- أن المستحق للحمد بتمامه وكماله، والمختص بذلك وحده هو الله عز وجل؛ لما له من صفات الجلال والعظمة والكمال، كما قال ﷺ: «**أهل الثناء والمجد**»(٢).

٢٦- أن أكثر الخلق لا يعلمون العلم الذي ينفعهم، ويهتدون به إلى الصراط المستقيم؛ إذ لو كانوا يعلمون؛ لعرفوا أن المتفرد بالخلق والملك والتدبير هو المستحق للعبادة وحده لا

(١) سبق تخريجها.

(٢) أخرجه مسلم في الصلاة، ما يقول إذا رفع رأسه من الركوع ٤٧٨، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

شريك له، وعبدوه دون سواه؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

٢٧- سعة ملك الله عز وجل، واختصاصه سبحانه وحده بها في السموات والأرض؛ خلقًا وملكًا وتدبيرًا؛ لقوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

٢٨- إثبات اسم الله تعالى: «الغني»، وأنه سبحانه ذو الغنى الواسع في نفسه وعن غيره، فلا يحتاج لأحد سواه، والخلق كلهم فقراء إليه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ﴾.

٢٩- إثبات اسم الله: «الحميد»، وأنه سبحانه المحمود في غناه، وفي ذاته وصفاته، وأفعاله وأقواله، وفي خلقه وقدره وشرعه؛ لقوله تعالى: ﴿الْحَمِيدُ﴾.

٣٠- إثبات عظمة الله تعالى وكبرياؤه، وجلالة أسمائه الحسنى، وصفاته العلا، وكلماته التامة، التي لا نفاد لها، ولا يحيط بها أحد؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾.

وفي الحديث: «... **لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك**»(١).

٣١- إثبات الكلام لله تعالى، وأنه يتكلم بحرف وصوت كما يليق بجلاله وعظمته؛ لقوله تعالى: ﴿كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾.

٣٢- أن العدد قد يذكر للمبالغة والكثرة، لا لقصد تحديد عدد معين؛ لقوله تعالى: ﴿سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾، فليس المراد به التحديد، وإنما المراد المبالغة والكثرة؛ كما في قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الكهف:١٠٩]، أي: ولو جئنا بمثله وبمثله وبمثله إلى ما لا نهاية له.

٣٣- إثبات صفة العزة التامة لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾.

٣٤- أن الله- عز وجل- ذو الحكم التام، وذو الحكمة البالغة؛ لقوله تعالى: ﴿حَكِيمٌ﴾.

٣٥- باجتماع صفة العزة التامة والحكم التام والحكمة البالغة في حقه عز وجل

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة ما يقال في الركوع والسجود ٤٨٦، وأبو داود في الصلاة؛ الدعاء في السجود والركوع ٨٧٩، والنسائي في قيام الليل، الدعاء في الوتر ١١٠، والترمذي في الدعوات ٣٤٩٣، وابن ماجه في الدعاء ٣٨٤١، وأحمد ٦/ ٥٨؛ من حديث عائشة رضي الله عنها.

كمال إلى كمال.

٣٦- تمام قدرة الله تعالى، وأنه لا يعجزه شيء؛ وأن نسبة خلق الخلق كلهم وبعثهم بالنسبة إلى قدرته عز وجل كخلق نفس واحدة وبعثها؛ لقوله تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾.

٣٧- أن الله تعالى كما قدر على الخلق أولًا فهو قادرعلى البعث ثانيًا.

٣٨- إثبات صفتي السمع والبصر لله تعالى، وأنه سبحانه ذو السمع الواسع، يسمع جميع الأقوال والأصوات ويجيب الدعوات، وذو البصر المحيط بجميع المبصرات؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌۢ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾﴾:

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ﴾؛ الاستفهام: للتقرير، فيه تقرير لنعمة الله تعالى، ودلائل كمال عظمته، وتمام قدرته، والخطاب عام لكل من يصلح له، أي: ألم تعلم وتشاهد أن الله يدخل الليل في النهار، أي: يأخذ من ساعات الليل في النهار، فيطول النهار ويقصر الليل، وهذا في الصيف، ويدخل النهار في الليل، أي: يأخذ من ساعات النهار في الليل، فيطول الليل ويقصر النهار، وهذا في الشتاء.

وهذا التبادل بين ساعات الليل والنهار زيادة ونقصانًا، يأتي تدريجيًّا بحكمة الله تعالى، بحيث لا يؤثر ذلك على الإنسان والحيوان والنبات وغير ذلك.

ومن إيلاج الليل في النهار والعكس: أنه إذا جاء أحدهما ذهب الآخر؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ [يس: ٤٠].

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾.

لما ذكر الليل والنهار ذكر الشمس والقمر؛ لأنهما آيتا الليل والنهار؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِۖ فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةٗ﴾ [الإسراء:١٢].

والمعنى: أي: وذلل عز وجل بقدرته الشمس والقمر، كل منهما يسير في فلكه بتدبير ونظام دقيق منذ خلقهما لمصالح العباد؛ كما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِۖ﴾ [إبراهيم:٣٣]، وقال تعالى: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۝٥﴾ [الرحمن:٥]، وقال تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ﴾ [الأنعام:٩٦]، وقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ﴾ [الجاثية:١٣].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «الشمس بمنزلة الساقية، تجري بالنهار في السماء في فلكها، فإذا غربت جرت بالليل في فلكها تحت الأرض، حتى تطلع الشمس من مشرقها، وكذلك القمر»(١).

﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾، أي: إلى وقت معين محدد، وهو يوم القيامة حين تُكوّر الشمس، ويخسف القمر ويذهب بنورهما؛ كما قال تعالى: ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ ۝٩﴾ [القيامة:٩].

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾؛ معطوف على قوله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾، أي: وترى وتعلم أن الله بما تعملون، أي: بعملكم أو بالذي تعملونه.

﴿خَبِيرٞ﴾، أي: مطلع على جميع عملكم، على بواطنه ودقائقه وخفاياه، واطلاعه على ظواهره وجلائله وجلياته من باب أولى، وسيحاسبكم ويجازيكم على ذلك؛ إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

﴿ذَٰلِكَ﴾، أي: ذلك الذي قرركم الله به من بيان نعمته عليكم في إيلاج الليل بالنهار والنهار بالليل، وتسخير الشمس والقمر يجريان إلى أجل مسمى، وخبرته بعملكم، وما في ذلك من دلائل عظمته وتمام قدرته.

---

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ٣٥٤ وقال: «إسناده صحيح».

﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾؛ الباء: للسببية، أي: بسبب أن الله هو الحق؛ ولتعلموا أن الله هو الحق؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور:٢٥].

فوجوده حق، وربوبيته حق، وإلهيته حق، وذاته حق، وأسماؤه وصفاته حق، ورسله حق، وكتبه حق، ودينه وشرعه حق، وقدره حق، ووعده ووعيده حق، ولقاؤه حق، وجزاؤه حق، وجنته حق، وناره حق، إلى غير ذلك، والحق ضدالباطل، كما قال لبيد(١):

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

وضمير الفصل «هو» للتأكيد والاختصاص، أي: هو وحده الحق، لا ما يعبد من دونه؛ ولهذا قال:

﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ قرأ أبو عمرو وحفص وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف بالياء: ﴿يَدْعُونَ﴾، وقرأ الباقون بالتاء: «تَدعون».

أي: وأن الذي يدعوه المشركون؛ أي: يعبدونه، ويسألونه من الأصنام والأوثان.

﴿مِن دُونِهِ﴾، أي: من دون الله، أي: غير الله عز وجل.

﴿ٱلْبَٰطِلُ﴾، أي: المعبود الباطل، أي: فهو عز وجل المعبود الحق، وكل ما سواه باطل لا يستحق العبادة، ولا تجوز عبادته؛ كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ۝٣٧﴾ [فصلت:٣٧].

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾؛ معطوف على قوله: ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾.

أي: وبسبب أن الله هو العلي الكبير، ولتعلموا أن الله هو العلي الكبير، وضمير الفصل للتأكيد والحصر، أي: وأن الله وحده هو العلي الكبير.

و«العلي»: اسم من أسماء الله تعالى، أي: العلي بذاته وصفاته، فوق جميع مخلوقاته، له علو الذات، وعلو الصفات.

---

(١) انظر: «ديوانه» ص٢٥٦.

و«الكبير»: من أسمائه عز وجل، أي: ذو الكبرياء في ذاته وصفاته، الذي هو أكبر من كل شيء؛ كما جاء في الحديث: «**الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري**»(١).

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾:

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾؛ الاستفهام: للتقرير، والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له.

أي: ألم تشاهد ببصرك وتتأمل ببصيرتك ﴿أَنَّ الْفُلْكَ﴾، أي: السفن.

﴿تَجْرِي فِي الْبَحْرِ﴾، أي: تسير في البحر فوق ظهر الماء.

﴿بِنِعْمَتِ اللَّهِ﴾ الباء: للسببية، أي: بسبب نعمة الله تعالى وتسخيره ولطفه ومنته وإحسانه ورحمته؛ بما جعل في الماء من قوة يحمل بها السفن، بأمره القدري.

ويحتمل أن أن معنى ﴿بِنِعْمَتِ اللَّهِ﴾ أي: حاملة لنعم الله تعالى، ولا منافاة، فجريانها بسبب نعمة الله، وهي تحمل نعم الله.

﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ﴾؛ اللام: للتعليل، أي: لأجل أن يريكم ويظهر لكم من آياته الدالة على عظمته ونعمته، وتمام قدرته وعنايته بعباده.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾، أي: في جعل الفلك تجري في البحر على ظهر الماء بنعمة الله تعالى.

﴿لَآيَاتٍ﴾؛ اللام: للتوكيد، أي: لدلائل على عظمة الله تعالى، وتمام قدرته ونعمته.

﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾؛ «صبار» على وزن «فعّال»، أي: عظيم الصبر على طاعة الله، وعن معصية الله، وعلى أقدار الله المؤلمة.

﴿شَكُورٍ﴾؛ على وزن «فَعُول»، أي: كثير الشكر لربه، بنسبة نعمه إليه عز وجل، واستعمالها في طاعته، والاستعانة بها على ذلك.

أي: صبار شكور في الضراء والسراء، والشدة والرخاء، والعسر واليسر، وهذه

---

(١) سبق تخريجه.

صفة المؤمن؛ كما قال ﷺ: «**عجبًا لأمر المؤمن؛ إن أمره كله له خير، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن**»(١).

﴿وَإِذَا﴾؛ الواو: عاطفة، و«إذا»: ظرفية شرطية، ﴿غَشِيَهُم مَّوۡجٞ﴾، أي: علاهم وغطاهم وأحاط بهم، والضمير يعود إلى المشركين الذين يعبدون غير الله.

والموج: ما ارتفع من الماء على الماء بسبب الرياح.

﴿كَٱلظُّلَلِ﴾؛ كالسحاب أو الجبال المظلة.

﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ﴾، أي: دعوا الله اضطرارًا لمَّا اشتد بهم الكرب.

﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾، أي: مخلصين لله وحده الدعاء دون معبوداتهم من دونه؛ لعلمهم أنها لا تملك لهم شيئًا، ولا تنفع ولا تضر؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ﴾ [الإسراء:٦٧]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [العنكبوت:٦٥].

﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ﴾، أي: فلما خلصهم عز وجل من الشدة، وخرجوا إلى البر.

﴿فَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞۚ﴾، أي: فمنهم فريق مقتصد، أي: متوسط في العمل، لم يقابل نعمة الله عليه بإنجائه بالشكر كما ينبغي.

﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾، أي: وما يكفر بآياتنا ويكذب بها وينكرها ﴿إِلَّا كُلُّ خَتَّارٖ كَفُورٖ﴾، «إلا»: أداة حصر، و﴿خَتَّارٖ﴾ على وزن «فعَّال»، أي: غدار كثير الغدر، كلما عاهد عهدًا نقضه وغدر، ومن غدره أنه عاهد الله لئن أنجيتنا من البحر وشدته لنكونن من الشاكرين، فلما أنجاهم الله غدروا وكفروا، ولم يشكروا؛ كما قال تعالى: ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ﴾ [يونس:٢٢، ٢٣].

---

(١) سبق تخريجه.

و«الختر»: أشد الغدر وأبلغه، قال عمرو بن معديكرب[١]:

وإنك لو رأيت أبا عمير ... ملأت يديك من غدر وختر

﴿ كَفُورٍ﴾، أي: كثير الكفر لنعم الله تعالى، عظيم الجحود لها.

فانقسموا بعد أن أنجاهم الله إلى البر إلى فريقين: فريق مقتصد في العمل، وفريق جحود لآيات الله، غدار ناقض للعهد، كفور بنعمة الله جاحد لها؛ كما قال تعالى في سورة الإسراء: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ [الآية:٦٧]، وقال تعالى في سورة العنكبوت: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [الآية:٦٥].

أي: يعودون إلى الشرك بالله والكفر.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾:

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾؛ سبق الكلام على هذا مستوفًى في مطلع سورة النساء.

أي: اتقوا ربكم بفعل أوامره، واجتناب زواجره.

﴿وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا﴾؛ معطوف على ﴿ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾، والخشية: أشد الخوف، ونكّر «يومًا» للتعظيم والتهويل، أي: واخشوا وخافوا يومًا عظيمًا خطيرًا ثقيلًا، عبوسًا قمطريرًا، وهو يوم القيامة؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢٨١].

﴿لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾؛ الجملة صفة لـ«يومًا»، أي: يومًا من صفته: أنَّه لا يجزي فيه والد عن ولده، أي: لا يغني فيه والد عن ولده. و«والد»: نكرة في سياق النفي، فيشمل الأب والجد وإن علا من أي جهة كان.

﴿وَلَا مَوْلُودٌ﴾؛ الواو: عاطفة، و«لا»: زائدة مؤكدة للنفي، و«مولود»: معطوف

---

(١) انظر:«ديوانه» ص١٠٥.

على «والد».

﴿هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾، أي: ولا ولد، ابنًا كان أو بنتًا وإن نزل، هو جازٍ عن والده شيئًا، أي: هو مغنٍ عن والده شيئًا.

و«شيئًا»: نكرة في سياق النفي، فيعم نفي أي شيء مهما قل، من نفع أو دفع.

فكل واحد في ذلك اليوم العظيم، والموقف الرهيب، لا يلوي على أحد سواه، ولا يهمه إلا خلاص نفسه ونجاته، ولا يفكر بغيره، أيًا كان والدًا أو ولدًا؛ لعظم الخطب، وشدة الكرب؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس:٣٤- ٣٧]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ [المؤمنون:١٠١]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾ [الحج:٢].

فكلٌّ منشغل بنفسه لا يهمه سواها، ولو أراد أن يفتدي غيره ما قبل منه؛ لأن كلًّا مرتهن بعمله، ويجازى عليه وحده، ولا تزر وازرة وزر أخرى.

وقدّم قوله: ﴿لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾ على قوله: ﴿وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ والله أعلم؛ لأن الوالد غالبًا أشفق على نجاة ولده من شفقة الولد على نجاة أبيه، وخصهما بالذكر دون بقية القرابات؛ لأنهما أشد محبة وحمية فيما بينهما من غيرهما، فيعلم أن غيرهما أولى بهذا النفي.

وأتى بالجملة الاسمية في قوله: ﴿وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ الدالة على الثبوت والاستمرار- والله أعلم- لئلا يطمع أحد من المسلمين الذين أسلموا في كفايتهم عن آبائهم الكفار شيئًا.

﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾، أي: إن وعد الله بالبعث والحساب والجزاء بالثواب والعقاب ﴿حَقٌّ﴾، أي: أمر ثابت آتٍ لا محالة، وواقع كائن ولا بد؛ لكمال صدقه عز وجل، وتمام قدرته على تحقيق ما وعد به من غير عجز؛ كما قال تعالى: ﴿۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [يونس:٥٣].

﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾، أي: فلا تخدعنكم ولا تلهينكم الحياة الدنيا بزينتها وزخارفها، وما فيها من المغريات والمفاتن، وأكد الفعل ﴿تَغُرَّنَّكُمُ﴾ بنون التوكيد للدلالة على شدة غرور الدنيا، ووجوب الحذر منها.

قد نادت الدنيا على نفسها لو كان في العالم من يسمع

كم واثق بالعمر واريته وجامع بددت ما يجمع[1]

﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ﴾، أي: ولا يخدعنكم ﴿بِٱللَّهِ﴾، أي: بحلمه وإمهاله، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦﴾ [الانفطار:٦].

﴿ٱلْغَرُورُ﴾: الشيطان؛ كما قال تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ۝١٢٠﴾ [النساء:١٢٠].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ۝٣٤﴾:

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾، «إن»: للتوكيد، أي: إن الله عنده وحده علم الساعة، أي: القيامة، وسميت بـ«الساعة»؛ لأنها أعظم حدث يكون؛ ولأن فيها وعيدًا للمكذبين، أي: عنده وحده علم قيام الساعة وإتيانها، لا يعلمه غيره، لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل، ولا أحد من الخلق؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ﴾ [الأعراف:١٨٧]، وقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الأحزاب:٦٣]، وقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۝٤٢ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ۝٤٣ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ۝٤٤﴾ [النازعات:٤٢- ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الزخرف:٨٥].

ولهذا لما قال جبريل للنبي ﷺ: **«أخبرني عن الساعة»**، قال ﷺ: **«ما المسؤول عنها**

---

(١) انظر: «نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة» للتنوخي ٤/ ١٩٨، «المجموع اللفيف» ص٤٦٤.

بأعلم من السائل»[(١)].

﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾، قرأ نافع وابن عامر وعاصم وأبو جعفر، بفتح النون وتشديد الزاي: ﴿وَيُنَزِّلُ﴾، وقرأ الباقون بتخفيفها مع سكون النون: «وينْزِل».

أي: وينزل المطر في الوقت الذي قدره، وفي المكان الذي عينه بعلمه، فهو المتفرد بإنزاله، وعلم وقت نزوله، ومكانه.

وسمي المطر: غيثًا؛ لأن به تزول الشدة، والاستغاثة: طلب إزالة الشدة من القحط والجدب.

وما يتوصل إليه علماء الأرصاد في هذا هو من باب التحري والتوقع؛ ولهذا أحيانًا لا يحصل ما توقعوه، وأحيانًا يتوقعون نزول المطر في مكان فينزل في مكان آخر.

وما أصابوا فيه فهو من علم الله الذي أعلمهم الله به؛ بواسطة بعض الآلات الدقيقة التي يعلمون بها تكيف الجو وصلاحياته لأن يكون ممطرًا أو غير ممطر، بإيجاده عز وجل بعض الأسباب والدلائل والعلامات على ذلك.

﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ﴾ «ما»: موصولة، تفيد العموم، أي: ويعلم الذي في الأرحام من الأجنة قبل تخليقه وبعده، وأطوار خلقه، من نطفة ثم علقة ثم مضغة، ذكرًا كان أو أنثى، شقيًّا أو سعيدًا، وغير ذلك من الصفات الخِلقية، والخلقية، والذاتية والمعنوية، وغير ذلك.

وما توصل إليه الطب من معرفة كون الحمل ذكرًا أو أنثى بواسطة الأشعة والمناظير إنما يكون بعد تخليقه، وعلم الله سابق لذلك محيط بجميع أطواره وأحواله، وصفاته الخِلْقية والخُلُقية، والجسمية والعقلية والنفسية، وغير ذلك مما لا يعلمه إلا الله تعالى.

﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾، أي: وما تعلم أيّ نفس ما الذي تكسبه من خير أو شر في دينها ودنياها.

﴿غَدًا﴾، أي: بعد يومها الحاضر، أي: كل المستقبل، فلا تدري ماذا تكسب فيه،

(١) سبق تخريجه.

قريبًا كان أو بعيدًا، قال زهير(١):

وأعلم علم اليوم والأمس قبله ... ولكنني عن علم ما في غدٍ عمِ

﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾، أي: وما تعلم أيّ نفس بأي أرض يكون موتها، أفي بلدها أو غيره، في بر أو بحر أو جو، أو سهل أو جبل؟ وإنما علم ذلك عند الله عز وجل وحده، ومن باب أولى لا تعلم بأي وقت تموت، وهذا من رحمة الله بعباده فلو علم الإنسان متى يموت لقلق، وأصبح يعدد ما بقي من عمره، لا هم له إلا ذلك.

عن أبي عزة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا أراد الله قبض روح عبد بأرض جعل له فيها**- أو قال: بها- **حاجة**»(٢).

قال الشاعر:

مشيناها خطا كتبت علينا ... ومن كتبت عليه خطا مشاها

ومن كانت منيته بأرض ... فليس يموت في أرض سواها(٣)

وقال الآخر:

فهن المنايا أي وادٍ سلكته ... عليها طريقي أو علي طريقها(٤)

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾؛ لما ذكر اختصاصه بعلم مفاتح الغيب الخمس التي لا يعلمها إلا هو، أتبع ذلك ببيان إحاطة علمه وخبرته بالظواهر والبواطن، والجلائل والدقائق، والجليات والخفيات، وغير ذلك.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾، أي: ذو علم واسع بجميع المخلوقات والكائنات، والوقائع

---

(١) البيت من معلقته المشهورة، انظر: «ديوانه» ص٧٠.

(٢) أخرجه أحمد ٣/ ٤٢٩، والترمذي في القدر، ما جاء أن النفس تموت حيث كتب لها ٢١٤٧، وقال: «حديث صحيح».

(٣) البيتان ينسبان لأحمد بن فارس، وقيل: للمعري، وقيل: لعبد العزيز الدريني. انظر: «المستطرف» ١/ ٤٩١.

(٤) انظر: «مدارج السالكين» ١/ ١٥.

والأحداث وكل شيء.

﴿خَبِيرٌ﴾، أي: مطلع على بواطن الأمور ودقائقها وخفاياها.

وهذه الخمس التي ذكر الله اختصاصه عز وجل بعلمها هي مفاتح الغيب؛ كما قال تعالى: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام:٥٩].

وقال ﷺ: «مفاتح خمس: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾»(١).

وفي لفظ: «**مفاتح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله: لا يعلم أحد ما يكون في غد، ولا يعلم أحد ما يكون في الأرحام، ولا تعلم نفس ماذا تكسب غدًا، وما تدري نفس بأي أرض تموت، وما يدري أحد متى يجيء المطر**»(٢).

وعن بريدة رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**خمس لا يعلمهن إلا الله تعالى**: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾»(٣).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ، قال: «**أوتيت مفاتيح كل شيء إلا الخمس**: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾»(٤).

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، قال: «**أوتي نبيكم ﷺ مفاتيح كل شيء غير الخمس**: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الأنعام ٤٦٢٧؛ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري في الجمعة ١٠٣٩.

(٣) أخرجه أحمد ٥/ ٣٥٣، وقال ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ٣٥٥: «صحيح الإسناد، ولم يخرجوه».

(٤) أخرجه أحمد ٢/ ٨٥-٨٦.

تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾»[(١)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه في حديث سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان، قال: متى الساعة؟ قال: «**ما المسؤول عنها بأعلم من السائل، وسأخبرك عن أشراطها: إذا ولدت الأمة ربها، وإذا تطاول رعاة الإبل البُهم في البنيان، في خمس لا يعلمهن إلا الله**»، ثم تلا النبي ﷺ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ الآية[(٢)].

الفوائد والأحكام:

١- تقرير العباد بنعمة الله تعالى العظيمة عليهم، ورحمته بهم، بإيلاج الليل في النهار، والنهار في الليل، يزيد هذا وينقص هذا، وتسخير الشمس والقمر يجريان دائبين في بروجهما، تحقيقًا لمصالح العباد ومنافعهم، في أنفسهم ومواشيهم وحروثهم، وغير ذلك، ودلالة ذلك على كمال عظمة الله تعالى وتمام قدرته؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

٢- إثبات جريان الشمس والقمر، وانقطاع جريانهما يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، أي: إلى وقت محدد؛ وهو يوم القيامة. وفي هذا الرد على من قال بثبوت الشمس والقمر، وعدم جريانهما.

٣- دقة انتظام هذا الكون، وأن لكل شيء غاية، ولكل أجل كتابًا، ولكل شيء نهاية، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن:٢٦، ٢٧].

٤- خبرة الله عز وجل، واطلاعه الواسع على أعمال العباد كلها، خيرها وشرها، ومحاسبته ومجازاته إياهم ووجوب مراقبته وخشيته؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ٣٨٦.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان ٥٠، ومسلم في الإيمان ٩، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٤٩٩١، وابن ماجه في المقدمة ٦٤.

٥- أن في تقرير العباد بنعمة الله عليهم: بجعل التداخل بين الليل والنهار، وتسخير الشمس والقمر، وخبرته بعملهم، ودلالة ذلك على عظمته وتمام قدرته: بيان سبب ذلك، وهو أن الله هو الحق في ذاته وصفاته، وربوبيته وإلهيته، وقدره وشرعه، ولقائه وجزائه، وغير ذلك، وليعلموا بطلان ما يعبده المشركون من دونه، وأن الله هو العلي الكبير؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾﴾.

٦- إثبات اسم الله: «العلي»، وصفة العلو له عز وجل، وأنه عالٍ فوق خلقه بذاته وصفاته؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ﴾.

٧- إثبات اسم الله: «الكبير»، وصفة الكبرياء له عز وجل، وأنه أكبر من كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾.

٨- تقرير العباد بنعمة الله تعالى عليهم: بجعل الفلك تجري في البحر على ظهر الماء؛ ليشاهدوا دلائل كمال عظمته وقدرته، ويعرفوا سابغ نعمته؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾.

٩- أنه إنما ينتفع بالآيات ويستفيد منها من كان صبارًا في الضراء، شكورًا في السراء، وهو المؤمن؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

١٠- إخلاص المشركين الدعاء لله تعالى إذا اشتد بهم الكرب في البحر، وأحاطت بهم الأمواج؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾. وهذا يدل على إقرارهم بربوبية الله تعالى، وأنه وحده القادر على إنقاذهم، وهم أحسن حالًا من مشركي زماننا الذين شركهم في الرخاء والشدة.

١١- أن الله قد يجيب دعاء المشركين مع علمه أنهم سيكفرون؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ الآية.

١٢- إجابة دعوة المضطر ولو كان كافرًا، كما قال ﷺ لمعاذ حين بعثه إلى اليمن:

«واتقِ دعوة المظلوم؛ فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»(١).

١٣- إثبات سمعه عز وجل وعلمه وتمام قدرته؛ لقوله: ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ﴾.

١٤- انقسامهم بعد أن نجاهم الله إلى البر فريقين: فريق مقتصد في العمل، لم يقم بشكر الله كما ينبغي، وفريق جحود لآيات الله، غدّار ناقض للعهد، كفور بنعمة الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ فَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٖ كَفُورٖ﴾.

١٥-أنه لا يجحد آيات الله وينكرها إلا كل غدّار ناقض للعهد، كفور بنعمة الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٖ كَفُورٖ﴾.

١٦- التحذير من الغدر وكفر نعمة الله؛ لأن ذلك سبب لجحود آيات الله والكفر بها.

١٧- وجوب تقوى الله، وخشية يوم القيامة وأهواله، والاستعداد له؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾ الآية.

١٨- عموم رسالته ﷺ وما جاء به من الوحي لجميع الناس؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾.

١٩- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق، وأن توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية؛ لقوله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ﴾.

٢٠- إثبات يوم القيامة، وعظمته وأهواله؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا﴾.

٢١- أنه في ذلك اليوم العظيم لا يغني أحد عن أحد أيَّ شيء مهما قل، لا نفعًا ولا دفعًا، فلا يجزي والد عن ولده، ولا مولود عن والده شيئًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـًٔاۚ﴾.

وإذا كان الوالد والولد- مع ما بينهما من شدة القرابة والحمية- لا يجزي أحدهما

---

(١) سبق تخريجه.

عن الآخر شيئًا، فغيرهما من باب أولى.

٢٢- انشغال الخلائق في ذلك اليوم العظيم كل بنفسه، يريد نجاتها، وعدم التفاته لغيره، أيًّا كان أبًا أو أمًّا، أو ابنًا أو أخًا، أو زوجًا، أو غير ذلك.

٢٣- أن شفقة الوالد على ولده وحرصه على سلامته، ونجاته أعظم من شفقة الولد على والده؛ لتقديم قوله: ﴿لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾ على قوله: ﴿وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾، وهذا أمر واقع ومشاهَد، رحم الله والدينا، وجزاهم عنا خير الجزاء.

٢٤- إثبات وعد الله تعالى بالبعث والحساب، والجزاء على الأعمال بالثواب والعقاب؛ لأنه عز وجل لا يخلف الميعاد؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾.

٢٥- النهي عن الاغترار بالدنيا، والانخداع بزينتها وزخارفها ومتاعها الزائل، والانشغال بها عن الاستعداد للدار الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾.

٢٦- وجوب الحذر من الشيطان وخداعه، ومن كل خادع؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾.

٢٧- اختصاص الله عز وجل بعلم مفاتح الغيب، فلا يعلمها أحد سواه، لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل، وهي: علم متى تقوم الساعة، وإنزال الغيث، وعلم ما في الأرحام، وعلم ما تكسبه كل نفس في غدها، وعلم بأي أرض تموت ومتى تموت؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾.

٢٨- قصور علم الخلائق كلهم- مهما وصل إليه علمهم- عن معرفة متى تقوم الساعة، وعن إنزال الغيث، ومعرفة متى ينزل على سبيل الجزم، وتعيين الزمان والمكان، وعن العلم بما في الأرحام منذ كان نطفة، وأحواله وصفاته الخِلْقية والخُلُقية، والعقلية والنفسية، وهل هو شقي أو سعيد؟ وغير ذلك، وعن معرفة ماذا تكسب كل نفس غدًا؟ وبأي أرض تموت؟

٢٩- علم الله تعالى الواسع، وخبرته واطلاعه على كل شيء من الظواهر والبواطن، والجلائل والدقائق، والجليات والخفيات، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

* * *

تَفْسِيرُ سُورَةِ السَّجْدَةِ

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة السجدة»، وهو أشهر أسمائها وأخصرها.

وتسمى أيضا: «ألم تنزيل»؛ فعن جابر بن عبدالله رضي الله عنه: «أن النبي ﷺ كان لا ينام حتى يقرأ: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾، و﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ﴾» (١).

وتسمى: «﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ السجدة»؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه: «كان النبي ﷺ يقرأ يوم الجمعة في صلاة الفجر: «﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ السجدة» و«﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ﴾»» (٢).

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ- فضلها:

جاء في حديث جابر رضي الله عنه -كما تقدم- أن النبي ﷺ كان لا ينام حتى يقرأها مع سورة تبارك، وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه كان يقرؤها في صلاة الفجر مع سورة «﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ﴾».

د- موضوعاتها:

١- افتتحت سورة السجدة بتعظيم القرآن، والإشارة إلى إعجازه، وإثبات تنزيله بلا ريب من رب العالمين، ورد قول المشركين: إن الرسول ﷺ افتراه، وإثبات أنه الحق من ربه عز وجل؛ لإنذار العرب الذين ما أتاهم من نذير من قبله لعلهم يهتدون.

٢- ذكر تمام قدرته عز وجل وعموم ملكه، ووحدانيته؛ خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام، ثم استوى على العرش، لا وليَّ للخلق من دونه ولا شفيع، وهو المتفرد بالتدبير، عالم الغيب والشهادة، العزيز الحكيم، الذي أحسن كل شيء خلقه.

٣- ذكر مراحل خلق الإنسان وأطواره، فبدأ خلقه من طين ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن

---

(١) أخرجه الترمذي في فضائل القرآن ٢٨٩٢، وأحمد ٣/ ٣٤٠.

(٢) أخرجه البخاري في الجمعة ٨٨٠، والنسائي في الافتتاح ٩٥٥، وابن ماجه في إقامة الصلاة ٨٢٣.

سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾﴾.

٤- إنكار المشركين البعث بعد الموت، وكفرهم بلقاء الله تعالى، وإثبات توفِّي ملكِ الموت لهم، ورجوعهم إلى ربهم للحساب والجزاء.

٥- تصوير سوء حالهم وذلهم وصغارهم وتنكيسهم رؤوسهم عند عرضهم على ربهم، وسؤالهم الرجعة؛ ليعملوا صالحا وهيهات! ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾.

٦- بيان أنه تعالى لو شاء لآتى كل نفس هداها، وهدى الناس جميعاً، ولكنه تعالى كتب وقدر وأوجب ملء جهنم من الجن والناس أجمعين.

٧- تقريعهم وتبكيتهم وتوبيخهم بسبب نسيانهم لقاء يوم القيامة ﴿فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ ۖ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

٨- بيان أنه لا يؤمن بآيات الله حقًّا إلا الذين إذا ذكروا بها خروا سجداً لله تعالى وهم لا يستكبرون، تتجافى جنوبهم عن لذيذ الفراش والنوم، يدعون ربهم خوفاً وطمعا، ومما رزقهم الله ينفقون.

٩- نفي استواء من كان مؤمناً ومن كان فاسقاً، لا في العمل ولا في الجزاء: ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

١٠- الوعيد والتهديد للكفرة المجرمين الفاسقين بإذاقتهم من العذاب الأدنى في الدنيا بالقتل وغير ذلك، قبل العذاب الأكبر بالنار، لعلهم يرجعون عما هم عليه من الكفر والتكذيب والفسق.

١١- أنه لا أحد أظلم ممن ذكر ووعظ بآيات الله ثم أعرض عنها، والوعيد بالانتقام من المجرمين.

١٢- إثبات إيتاء الله تعالى موسى عليه السلام التوراة، وإثبات لقائه ﷺ بموسى، والامتنان على بني إسرائيل بجعله عز وجل التوراة هدى لهم، وأنه جعل منهم أئمة

يهدون بأمره عز وجل بسبب صبرهم ويقينهم.

١٣- ذكر فصله عز وجل بين الخلائق يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون، وتقريع المكذبين وتوبيخهم، لما لم يتأملوا كم أهلك الله من القرون من قبلهم، وهم يمشون في مساكنهم ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ (٢٦)﴾.

١٤- التذكير بقدرة الله تعالى ونعمته في سوقه الماء والمطر إلى الأرض اليابسة الجرداء، وإخراج الزرع، تأكل منه أنعامهم وأنفسهم ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ (٢٧)﴾.

١٥- استعجال المكذبين العذاب والفتح بينهم وبين المؤمنين، وبيان أن يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولاهم ينظرون، وأمره ﷺ بالإعراض عنهم والانتظار، إنهم منتظرون.

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ
ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ
يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ
ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ
ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا
تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ
خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ
مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ
قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾﴾.

قوله: ﴿الٓمٓ﴾؛ سبق الكلام على الحروف المقطعة في مطلع سورة البقرة.

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ «تنزيل»: مبتدأ، و«الكتاب»: مضاف إليه، والمراد به: القرآن الكريم.

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾؛ «لا»: نافية للجنس، «ريب»: اسمها مبني في محل نصب، ﴿فِيهِ﴾: جار ومجرور متعلق بخبر «لا»، والجملة اعتراضية بين المبتدأ «تنزيل» وخبره، أو صفة لـ«كتاب»، والمعنى: لا شك فيه، ولا مرية.

﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ خبر المبتدأ «تنزيل»، أي: لا شك فيه، ولا مرية أنه نزل عليك يا محمد من رب العالمين؛ خالقهم ومالكهم والمتصرف فيهم.

و«العالمين»: كل ما سوى الله عز وجل، و«من»: ابتدائية، أي: من كلامه عز وجل ووحيه.

﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾؛ «أم»: هي المنقطعة التي بمعنى: «بل» التي للإضراب الانتقالي، وهمزة الاستفهام الإنكاري، أي: بل أيقول هؤلاء المشركون المكذبون:

﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾، أي: اختلقه محمد من عند نفسه، وكذب في ادعائه أنه من عند الله، والافتراء: الكذب؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ

وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ۝٤ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ۝٥﴾ [الفرقان:٤- ٥]:

والتعبير بالمضارع في قوله: ﴿يَقُولُونَ﴾؛ للدلالة على تجدد مقالتهم هذه.

﴿بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾؛ «بل»: للإضراب الإبطالي، ﴿هُوَ﴾، أي: القرآن، ﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾، أي: الحق الثابت من ربك، والصدق.

﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا﴾ اللام: للتعليل، أي: لأجل أن تنذر قومًا، وهم العرب، أي: تحذرهم وتخوفهم عذاب الله تعالى.

﴿مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ﴾ «ما»: نافيه، و«من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي، أي: ما جاءهم أيُّ نذير.

﴿مِّن قَبۡلِكَ﴾، أي: فهم أحوج الأقوام إلى نذير، وفي هذا- مع بيان شدة حاجتهم إلى النذير- امتنان عليهم.

﴿لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾، أي: لعلهم يهتدون إلى الحق ويتبعونه.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا شَفِيعٍۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝٤ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦﴾:

قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾، أي: الله وحده الذي أوجد السموات والأرض وما فيهما وما بينهما من المخلوقات.

﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ﴾؛ من أيام الدنيا، أولها يوم الأحد، وآخرها يوم الجمعة، مع قدرته على خلقها بلحظة واحدة لو أراد ذلك.

﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾؛ استواءً يليق بجلاله وعظمته، وقد سبق الكلام على هذا في تفسير قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ [الآية:٥٤]».

﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ﴾، أي: ما لكم غيره سبحانه وتعالى.

﴿مِن وَلِيٍّ﴾؛ «من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي.

أي: ما لكم غيره أيّ ولي يتولى أموركم، بجلب نفع، أو دفع عذابه عنكم.

﴿وَلَا شَفِيعٍ﴾؛ «لا»: زائدة: للتوكيد، و«الشفيع»: الوسيط في قضاء الحوائج، من جلب نفع، أو دفع ضر، أي: ولا شفيع يشفع لكم عنده؛ لتنالوا ثوابه، أو يدفع عنكم عذابه؛ كما كنتم تقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣]، وتقولون: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس:١٨].

﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾؛ الاستفهام: للإنكار، أي: أفلا تتعظون وتعتبرون، أيها المشركون، فتعلموا أنه ليس لكم من دونه ولي ولا شفيع، وأنه لا يستحق العبادة سواه، فتعبدوه وحده لا شريك له.

﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾؛ خبر آخر للمبتدأ «الله»، أي: يدبر عز وجل الأمر كله من أمر خلقه؛ كما قال عز وجل: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف:٥٤].

فله عز وجل الأمر الشرعي، يأمر وينهى، ويحل ويحرم، ويشرع ما يشاء، وله عز وجل الأمر القدري، يسعد ويشقي، ويغني ويفقر، ويعز ويذل، ويكرم ويهين، ويرفع أقوامًا ويضع آخرين، إلى غير ذلك.

﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: يتنزل أمره من السماء إلى الأرض، أي: من أعلى السموات إلى تخوم الأرض السابعة؛ كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق:١٢].

﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾، أي: ثم يعرج الأمر إليه، أي: يصعد إليه، وهذا التدبير والعروج كله في الدنيا.

﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾؛ كقوله تعالى في سورة الحج: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج:٤٧]، أي: يتنزل الأمر من عنده عز وجل، ويصعد إليه ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ من أيام

الدنيا وسنيها، وذلك أن ما بين السماء الدنيا والأرض مسيرة خمس مئة سنة، وسمك السماء مسيرة خمس مئة سنة، وهو ينزل منه عز وجل ويصعد إليه بقوله: «كن» فيكون، ولمحة بصر؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل:٤٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ۝٥٠﴾ [القمر:٥٠].

﴿ذَٰلِكَ﴾، أي: الله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على عرشه، مدبر أمر هذا الكون.

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾، أي: عالم ما غاب عن أعين الخلق، وما لا تدركه حواسهم مما كان ومما سيكون، ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾؛ كل ما هو مشاهد وتدركه الحواس، أي: عالم الغائب والحاضر سبحانه وتعالى.

﴿ٱلْعَزِيزُ﴾، أي: ذو العزة التامة، أي: القوة والغلبة والقهر والامتناع، الذي قهر كل جبار عنيد.

﴿ٱلرَّحِيمُ﴾، أي: ذو الرحمة بعباده المؤمنين خاصة، وبخلقه عامة، الذي وسعت رحمته كل شيء، وعمت كل حي، فهو عز وجل عزيز في رحمته، ورحيم في عزته.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٩﴾:

قوله: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾؛ قرأ نافع وحمزة والكسائي وعاصم: ﴿خَلَقَهُۥ﴾ بفتح اللام، وقرأ الباقون بإسكانها: «خَلْقَهُ».

أي: الذي أتقن كل شيء خلقه وأحكمه، أي: أتقن وأحكم جميع مخلوقاته؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤﴾ [الملك:٣- ٤].

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين:٤]، وقال تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ

فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر:٦٤].

﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾.

لما ذكر أنه عز وجل أحسن خلق جميع مخلوقاته عمومًا، خص خلق الإنسان من بينها بالتفصيل لشرفه وفضله، فقال:

﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧﴾، أي: بخلق آدم أبي البشر من طين؛ كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ [الأنعام:٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ۝١١﴾ [الصافات:١١]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الحج:٥].

﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ﴾، أي: ذريته، أي: ذرية آدم وأولاده، ﴿مِن سُلَٰلَةٍ﴾؛ تَنْسل وتنفصل عن الرجل والمرأة.

﴿مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ «من ماء»: جار ومجرور متعلق بمحذوف صفة لـ«سلالة»، أي: من سلالة منسلة من ماء مهين، أي: هي خلاصته وصفوته، و«مهين» صفة لـ«ماء».

ومعنى «مهين»، أي: ممتهن ضعيف حقير، رقيق مستقذر، وهو: النطفة «المني»؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٢٠﴾ [المرسلات:٢٠]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ۝٣٧﴾ [القيامة:٣٧].

﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ﴾، أي: ثم سوَّى نسل الإنسان الذي بدأ خلقه من طين خلقًا سويًا معتدلًا قويًا؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ [الانفطار:٧- ٨]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢﴾ [الأعلى:٢]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٣٨﴾ [القيامة:٣٨].

﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾؛ بأن أرسل إليه الملك فنفخ فيه الروح، فصار بإذن الله حيوانًا ناطقًا بعد أن كان جمادًا؛ كما قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: حدثنا رسول الله ﷺ- وهو الصادق المصدوق- قال: «**إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا نطفة، ثم علقة مثل ذلك، ثم مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه**

الروح، ويكتب رزقه وأجله، وشقي أو سعيد»[١].

﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾، فيه التفات من الغيبة إلى الخطاب، والخطاب لعموم بني آدم، أي: وجعل لكم السمع؛ لتسمعوا فيه الأقوال والأصوات، والأبصار؛ لتبصروا فيها الأعيان والمبصرات، والأفئدة- وهي العقول- لتعقلوا فيها الخير والشر، وما ينفعكم وما يضركم في دينكم ودنياكم وأخراكم.

وأفرد «السمع»؛ لأنه مصدر لا يجمع، وجمع الأبصار والأفئدة باعتبار تعدد الناس.

واكتفى بهذه الثلاثة؛ لأن السمع والبصر هما طريقا الفهم، والفؤاد- وهو القلب- محل الفهم والوعي، فالسمع والبصر قناتان تصبان فيه، وقدم السمع؛ لأنه أشمل وأعم؛ لأن الإنسان يسمع ما لا يراه.

ومن حكمة الله تعالى ورحمته أن الابتلاء بفقدان السمع أقل بكثير من فقدان البصر؛ لأن السمع أهم.

﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾؛ «قليلًا»: مفعول مطلق نائب عن المصدر، وفاعله: «تشكرون»، و«ما»: زائدة لتأكيد القلة، أي: قليلًا شكركم.

ويحتمل أن المراد: قلة شكرهم. ويحتمل أن المراد: عدم شكرهم بالكلية.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات إعجاز القرآن والتحدي به؛ لقوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١﴾.

٢- التنويه بشأن القرآن الكريم وتعظيمه؛ لقوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

٣- أن الكتاب إذا أطلق فالمراد به: القرآن الكريم؛ لأنه أعظم الكتب على الإطلاق.

٤- أن القرآن الكريم حق وصدق، لا شك فيه ولا مرية بوجه من الوجوه؛ لقوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾.

٥- إثبات تنزيل القرآن الكريم من عنده عز وجل، وأنه كلام الله عز وجل

---

(١) سبق تخريجه.

ووحيه؛ لقوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾. وفي هذا الرد على القدرية القائلين بخلق القرآن.

٦- إثبات علو الله تعالى بذاته وصفاته على خلقه؛ لأن التنزيل يكون من أعلى إلى أسفل.

٧- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

٨- الإنكار على المشركين في زعمهم أن الرسول ﷺ اختلق القرآن من تلقاء نفسه، وإبطال قولهم، وبيان أنه الحق من عند الله، أنزله على رسوله ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾، وفي هذا إثبات رسالته ﷺ.

٩- إثبات رسالة النبي ﷺ بإنزال القرآن عليه، وإثبات ربوبية الله تعالى الخاصة له ﷺ، وتشريفه بخطاب الله تعالى له؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾.

١٠- أن الحكمة من تنزيل الكتاب عليه ﷺ: لينذر قومه ويخوفهم ويحذرهم من عذاب الله، لعلهم يهتدون ويتبعون الحق؛ لقوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾.

١١- أنه ﷺ أول نذير في قومه العرب، فلم يأتهم نذير قبله، وكانوا أحوج الناس إلى نذير؛ لقوله تعالى: ﴿مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾، وفي هذا بيان شدة حاجتهم إلى النذير، وامتنان عليهم بإرساله إليهم.

١٢- حاجة الناس وضرورتهم إلى الرسل؛ لإنذارهم وهدايتهم، ورحمة الله تعالى بهم بإرسال الرسل.

١٣- إثبات وحدانية الله تعالى في ربوبيته وإلهيته، وتمام قدرته وسعة علمه، وعظمته؛ حيث خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام، ولو شاء لخلقها بلحظة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ الآية.

١٤- إثبات علو الله تعالى، وعظمته، واستوائه عز وجل على العرش استواء يليق بجلاله وعظمته، من غير تحرف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ﴾.

قال ابن القيم: «قال شيخ الإسلام: وهذا كتاب الله من أوله إلى آخره، وسنة رسوله ﷺ، وكلام الصحابة والتابعين، وكلام سائر الأئمة مملوء مما هو نص أو ظاهر، في أن الله سبحانه وتعالى فوق كل شيء، وأنه فوق العرش، فوق السموات، مستوٍ على عرشه»(١).

١٥- إثبات العرش، وهو سرير الملك، وأكبر المخلوقات.

١٦- أنه لا ولي للمشركين من دون الله تعالى يجلب لهم النفع، ولا شفيع لهم من دونه يدفع عنهم عذابه؛ لقوله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾﴾ [محمد:١١].

وقال تعالى: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر:١٨].

١٧- الإنكار على المشركين والمكذبين عدم اتعاظهم واعتبارهم؛ ليعلموا أنه لا ولي لهم ولا شفيع من دون الله، وأنه لا يستحق العبادة سواه، فيعبدوه وحده لا شريك له؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾.

١٨- كمال سلطان الله، وتفرده عز وجل بتدبير الأمر كله- القدري والشرعي- من السماء إلى الأرض، وصعوده إليه في لمحة بصر ونحو ذلك في يوم في عد الخلق، يعدل ألف سنة؛ لقوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾﴾.

١٩- إحاطة علمه عز وجل بكل ما غاب عن الخلائق، وبكل ما هو مشاهد، وفي هذا إشارة إلى علمه عز وجل بأعمال العباد، ومحاسبتهم ومجازاتهم عليها، وفي هذا وعد لمن أطاع الله، ووعيد لمن عصاه؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾.

٢٠- إثبات اسمين من أسماء الله عز وجل، وهما: «العزيز» و«الرحيم»، وصفتي العزة التامة، والرحمة الواسعة له عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

٢١- كمال خلق الله تعالى وإتقانه عز وجل وإحكامه جميع مخلوقاته؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾.

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٤١٤.

٢٢- أن من دلائل تمام قدرته عز وجل وإحسانه كل شيء خلقه، ومنته وعنايته بآدم وذريته: أنه بدأ خلق الإنسان من طين، بخلق آدم عليه السلام، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، ثم سواه ونفخ فيه من روحه، وجعل لهم السمع والأبصار والأفئدة؛ لقوله تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾.

وفي هذا إبطال لنظرية «دارون» الذي يقول فيها: «إن أصل الإنسان كان حشرة، ثم قردًا ثم تطور بطول الزمن فصار إنسانًا».

٢٣- أن الإنسان حادث بعد أن لم يكن، وكذا العالم كله، لقوله تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ﴾، وفي هذا رد على الفلاسفة الذين يزعمون قدم العالم.

٢٤- حكمة الله تعالى في خلق آدم من طين وجعله عز وجل له نسلًا يتوالدون، ويتكاثرون لعمارة هذا الكون.

٢٥- أن الله عز وجل خلق الإنسان، وسوى خلقه، ونفخ فيه من روحه، وأتم خلقه، وجعل له الحواس، من السمع والبصر والعقل، وغير ذلك؛ ليشكر الله تعالى على ذلك بعبادته وحده لا شريك له؛ لقوله تعالى بعد أن ذكر إنعامه عليه بذلك: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦].

٢٦- قلة شكر العباد لربهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣]. فقليل شكر الشاكر منهم، وقليل منهم الشاكر.

٢٧- الترغيب والحث على الشكر، والتحذير من الكفر وعدم الشكر.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭۚ بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ ۝١٠ ۞ قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ ۝١١ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ۝١٢ وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ۝١٣ فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمۡۖ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝١٤ إِنَّمَا يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْۤ سُجَّدٗاۤ وَسَبَّحُواْ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ۩ ۝١٥ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝١٦ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝١٧﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭۚ بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ ۝١٠ ۞ قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ ۝١١﴾.

قوله: ﴿أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ قرأ ابن عامر وأبو جعفر بهمزة واحدة: «إِذَا ضَلَلْنَا»، وقرأ الباقون بهمزتين: ﴿أَءِذَا ضَلَلۡنَا﴾.

أي: وقال المشركون المكذبون بالبعث بعد الموت، المنكرون للمعاد: ﴿أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ الاستفهام: للإنكار في الموضعين، أي: أإذا غِبْنا في الأرض وبلينا، وتمزقت أجسامنا وتفرقت، واختلطت في الأرض وصرنا ترابًا.

﴿أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭۚ﴾؛ قرأ نافع والكسائي ويعقوب بهمزة واحدة: «إِنَّا».

وقرأ الباقون بهمزتين: ﴿أَءِنَّا﴾.

أي: أنعود خلقًا جديدًا؟ والجديد: المحدَث، أي: أنخلق خلقًا جديدًا بعد فنائنا، أي: أن هذا مستحيل، ولن يكون.

﴿بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ﴾؛ «بل»: للإضراب الانتقالي، أي: بل هم بالمعاد والبعث بعد الموت، ولقاء ربهم ومحاسبته ومجازاته إياهم.

﴿كَٰفِرُونَ﴾، أي: جاحدون منكرون له، مكذبون به؛ كما قال تعالى عنهم:

﴿وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ۝٢٩﴾ [الأنعام:٢٩].

﴿قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ﴾، أي: يقبض أرواحكم ملك الموت، ﴿ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ﴾، أي: الذي وكله الله بقبض أرواحكم هو وأعوانه.

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ﴾، أي: تردون إليه يوم القيامة للحساب والجزاء على أعمالكم.

قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ۝١٢ وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ۝١٣ فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمۡۖ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝١٤﴾:

قوله: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾.

لما ذكر عز وجل رجوعهم إليه يوم القيامة، ذكر حالهم ومآلهم حين وقوفهم بين يديه، فقال:

﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾؛ الواو: عاطفة، و«لو»: شرطية غير جازمة، أي: ولو تبصر وتشاهد. والخطاب لغير معين، وجواب الشرط محذوف؛ لتهويله، أي: ولو ترى أيها الرائي لرأيت أمرًا عظيمًا، وحالًا فظيعًا.

﴿إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾؛ «إذ»: ظرف، وهو في الأصل للمُضِيِّ، واستعمل في المستقبل للدلالة على تحقق وقوع الرؤية.

﴿ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾: مرتكبو الجرائم، الموجبة للإثم والعقوبة، من الشرك والكفر، وإنكار البعث والمعاد، وتكذيب الرسل عليهم السلام.

﴿نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ﴾، أي: خافضوا رؤوسهم مطأطئوها إلى أسفل، من شدة الخزي والندم، والخوف والذل، ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ أي: بين يديه يوم القيامة.

﴿رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا﴾، أي: يقولون: يا ربنا أبصرنا وسمعنا، أي: بان لنا الأمر،

واتضح الحق وأبصرناه عيانًا، وسمعناه ووعيناه، ونحن الآن نسمع قولك، ونطيع أمرك؛ كما قال تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم:٣٨].

﴿فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا﴾، أي: فردنا إلى الدنيا نعمل عملًا صالحًا، بالإخلاص لك، واتباع شرعك.

و«نعمل» مجزوم جواب الطلب، أي: إن ترجعنا نعمل صالحًا.

﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾؛ تعليل لتحقيق ما وَعدوا به من العمل الصالح، أي: إنا الآن مصدقون تصديقًا جازمًا بما دعوتنا إليه من الحق، وأن وعدك حق، ولقاءك حق.

كما قالوا في الآية الأخرى: ﴿رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ﴾ [إبراهيم:٤٤]. وهم كاذبون فيما وعدوا به من العمل الصالح؛ كما قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٧) بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٢٨)﴾ [الأنعام:٢٧- ٢٨].

﴿وَلَوْ شِئْنَا﴾، أي: ولو أردنا كونًا ﴿لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾؛ اللام: رابطة لجواب «لو»، أي: لأعطينا كل نفس هداها، أي: توفيقها للإيمان وتقواها.

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس:٩٩]، وقال تعالى: ﴿أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [الرعد:٣١]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ [الأنعام:٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾[هود:١١٨].

﴿وَلَكِنْ حَقَّ﴾، أي: ثبت ووجب وتحقق ﴿الْقَوْلُ مِنِّي﴾، أي: القول الكوني القدري، والقضاء السابق مني.

﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾؛ اللام: لام القسم لقسم مقدر، أي: والله، لأملأن جهنم ﴿مِنَ الْجِنَّةِ﴾، أي: من الجن، ﴿وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾، أي: من الكفرة والعصاة من الثقلين جميعًا؛ كما قال تعالى: ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ (٨٤) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٥)﴾ [ص:٨٤- ٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ

وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود:١١٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس:٩٦-٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾﴾ [غافر:٦].

﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ﴾؛ هذا خطاب من الله تعالى لأهل النار على سبيل التقريع والتوبيخ والإهانة والإذلال لهم، أي: فذوقوا وتجرعوا وأحسوا بألم العذاب وشدته.

﴿بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ﴾؛ الباء: للسببية، و«ما»: مصدرية، أي: بسبب نسيانكم لقاء يومكم هذا الذي أنتم الآن فيه، وتكذيبكم به، وإنكاركم له، وترككم العمل والاستعداد له.

﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾؛ هذا من باب المقابلة والمشاكلة؛ كما قال تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ [الجاثية:٣٤]، وقال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾ [الأعراف:٥١]، وقال تعالى: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة:٦٧]، وقال تعالى: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الحشر:١٩]، وقال تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ [طه:١٢٦].

ومعنى ﴿نَسِينَٰكُمْ﴾، أي: تركناكم بالعذاب، جزاءً من جنس عملكم، فكما نَسيتم نُسيتم، أي: تُركتم، ولم يُكترث ولم يُبال بكم.

﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾؛ التكرار: للتأكيد والتشديد، أي: وذوقوا عذاب الخلود، أي: العذاب المقيم الدائم، الذي لا ينقطع؛ كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾ [النبأ:٣٠]، وفي هذا تيئيس لهم في قولهم: ﴿فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾.

﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، أي: بسبب عملكم، أو بسبب الذي كنتم تعملونه، أي: بسبب تكذيبكم وكفركم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ

بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾:

لما ذكر الكافرين بآياته، وما أعد لهم من العذاب، ذكر المؤمنين بها حقًّا، وصفاتهم، وما أعد لهم من الثواب العظيم.

قوله: ﴿إِنَّمَا يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، «إنما»: أداة حصر، أي: إنما يصدق بآياتنا باطنًا، وينقاد لها ظاهرًا ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا﴾، أي: الذين إذا وعظوا بها، وتليت عليهم؛ خضعوا وانقادوا لها.

﴿خَرُّواْ سُجَّدٗا﴾، «الخرور»: الهُويّ من علو إلى أسفل، ﴿سُجَّدٗا﴾ حال، أي: خروا على وجوههم وجباههم سجدًا؛ تذللًا لله تعالى، وعبودية وتعظيمًا له، وطاعة وانقيادًا.

﴿وَسَبَّحُواْ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾؛ الباء: للملابسة، أي: وسبحوا بحمد ربهم، قارنين بين التسبيح والتحميد حال سجودهم بقولهم: «سبحان ربي الأعلى وبحمده»؛ كما هو المشروع في سجود التلاوة، وسجود الصلاة، وسجود الشكر.

وفي التسبيح التنزيه ونفي النقص، وفي التحميد إثبات الكمال.

﴿وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾، أي: وهم لا يستكبرون ولا يستنكفون عن السجود لله تعالى، والخضوع والتذلل له، وعبادته وطاعته، والانقياد لأمره باطنًا وظاهرًا، وتلقي آياته بالقبول والانشراح، بقلوبهم وألسنتهم وجوارحهم.

وهذا بخلاف المشركين الذين قال الله عنهم: ﴿۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا﴾ [الفرقان:٢١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:٦٠].

ويشرع السجود عند تلاوة هذه الآية؛ رجاء أن يكون التالي من الذين أثنى الله عليهم بأنهم إذا ذكروا بآيات الله خروا سجودًا، وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون.

﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ

يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾.

بعد ما حصر عز وجل الإيمان بآياته على الذين إذا ذكروا بها خروا سجدا وسبحوا بحمد ربهم، وهم لايستكبرون، أتبع ذلك ببيان بعض صفاتهم.

قوله: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ﴾أي: ترتفع وتتنحى جنوبهم وتبتعد ﴿عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ «المضاجع»: جمع «مضجع»، وهو مكان الاضطجاع، والاضطجاع: النوم؛ أي: تتجافى جنوبهم عن مواضع الاضطجاع والنوم والراحة من الفرش الوطيئة الوثيرة؛ إيثارًا لمناجاة الله تعالى في جوف الليل، والقيام بين يديه للصلاة على النوم والراحة.

قدوتهم وأسوتهم في هذا المصطفى ﷺ، الذي كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه.

فقالت عائشة: لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «**أفلا أحب أن أكون عبدًا شكورًا؟!**»(١).

قال عبدالله بن رواحة رضي الله عنه(٢):

وفينا رسول الله يتلو كتابه ... إذا انشق معروف من الصبح ساطع
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا ... به موقنات أن ما قال واقع
يبيت يجافي جنبه عن فراشه ... إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه، قال: كنت مع النبي ﷺ في سفر، فأصبحت يومًا قريبًا منه، ونحن نسير، فقلت: يا نبي الله، أخبرني بعمل يدخلني الجنة، ويباعدني عن النار. قال: «**لقد سألت عن عظيم، وإنه ليسير على من يسره الله عليه: تعبد الله ولا تشرك به شيئًا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت**». ثم قال: «**ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة، وصلاة الرجل في جوف الليل**». ثم

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٤٨٣٧، ومسلم في صفة القيامة ٢٨٢٠، والترمذي في الصلاة ٤١٨؛ من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) انظر: «ديوانه» ص١٦٢.

قرأ: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ حتى بلغ: ﴿يَعْمَلُونَ﴾ الحديث(١).

وحمل الآية على قيام الليل- كما هو الظاهر- لا يمنع أن يشمل ذلك صلاة الليل كلها فرضها ونفلها؛ كما قال بعض المفسرين: المراد بذلك: الصلاة بين العشاءين، وقال بعضهم: انتظار العتمة، وقال بعضهم: صلاة العشاء في جماعة، وصلاة الغداة في جماعة.

كما أن قوله: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾، مقيد بما جاءت به السنة في قوله ﷺ: «**وأفضل القيام قيام داود؛ كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه**»، وهكذا كان قيام نبينا ﷺ(٢).

﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾؛ الجملة في محل نصب حال من الضمير في «جنوبهم»، أي: يدعون ربهم دعاء عبادة ودعاء مسألة؛ لجلب الخير لهم في دينهم ودنياهم وأخراهم، ودفع الشر عنهم، وكل ذلك عبادة.

﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾؛ منصوبان على المفعول لأجله، أي: لأجل الخوف والطمع، أو على الحال، أي: خائفين وطامعين، أي: خوفًا من عذاب الله وعقابه وناره، وطمعًا ورجاء في رحمته وثوابه وجنته.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾، أي: ومن الذي أعطيناهم من الرزق ﴿يُنفِقُونَ﴾، أي: يخرجونه في وجوه البر الواجبة والمستحبة، فجمعوا بين الإحسان في عبادة الله تعالى بالصلاة وقيام الليل، وبين الإحسان إلى عباد الله بأداء حقوقهم الواجبة والمستحبة.

﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

لما ذكر خضوع المؤمنين لآيات الله، وانقيادهم لها، وسجودهم وتسبيحهم بحمد ربهم وقيامهم الليل ودعاءهم إياه خوفًا وطمعًا، وإنفاقهم من رزقه، أتبع ذلك بذكر جزائهم، وعظم ما أعد الله لهم من النعيم.

قوله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾؛ قرأ حمزة ويعقوب بإسكان الياء: «أُخْفِيْ»، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿أُخْفِيَ﴾.

---

(١) أخرجه أحمد ٥/ ٢٣١، والترمذي في الإيمان ٢٦١٦، وابن ماجه في الفتن ٣٩٧٣.

(٢) سيأتي تخريجه.

و«نفس»: نكرة في سياق النفي فتعم، و«ما»: موصولة تفيد العموم، أي: فلا تعلم أيُّ نفس حقيقة الذي أُخفي وأُعد وادُّخر لهم وعظمه، فلا هم يعلمونه، ولا غيرهم، أي: فلا يعلم أحد عظمة ذلك، إلا الذي أخفاه لهم؛ وهو ربهم عز وجل.

وفي إخفاء ما أعد وادخر لهم زيادة في تعظيمه، وزيادة في فرحهم به إذا أعطوه، وإغراء لهم بطلبه.

﴿مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾، أي: مما تقر به الأعين، وتسر به القلوب، وتفرح به النفوس؛ من النعيم المقيم، في جنات النعيم.

﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾؛ «جزاءً»: مفعول مطلق لفعل محذوف، أي: جوزوا جزاءً، أو مفعول لأجله عامله «أخفي»، والباء: للسببية و«ما»: مصدرية أو موصولة.

أي: جزاءً بسبب عملهم، أو بسبب الذي كانوا يعملونه.

فلما اجتهدوا في هذا العمل وأخفوه؛ أخفى الله لهم هذا الثواب العظيم؛ لأن الجزاء من جنس العمل، وبسبب العمل.

قال ابن القيم: «وتأمل كيف قابل ما أخفوه من قيام الليل بالجزاء الذي أخفاه لهم، مما لا تعلمه نفس؟ وكيف قابل قلقهم وخوفهم واضطرابهم على مضاجعهم حين يقومون إلى صلاة الليل بقرة الأعين في الجنة؟!»(١).

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: قال الله تعالى: «**أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**». قال أبو هريرة: فاقرءوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «**من يدخل الجنة ينعم ولا يبأس، ولا يفنى شبابه، في الجنة ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**»(٣).

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٤١٤.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة السجدة ٤٧٧٩، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها ٢٨٢٤، والترمذي في تفسير سورة السجدة ٣١٩٧، وابن ماجه في الزهد ٤٣٢٨.

(٣) أخرجه مسلم في الجنة، دوام نعيم أهل الجنة ٢٨٢٥.

وعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه، قال: شهدت مع رسول الله ﷺ مجلسًا وصف فيه الجنة حتى انتهى، ثم قال ﷺ في آخر حديثه: «**فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**»، ثم اقترأ هذه الآية: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ إلى قوله: ﴿يَعْمَلُونَ﴾»(١).

وعن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «**سأل موسى عليه السلام ربه: ما أدنى أهل الجنة منزلة؟ قال: هو رجل يجيء بعدما أدخل أهل الجنة الجنة، فيقال له: ادخل الجنة. فيقول: أي رب، كيف وقد نزل الناس منازلهم، وأخذوا أخذاتهم؟ فيقال له: أترضى أن يكون لك مثل ملكِ ملكٍ من ملوك الدنيا؟ فيقول: رضيت ربي. فيقول: لك ذلك، ومثله، ومثله، ومثله، ومثله، فقال في الخامسة: رضيت رب. فيقول: هذا لك وعشرة أمثاله، ولك ما اشتهت نفسك، ولذت عينك. فيقول: رضيت رب. قال: رب، فأعلاهم منزلة؟ قال: أولئك الذين أردت غرس كرامتهم بيدي، وختمت عليها، فلم تر عين، ولم تسمع أذن، ولم يخطر على قلب بشر، قال: ومصداقه من كتاب الله عز وجل: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ الآية**»(٢).

الفوائد والأحكام:

١- إنكار المشركين للبعث بعد الموت والحساب والجزاء على الأعمال، وجحودهم لقاء الله، وتكذيبهم به؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ۝١٠﴾.

٢- إثبات البعث، وتمام قدرة الله تعالى عليه، وإثبات لقاء الله تعالى، وتوبيخ المكذبين بذلك، وأنه ليس لديهم حجة إلا مجرد الكفر بلقاء الله تعالى.

٣- إثبات ربوبية الله تعالى لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّهِمْ﴾، وقوله: ﴿رَبِّكُمْ﴾، ﴿رَبَّنَآ﴾.

٤- قبض ملك الموت أرواح جميع الخلائق؛ لأن الله وكله بهم، فلا مناص لهم من

---

(١) أخرجه أحمد ٥/ ٣٣٤.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان، أدنى أهل الجنة منزلة ١٨٩.

الموت؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾.

٥- إثبات الملائكة، وهم عالم غيبي يجب الإيمان بهم على وجه الإجمال، وعلى وجه التفصيل لما فصّل من أحوالهم وأعمالهم.

٦- إثبات لقاء الله تعالى، ورجوع الخلائق كلهم إليه يوم القيامة للحساب والجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾.

٧- تنكيس المجرمين رؤوسهم عند ربهم يوم القيامة؛ خزيًا وندمًا، وخوفًا وذلًّا؛ لفظاعة الحال، وشدة الموقف وعظم الأمر، مما لا يكاد يوصف؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾.

٨- ظهور حقيقة الأمر لهم بصدق ما دعتهم إليه الرسل، وسؤالهم الرجعة؛ ليعملوا صالحًا؛ لقولهم: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا﴾، وهيهات هيهات لهم ذلك، وفي الآية اعترافهم بأن عملهم السابق ليس بصالح.

٩- تعليلهم لتحقيق ما وعدوا به من العمل الصالح إن أرجعوا إلى الدنيا؛ بتصديقهم الجازم بالحق وبوعد الله؛ لقولهم: ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ وهم كاذبون، فلو ردوا لعادوا لما نهوا عنه.

١٠- أن الهداية بيد الله تعالى، فلو شاء لهدى الخلق جميعًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾. وفي هذا رد على القدرية الذين يزعمون أن أفعال العباد ليست مخلوقة لله، ولا داخلة تحت مشيئته.

١١- إثبات المشيئة لله تعالى؛ وهي الإرادة الكونية، وهي مقترنة بالحكمة، فمن حكمته عز وجل أنه لم يشأ إيتاء كل نفس هداها.

١٢- أن الله قدر وقضى وأوجب ملء جهنم من الجن والإنس، وقضاؤه حق؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

١٣- إثبات القول لله تعالى والكلام.

١٤- إثبات وجود النار؛ لقوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾.

١٥- أن من كتب الله عليهم الضلالة، وحقت عليهم كلمة العذاب، فلا سبيل إلى هدايتهم ونجاتهم.

١٦- أن الجن مكلفون ومحاسبون ومجزيون بأعمالهم كالإنس، فمن كفر فمآله إلى النار، كما أن من آمن فمآله إلى الجنة.

١٧- تقريع وتوبيخ أهل النار بأن يذوقوا العذاب بسبب نسيانهم يوم القيامة، وتكذيبهم به، وهذا عذاب معنوي ينصب على قلوبهم، لا يقل عن العذاب الحسي؛ لقوله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ﴾.

١٨- تركهم في العذاب، وعدم المبالاة بهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾.

١٩- تأكيد التقريع والتوبيخ لهم بذوق العذاب، وتيئيسهم من انقطاعه بسبب سوء أعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

٢٠- أن عذاب النار دائم لا ينقطع، وأن أهلها مخلدون فيها.

٢١- أن الجزاء من جنس العمل.

٢٢- كمال عدل الله تعالى حيث يجازي العباد بأعمالهم، ولا يظلم أحدًا منهم.

٢٣- بيان أنه إنما يصدق بآيات الله الذين إذا ذكروا بها انقادوا لها ظاهرًا وباطنًا، وخروا سجدًا لله، وسبحوا بحمده، خاضعين له متذللين غير مستكبرين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾﴾.

وفي هذا مع حصر الإيمان بهم: امتداح لهم، وثناء عليهم بمبادرتهم للانقياد لآيات الله، والسجود له، والتسبيح بحمده، والتذلل له، وعدم الاستكبار عن عبادته وطاعته.

٢٤- مشروعية السجود عند قراءة هذه الآية؛ لأن الله جعل السجود له والتسبيح بحمده من صفات المؤمنين بآياته، وامتدحهم، وأثنى عليهم بذلك.

٢٥- الترغيب والحث على الاتعاظ بآيات الله تعالى؛ والسجود تذللًا وخضوعًا له، وتسبيحه وتحميده، والانقياد له، والتحذير من الاستكبار والإدبار.

٢٦- التعريض بالمشركين المستكبرين عن الإيمان بآيات الله، والانقياد لها، وعن السجود لله تعالى والتسبيح بحمده.

٢٧- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة للمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾، و﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾.

٢٨- تعظيم المؤمنين ربهم بالتذلل والخضوع له بقلوبهم وألسنتهم وجوارحهم، وتنزيهه عن النقائص والعيوب، وإثبات الكمال له عز وجل.

٢٩- امتداح المؤمنين بآيات الله، والثناء عليهم بمداومتهم على القيام والصلاة في جوف الليل، وإيثارهم ذلك على لذيذ المنام، ودعائهم ربهم خوفًا من عقابه، وطمعًا في ثوابه، وإنفاقهم مما رزقهم الله؛ لقوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾، وبهذا جمعوا بين الإحسان في عبادة الله تعالى بقيام الليل، والإحسان إلى عباده بالإنفاق مما رزقهم الله.

٣٠- الترغيب في قيام الليل ودعاء الله تعالى، خوفًا من عقابه، وطمعًا في ثوابه.

٣١- ينبغي أن يجمع المؤمن في مسيره إلى الله تعالى بين الخوف والرجاء، يخاف غضب الله وعقابه، ويرجو رحمته وثوابه.

٣٢- أن الرزق كله من الله تعالى، والمال كله مال الله، استودعه العباد، فلا ينبغي أن يُبخل به، أو يُمن بالإنفاق منه؛ كما قال: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد:٧].

٣٣- الحث على الإنفاق في سبيل الله في وجوه البر كلها.

٣٤- عظم ما ادخره الله تعالى لعباده المؤمنين الموصوفين بما ذكر من الأجر العظيم، والثواب الجزيل، مما لا يعلمه ولا يقدر قدره إلا الله عز وجل، جزاء عملهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

٣٥- أن الجزاء بسبب العمل، ومن جنس العمل؛ فكما قام هؤلاء يصلون خفية في جنح الظلام، وأسهروا أعينهم، واجتهدوا في طلب مرضاة الملك العلام؛ ادخر لهم من الأجر العظيم ما تقر به أعينهم، وأخفاه عن سائر الأنام؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾.

٣٦- عظم نعيم الجنة، مما لا يعلم حقيقة عظمته إلا الله عز و جل الذي أعطاه لأهلها. نسأل الله من فضله.

* * *

قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ۝١٨ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝١٩ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ۝٢٠ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٢١ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ۝٢٢﴾.

قوله: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا﴾؛ الاستفهام: للإنكار والنفي، و«من» في الموضعين: موصولة، أي: أفمن كان مؤمنًا باطنًا بقلبه، منقادًا ظاهرًا بجوارحه، يكون كمن كان فاسقًا كافرًا بقلبه، خارجًا عن طاعة الله تعالى بجوارحه؟! أي: لا يمكن أن يكون هذا كهذا، وشتان ما بينهما؛ ولهذا قال:

﴿لَّا يَسْتَوُونَ﴾، أي: لا يستوي المؤمن والفاسق الكافر بحال من الأحوال، لا عقلًا ولا شرعًا، لا في الدنيا ولا في الآخرة؛ لأن حكمة الله تعالى وحكمه العدل يقتضيان عدم تساويهما؛ كما لا يستوي الليل والنهار، والضياء والظلمة، والأرض والسماء، والثرى والثريا، فالمؤمن طيب طاهر آمن بربه، وشكر نعمته، واهتدى بهداه.

والفاسق خبيث نجس، كفر بربه، وجحد نعمته وعصاه؛ كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٢١﴾ [الجاثية:٢١]، وقال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ۝٣٥ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۝٣٦﴾ [القلم:٣٥- ٣٦]، وقال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ۝٢٨﴾ [ص:٢٨]، وقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ۝٢٠﴾ [الحشر:٢٠].

ولما نفى التساوي بين المؤمن والفاسق؛ بيّن حقيقة ما بينهما من البون الشاسع، والفرق الواسع في الجزاء في الآخرة؛ فقال:

﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾؛ «أما»: حرف شرط وتفصيل في الموضعين، أي: الذين آمنوا بقلوبهم، وعملوا الأعمال الصالحات الخالصة لله تعالى، الموافقة لشرعه

بجوارحهم.

﴿فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾؛ الفاء: رابطة لجواب الشرط في الموضعين، و«جنات»: مضاف، و«المأوى»: مضاف إليه، من إضافة الصفة إلى الموصوف، أي: التي فيها المساكن والقصور والغرف الرفيعة، التي يأوون إليها، ويخلدون فيها، ويتمتعون فيها بأصناف اللذات، وألوان النعيم.

والتعريف في «المأوى» للعهد، أي: المكان الذي يؤوي ويرجع إليه، أي: مأوى المؤمنين، قال تعالى: ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾﴾ [النجم:١٥].

وقد تكون اللام عوضًا عن المضاف إليه، أي: مأواهم، بقرينة قوله مقابله: ﴿فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾.

﴿نُزُلًۢا﴾: حال، أي: ضيافة لهم وقرى وكرامة، والنزل: ما يعد للضيف.

﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾؛ الباء: للسببية، و«ما»: مصدرية، أي: بسبب عملهم الصالح.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟﴾، أي: وأما الذين خرجوا عن طاعة الله تعالى بالكفر والتكذيب.

﴿فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾، أي: فمصيرهم ومقرهم ومحل خلودهم الأبدي النار.

﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ﴾؛ «كلما»: ظرف متضمن معنى الشرط، و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول به لـ«أرادوا»، أي: كلما أرادوا الخروج منها، أي: كلما رفعهم لهبها وحدثتهم إرادتهم بالخروج منها؛ لبلوغ العذاب منهم كل مبلغ.

﴿أُعِيدُوا۟ فِيهَا﴾، أي: ردوا وأركسوا فيها بمقامع الملائكة؛ كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا﴾ [الحج:٢٢].

﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾؛ تقريعًا وتوبيخًا وتبكيتًا: ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾، أي: تجرعوا ألمه، وقاسوا شدته.

﴿ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾؛ في دار الدنيا، حيث يقولون: لا بعث ولا حساب، ولا جنة ولا نار، فيجتمع عليهم العذاب الحسي والمعنوي، عذاب البدن بالنار، وعذاب القلب بالتقريع والتوبيخ والتبكيت.

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾؛ الواو: عاطفة، واللام: لام القسم لقسم مقدر، أي: والله لنذيقنهم من العذاب الأدنى، أي: الأقرب؛ من المصائب والبلايا، والجوع والخوف، والقتل والأسر والذل؛ كالذي أصابهم يوم بدر، ويوم الفتح، وغير ذلك.

﴿دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾، أي: قبل العذاب الأكبر في النار يوم القيامة.

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، أي: لأجل أن يرجعوا عن الكفر ويؤمنوا. وكذلك وقع؛ فقد آمن كثير من الناس بعد بدر وبعد فتح مكة.

وحمل بعض المفسرين وبعض أهل العلم قوله: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾ على عذاب البرزخ في القبر، وجعلوا المعنى: ولنذيقنهم قبل الموت بعضًا من العذاب الأدنى عذاب البرزخ؛ كما جرى لأهل بدر من المشركين من القتل ونحوه.

وكما يجري للكفار عامة عند الاحتضار؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ [الأنعام:٩٣].

ثم يكمل لهم العذاب الأدنى في برزخهم.

قال ابن القيم: «وقد احتج بهذه الآية جماعة، منهم: عبدالله بن عباس على عذاب القبر، وفي الاحتجاج بها شيء؛ لأن هذا عذاب في الدنيا يستدعي به رجوعهم عن الكفر، ولم يكن هذا مما يخفى على حبر الأمة وترجمان القرآن؛ لكن من فقهه في القرآن، ودقة فهمه فيه، فهم منها عذاب القبر؛ فإنه سبحانه أخبر أن له فيها عذابين: أدنى وأكبر، فأخبر أنه يذيقهم بعض الأدنى؛ ليرجعوا، فدل على أنه بقي لهم من الأدنى بقية يعذبون بها بعد عذاب الدنيا؛ ولهذا قال: ﴿مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾، ولم يقل: ولنذيقنهم العذاب الأدنى، فتأمله»(١).

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾؛ الاستفهام: للنفي، أي: لا أحد أظلم، أي: لا أحد أشد ظلمًا ﴿مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾، أي: من الذي ذكر بآيات ربه، أي: بينها الله له ووضحها، وتليت عليه ووعظ بها.

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٤١٦.

﴿ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾، أي: ثم تركها وجحدها، ولم يتأملها ولم يؤمن بها، ولم يَنْقَدْ لها.

﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾، أي: المعرضين عن آيات الله ﴿مُنتَقِمُونَ﴾، أي: معاقبوهم ومعذبوهم أشد العذاب.

وأظهر في مقام الإضمار؛ للحكم عليهم بالإجرام، وبيان أنه سبب الانتقام منهم، وليعمهم الوعيد بالانتقام هم وغيرهم من المجرمين.

الفوائد والأحكام:

١- حكمة الله تعالى البالغة، وعدله التام؛ في نفي التساوي بين المؤمن والفاسق، وبيان أنه لا مساواة بينهما، لا عقلًا ولا شرعًا، لا في الدنيا ولا في الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًاۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ۝١٨﴾.

٢- شتان بين مأوى كل من الفريقين؛ فالذين آمنوا وعملوا الصالحات مأواهم جنات النعيم، والذين فسقوا مأواهم النار دار العذاب الأليم؛ لقوله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝١٩ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ الآية.

٣- إثبات الدارين في الآخرة: الجنة التي أعدها للمؤمنين، والنار التي أعدها للفاسقين الكافرين.

٤- أن الجنة هي مأوى المؤمنين ومستقرهم الأبدي، لا يخرجون منها، ولا يبغون عنها حولًا؛ لأن الله سماها: جنات المأوى.

٥- كرامة الذين آمنوا وعملوا الصالحات عند ربهم، وضيافته لهم، وإكرامهم بأعظم النزل والقرى؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا﴾.

٦- أن الجزاء من جنس العمل، وأن من أحسن العمل جازاه الله بالإحسان والإكرام؛ لقوله تعالى: ﴿نُزُلًۢا بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾، وكما قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ۝٦٠﴾ [الرحمن: ٦٠].

٧- لا بد من الجمع بين إيمان القلب وتصديقه، وعمل الجوارح، ولا بد من كون العمل صالحًا خالصًا لله تعالى، تبعًا لشرعه وسنة نبيه ﷺ.

٨- أن مأوى الفاسقين الكافرين ومستقرهم الأبدي: النار؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا

﴿ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾.

٩- إثبات النار وعذابها، وأن الله أعدها للفاسقين والكفار.

١٠- شدة عذابها وإرادتهم الخروج منها، وطمعهم في ذلك كلما ازداد عليهم غمها، أو ارتفع بهم لهيبها، وقمعهم وردهم فيها؛ لقوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾؛ كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخۡرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ٣٧﴾ [المائدة:٣٧].

وكون الإنسان يؤمل ارتفاع العذاب ثم يعود أشد من كونه مستمرًّا آيسًا من زواله.

١١- تعذيبهم عذابًا معنويًّا ينصب على قلوبهم، لا يقل عن العذاب الحسي، بتقريعهم وتوبيخهم وتبكيتهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لَهُمۡ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾.

١٢- تكذيبهم بعذاب النار، وبالبعث والحساب والجزاء على الأعمال.

١٣- إذاقتهم من العذاب الأدنى في الحياة، قبل العذاب الأكبر بالنار يوم القيامة؛ لعلهم يرجعون عما هم عليه من الفسق والكفر إلى الإيمان والعمل الصالح؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ دُونَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٢١﴾.

١٤- أن عذاب الدنيا لا ينسب إلى عذاب الآخرة، فعذاب الآخرة أكبر وأشد، وأعظم وأشق.

١٥- قبول التوبة من الكفار؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾.

١٦- إثبات الحكمة والعلة في أفعال الله تعالى، لقوله: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾.

١٧- إثبات عذاب القبر في البرزخ، وهذا على قول من قال: إن المراد بالعذاب الأدنى: عذاب البرزخ؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ﴾.

قال السعدي(١): «وهذه الآية من الأدلة على إثبات عذاب القبر، ودلالتها ظاهرة؛ فإنه قال: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ﴾، أي: بعض وجزء منه، فدل على أن ثم

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» ٦/ ١٨٧.

عذابًا أدنى قبل العذاب الأكبر، وهو عذاب النار، ولما كانت الإذاقة من العذاب الأدنى في الدنيا قد لا يتصل بها الموت، أخبر تعالى أنه يذيقهم ذلك لعلهم يرجعون إليه ويتوبون من ذنوبهم؛ كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم:٤١]».

١٨- الترغيب في الإيمان والعمل الصالح، والتحذير من الفسق والكفر.

١٩- أنه لا أحد أشد ظلمًا من الذي ذكر بآيات ربه، ووعظ بها وتليت عليه، ثم أعرض عنها، وكذب بها وجحدها؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾.

٢٠- أن الإنسان ينبغي أن يقبل التذكير من أي مذكر له بالحق.

٢١- أن الإعراض بعد التذكير والعلم إجرام، وأعظم وأشد من الإعراض حال الجهل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾؛ ولهذا جعل الله الغضب في حق اليهود؛ لأنهم عرفوا الحق وتركوه.

٢٢- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّهِۦ﴾.

٢٣- انتقام الله تعالى من المجرمين المعرضين عن آياته، المكذبين بها، الجاحدين لها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾﴾:

قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾، أي: أعطيناه التوراة، شرعًا وقدرًا، وأنزلناها عليه، وهي أفضل كتب الله تعالى بعد القرآن الكريم، أنزلها الله عليه بألواح جملة واحدة، و«ال» في «الكتاب» للعهد الذهني.

﴿فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ﴾، أي: في شك وريب، ﴿مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾، أي: من لقاء موسى عليه السلام، وقد لقيه ليلة الإسراء، وهكذا وقع، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**رأيت ليلة أسري بي موسى بن عمران، رجلًا آدم طوالًا جعدًا؛ كأنه من رجال شنوءة...**» الحديث(١).

وقال بعض المفسرين: معنى: ﴿فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾، أي: من لقاء مثل ما لقي موسى من فرعون وقومه من التكذيب والأذى، ومن ثم كانت العاقبة له.

وفي هذا تسلية له ﷺ فيما سيلاقيه من أذى قومه، وبشارة له ﷺ بالنصر وكون

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٣٩، ومسلم في الإيمان ١٦٥.

العاقبة له؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾ [الأنعام:٣٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ [الإسراء:٧٦، ٧٧].

وقال بعضهم: الضمير في ﴿لِّقَآئِهِۦ﴾ يعود إلى الكتاب، والمراد غيره، أي: فلا تكن في مرية مما آتيناك من الكتاب من كونه وحيًا ملقًى من لدنه تعالى؛ كما آتينا موسى الكتاب فتلقاه من قبلك.

أو فلا تكن في مرية من أن تلقى من لقائك الكتاب- أي: من إيتائك الكتاب- الأذى من قومك، ومن ثم تكون لك العاقبة، مثل ما لقيه الرسل من قبلك من الأذى من أقوامهم، ثم كانت العاقبة لهم.

وفي هذا تسلية وبشارة له ﷺ.

﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، أي: وجعلنا الكتاب الذي آتيناه موسى هدى لبني إسرائيل؛ كما قال تعالى في سورة المائدة: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة:٤٤]، وقال تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾﴾ [الإسراء:٢].

وقال بعضهم: يحتمل أن يراد بالضمير في قوله: ﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى﴾: موسى عليه السلام.

وفي الآية تعريض بالمشركين الذين أُنزل عليهم القرآن، أفضل كتب الله على الإطلاق، فلم يهتدوا به، وأُرسل إليهم محمد ﷺ، أفضل رسل الله وسيد ولد آدم، فكذبوه ولم يطيعوه.

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً﴾، أي: وجعلنا شرعًا وقدرًا من بني إسرائيل، أي: صيرنا منهم أعلامًا وقدوات وقادة في الخير، ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾، أي: يرشدون الناس إلى الحق، ويدعونهم إلى الخير، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر بأمر الله تعالى ووحيه الشرعي القدري.

﴿لَمَّا صَبَرُواْ﴾: قرأ حمزة والكسائي ورويس بكسر اللام وتخفيف الميم: «لِمَا»، مركبة من لام التعليل، و«ما» المصدرية، أي: لصبرهم ويقينهم.

وقرأ الباقون بفتح اللام وتشديد الميم: ﴿لَمَّا﴾، أي: حين صبروا، أي: صبروا على طاعة الله تعالى، وعن معصيته، وعلى أقداره، وما نالهم من الأذى في دينه، وصدقوا رسله، واتبعوهم فيما جاؤوا به من الهدى.

﴿وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ الشرعية والكونية، ﴿يُوقِنُونَ﴾، أي: يصدقون بها التصديق الجازم، الموصل إلى العلم اليقيني التام الذي هو أعلى درجات الإيمان، الموجب للعمل بها.

فجمعوا بين الصبر واليقين، وبهذا نالوا الإمامة في الدين.

قال ابن القيم: «فأخبر أن إمامة الدين إنما تنال بالصبر واليقين، فالصبر يدفع الشهوات والإرادات الفاسدة، واليقين يدفع الشكوك والشبهات»(١).

ولكن لما بَدَّلوا وحرفوا وقست قلوبهم، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم، واشتروا به ثمنًا قليلًا، وتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واختلفوا، سلبوا هذه المنزلة، وهذا المقام؛ ولهذا قال:

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، أي: إن ربك وحده يا محمد يقضي ويحكم بين بني إسرائيل يوم القيامة بحكمه الجزائي ﴿فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾؛ «ما»: مصدرية، أو موصولة، أي: في اختلافهم، أو في الذي كانوا يختلفون فيه من أمر الدين، فيتبين من هو على حق منهم ومن هو على باطل، ويفصل بينهم، ففريق إلى الجنة، وفريق إلى النار؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الجاثية: ١٦ - ١٧].

وكان اختلافهم في أصول الدين ومسائل الاعتقاد التي لا يسوغ الاختلاف فيها،

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٤١٦.

حتى كفر بعضهم بعضًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [البقرة:١١٣].

ولهذا حذر الله هذه الأمة أن يكونوا مثلهم؛ فقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [آل عمران:١٠٥].

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾:

قوله: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾؛ الاستفهام: للإنكار، أي: أولم يتبين هؤلاء الكفار المكذبين للنبي ﷺ ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾؛ «كم»: خبرية تفيد التكثير، أي: أولم يهد لهم ويدلهم كثرة إهلاكنا من قبلهم من القرون، أي: إهلاكنا كثيرًا من الأمم الماضية بسبب تكذيبهم الرسل، وكفرهم، ومخالفتهم أمر الله؛ كعاد وثمود وقوم لوط وغيرهم، أي: فيحذرون من مسلكهم؟

﴿يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ﴾؛ حال من الضمير في «لهم»، أي: يمشي هؤلاء المكذبون في مساكن تلك الأمم المهلكة، ويشاهدونها بأعينهم عين اليقين، خاوية موحشة، لم يبق فيها منهم عين ولا أثر، ويسمعون أخبارهم؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا﴾ [الأعراف:٩٢]، وقال تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟﴾ [النمل:٥٢].

وقال تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٥، ٤٦].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾، أي: إن في إهلاك كثير من الأمم الماضية قبلهم بسبب تكذيبهم وكفرهم ﴿لَءَايَٰتٍ﴾؛ اللام: للتوكيد، أي: لعظات وعبرًا، ودلائل ظاهرة، على شدة انتقامنا من المكذبين.

﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾؛ الاستفهام: للتقريع والتوبيخ، أي: أفلا يسمعون- سماع تدبر وانتفاع- تذكير الله لهم بآياته وعظاته، وأخبار أولئك الأقوام، وما حل بهم، فيتعظوا

ويعتبروا، ويحذروا أن يصيبهم ما أصابهم؟

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ﴾: الاستفهام: للإنكار والتقرير، أي: أولم يروا ويشاهدوا ﴿أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ﴾ بإزجاء السحاب الثقال المحمل بماء المزن وسوقه، أو بالأنهار.

﴿إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾، أي: اليابسة القاحلة الجرداء الخالية التي لا نبات فيها؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ۝٨﴾ [الكهف:٨]، أي: لا نبات فيها.

قال ابن كثير[1]: «وليس المراد من قوله: ﴿إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾: أرض مصر فقط، بل هي بعض المقصود، وإن مثّل بها كثير من المفسرين، فليست مقصودة وحدها، ولكنها مرادة قطعًا من هذه الآية؛ فإنها في نفسها أرض رخوة غليظة، تحتاج من الماء ما لو نزل عليها مطرًا لتهدمت أبنيتها، فيسوق الله إليها النيل بما يتحمله من الزيادة الحاصلة من أمطار بلاد الحبشة، وفيه طين أحمر، فيغشى أرض مصر، وهي أرض سبخة مرملة محتاجة إلى ذلك الماء وذلك الطين أيضًا؛ لينبت الزرع فيه، فيستغلون كل سنة على ماء جديد ممطور في غير بلادهم، وطين جديد من غير أرضهم، فسبحان الحكيم الكريم المنان المحمود ابتداء».

﴿فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا﴾، أي: من العشب والثمار والبقول مختلفة الأنواع؛ مما هو علف لدوابهم ﴿تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ﴾؛ من الإبل والبقر والغنم، وكذا غيرها من الحيوان والطير. ﴿وَأَنْفُسُهُمْ﴾، أي: وتأكل منه أنفسهم مما هو طعام لهم؛ كما قال تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ۝٢٤ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ۝٢٥ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ۝٢٦ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝٢٧ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۝٢٨ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۝٢٩ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ۝٣٠ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ۝٣١ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ۝٣٢﴾ [عبس:٢٤- ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ۝٣٣ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ۝٣٤ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس:٣٣- ٣٥].

﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾؛ الاستفهام: للإنكار والتوبيخ، أي: أفلا يشاهدون ويرون بأبصارهم،

---

(١) في «تفسيره» ٦/ ٣٧٣.

ويتأملون ببصائرهم كمال قدرة الله تعالى، وتمام نعمته عليهم، فيستدلوا بذلك على وجوب إفراده وحده بالعبادة؟ وعلى قدرته على إحياء الموتى.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾:

قوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ﴾، أي: ويقول المشركون المكذبون مخاطبين الرسول ﷺ والمؤمنين؛ جهلًا منهم وعنادًا، واستبعادًا للعذاب، وتكذيبًا به: متى هذا الفتح الذي يفتح بيننا وبينكم بتعذيبنا ونصركم علينا؛ كما تتوعدوننا بذلك؟

وهذا كقوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [يونس:٤٨، الأنبياء:٣٨، النمل:٧١، سبأ:٢٩، يس:٤٨، الملك:٢٥].

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾؛ في دعواكم ووعيدكم لنا؛ كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾﴾ [سبأ:٢٦]، وقوله: ﴿فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾ [الشعراء:١١٨].

﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ﴾، أي: قل لهم يا محمد: ﴿يَوْمَ ٱلْفَتْحِ﴾، أي: يوم القضاء والفصل بحلول عقاب الله تعالى وعذابه بكم في الدنيا أو في الآخرة.

﴿لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ﴾؛ لأنه إن كان العذاب في الدنيا، فإيمانهم عند حلوله إيمان اضطرار، لا إيمان اختيار، وإن كان عذاب الآخرة، فإنها ليست دار إيمان ولا عمل، وإنما هي دار جزاء. وفي الكلام التفات من الخطاب إلى الغيبة.

وأظهر في مقام الإضمار في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾؛ لقصد التسجيل عليهم بأن كفرهم هو سبب عذابهم وخسرانهم.

﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾، أي: ولا هم يمهلون ويؤجلون، فيؤخر عنهم العذاب؛ ليستدركوا أمرهم بالتوبة والاعتذار؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [غافر:٨٤، ٨٥].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام:١٥٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ۝٥٢﴾ [غافر:٥٢]، وقال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ۝٥٧﴾ [الروم:٥٧].

﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾، أي: اتركهم ولا تكترث بهم ولا تبالهم، واستمر في الدعوة إلى ربك، واتباع وحيه؛ كما قال تعالى: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٠٦﴾ [الأنعام:١٠٦].

﴿وَٱنتَظِرْ﴾؛ حذف مفعول «انتظر» للتهويل والتعظيم، أي: انتظر وترقب يا محمد ما وعدناك من النصر عليهم وعقابهم، والتمكين لك ولدعوتك؛ لأن العاقبة للمتقين.

﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾، أي: إنهم منتظرون ومتربصون بك ريب المنون، ومتربصون الدوائر بك وبالمؤمنين؛ كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ۝٣٠﴾ [الطور:٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ﴾ [التوبة:٩٨].

هذا ما ينتظرونه به ﷺ، ويتمنونه، وهيهات لهم ذلك، وهم في الحقيقة إنما ينتظرون الخيبة والخسران، والهلاك والعذاب؛ في الدنيا والآخرة، وهذا هو المعنى الثاني للآية، وهو أنهم منتظرون للعذاب الواقع بهم.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات رسالة موسى عليه السلام وإيتائه «التوراة» أفضل كتب الله تعالى بعد القرآن الكريم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾.

٢- وعد الله تعالى- الذي لا ريب فيه- للنبي ﷺ بلقاء موسى عليه السلام، وتحقيق ذلك له ليلة أسري به ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾.

٣- منة الله تعالى على بني إسرائيل بجعله التوراة هدى لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

٤- التعريض بذم المشركين الذين كذبوا بالقرآن أفضل كتب الله تعالى على الإطلاق، ولم يهتدوا به، وكذبوا محمدًا ﷺ أفضل رسل الله وعاندوه ولم يطيعوه.

٥- الثناء على بني إسرائيل، والتذكير بنعمة الله تعالى عليهم؛ حيث جعل منهم أئمة يهدون بأمره عز وجل، ويدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر؛ بسبب صبرهم ويقينهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

٦- فضيلة الصبر واليقين، وأن الإمامة في الدين، إنما تنال بالصبر واليقين؛ لقوله تعالى: ﴿لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾؛ ولهذا قال علي رضي الله عنه: «الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد»[١].

٧- البشارة للصحابة رضي الله عنهم بنيلهم هذا المقام العظيم، وهذه المنزلة الرفيعة، وهي الإمامة في الدين، وكونهم أعلامًا يهتدى بهم؛ بسبب صبرهم على ما لحقهم من الأذى في سبيل نصر دين الله ورسوله، وبلوغهم أعلى مراتب الإيمان واليقين.

٨- اختلاف بني إسرائيل في دينهم وتفرقهم بعد أن غيروا وحرفوا في كتبهم، ووعد الله تعالى ووعيده لهم بالفصل والحكم بينهم يوم القيامة: فمن كان على الحق فسبيله إلى الجنة، ومن كان على الباطل فسبيله إلى النار؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

٩- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة للنبي ﷺ، وتشريفه بخطاب الله تعالى له وإضافة اسم الرب إلى ضميره ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّكَ﴾.

١٠- إثبات يوم القيامة، وما فيه من الفصل بين العباد، ومجازاتهم بأعمالهم.

١١- الإنكار على المشركين المكذبين للنبي ﷺ في عدم أخذ العظة والعبرة من إهلاك كثير من المكذبين قبلهم، وهم يمشون في مساكنهم ويرونها عين اليقين خاوية على عروشها، ليس فيها داع ولا مجيب، ويسمعون الآيات والعبر، ولا يحذرون أن يحل بهم ما حل بأولئك الأقوام، كأنهم لا يسمعون؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ٣٧٢.

١٢- ينبغي أخذ العظة والعبرة عند المرور بديار الأمم المكذبة الخاوية، لا أن تتخذ مزارًا أو نزهة.

١٣- تقريرهم وتنبيههم إلى نعمة الله تعالى عليهم، وحكمته في سوق الماء من المطر والأنهار إلى الأرض اليابسة التي لا نبات فيها، وإخراج الزرع به لأكلهم ومواشيهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ﴾.

١٤- الإنكار عليهم، وتوبيخهم في عدم تأملهم ببصائرهم وعقولهم فيما يرون ويشاهدون من دلائل كمال قدرة الله في ذلك، وتمام نعمته عليهم، فيستدلون بذلك على وحدانيته وقدرته على البعث؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾.

١٥- أن الأصل فيما نبت في الأرض هو الحل؛ لقوله تعالى: ﴿تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ﴾، ما لم يقم دليل على التحريم.

١٦- وجوب النظر والتبصر في آيات الله، ونعمه، ودلائل قدرته.

١٧- استعجالهم العذاب، والفصل بينهم وبين المؤمنين بذلك؛ جهلًا منهم وعنادًا، واستبعادًا له، وتكذيبًا به؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾﴾.

١٨- أنه عند مجيء الفتح والفصل وحلول عقاب الله وعذابه الدنيوي أو الأخروي لا ينفع الكافرين إيمانهم، ولا هم يؤخرون ليؤمنوا ويتوبوا؛ لأن الإيمان حال نزول العذاب إنما هو إيمان اضطرار، لا إيمان اختيار؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

١٩- أمر الله تعالى له ﷺ بانتظار وترقب وعد الله تعالى له بالنصر والتمكين له، وإهلاك المكذبين بشارة له ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱنتَظِرْ﴾.

٢٠- تربص المشركين به ﷺ ريب المنون، وانتظارهم الدوائر به وبالمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾، وفي الآية تهديد لهم بأنهم منتظرون للعذاب.

* * *

تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلأَحْزَاب

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت «سورة الأحزاب» بهذا الاسم؛ لأن الله ذكر فيها قصة الأحزاب في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ﴾ [الآية:٢٢وما بعدها].

ب- مكان نزولها:

مدنية، وهي من أوائل السور المدنية.

جـ- فضلها:

سورة الأحزاب سورة عظيمة، اشتملت على أحكام وآداب وتوجيهات تربوية، للفرد والمجتمع، للرجال والنساء؛ ولهذا كتب عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- «أن تعلَّموا سورة النساء والأحزاب والنور»[(١)].

وعن زر بن حبيش قال: قال لي أبي بن كعب: كأيِّن تقرأ سورة الأحزاب؟ أو كأيِّن تعدها؟ قلت: ثلاثًا وسبعين آية، فقال: قطٍ، لقد رأيتها وأنها لتعادل سورة البقرة، ولقد قرأنا فيها: «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالًا من الله والله عليم حكيم»[(٢)].

د- موضوعاتها:

١- افتتح الله- عز وجل- هذه السورة العظيمة بالأمر لنبيه ﷺ- وهو الأسوة لأمته- بتقوى الله، ونهيه عن طاعة الكافرين والمنافقين، وأمره باتباع ما أوحى إليه من ربه، والتوكل عليه.

وعلى هذه الوصايا الأربع تتكون الركيزة والقاعدة العظمى التي يقوم عليها بناء المجتمع الإسلامي وتنظيمه.

٢- إبطال حكم الظهار والادعاء، مما كانوا عليه في الجاهلية وأول الإسلام- بعد التوطئة لذلك بأمر مسلّم يدل على وهن هذه العادات الجاهلية- وهو نفي أن يكون

---

(١) أخرجه أبوعبيدة في «فضائل القرآن» ص(١٢٨)-من رواية حارثة بن مضرب.

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ١٣٢)، قال ابن كثير في «تفسيره» (٦/ ٣٧٦):«ورواه النسائي من وجه آخر، وهذا إسناد حسن، وهو يقتضي أنه كان فيها قرآن ثم نسخ لفظه وحكمه أيضًا، والله أعلم».

للرجل قلبان في جوفه.

٣- بيان أن النبي ﷺ أولى بالمؤمنين من أنفسهم، في وجوب محبته وطاعته، وشفقته ﷺ عليهم، وبيان أن أزواجه أمهاتهم في وجوب احترامهن وتوقيرهن وحرمة نكاحهن، وأن أُولي الأرحام بعضهم أولى ببعض في الميراث.

٤- ذكر أخذ الميثاق الغليظ من النبيين، وبخاصة أُولي العزم منهم في تبليغ ما أَمَرَهم الله بتبليغه والجهاد لنصرة دينه، لتقوم الحُجَّة على الخلق.

٥- الحديث- بنفس طويل- عن غزوة الأحزاب، بدأ ذلك بتذكير المؤمنين بنعمة الله عليهم إذ جاءتهم الجنود من كل وجه، وتمالأ معهم المنافقون، وخَوَنة اليهود من داخل المدينة، حتى صار المسلمون بين فكي أسد، قال تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾، إلى قوله: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب:١٠-٢٧].

فأرسل الله عليهم ريحًا باردة شديدة وهي «الصبا» وجنودًا من الملائكة فتفرَّقت جموعهم، وهربوا كل مهرب، وكفى الله المؤمنين القتال.

٦- فضح المنافقين ومرضى القلوب، وظهور شكهم فيما وعد الله ورسوله، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾.

وكشف مواقفهم المخزية من حث بعضهم بعضًا على الرجوع من المعركة، والاستئذان والفرار والمسارعة إلى الفتنة والكفر، وتولية الأدبار ونقض ما عاهدوا الله عليه، والتثبيط عن الخروج للجهاد، والشح على المؤمنين فلا يقاتلون معهم بأبدانهم ولا ينفقون في سبيل الله من أموالهم، وعند الخير والنصر والغنيمة يريدون المشاركة لهم، وإذا جاء الخوف صاروا من شدة الجبن والرعب ﴿كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾، إلى قوله: ﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾﴾.

٧- حث المؤمنين على التأسي بالنبي ﷺ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن

كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾.

٨- تمحيص المؤمنين وظهور صدق إيمانهم وتصديقهم بوعد الله ورسوله، وزيادة إيمانهم وتسليمهم، وصدقهم بما عاهدوا الله عليه؛ قال تعالى: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾.

٩- وعد الله للمؤمنين الصادقين، ووعيد المنافقين: ﴿لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾﴾.

١٠- الإخبار بردِّ الله الذين كفروا على أعقابهم خائبين خاسرين لم ينالوا خيرًا، وكفايته المؤمنين القتال، وأنزل الذين ظاهروهم، ونقضوا عهدهم مع رسول الله من أهل الكتاب، وهم يهود بني قريظة من حصونهم، وقذف الرعب في قلوبهم، فمنهم من قُتِل ومنهم من أُسِر، وتوريث الله المؤمنين أرضهم وديارهم.

١١- الحديث عن بيوت النبي ﷺ وأزواجه، بذكر أمر الله- عز وجل- للنبي ﷺ بتخيير أزواجه بين إرادة الحياة الدنيا، وبين إرادة الله ورسوله والدار الآخرة، والوعيد لمن تأتِ منهن بفاحشة بمضاعفة العذاب لها ضعفين، والوعد لمن تقنت منهن لله ورسوله وتعمل صالحًا بإيتائها أجرها مرتين، وبالرزق الكريم. وبيان أنهن لسن كغيرهن من النساء فلا ينبغي أن يخضعن بالقول فيطمع فيهن مَن في قلبه مرض، وأمرهن بالقرار في البيوت ونهيهن عن تبرج الجاهلية الأولى، وأمرهن بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله، وذكر ما يتلى في بيوتهن من القرآن والسنة.

١٢- وعد المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات المتصفين بما ذكر من الصفات؛ ترغيبًا في تلك الصفات: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾.

١٣- الحديث عن مسألة تم التمهيد لها والتوطئة في إبطال حقيقة الادعاء في أول السورة وهي جواز نكاح الرجل لزوجة ابنه المدعى بعد فراقه لها، وذلك من خلال ذكر قصة زيد بن حارثة وزينب بنت جحش- رضي الله عنهما- وقدم لذلك بأنه ليس لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً شرعيًا أن يختاروا غير ما اختار الله ورسوله.

١٤- بيان أنه لا حرج على النبي ﷺ فيما فرضه الله وأباحه له، وهي سنة الله في الأنبياء قبله أن لا حرج على أحد منهم فيما فرض الله لهم، وثناؤه- عز وجل- على رسله وأنبيائه في كونهم يبلِّغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدًا سواه: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾﴾.

١٥- التأكيد على إبطال الادعاء بنفي أن يكون محمد أبا أحدٍ من رجالنا وتقرير رسالته ﷺ وكونه خاتم الأنبياء.

١٦- أمر الله- عز وجل- المؤمنين بذكره وتسبيحه، وبيان أن مهمة الرسول ﷺ هي البشارة والإنذار والدعوة إلى الله وبيان الحق: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾﴾.

١٧- بيان أنه لا عدة على المطلقات قبل المسيس، ولهن المتعة، وأن يسرحن سراحًا جميلًا.

١٨- بيان أن الله أحلَّ له أزواجه، وما ملكت يمينه، وبنات عمه وبنات عماته وبنات خاله وبنات خالاته اللاتي هاجرن معه، ومَن وهبت نفسها له إن رغب فيها خالصةً له من دون المؤمنين، رفعًا للحرج عنه، وأن له القسم لمن شاء من زوجاته وعدمه، وقبول من شاء من الواهبات أنفسهن، ورد من شاء منهن لا جناح عليه في ذلك كله، لكي تقرَّ أعينهن ويرضين بما آتاهن كله، وبيان أنه لا يحل له النساء من بعدهن، ولا أن يتبدل بهن غيرهن إلا ما ملكت يمينه.

١٩- نهي المؤمنين عن دخول بيوت النبي ﷺ إلا بعد الإذن أو الدعوة للدخول، وأمرهم بالانتشار بعد الطعام، غير مستأنسين لحديثٍ، لما في ذلك من أذية النبي ﷺ، وأمرهم إذا سألوا أزواج النبي ﷺ أن يسألوهن من وراء حجاب، وبيان حرمة أذيته ﷺ ونكاح أزواجه من بعده، وأنه لا جناح على أزواج النبي ﷺ وغيرهن من النساء في عدم الحجاب من محارمهن ونسائهن ومماليكهن.

٢٠- الإخبار بأنه سبحانه يصلي وملائكته على النبي ﷺ، وأمر المؤمنين بالصلاة والسلام عليه، والوعيد لمن يؤذون الله ورسوله والمؤمنين.

٢١- أمره عز وجل لنبيه ﷺ أن يأمر أزواجه وبناته ونساء المؤمنين بأن يدنين

عليهن من جلابيبهن ويحتجبن ليعرفن فلا يؤذين.

٢٢- وعيد المنافقين ومرضى القلوب والمرجفين في المدينة- إن لم ينتهوا عما هم عليه- بتسليط الرسول ﷺ عليهم، وإخراجهم من المدينة، وعدم مجاورتهم له، ولعنهم وأخذهم وقتلهم أينما ثقفوا، كما هي سنة الله التي لا تتبدل في إهلاك المكذبين.

٢٣- ذكر الساعة وكثرة سؤال الناس عنها، وأمر الله- عز وجل- نبيه ﷺ أن يرد علمها إلى الله، وأن وقوعها قد يكون قريبًا، والتهديد والوعيد للكافرين بالخلود في السعير والتقليب في النار، وندمهم حيث لا ينفع الندم.

٢٤- ثم نهي الله- عز وجل- المؤمنين عن أذية الرسول ﷺ كما آذى بنو إسرائيل موسى- عليه السلام- وأمرهم بتقوى الله والقول السديد، وترغيبهم في طاعة الله ورسوله.

٢٥- ثم ختمت السورة بما يناسب ما بدأت به من الأمر بتقوى الله واتباع وحيه وشرعه، ببيان أنه سبحانه عرض الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان لظلمه وجهله؛ ليعذب الله أهل النفاق والشرك ويتوب على أهل الإيمان وهو الغفور الرحيم- سبحانه وتعالى.

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٢) وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (٣)﴾.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١)﴾.

قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾: «يا»: حرف نداء، و«أي»: منادى مبني على الضم في محل نصب؛ لأن المنادى في الأصل مفعول به، كما يقال: أدعوك. و«ها»: للتنبيه، و«النبي»: صفة لأي أو بدل منها.

والنبي: هو رسولنا ونبينا محمد ﷺ، و«ال» فيه للعهد الذهني فهو معهود معروف. و«النبي»: مشتق من النبأ، أبدلت الهمزة ياءً تخفيفًا، وأصله: «النبيء».

والنبأ هو الخبر؛ لأن النبي مُنْبأ ومُخْبَر، من عند الله تعالى ومُنْبِئ ومُخْبِر للناس. فهو «فعيل» بمعنى فاعل، وبمعنى مفعول.

ومشتق من النَّبْوَة، وهي المكان المرتفع؛ لأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ذوو شرف ومكانة عالية مرتفعة.

وفي ندائه ﷺ وخطابه من الله- عز وجل- في القرآن الكريم بوصف النبوة، وندائه بوصف الرسالة في مقام الرسالة، كما في قوله: ﴿۞ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المائدة:٦٧]، دليل على ثبوت نبوته ورسالته ﷺ.

وفي تخصيصه ﷺ من بين الأنبياء بندائه بوصف النبوة والرسالة، دون أن يقول له: يا محمد، تكريم وتشريف له ﷺ، ودلالة على شرفه ﷺ وفضله على سائر الأنبياء عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام؛ حيث يناديهم الله- عز وجل- بأسمائهم كقوله: ﴿يَا مُوسَى (١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾ [طه:١١، ١٢]، ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ [ص:٢٦]، ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة:١١٦]، ﴿يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ﴾ [هود:٤٨]. إلى غير ذلك.

ولهذا قال ﷺ: «**أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر**»(١).

وقد جاء في السُّنَّة النبوية نداء الله- عز وجل- له ﷺ باسمه «محمد» كما في بعض الأحاديث القدسية كما في حديث: «**يا محمد، هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى**» الحديث(٢).

﴿اتَّقِ اللَّهَ﴾: **التقوى في اللغة**: مأخوذة من الوقاية من الشيء المخوف، بأن تجعل بينك وبينه وقاية، كالبرد والحر، والشوك، وغير ذلك.

وأصلها «وَقْوَىٰ» قلبت الواو تاءً لعله تصريفية فقيل: «تقوى». وهي في الشرع: أن تجعل بينك وبين عذاب الله وقاية بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

قال طلق بن حبيب: «**التقوى: أن تعمل بطاعة الله، على نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله، على نور من الله، مخافة عذاب الله**»(٣).

وقال ابن القيم(٤) في حقيقة التقوى: «... المتضمنة لإفراده بامتثال أمره ونهيه محبة له وخشية ورجاء، فإن التقوى لا تتم إلا بذلك».

﴿اتَّقِ اللَّهَ﴾ أمر للنبي ﷺ بتقوى الله، أي: اتق الله في كل حال وفي كل وقت، واثبت وداوم واستمر على تقوى الله.

وليس هذا من باب تحصيل الحاصل بأن يقال: كيف يؤمر بتقوى الله، أو بالإيمان من هو متقٍ مؤمن، بل إن الرسول ﷺ وغيره من المؤمنين مأمورون بتقوى الله وبالإيمان لحاجتهم إلى تقوى الله والإيمان في كل لحظة وفي كل حال، وإلى الثبات على ذلك، والزيادة منه، والدوام والاستمرار عليه، ولهذا يقول الله- عز وجل- للمؤمنين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا

---

(١) أخرجه الترمذي في التفسير (٣١٤٨)، وفي المناقب (٣٦١٥)، وابن ماجه في الزهد (٤٣٠٨)-من حديث أبي سعيد الخدري-رضي الله عنه-وقال الترمذي:«حديث حسن». وصححه الألباني.

(٢) أخرجه الترمذي في التفسير (٣٢٣٣، ٣٢٣٤)-من حديث ابن عباس-رضي الله عنهما-ومن حديث معاذ بن جبل-رضي الله عنه-(٣٢٣٥). وقال عن حديث ابن عباس:«حديث حسن غريب»، وقال عن حديث معاذ:«حديث حسن صحيح».

(٣) انظر:«تفسير ابن كثير» (٦/ ٣٧٦).

(٤) انظر:«بدائع التفسير» (٣/ ٤١٩).

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ﴾ [النساء:١٣٦].

وأمر الله- عز وجل- المؤمنين أن يقولوا في كل ركعة من الصلاة: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦﴾ [الفاتحة:٦] لحاجتهم إلى الهداية في كل وقت وفي كل حال، فإن الإنسان عندما يهديه الله للتكبير والدخول في الصلاة في حاجة إلى أن يهديه الله ليقرأ دعاء الاستفتاح، وهو بعد هدايته لذلك في حاجة إلى أن يهديه ليستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، وبعد هدايته لذلك هو في حاجة إلى أن يهديه لقراءة البسملة، ثم هو بعد ذلك في حاجة إلى أن يهديه لقراءة الفاتحة وهكذا.

ومن هنا يتبين أنه ليس في أمره ﷺ بتقوى الله دليلٌ على وجود مخالفة منه ﷺ، وقد قال ﷺ: «**أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له**»(١).

وفي أمره ﷺ بتقوى الله دليل على أن التكاليف لا تسقط عن أحد مهما بلغت منزلته فهذا رسول الله ﷺ وأفضل أنبيائه ورسله وسيد ولد آدم- عليه الصلاة والسلام- مأمور بتقوى الله.

وفي هذا رد على غُلاة الصوفية الذين يقولون: إن الإنسان قد يصل إلى مرتبة يرتفع عنه بها التكليف، وهذا من تخريفاتهم. نسأل الله السلامة والعافية.

﴿وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۗ﴾ هذا معطوف على قوله: ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ من عطف الخاص على العام؛ لأن ترك طاعة الكافرين والمنافقين من تقوى الله- عز وجل- وقد أكد الله- عز وجل- هذا بقوله: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ﴾ الآية [الأحزاب:٤٨].

و﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾: الذين أظهروا الكفر وصرَّحوا به، ولهذا- والله أعلم- قدَّمهم في الذِّكر هنا على المنافقين مع أن المنافقين أشد كفرًا منهم.

والكفر في اللغة: الستر والتغطية، ومنه سمي الزارع كافرًا؛ لأنه يستر البذر ويغطيه

(١) أخرجه البخاري في النكاح (٥٠٦٣)،-من حديث أنس بن مالك-رضي الله عنه، وأخرجه مسلم في الصيام (١١٠٨)-من حديث عمرو بن أبي سلمة-رضي الله عنه.

في الأرض، قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ [الحديد:٢٠] أي: أعجب الزراع نباته، وسميت الكفّارة كفارة؛ لأنها تستر الذنب وتغطيه، وسمي الليل كافرًا؛ لأنه يستر الكون ويغطيه بظلامه، وسمي وعاء طلع النخل بالكفر أو بالكافور؛ لأنه يستر ويغطي الطلع الذي بداخله، وهكذا.

وهو: جحود وجود الله وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وجحود شريعته أو شيء من ذلك، والتكذيب به، أو الاستكبار عن الانقياد له، أو الإعراض عنه، أو الشك فيه، وهو ضد الإيمان.

ووجه الربط بين الكفر بمعناه اللغوي والشرعي أن الكافر بإنكاره وجحده شيئًا مما ذكر ساتر للحق وساتر لنعم الله عز وجل التي أنعم الله بها عليه.

﴿وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ هم الذين يُظْهِرون الإيمان ويعلنونه، ويخفون الكفر ويبطنونه.

وسمي فعلهم هذا بالنفاق أخذًا من نافقاء «اليربوع»، وهو حيوان معروف يحفر جحرًا في الأرض، ويضع له بابًا، ويجعل في آخره «نافقاء» أي: مخرجًا عليه قشرة خفيفة من طبقة الأرض العليا بحيث إذا داهمه عدو من باب جحره دفعها برأسه وخرج منها.

فالمنافقون يظهرون أنهم مؤمنون وهم في الباطن كفار، بل أشد من الكفار الظاهرين، ولهذا كان عقابهم وعذابهم أشد من الكفار، يقابلون المؤمنين بوجه وهو دعوى أنهم مؤمنون، ويقابلون الكفار بوجه آخر، بقولهم: إنا معكم، ليخلصوا من ملامة هؤلاء وهؤلاء، كما قال الله- تعالى- عنهم: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾ [البقرة:٨-١٠].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾﴾ [البقرة:١٤]، وقال تعالى: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾﴾ [النساء:١٤٣].

وبهذا النفاق الاعتقادي والعملي كانوا في الدرك الأسفل من النار، كما قال الله- عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾ [النساء:١٤٥].

ولهذا يقدم ذكرهم في باب الوعيد، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ

﴿فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾ [النساء:١٤٠]، وقال تعالى: ﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾ [الأحزاب:٧٣]، وقال تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾[الفتح:٦].

والمراد: لا تطع الكافرين والمنافقين فيما يخالف الحق والشرع الذي جئت به؛ لأنهم غالبًا، بل واقعهم أنهم لا يأمرون إلا بما يخالف الحق والشرع، ولا يأمرون بخير.

قال ابن كثير[(١)]: «أي: لا تسمع منهم ولا تستشرهم».

لكن لو أمر الكافر أو المنافق بما يوافق الشرع، فنطيعه؛ لأن ذلك مقتضى الشرع.

ولهذا لما قال اليهودي للنبي ﷺ: «إنكم تشركون، تقولون: ما شاء الله وشئت، وتقولون: والكعبة»، أمرهم النبي ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا: «ورب الكعبة، وأن يقولوا: ما شاء الله ثم شئت»[(٢)].

فقبل النبي ﷺ هذا من اليهودي ونهى ﷺ أصحابه عن هذه المقالة، علمًا بأن اليهودي ما قصد بيان الحق، وإنما قصد تنقص المسلمين وعيب دينهم.

وأَمْره ﷺ بالتقوى أمر له ولأمته بطريق الأولى، كما أن نهيه ﷺ عن طاعة الكافرين والمنافقين نهي له ولأمته بطريق الأولى.

قال ابن كثير[(٣)]: «هذا تنبيه بالأعلى على الأدنى، فإنه تعالى إذا كان يأمر عبده ورسوله بهذا فلأن يأتمر من دونه بذلك بطريق الأولى والأحرى».

وأيضًا فإن للأمة فيه أسوة كما قال عز وجل: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ [الأحزاب:٢١].

وكما ينبغي الحذر من طاعة الكافرين والمنافقين يجب الحذر من أفعالهم وصفاتهم، وبخاصة المنافقين الذين يتظاهرون بأنهم مؤمنون، وقد قال عبدالله بن أبي مليكة رضي

---

(١) في «تفسيره» (٦/ ٣٦٧).

(٢) أخرجه النسائي في الأيمان والنذور (٣٧٧٣)، وأحمد (٦/ ٣٧١-٣٧٢)-من حديث قتيلة-رضي الله عنها-وصححه النسائي وصححه الألباني. وانظر:«تيسير العزيز الحميد» ص(٥٩٨).

(٣) في «تفسيره» (٦/ ٣٧٦).

الله عنه: «أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه»(١).

عن زيد بن وهب قال: «مات رجل من المنافقين، فلم يصل عليه حذيفة. فقال له عمر: أمن القوم هو؟ قال: نعم. قال: بالله منهم أنا؟ قال: لا، ولن أخبر به أحدًا بعدك»(٢).

ورُوي عن بعض السلف: «ما جاهدت نفسي على شيء ما جاهدتها على الإخلاص»(٣).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ هذه الجملة كالتعليل لما قبلها من حيث المعنى؛ لأن الله- عز وجل- بعدما أمر نبيه ﷺ بتقواه ونهاه عن طاعة الكافرين والمنافقين ختم الآية بما يدل على أن ذلك الأمر وذلك النهي كل منهما صادر عن علم تام بعواقب الأمور وغير ذلك، وعن حكم تام، وحكمة بالغة.

و﴿كَانَ﴾: مسلوبة الزمان، أي إنه كان وما زال عليمًا حكيمًا، فهي تفيد تحقيق اتصاف اسمها بخبرها في جميع الأوقات، أي: تفيد هنا تحقيق اتصافه- عز وجل- بالعلم والحكم والحكمة في جميع الأوقات.

و﴿عَلِيمًا﴾، أي: ذا العلم الواسع المحيط بالأشياء كلها في أطوارها الثلاثة، قبل الوجود، وبعد الوجود، وبعد العدم، كما قال موسى- عليه السلام- لما سئل عن القرون الأولى قال: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ۝٥٢﴾ [طه:٥٢].

يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون؛ ولهذا قال عز وجل عن السموات والأرض: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء:٢٢]؛ فهذا من علمه- عز وجل- بمستحيل الوقوع، فيعلم سبحانه أنه لو كان في السموات والأرض آلهة غير الله لفسد أمر السموات والأرض والكون كله.

---

(١) أخرجه البخاري معلقًا في كتاب الإيمان-باب خوف المؤمن أن يحبط عمله وهو لا يشعر. «صحيح البخاري مع الفتح» (١/ ١٠٩).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ٧/ ٤٨١ (٣٧٣٩٠)، وأبو بكر الخلال في السنة ٤/ ١١١ (١٢٨٨).

(٣) سبق تخريجه.

والعلم معناه: إدراك الأشياء على ما هي عليه إدراكًا جازمًا.

وأقسام الناس تجاه العلم ثلاثة، فمثلًا من قال: عدد الرسل في القرآن خمسة وعشرون رسولًا فهذا عالم بالنسبة لهذه المسألة، ومن قال: لا أدري فهذا جاهل جهلًا بسيطًا لا يدري ويدري أنه لا يدري.

ومن قال عددهم ثلاثون فهذا جاهل جهلًا مركبًا لا يدري ولا يدري أنه لا يدري.

قال الخليل: «الرجال أربعة: رجل يدري، ويدري أنه يدري؛ فذلك عالم فاتبعوه. ورجل يدري، ولا يدري أنه يدري؛ فذلك نائم فأيقظوه. ورجل لا يدري، ويدري أنه لا يدري؛ فذلك مسترشد فأرشدوه. ورجل لا يدري، ولا يدري أنه لا يدري؛ فذلك أحمق أو جاهل، فاجتنبوه فارفضوه»(١).

قال الشاعر:

لكـــــل داء دواء يســـــتطب بـــــه ... إلا الحماقـة أعيـت مـن يـداويها(٢)

﴿حَكِيمًا﴾، أي: ذا الحكم التام بأقسامه الثلاثة: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وذا الحكمة الغائية، والحكمة الصورية.

فالحكم الكوني: كما في قول ولد يعقوب- عليه السلام: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي ۖ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [يوسف:٨٠].

والحكم الشرعي: كما في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ [الممتحنة:١٠].

والحكم الجزائي: كما في مضاعفته- عز وجل- الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

ويجمع الأحكام الثلاثة قوله عز وجل: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ﴾ [الأنعام:٥٧]، وقوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾﴾ [التين:٨].

وذا الحكمة الغائية، والحكمة الصورية، الحكمة الغائية بالنسبة لكل حكم من الأحكام الثلاثة المذكورة في كل جزئية من تلك الأحكام، أي: الغاية من وقوع كل

(١) انظر: «إحياء علوم الدين» ١/ ٥٩.

(٢) البيت بلا نسبة. انظر: «غذاء الألباب» ٢/ ٤٨٦، «العقد الفريد» ٢/ ٢٢٦، «المستطرف» ص٢٣.

حكم كوني، ومن مشروعية كل حكم شرعي، ومن الجزاء في كل حكم جزائي.

والحكمة الصورية: الحكمة من مجيء تلك الأحكام على صور معينة.

فهو- عز وجل- حكيم، له الحكم بأقسامه الثلاثة: الحكم الكوني، والشرعي، والجزائي، فهو الحاكم، وله الحكم سبحانه، وهو حكيم له الحكمة فيما قدر وشرع وفي جزائه، فهو حاكم محكم متقن يضع الأمور مواضعها.

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝٢﴾.

قوله: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ «الواو»: عاطفة، و﴿مَا﴾: اسم موصول بمعنى «الذي» يفيد العموم، أي: اتبع كل الذي يوحى إليك من ربك من الكتاب والسنة في كل وقت وحال، واثبت واستمر على ما أوحاه الله إليك، تبليغًا له ودعوة إليه وعملًا به.

وهو أمر له ﷺ ولأمته، والأصل في الأمر الوجوب، فيجب اتباع وحي الله، ويحرم العدول عنه إلى غيره من آراء الرجال.

والوحي في اللغة: الإعلام بسرعة وخفاء.

وفي الشرع : ما أوحاه الله- عز وجل- إلى نبيه ﷺ سواء كان بواسطة أو بغير واسطة.

﴿مِن رَّبِّكَ﴾ المراد بالربوبية هنا الربوبية الخاصة التي تتضمن معنى الربوبية العامة، وهي الخلق والملك، والتدبير، وزيادة الهداية والتوفيق، والعون والنصر والحفظ والتسديد، ونحو ذلك.

فكل ما أوحاه الله إلى رسوله ﷺ يجب عليه وعلى الأمة اتباعه، واعتقاد مشروعيته، إن كان واجبًا فواجب، وإن كان محرمًا فمحرم، وإن كان مستحبًا فمستحب، وإن كان مكروهًا فمكروه، وإن كان مباحًا فمباح.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝٢﴾ قرأ أبوعمرو بالياء: «يعملون»، وقرأ الباقون بالتاء: ﴿تَعْمَلُونَ﴾[1].

و﴿كَانَ﴾ مسلوبة الزمان تفيد تحقيق اتصاف اسمها بخبرها في جميع الأوقات، أي:

---

(١) انظر: «النشر» (٢/ ٣٤٧).

إنه- عز وجل- كان وما زال بما تعملون خبيرًا.

و«ما» موصولة أو مصدرية، أي: بالذي تعملون، أو بعملكم.

﴿خَبِيرًا﴾، أي: ذو الخبرة والعلم الواسع والاطلاع على بواطن الأمور ودقائقها وخفياتها، وعلى ظواهر الأمور وجلائلها وجلياتها من باب أولى.

والمعنى على قراءة: «يعملون»: أنه- عز وجل- خبير بما يعمله الكفار والمنافقون، من الكيد للإسلام وأهله وغير ذلك.

والمعنى على قراءة ﴿تَعْمَلُونَ﴾ بالتاء: أنه- عز وجل- خبير بما تعملون كلكم أيها الناس، فهي أعم من قراءة «يعملون».

ويؤخذ من ذلك كله وجوب مراقبة الله- عز وجل- والرجاء في ثوابه والخوف من عقابه؛ لأن في ذلك وعدًا لمن اتقى الله، ووعيدًا لمن خالف أمر الله.

قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾﴾.

قوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ الأمر للنبي ﷺ، والأصل في الأمر الوجوب، وهو أمر له ﷺ ولأمته؛ لعدم الدليل على خصوصيته بذلك، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ [الأحزاب:٢١].

والتوكل على الله: صدق الاعتماد على الله في جلب المنافع ودفع المضار- مع تمام الثقة بالله- عز وجل- وسكون القلب إليه وحده دون غيره[(١)]- مع فعل الأسباب المشروعة، وأنه- عز وجل- الكافي لمن توكل عليه، كما قال عز وجل- هنا: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق:٣].

أي: توكل على الله في جميع أمورك، وفي تركك طاعة الكافرين والمنافقين، ولا تبال بهم، فلن يستطيعوا أن يضروك، أو يمنعوا الناس من اتباعك.

﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ «الواو» عاطفة، و﴿وَكَفَى﴾ فعل بمعنى: حسب، وهو يأتي لازمًا، وعلامة لزومه جر فاعله بالباء، كما في قوله هنا: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾.

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» (٣/ ٤١٩).

ويأتي متعديًا كما في قوله عز وجل: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ [الأحزاب:٢٥].

و«الباء» في قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ قيل: إنها صلة، أي: زائدة من حيث الإعراب جيء بها لتحسين اللفظ، أي: كفى الله وكيلًا.

و﴿وَكِيلًا﴾ تمييز، وقيل: حال، وهو «فعيل» بمعنى «فاعل»، أي: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ تُوكل إليه الأمور فيقوم بها، وحافظًا، وواقيًا، وكافيًا، لمن اعتمد عليه أعظم الحفظ والوقاية والكفاية، أو ما أعظم كفايته ووقايته وحفظه لمن توكل عليه.

والمعنى: وكفى بالله وكيلًا لمن توكل عليه وأناب إليه.

كما قال عز وجل: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣] أي: كافيه ما أهمَّه من أمر دينه ودنياه.

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾.

٢- إثبات نبوته ورسالته عليه الصلاة والسلام؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾، وقوله: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾.

٣- تخصيصه ﷺ من بين الأنبياء- عليهم السلام- بندائه بوصف النبوة بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾، كما ناداه بوصف الرسالة بقوله: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة:٦٧]، دون ندائه باسمه «محمد» مجردًا كما هو الحال بالنسبة لغيره من الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، وذلك دال على شرفه وفضله على سائر الأنبياء.

٤- أن التكاليف لا تسقط عن أحد مهما بلغت منزلته، فأفضل الرسل وسيد ولد آدم أُمر بتقوى الله، ونُهي عن طاعة الكافرين والمنافقين، وفي هذا الرد على من يزعم من الصوفية وغيرهم أن الإنسان قد يصل إلى مرتبة يرتفع عنه بها التكليف؛ لقوله تعالى: ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾.

٥- التنبيه بالأعلى على الأدنى، فإنه- تعالى- إذا كان يأمر عبده ورسوله بتقوى الله وينهاه عن طاعة الكافرين والمنافقين فلأن يأتمر من دونه من سائر الأمة بذلك بطريق الأولى والأحرى.

٦- في أمره ﷺ بالتقوى وهو سيد المتقين دليل على أنه لا ينبغي أن يأنف الإنسان من الأمر له بتقوى الله، سواء كان الأمر صادرًا ممن هو أعلى منه أو ممن هو مساوٍ له أو دونه.

٧- وجوب تقوى الله؛ لأن الله أمر بها رسوله ﷺ بقوله: ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ كما أمر بها سائر الخلق، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النساء:١٣١]، فهي وصية الله للأولين والآخرين، وهي خير زاد، كما قال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة:١٩٧].

٨- تحريم طاعة الكافرين والمنافقين؛ لأنهم غالبًا لا يأمرون بخير، وليسوا نصحة للمسلمين؛ لهذا نهى الله عن طاعتهم.

٩- إثبات علم الله الأزلي الواسع المحيط بكل شيء، وإثبات الحكم التام لله- عز وجل- بأقسامه الثلاثة: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي. وإثبات الحكمة البالغة له- عز وجل- بقسميها: الحكمة الغائية، والحكمة الصورية؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

١٠- وجوب اتباع وحي الله، أي اتباع الكتاب والسُّنَّة، فكلاهما من وحي الله- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾، والأمر له ﷺ ولأمته.

١١- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة له ﷺ وتشريفه بإضافة اسم الرب إلى ضميره ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾.

١٢- إثبات صفة الخبرة الواسعة لله عز وجل، واطلاعه التام على أعمال العباد؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝٢﴾.

١٣- في إثبات سعة خبرته، وإحاطته- عز وجل- بكل أعمال العباد ما يوجب مراقبته- عز وجل- وفي هذا وعد للمتبعين ووعيد للمخالفين.

١٤- وجوب التوكل على الله- عز وجل- وتفويض الأمور إليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾.

١٥- إثبات وكالته- عز وجل- على كل شيء، وأنه سبحانه الكافي لمن توكل عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ۝٣﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ ۖ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿٤﴾ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ ۖ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿٤﴾﴾.

قوله: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ﴾، ﴿مَا﴾: نافية، و﴿جَعَلَ﴾ بمعنى: «صير»، تنصيب مفعولين، ﴿لِرَجُلٍ﴾: مفعول ثان لـ﴿جَعَلَ﴾ مقدم.

﴿مِّن قَلْبَيْنِ﴾ «من»: زائدة من حيث الإعراب مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي، و﴿قَلْبَيْنِ﴾: مفعول أول لـ﴿جَعَلَ﴾.

وقوله: ﴿لِرَجُلٍ﴾ من باب التمثيل فقط، والرجل هو: الذكر البالغ، وتخصيصه بالذكر من باب التغليب، أي: ما جعل الله للإنسان أيًا كان ذكرًا أو أنثى صغيرًا كان أو كبيرًا من قلبين في جوفه.

والمراد بالقلب حاسة الإدراك والعقل الذي عليه مدار صلاح الجسد أو فساده، وهو المضغة، كما قال ﷺ: **«ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»**(١).

﴿فِي جَوْفِهِ﴾ أي: في صدره وباطنه، وهذا قيد لبيان الواقع، كما قال عز وجل: ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج:٤٦].

وليس المعنى أن هناك قلوبًا في غير الصدور والأجواف، وأيضًا الجوف الواحد لا يتناسب معه إلا قلب واحد يأتمر بأمره، إذ لو كان للإنسان قلبان ما استقام أمره على حال.

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٥٢)، ومسلم في المساقاة (١٥٩٩)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٨٤)-من حديث النعمان بن بشير-رضي الله عنه.

والمراد بالجعل هنا: الجعل الكوني، أي: ما جعل الله- عز وجل- كونًا وخلقًا لرجل قلبين في جوفه، وهذا أمر مسلم وحقيقة ثابتة، ولكن ذكر هذا- والله أعلم- توطئة وتمهيدًا، وتوكيدًا ودليلًا، وبرهانًا قاطعًا على نفي الظهار والادعاء.

فجملة: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ﴾ ليست مقصودة لذاتها، بل هي توطئة وتمهيد وتوكيد لما بعدها، أي: فكما أنه مسلم ومعلوم عندكم أن الله- عز وجل- ما جعل لرجل قلبين في جوفه، فكذلك لا يمكن أن يكون الظهار سببًا للتحريم، فتكون الزوجة المظاهر منها محرمة على زوجها بسبب الظهار، وأُمًّا له، فيكون له أُمَّان.

ولا يكون الادعاء سببًا للبنوة فيكون للرجل أبناء بالنسب، وأبناء بالادعاء، وهذا يدل على أن القرآن الكريم قد بلغ الغاية في الإقناع وإقامة البرهان.

وربط ابن القيم- رحمه الله- قوله تعالى: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ﴾ بما بعده، وبما قبله فقال[1]: «فأنت تجد تحت هذه اللفظة: أن القلب ليس له إلا وجهة واحدة إذا مال بها إلى جهة لم يمل إلى غيرها، وليس للعبد قلبان، يطيع الله ويتبع أمره ويتوكل عليه بأحدهما، والآخر لغيره، بل ليس له إلا قلب واحد، فإن لم يفرد بالتوكل والمحبة والتقوى لربه، وإلا انصرف ذلك إلى غيره، ثم استطرد من ذلك إلى أنه سبحانه لم يجعل زوجة الرجل أمه، ثم استطرد منه إلى أنه لم يجعل دَعِيَّه ابنه، فانظر ما أحسن هذا التأصيل وهذا الاستطراد الذي تسجد له العقول والألباب».

واعتبر ابن كثير- رحمه الله- أن قوله: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ﴾ كل هذا توطئةً وتمهيدًا للنفي في قوله: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ﴾[2].

(١) انظر: «بدائع التفسير» (٣/ ٤١٩).

(٢) رُوي عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه سئل: «أرأيت قول الله تعالى: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ﴾ ما عُني بذلك؟ قال: قام رسول الله ﷺ يومًا يصلي، فخطر خطرة، أي: حصل له شيء من الوسوسة التي تحصل للإنسان في صلاته، فقال المنافقون الذين يصلون معه: ألا ترون له قلبين، قلب معكم، وقلب معهم، فأنزل الله -عز وجل: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ﴾» أخرجه أحمد (١/ ٢٦٨-٢٧٦)، وقال: «حديث حسن»، وقال أحمد شاكر: «إسناده صحيح» (٢٤١٠). وأخرجه =

﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ ٱلَّـٰٓـِٔي تُظَـٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَـٰتِكُمْ﴾ «الواو»: عاطفة، و«ما»: نافية، و﴿جَعَلَ﴾ بمعنى «صير» تنصب مفعولين الأول: أزواجكم، والثاني: أمهاتكم.

والمراد بالجعل هنا: الجعل الشرعي.

و﴿أَزْوَاجَكُمُ﴾: جمع زوج، وزوج يطلق في القرآن الكريم واللغة الفصحى على الرجل والمرأة.

وبنو تميم تقول للمرأة: «زوجة»، فهي لغة، ولكنها دون الفصحى، وقد وردت في بعض الأحاديث والآثار، وبعض المأثور عن العرب نثرًا وشعرًا، قال الفرزدق(١):

وإن الذي يمشي يحرش زوجتي ... كساعٍ إلى أسد الشرى يستبيلها

وقد انتحل هذه اللغة الفرضيون؛ للتفريق بين ما إذا كان الهالك رجلًا أو امرأة، فيقولون إذا كان الميت امرأة: هلك هالك عن زوج وكذا وكذا، ويقولون إذا كان الميت رجلًا: هلك هالك عن زوجة وكذا وكذا.

والمراد بقوله هنا: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ﴾ أي: زوجاتكم.

﴿ٱلَّـٰٓـِٔي﴾ قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي وخلف بإثبات ياء ساكنة بعد الهمزة، وقرأ الباقون بحذفها(٢).

﴿تُظَـٰهِرُونَ﴾ قرأ عاصم (تُظاهرون) بضم التاء.

وقرأ حمزة والكسائي وخلف (تَظاهرون) بفتح التاء.

وقرأ ابن عامر (تَظَّاهرون) بفتح التاء وتشديد الظاء.

= الترمذي في التفسير (٣١٩٩)، والحاكم (٢/ ٤١٥).

وقيل: إن رجلًا من الكفار زعم أن له قلبين، يعقل بكل واحد منهما أفضل من عقل محمد ﷺ، فأنزل الله قوله: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ﴾» انظر: «جامع البيان» (١٩/ ٧-٨)، «تفسير ابن كثير» (٦/ ٣٧٧-٣٧٨).

(١) انظر «ديوانه» ص(٦٠٥)، «لسان العرب» مادة «زوج».

(٢) انظر: «الغاية في القراءات العشر» ص(٣٦١).

وقرأ الباقون (تَظَّهرون) بفتح التاء وتشديد الظاء دون ألف[1].

﴿أُمَّهَٰتِكُمْۚ﴾ أمهات: جمع أم، أو جمع أمهة، والكاف: للخطاب، والميم للجماعة، والأم هي التي ولدت، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْۚ﴾ [المجادلة:٢].

ومعنى ﴿تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ﴾ أي تقولون: إنهن عليكم كظهور أمهاتكم، فإذا أراد الواحد منهم في الجاهلية أن يطلق امرأته طلاقًا بائنًا قال لها: أنتِ عليَّ كظهر أمي، أي: إنك عليَّ حرام في جميع الأحوال، كما أن ظهر أمي علي حرام في جميع الأحوال، أي: فلا يحل لي أن أركبك كما لا يحل لي أن أركب أمي، وخص الظهر؛ لأنه موضع الركوب، ومثله ما لو قال: أنتِ عليَّ كبطن أمي، وخُصت الأم لعظم حرمتها، ومثله لو قال: أنتِ عليَّ كظهر أختي، وكذا غيرها ممن يحرم عليه تحريمًا مؤبدًا.

فالظهار: أن يشبه الرجل زوجته بأمه أو بمن تحرم عليه على التأبيد.

ومعنى قوله: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْۚ﴾ أي: إنه- عز وجل- ما جعل شرعًا أن الزوجة تكون أُمًّا بمجرد قول الزوج لها: أنتِ عليَّ كظهر أمي، فالزوجة لا تكون أُمًّا أبدًا، ولا تَطْلق ولا تَحْرم بمجرد الظهار.

وقد بيَّن الله عز وجل حكم الظهار في سورة المجادلة، وأنه منكر من القول وزور، يحرم التلفظ به، وأن الزوجة لا تكون أُمًّا بمجرد الظهار، وإنما الأم هي التي ولدت، كما بيَّن عز وجل أنه يجب على من ظاهر من زوجته ألا يمسها حتى يكفر فيعتق رقبة، فإن لم يستطع صام شهرين متتابعين، فإن لم يستطع أطعم ستين مسكينًا، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًاۚ﴾ [المجادلة:٢-٤].

﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾.

---

(١) انظر: «النشر» (٢/ ٣٤٧).

قال ابن كثير[١]: «نزلت في شأن زيد بن حارثة مولى النبي ﷺ، كان النبي ﷺ قد تبنّاه قبل النبوة، وكان يقال له: «زيد بن محمد» فأراد الله أن يقطع هذا الإلحاق، وهذه النسبة بقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾، كما قال في أثناء السورة: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [الأحزاب: ٤٠]».

وكان من قصة زيد بن حارثة أنه كان عند أخواله طيء، فأغار عليهم قوم من العرب، وسبوه فيمن سبوا وباعوه بمكة فاشتراه حكيم بن حزام- رضي الله عنه- وأهداه لعمته خديجة بنت خويلد- رضي الله عنها، وأهدته خديجة للنبي ﷺ، فأعتقه وتبناه، وكان أبوه حارثة يبحث عنه ليل نهار، وينشد فيه الأشعار[٢]، من ذلك قوله:

بكيت على زيد ولم أدر ما فعل — أحي فيرجى أم أتى دونه الأجل
تُذكِّرُنيه الشمس عند طلوعها — ويعرض ذكراه إذا نجمها أفل
وإن هبت الأرواح هيجن ذكره — فيا طول ما حزني عليه وما وجل
سأعمل نصَّ العيس في الأرض جاهدًا — ولا أسأم التطواف أو تسأم الإبل
حياتي أو تأتي عليّ منيتي — فكل امرئ فان وإن غره الأمل

فأُخبر أنه عند النبي ﷺ فجاء هو وعمه إلى النبي ﷺ، فقالا: دع زيدًا نفديه، فقال لهما النبي ﷺ: أعطيكما أكثر من ذلك، أدعو زيدًا، فإن اختاركم فهو لكم بدون فداء، وإن اختارني فلا أريد بمن اختارني بديلًا، فخيره رسول الله ﷺ أمامهم، فاختار رسول الله ﷺ، فقالا: تختار العبودية، ثم قال رسول الله ﷺ لقريش: «**أشهدكم أن زيدًا ابني أرثه ويرثني**»، فلما قال هذا طابت نفس أبيه وعمه وذهبا وتركاه.

﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾ الواو: عاطفة، والأدعياء: جمع دَعِيّ، وهو من يُدَّعى، أي: ينسب لغير أبيه، فهو «فعيل» بمعنى «مفعول» أي: مدعوّ، مأخوذ من الدعاء، وهو الطلب والنداء، فيقول له مُدَّعِيه: يا ابني، ويناديه الناس بقولهم: يا ابن فلان، وليس

(١) في «تفسيره» (٦/ ٣٧٧)، وانظر: «جامع البيان» (١٩/ ١٠).
(٢) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٢٦٤-٢٦٥)، «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» ٢/ ٥٤٥، «أسد الغابة» ٢/ ٣٥٠، «الإصابة في تمييز الصحابة» ٢/ ٤٩٦، «سير أعلام النبلاء» (١/ ٢٢٠)-ترجمة رقم (٣٦).

هو ابنًا له على الحقيقة.

وقد كان هذا في الجاهلية، وفي أول الإسلام يتبنى الرجل ابنًا لغيره، يعجبه خلقه ونحو ذلك فينسب إليه، وكانوا يعاملون الأدعياء معاملة الأبناء من كل وجه؛ في الخلوة بالمحارم وغير ذلك، ولهذا قالت سهلة بنت سهيل لما حُرِّم التبني، وكان سالم مولى أبي حذيفة بالتبني: «إن سالمًا قد بلغ ما يبلغ الرجال، وعقل ما عقلوا وإنه يدخل علينا، وإني أظن أن في نفس أبي حذيفة من ذلك شيئًا، فقال لها النبي ﷺ: «**أرضعيه تحرمي عليه، ويذهب الذي في نفس أبي حذيفة**»، فرجعت فقالت: إني قد أرضعته، فذهب الذي في نفس أبي حذيفة»(١).

والمعنى: ما جعل أدعياءكم الذين تَدَّعونهم وتَتبنَّونهم من أولاد غيركم أبناءكم حقيقة لا قدرًا، ولا شرعًا، لأنهم قدرًا أبناء آبائهم الذين هم من أصلابهم لا أبناؤكم؛ ولأن الله- عز وجل- نفى أن يكون الأدعياء أبناءً شرعًا لمن ادعاهم، فليس المدعى ابنًا لمن ادعاه لا قدرًا ولا شرعًا، ولا يجوز أن ينسب إليه لما يترتب على ذلك من تحريم وتحليل وإرث ونفقات، وغير ذلك، مما يترتب على النسب أو السبب المباح.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾، الإشارة إلى الادعاء المفهوم من قوله: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾، والظهار المفهوم من قوله: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾، فالخطاب لمن يظاهر من زوجته، ولمن يدعي أبناء غيره.

﴿قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ﴾أي: قولكم بألسنتكم، مما لا حقيقة له، وقيل: ﴿بِأَفْوَٰهِكُمْ﴾ للتأكيد كقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج:٤٦]، فقوله:﴿ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ توكيد لما قبله، وكقول القائل: أبصرت بعيني، وسمعت بأذني.

والمعنى: أن هذا الظهار مجرد قول بأفواهكم لا يجعل الزوجة أمًّا، ولا يحرمها. وهذا الادعاء إنما هو مجرد قول بأفواهكم لا يجعل ابن الغير ابنًا لمن ادعاه، ولا يُغيِّر من

(١) أخرجه مسلم في الرضاع-رضاعة الكبير (١٤٥٣)، وأبوداود في النكاح (٢٠٦١)، والنسائي في النكاح-رضاع الكبير (٣٣٢٢)، وابن ماجه في النكاح (١٩٤٣)، وأحمد (٦/ ١٧٤، ٢٢٨، ٢٤٩، ٢٦٩)-من حديث عائشة-رضي الله عنها.

الواقع شيئًا، فالابن المدعى ابن لأبيه من النسب قدرًا وشرعًا، وليس ابنًا لمن ادعاه لا قدرًا ولا شرعًا، ولا يجوز نسبته إليه.

قال ابن كثير(١): «﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ﴾ يعني: تبنيكم لهم قول لا يقتضي أن يكون ابنًا حقيقيًّا، فإنه مخلوق من صلب رجل آخر، فما يمكن أن يكون له أبوان، كما لا يمكن أن يكون للبشر الواحد قلبان».

وفي قوله: ﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ﴾: توبيخ وتقريع لهم، كيف يقولون قولًا ليس له حقيقة.

﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾ أي: والله يقول القول الحق؛ فالحق صفة لمصدر محذوف مفعول به، أي: إن قوله- عز وجل- كله حق وصدق، وعدل، كما قال عز وجل: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام:١١٥]، أي: صدقًا في الأخبار وعدلًا في الأحكام.

وقال تعالى عن كلامه- عز وجل- وكتابه: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت:٤٢].

فقوله- عز وجل- حق دال بظاهره على الحق، محكمه ومتشابهه، ليس له باطن يخالف ظاهره، كما يقول الباطنية وأهل التحريف.

﴿وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ لم يقل: (ويهدي السبيل)؛ لتأكيد ثبوت الهداية له، أي: وهو- عز وجل- يهدي من يشاء من عباده السبيل، أي: يهدي إليه، وفيه.

وهداية الله- عز وجل- تنقسم إلى قسمين:

١- هداية الدلالة والإرشاد إلى الحق، وهذه عامة لجميع الناس فأرسل الله- عز وجل- الرسل، وأنزل الكتب، وأقام بذلك الحجة على الخلق، كما قال عز وجل: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥].

٢- وهداية التوفيق إلى الحق، وهذه خاصة بالمؤمنين.

و﴿ٱلسَّبِيلَ﴾ هو: الطريق المستقيم الموصل إلى السعادة في الدارين، فهو- عز

(١) في «تفسيره» (٦/ ٣٧٧).

وجل- يبين ويُفصِّل ويرشد إلى الطريق المستقيم ويوفق إليه من شاء من عباده، وهو سبيل الله، كما قال عز وجل: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ [الشورى:٥٣].

وهو معرفة الحق والعمل به، وهو العلم النافع والعمل الصالح، كما قال عز وجل: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾ [التوبة:٣٣، الفتح:٢٨، الصف:٩]، وهو طريق واحد لا يتعدد، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ [الأنعام:١٥٣].

فقوله- عز وجل- هو الحق، وهو يهدي لطريق الحق، فيما حكم وشرع وقدر، ومن ذلك نفيه- عز وجل- أن تكون الزوجات المظاهر منهن أمهات، أو يكون الأدعياء أبناءً لمن ادعاهم، وغير ذلك؛ لهذا يجب لزوم قوله- عز وجل- وسؤاله الهداية ولزوم طريقه.

قوله تعالى: ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ فَإِن لَّمۡ تَعۡلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمۡۚ وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٞ فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتۡ قُلُوبُكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا ⑤﴾.

قوله: ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ﴾.

لما نفى عز وجل أن يكون الأدعياء أبناءً لمن ادعاهم، أتبع ذلك بالأمر بدعوة الأبناء إلى آبائهم حقيقة.

قال ابن كثير(١): «هذا أمر ناسخ لما كان في ابتداء الإسلام، من جواز ادعاء الأبناء الأجانب، وهم الأدعياء، فأمر تعالى برد نسبهم إلى آبائهم في الحقيقة وأن هذا هو العدل والقسط».

قوله: ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ﴾ الأمر للوجوب، أي: انسبوهم لآبائهم، فقولوا: فلان ابن فلان لأبيه من النسب، وجده أبي أبيه وإن علا.

وجمع الآباء لاعتبارين:

١- اعتبار الأب والأجداد.

٢- واعتبار كثرة المدعوين فيُدعى كل منهم إلى أبيه.

---

(١) في «تفسيره» (٦/ ٢٧٨).

فيجب دعوة الأبناء إلى آبائهم لفظًا وحقيقةً، ويحرم دعوتهم إلى غير آبائهم لفظًا وحقيقة؛ فهذا خلاف ما دلَّ عليه القرآن الكريم، وهم محرم بالإجماع، قال ﷺ: «**فإنه كفر بكم أن ترغبوا عن آبائكم**»(١).

﴿هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ الضمير يعود إلى المصدر المفهوم من قوله: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ﴾ أي: دعاؤهم لآبائهم ونسبهم إليهم ﴿هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

و﴿أَقْسَطُ﴾: على وزن «أفعل» اسم تفضيل، مأخوذ من أقسط الرباعي، بمعنى عدل، واسم الفاعل منه «مقسط» أي: هو أعدل عند الله، أي: في حكمه وشرعه، وجاء التعبير باسم التفضيل مع أنه ليس في الطرف الآخر المقابل وهو دعوتهم لمن تبناهم شيء من الفضل ألبتة؛ لبيان أن دعوتهم إلى آبائهم هي غاية العدل عند الله.

وليس من لازم اسم التفضيل أن يكون في الطرف الآخر شيء من الفضل، قال تعالى: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم:٢٧]، مع أنه- عز وجل- ليس هناك شيء يصعب عليه، وقال تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾ [الفرقان:٢٤]، مع أن النار ليس فيها أي معنى من معاني الحسن.

عن ابن عمر- رضي الله عنهما- قال: ما كنا ندعو زيد بن حارثة بن شراحيل إلا زيد بن محمد، فلما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ لزيد: «**أنت زيد بن حارثة بن شراحيل**»(٢).

﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ﴾ «الفاء»: عاطفة، أي: فإن لم تعلموا الآباء الحقيقيين لهؤلاء الأدعياء؛ فهم إخوانكم في الدين ومواليكم، بمعنى أنه حتى في حال عدم علمكم بآبائهم لا يجوز لكم أن تنسبوهم لغير آبائهم، بل ادعوهم بقولكم: إخواننا في الدين، وموالينا، فهم إخوانكم في الدين، ومواليكم في الدين؛ لأن

---

(١) أخرجه البخاري في الحدود (٦٨٣٠)، ومسلم في الإيمان (٦٢) من حديث ابن عباس عن عمر رضي الله عنهم.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة الأحزاب (٤٧٨٢)، ومسلم في الفضائل-فضائل زيد بن حارثة (٢٤٢٥)، والترمذي في تفسير سورة الأحزاب (٣٢٠٩).

المؤمنين بعضهم أولياء بعض، كما قال عز وجل: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ [التوبة:٧١].

وقد يكونون مواليكم بالعتق إذا كنتم قد ملكتموهم ثم حررتموهم، كما قال النبي ﷺ لزيد بن حارثة: «**أنت أخونا ومولانا**»[١].

وكان يقال له قبل ذلك: زيد ابن محمد، فقال النبي ﷺ: «**أنت أخونا**»، أي: في الدين، «**ومولانا**»؛ لأن النبي ﷺ أعتقه، كما يقال: سالم مولى أبي حذيفة.

قال ابن كثير[٢]: «وأما دعوة الغير ابنًا على سبيل التكريم والتحبيب، فليس مما نهي عنه في هذه الآية».

واستدل ابن كثير لهذا بحديث أنس- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ كان يقول له: «**يا بُني**»[٣].

﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾ «الواو»: عاطفة، و«الجناح»: الحرج والإثم.

﴿فِيمَآ﴾ «ما»: موصولة أو مصدرية، أي: في الذي أخطأتم به، أو في خطئكم.

والمعنى: أنه لا حرج عليكم ولا إثم فيما أخطأتم به من دعوة الأبناء ونسبتهم إلى غير آبائهم خطأً ونسيانًا، أو غير ذلك.

وهذا في باب المنهيات لا حرج ولا إثم ولا تبعة فيه من كفارة أو فدية ونحو ذلك، فمن ارتكب مثلًا محظورًا من محظورات الإحرام ناسيًا أو جاهلًا أو مخطئًا فلا شيء عليه، وكذا في باب المأمورات لا إثم عليه، لكن عليه تبعة إعادة العمل الذي أخطأ فيه على وجه صحيح كما في أمره ﷺ للمسيء في صلاته بترك الطمأنينة أن يعيد الصلاة، ومثله لو ترك واجبًا من واجبات الحج فيجب عليه الإتيان به إن أمكن ذلك، وإلا

---

(١) أخرجه البخاري في الصلح (٢٧٠٠)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٨٣)، وأبوداود في المناسك (١٨٣٢)، والترمذي في البر والصلة (١٩٠٤)-من حديث البراء بن عازب-رضي الله عنه.

(٢) في «تفسيره» (٦/ ٣٧٨-٣٧٩).

(٣) أخرجه مسلم في الأدب (٢١٥١)، وأبوداود في الأدب (٤٩٤٦)، والترمذي في الأدب (٢٨٣٣). وعن أنس-رضي الله عنه-أن النبي ﷺ قال للمغيرة: «أي:بني» أخرجه مسلم في الأدب (٢١٥٢).

فعليه الفدية، وهو في الحالين في فعل المحظور أو ترك المأمور بسبب الخطأ أو الجهل أو النسيان غير مؤاخذ؛ بدليل هذه الآية وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة:٢٨٦]، قال الله: «قد فعلت»(١).

وقال ﷺ: «عُفي لأمتي عن الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»(٢).

حتى لو حلف الإنسان على ألا يفعل شيئًا ففعله مخطئًا أو جاهلًا أو ناسيًا، فلا إثم عليه ولا تبعة، ومثله لو علق الطلاق على شيء ففعله مخطئًا أو جاهلًا أو ناسيًا فلا يقع الطلاق، وكذا لو فعل مكفرًا أو ما دونه مخطئًا أو جاهلًا أو ناسيًا أو مكرهًا، قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾ [النحل:١٠٦].

فكل ما فعله الإنسان من باب الخطأ فلا إثم عليه فيه لعموم قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾، وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة:٢٨٦](٣).

وفي هذه الأحوال لا إثم ولا ضمان في حقوق الله- عز وجل- إلا في قتل الخطأ، فإنه لعظمه تجب فيه لله الكفارة: عتق رقبة، فإن لم يجد فصيام شهرين متتابعين.

وأما حقوق الآدميين فلا تسقط بحال.

كما أن الجاهل لا يعذر إذا كان مفرطًا في السؤال، وفي أمر لا يعذر مثله بجهله.

﴿وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ «الواو» عاطفة، ﴿وَلَٰكِن﴾ أداة استدراك، و﴿مَّا﴾ موصولة، والتعمد: فعل الشيء عن قصد وعمد.

والمعنى: ولكن عليكم جناح وحرج وإثم فيما تعمدته قلوبكم، أي فعلتموه عن عمد وقصد من دعوة الأبناء إلى غير آبائهم، وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (١٢٦)، والترمذي في التفسير (٢٩٩٢) من حديث ابن عباس-رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه ابن ماجه في الطلاق (٢٠٤٣)-من حديث أبي ذر الغفاري-رضي الله عنه-وصححه الألباني.

(٣) انظر: «دقائق التفسير» (٤/ ٤٩٧).

بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة:٢٢٥]، وفي الآية الثانية: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ﴾ [المائدة:٨٩].

ونسب التعمد إلى القلب؛ لأنه هو المدبر للجوارح كما قال ﷺ: «**ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب**»(١).

والقلب: هو محل العقل؛ لأن العقل- والله أعلم- دائر بين القلب الذي في الصدر، وبين المخ.

فمن تعمد نسبة أحد لغير أبيه، أو انتسب هو لغير أبيه فقد تعرض للوعيد الشديد في هذه الآية، وفي قوله ﷺ: «**فإنه كفر بكم أن ترغبوا عن آبائكم**»(١).

وعن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: «**من انتسب إلى غير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين**»(٢).

﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ «الواو» استئنافية، و«كان» مسلوبة الزمان، أي: كان الله وما زال غفورًا رحيمًا، ومن مغفرته عز وجل ورحمته عدم المؤاخذة على الخطأ.

﴿غَفُورًا﴾ أي: ذا المغفرة الواسعة، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم:٣٢].

والمغفرة: ستر الذنب عن الخلق، والتجاوز عن عقوبته، كما في حديث ابن عمر- رضي الله عنهما- في المناجاة أن رسول الله ﷺ قال: «**يدنى المؤمن يوم القيامة من ربه- عز وجل- حتى يضع عليه كنفه(٣)، فيقرره بذنوبه، فيقول: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم، أي ربي، حتى إذا قرره بذنوبه ورأى في نفسه أنه هلك، قال الله- عز وجل: سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم**»(٤).

ومنه سُمي المغفر، وهو: البيضة التي توضع على الرأس، تستره وتقيه السهام.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه ابن ماجه في الحدود (٢٦٠٩)، وصححه الألباني.

(٣) أي: ستره ورحمته.

(٤) أخرجه البخاري في المظالم والغصب (٢٤٤١)، ومسلم في التوبة (٢٧٦٨)، وابن ماجه في المقدمة (١٨٣).

﴿رَحِيمًا﴾، أي: ذا الرحمة الواسعة، كما قال عز وجل: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ [الأنعام:١٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ [الكهف:٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف:١٥٦].

ورحمته- عز وجل- تنقسم إلى قسمين:

رحمة ذاتية ثابتة له عز وجل.

ورحمة فعلية يوصلها من شاء من خلقه، كما قال عز وجل: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ﴾ [العنكبوت:٢١].

والرحمة الفعلية تنقسم أيضًا إلى قسمين:

رحمة عامة لجميع الخلق في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة:١٤٣، الحج:٦٥].

ورحمة خاصة بالمؤمنين في الدنيا والآخرة، كما قال عز وجل: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (٤٣)﴾ [الأحزاب:٤٣].

الفوائد والأحكام:

١- بلوغ القرآن الغاية القصوى في الإقناع وإقامة البرهان؛ لقوله تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾، توطئة و تمهيدًا لتحريم الظهار والادعاء وإبطالهما.

٢- أن الله- عز وجل- لم يجعل لأحد من الناس قلبين في جوفه؛ لقوله تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾، وليس للقلب إلا وجهة واحدة إذا مال بها إلى جهة لم يمل بها إلى غيرها، فلا يجتمع في القلب حب الله وحب أعدائه، وطاعة الله وطاعة أعدائه.

٣- تحريم الظهار وإبطال ما كان عليه أهل الجاهلية من التحريم بالظهار، ونفي أن تكون الأزواج اللاتي يظاهرون منهن أمهاتهم بمجرد الظهار لا قدرًا ولا شرعًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ﴾.

٤- إبطال عادة التبني وأن المتبنى ليس ابنًا لا قدرًا ولا شرعًا لمن تبناه، ولا يجوز أن ينسب إلى من تبناه، ولا تلحقه أحكام النسب، ولا يحرم نكاح امرأته؛ لقوله تعالى:

﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾.

٥- أن دعوى تحريم الزوجة بالظهار، وتبني الأدعياء مجرد قول بالأفواه لا حقيقة له، ولا يغير من الواقع شيئًا، والحقائق لا تنقلب بمجرد الادعاء فالزوجة لا تكون أمًّا والمدعى بُنُوَّته لا يكون ابنًا، لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ﴾.

٦- التعريض بذم الظهار والادعاء؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ﴾.

٧- أن قول الله- عز وجل- كله حق؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾ فأخباره صدق، وأحكامه عدل، كما قال عز وجل: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام:١١٥]. أي: صدقًا في الأخبار وعدلًا في الأحكام.

٨- أن القرآن دال بظاهره على الحق، وليس له باطن يخالف ظاهره، كما يزعم الباطنية وأهل التحريف؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾.

٩- أن الله- عز وجل- يهدي إلى طريق الحق، أي: يدل ويُرشد إليه، بما أنزل من الآيات الشرعية، وبما خلق من آياته الكونية، وبما أرسل من الرسل وغيرهم، ويوفق من شاء ويقبله؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾. فيجب التوجه إليه وحده وسؤاله الهداية والتوفيق والقبول.

١٠- أن طريق الحق وسبيله واحدة؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ بخلاف طرق الباطل فهي كثيرة ومتشعبة متفرقة، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام:١٥٣].

١١- وجوب دعوة الأبناء إلى آبائهم ولادةً ونسبًا؛ لقوله تعالى: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ﴾ وتحريم دعوتهم لغير آبائهم.

١٢- أن العدل كل العدل والخير كل الخير في اتباع حكم الله سواء في دعوة الأبناء لآبائهم، أو غير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

١٣- إذا لم يُعلم أبو الشخص، فيقال: أخونا ومولانا؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ﴾.

١٤- لا إثم على الإنسان فيما يفعله خطأً، أما ما يفعله عن عمد وتصميم، ففيه الإثم

والتبعة، سواء كان ذلك في دعوة الأبناء إلى غير آبائهم أو غير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾.

١٥- أن مدار الأحكام والمؤاخذة عليها على القلوب؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة:٢٢٥].

١٦- إثبات صفة المغفرة لله- عز وجل- أزلًا وأبدًا، الواسعة لذنوب عباده، سترًا لها عن الخلق، وتجاوزًا عن العقوبة عليها؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾.

١٧- إثبات صفة الرحمة الواسعة لله- عز وجل- أزلًا وأبدًا؛ رحمة ذاتية ثابتة له، ورحمة فعلية يوصلها من شاء من خلقه؛ رحمة عامة لجميع خلقه، ورحمة خاصة بالمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿رَّحِيمًا﴾.

١٨- فضل الله- عز وجل- على العباد برفع الجناح والإثم فيما أخطؤوا به ومغفرته ورحمته لهم، فبمغفرته لهم يزول عنهم المرهوب، وبرحمته لهم يحصل لهم المطلوب، نسأل الله تعالى من فضله.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا ٦﴾.

قوله: ﴿ٱلنَّبِيُّ﴾: مبتدأ، و﴿أَوۡلَىٰ﴾: خبره، و﴿أَوۡلَىٰ﴾: اسم تفضيل من الولاية، ومعناه: أحق وأجدر.

والمعنى: أنه ﷺ أولى بالمؤمنين وأحق بهم وأجدر من أنفسهم ولاية مطلقة، فيجب على المؤمنين تقديم محبته على محبتهم لأنفسهم، كما قال ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين**»(١).

ولما قال عمر رضي الله عنه: «يا رسول الله، لأنت أحبّ إليَّ من كل شيء إلا من نفسي»، فقال ﷺ: «**لا والذي نفسي بيده! حتى أكون أحبّ إليك من نفسك**». فقال له عمر: «فإنه الآن، والله! لأنت أحب إليَّ من نفسي»، فقال النبي ﷺ: «**الآن يا عمر**»(٢).

وإنما أوجب الله- عز وجل- تقديم محبته ﷺ على كل شيء حتى على محبة النفس؛ لأن كل ما وصل إلينا من الله تعالى من خير، وما اندفع عنا من شر من طريقه ﷺ وعلى يديه(٣).

ويجب على المؤمنين تقديم طاعته ﷺ على طاعتهم لأنفسهم، فإذا أمرتهم أنفسهم بشيء خلاف طاعة الرسول، وجب عليهم تقديم طاعته ﷺ على طاعتهم لأنفسهم، وإذا حكم لهم بأمر وجب تقديم حكمه على حكمهم لأنفسهم، كما قال عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ﴾ [الأحزاب:٣٦].

(١) أخرجه البخاري في الإيمان-حب الرسول ﷺ (١٥)، ومسلم في الإيمان-وجوب محبة الرسول ﷺ (٤٤)، والنسائي في الإيمان وشرائعه (٥٠١٣)، وابن ماجه في المقدمة (٦٧)-من حديث أنس بن مالك-رضي الله عنه-وأخرجه البخاري أيضًا (١٤)، والنسائي (٥٠١٥) من حديث أبي هريرة-رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الأيمان والنذور (٦٦٣٢)-من حديث عبدالله بن هشام-رضي الله عنه.

(٣) انظر:«تيسير الكريم الرحمن» (٦/ ١٩٨).

وقال عز وجل: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء:٦٥].

فهو ﷺ أولى بالمؤمنين من أنفسهم من حيث وجوب تقديم محبته على محبتهم لأنفسهم، ومن لوازم ذلك تقديم طاعته وحكمه على طاعة أنفسهم وحكمها.

وهو ﷺ أولى بهم من أنفسهم من حيث شفقته عليهم ونصحه لهم، فهو أشفق عليهم، وأنصح لهم من أنفسهم.

عن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة، اقرؤوا إن شئتم: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ فأيما مؤمن ترك مالًا فليرثه عصبته من كانوا، فإن ترك دينًا أو ضياعًا فليأتني فأنا مولاه**»(١).

وعن جابر بن عبدالله- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ أنه كان يقول: «**أنا أولى بكل مؤمن من نفسه، فأيما رجل مات وترك دينًا فإليَّ، ومن ترك مالًا فلورثته**»(٢).

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- «أن رسول الله ﷺ كان يؤتى بالرجل المتوفى عليه دين، فيسأل هل ترك لدينه فضلًا؟ فإن حدث أنه ترك وفاء صلى عليه، وإلا قال للمسلمين: صلوا على صاحبكم، فلما فتح الله عليه الفتوح، قال: «**أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فمن توفي من المسلمين فترك دينًا فعليَّ قضاؤه، ومن ترك مالًا فلورثته**»(٣).

فهو ﷺ أولى بالمؤمنين من أنفسهم في كل شيء.

قال ابن القيم(٤): «وهذه الأولوية تتضمن أمورًا منها: أن يكون أحب إلى العبد

---

(١) أخرجه البخاري في الاستقراض-الصلاة على من ترك دينًا (٢٣٩٩)، وفي تفسير سورة الأحزاب (٤٧٨١)، ومسلم في الفرائض (١٦١٩)، وأبوداود في الخراج (٢٩٥٥)، والنسائي في الجنائز (١٩٦٣)، وأحمد (٢/ ٣٣٤-٣٣٥).

(٢) أخرجه أبوداود في الخراج والإمارة والفيء (٢٩٥٦). وأخرجه أبوداود أيضًا (٢٩٠٠)، وابن ماجه في الفرائض (٢٧٣٨)-من حديث المقدام الكندي-رضي الله عنه-بنحوه، وفيه زيادة:«والخال وارث من لا وارث له يعقل عنه ويرثه» وقال الألباني:«حسن صحيح».

(٣) أخرجه البخاري في النفقات (٥٣٧١)، ومسلم في الفرائض (١٦١٩)، والنسائي في الجنائز (١٩٦٣)، والترمذي في الجنائز (١٠٧٠)، وابن ماجه (٢٤١٥).

(٤) انظر:«بدائع التفسير» (٣/ ٤٢٢-٤٢٣).

من نفسه؛ لأن الأولوية أصلها الحب، ونفس العبد أحب له من غيره، ومع هذا يجب أن يكون الرسول ﷺ أولى به منها، وأحب إليه منها، فبذلك يحصل له اسم الإيمان، ويلزم من هذه الأولوية والمحبة كمال الانقياد والطاعة، والرضا والتسليم، وسائر لوازم المحبة، من الرضا بحكمه والتسليم لأمره، وإيثاره على ما سواه.

ومنها: أن لا يكون للعبد حكم على نفسه أصلًا، بل الحكم على نفسه للرسول ﷺ يحكم عليها أعظم من حكم السيد على عبده، أو الوالد على ولده، فليس له في نفسه تصرف قط إلا ما تصرف فيه الرسول ﷺ الذي هو أولى به منها....

ولا سبيل إلى ثبوت هذه الأولوية إلا بعزل كل ما سواه، وتوليته في كل شيء، وعرض ما قاله كل أحد سواه على ما جاء به، فإن شهد له بالصحة قبله، وإن شهد له بالبطلان ردّه، وإن لم تتبين شهادته له بصحة ولا ببطلان جعله بمنزلة أحاديث أهل الكتاب، ووقفه حتى يتبين أي الأمرين أولى، فمن سلك هذه الطريقة استقام له سفر الهجرة، واستقام له علمه وعمله، وأقبلت وجوه الخلق إليه من كل جهة».

﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ أزواج: جمع زوج، أي: وأزواجه ﷺ كلهن أمهات المؤمنين من حيث حرمتهن عليهم بعده، كما قال عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا﴾ [الأحزاب:٥٣].

ومن حيث وجوب أداء حقوقهن من الاحترام والإكرام والتوقير والإعظام ومحبتهن والدفاع عنهن، لا كما يفعل الرافضة- أخزاهم الله- في أذيتهم لهن وبغضهن، وأذيتهم لعائشة رضي الله عنها، وقذفهم إياها بالفاحشة.

ولهذا فإن من قذف زوجة من زوجات الرسول ﷺ فإنه يقتل كافرًا؛ لأن أذى هذا يتعدى إليه ﷺ؛ لأن الله قال: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾ [النور:٢٦].

وهن أمهاتهم أيضًا: من حيث أنهن- رضي الله عنهن- ينظرن إلى المؤمنين من أمته ﷺ نظرة الأم الحنون النصوح لأولادها.

وليس أمومتهن لهم من حيث الميراث، ولا من حيث جواز خلوتهم بهن، ولا كونهم محارم لهن، بل حرمتهن عليهم أشد من حرمة غيرهن.

قال ابن كثير(١): «﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ أي: في الحرمة، والاحترام والإكرام والتوقير والإعظام، ولكن لا تجوز الخلوة بهن، ولا ينتشر التحريم إلى بناتهن وأخواتهن بالإجماع».

وهن أمهات للمؤمنين جميعًا ذكورهم وإناثهم؛ لعموم قوله: ﴿أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾.

وعن أم سلمة- رضي الله عنها- أنها قالت: «أنا أم لرجالكم ولنسائكم».

وقيل: إنهن أمهات للرجال فقط، وروي هذا عن عائشة- رضي الله عنها.

ولعل من أخذ بهذا نظر إلى تحريم نكاحهن من بعده؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا﴾ [الأحزاب:٥٣]، والصحيح الأول(٢).

وقد قرأ بعضهم: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ بزيادة: «وهو أب لهم»(٢).

ورُوي أنه ﷺ قال: «**إنما أنا لكم بمنزلة الوالد**»(٣).

وقراءة من قرأ: «وهو أب لهم» شاذة سندًا ومتنًا، فإن قوله عز وجل: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أبلغ من قراءة «وهو أب لهم»؛ لأن الأب ليس أولى بالإنسان من نفسه، والنبي أولى بنا من أنفسنا، وقد قال الله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب:٤٠].

﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ﴾ الواو: عاطفة، و(أُوْلُوا) بمعنى: أصحاب، و﴿ٱلْأَرْحَامِ﴾: جمع رحم، وهو في الأصل موضع تكوّن الجنين، ومستقره في بطن أمه.

---

(١) في «تفسيره» (٦/ ٣٨١).

(٢) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (١٤/ ١٢٣)، «تفسير ابن كثير» (٦/ ٣٨١، ٣٨٢).

(٣) أخرجه أبوداود في الطهارة-كراهة استقبال القبلة عند قضاء الحاجة (٨)، والنسائي في الطهارة-النهي عن الاستطابة بالروث (٤٠)، وابن ماجه في الطهارة-الاستنجاء بالحجارة (٣١٣)-من حديث أبي هريرة-رضي الله عنه. وقال الألباني: «حسن صحيح».

والمراد بـ«أولي الأرحام» القرابة، قيل: سُموا «أولي الأرحام»؛ لأنهم خرجوا من رحم واحد، وقيل: لأنهم يتراحمون فيما بينهم.

﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ أي: أحق وأجدر ببعض في الميراث، كما أنهم أولى ببعض في الصلة والنصرة، وغير ذلك، وحيث علل الحكم بهذا الوصف «القرابة» فمن كان أقرب فهو في الميراث أولى، كما قال ﷺ: «**ألحقوا الفرائض بأهلها، فما بقي فلأولى رجل ذكر**»(١).

وكما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ [النساء:٧].

﴿فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ﴾، ﴿كِتَـٰبِ ٱللَّهِ﴾: مَكْتُوبه، وهو القرآن الكريم، لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ، وبأيدي الملائكة والمؤمنين.

ويحتمل أن معنى ﴿كِتَـٰبِ ٱللَّهِ﴾، أي: فرضه وإيجابه. والأول أظهر وأعم، فيشمل الثاني: أي: في كتابه القرآن الكريم الذي فرض الله فيه وأوجب هذه الفرائض.

وقيل: ﴿فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ﴾ أي: في اللوح المحفوظ المكتوب به مقادير كل شيء.

﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ﴾، ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿أَوْلَىٰ﴾، و﴿مِنَ﴾ هنا هي الدالة على المفضل عليه، أي: أصحاب القرابة بعضهم أحق بميراث بعض من المؤمنين والمهاجرين.

وفي عطف (المهاجرين) على ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بيان فضل الهجرة وشرفها؛ لأن هذا من عطف الخاص على العام.

والمعنى: أن أصحاب القرابة من ذوي الفروض أو التعصيب أو مَن دونهم مِن ذوي الأرحام كالخال والخالة والعمة ونحوهم عند فقد ذوي الفروض والتعصيب هؤلاء أحق بالميراث من المهاجرين والأنصار، أي: أن الإرث بالقرابة أولى من الإرث

---

(١) أخرجه البخاري في الفرائض (٦٧٣٢)، ومسلم في الفرائض (١٦١٥)، وأبوداود في الفرائض (٢٨٩٨)، والترمذي في الفرائض (٢٠٩٨)، وابن ماجه في الفرائض (٢٧٤٠)-من حديث ابن عباس- رضي الله عنهما.

بالإيمان والهجرة.

لأنه لما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة آخى بين المهاجرين والأنصار فكان المهاجري يرث الأنصاري دون ذوي رحمه، ويرث الأنصاري المهاجري دون ذوي رحمه للأخوّة التي آخى النبي ﷺ بينهم.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال:«كان المهاجرون لما قدموا المدينة يرث المهاجري الأنصاري دون ذوي رحمه للأخوّة التي آخى الرسول ﷺ بينهم»(١).

وفي رواية: «يرث الأنصاري المهاجري دون ذوي رحمة» الحديث(٢).

قال ابن كثير(٣): «وهذه ناسخة لما كان قبلها من التوارث بالحلف والمؤاخاة التي كانت بينهم، كما قال ابن عباس وغيره: كان المهاجري يرث الأنصاري دون قراباته وذوي رحمه للأخوة التي آخى بينهما رسول الله ﷺ، وكذا قال سعيد بن جبير وغير واحد من السلف والخلف».

وهكذا رُوي عن الزبير بن العوام- رضي الله عنه- قال: «لما قدمنا المدينة قدمنا ولا أموال لنا، فوجدنا الأنصار نعم الإخوان، فواخيناهم ووارثناهم، فواخى أبوبكر خارجة بن زيد، وواخى عمر فلانًا، إلى أن قال: وواخيت أنا كعب بن مالك، فوالله! لو مات يومئذ عن الدنيا ما ورثه غيري، حتى أنزل الله هذه الآية فرجعنا إلى مواريثنا»(٤).

ويحتمل أن ﴿مِنَ﴾ في قوله: ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ بيان؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُوْلُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ﴾ أي: وأولو الأرحام من المؤمنين والمهاجرين بعضهم أحق ببعض في الميراث، وغيره.

وهذا المعنى صحيح، ولا إشكال فيه، ولا ينافي القول الأول، بل هو داخل فيه، فعلى القول الأول بيّن الله- عز وجل- أن الميراث لذوي الأرحام فهم أولى به من

---

(١) أخرجه البخاري في الكفالة ٢٣٢٩، وفي التفسير ٤٥٨٠.

(٢) أخرجها البخاري في الفرائض ٦٧٤٧.

(٣) في «تفسيره» (٦/ ٣٨٢).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (٩/ ٣١١٤)، الأثر (١٧٥٨٣)، وانظر:«تفسير ابن كثير» (/ ٣٨٢).

غيرهم، وعلى هذا القول بيّن أن الميراث لذوي الأرحام المؤمنين منهم أو المؤمنين والمهاجرين، فالإرث إنما هو بين المؤمنين فيما بينهم كما قال ﷺ: «**لا يرث الكافر المسلم ولا المسلم الكافر**»(1)، وعلى هذا ينبغي حمل الآية على المعنيين.

قال ابن تيمية ـ رحمه الله(2): «ويدخل في الآيتين- يعني: قوله هنا، وفي الأنفال: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ سائر الولايات من المناكح والأموال والعقل والموت».

﴿إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا﴾، ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء واستدراك بمعنى: «لكن»، فالاستثناء منقطع، وفيه احتراز مفاده أن الميراث وإن كان يخص ذوي الأرحام لكن لا مانع من فعل المعروف لمن بيننا وبينهم موالاة ونصرة، وهذا يُقوي أن المراد بقوله: ﴿أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ أي: في الميراث فقط.

والأولياء: جمع «ولي» مأخوذ من الولاية بمعنى: النصرة والموالاة، أي: لا مانع أن تفعلوا إلى من بينكم وبينهم موالاة ومناصرة معروفًا بالإحسان إليهم، بالوصية لهم، وقيل: بالإحسان إليهم بالنصرة والبر والصلة والوصية وغير ذلك.

لكن حمل أكثر المفسرين- رحمهم الله- المعروف هنا على الوصية لهم؛ لأن الكلام في التوارث، وهو لا يكون إلا بعد الموت، فكذا المراد بالمعروف ما يفعل بعد الموت وهو الوصية.

وهذا يدل على جواز الوصية لمن بين الإنسان وبينه موالاة ونصرة، قال ابن تيمية(2): «﴿إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا﴾ دليل على الوصية كآيات النساء».

وحملها بعضهم على ما هو أعم من ذلك، قال ابن كثير(3): «أي: ذهب الميراث، وبقي النصر والبر، والصلة والإحسان والوصية».

---

(1) أخرجه البخاري في الفرائض (٦٧٦٤)، ومسلم في الفرائض (١٦١٤)، وأبوداود في الفرائض (٢٩٠٩)، والترمذي في الفرائض (٢١٠٧)، وابن ماجه في الفرائض (٢٧٢٩)-من حديث أسامة بن زيد-رضي الله عنه.

(2) انظر: «دقائق التفسير» (٤/ ٤٩٣).

(3) في «تفسيره» (٦/ ٣٨٢).

﴿كَانَ ذَٰلِكَ﴾ الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى: نسخ التوارث بالإيمان والهجرة بالإرث بالرحم والقرابة، وكون ذوي الأرحام أولى ببعضهم البعض من غيرهم.

﴿فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾أي: في اللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه مقادير كل شيء.

﴿مَسْطُورًا﴾ أي: مسطرًا مكتوبًا ثابتًا، لا يغير ولا يبدل، وهذا يدل على عناية الله- عز وجل- بشرعه، وأن كل شيء مسطر عنده ومقدر، وليس الأمر ارتجاليًّا، قال عز وجل: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾﴾ [الرعد:٨].

فالفرض المستقر المسطر المكتوب في اللوح المحفوظ أن الميراث لذوي الأرحام، وهم أولى به، وإنما حصل التوارث في أول الهجرة بين المهاجرين والأنصار لعارض، وهو توكيد ثبوت المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، ثم زال هذا العارض.

قال ابن كثير[١]: «أي: هذا الحكم، وهو أن أولي الأرحام بعضهم أولى ببعض، حكم من الله مقدر مكتوب في الكتاب الأول الذي لا يُبدل ولا يُغير، قاله مجاهد وغير واحد، وإن كان قد يقال: قد شرع خلافه في وقت لما له في ذلك من الحكمة البالغة، وهو يعلم أنه سينسخه إلى ما هو جار في قدره الأزلي، وقضائه القدري الشرعي».

وقيل: إن المراد بالكتاب: القرآن، والصحيح أنه اللوح المحفوظ.

الفوائد والأحكام:

١- أن النبي ﷺ أولى بالمؤمنين من أنفسهم ولاية مطلقة، وأحق بهم وأجدر، فيجب تقديم محبته وطاعته، حتى على محبتهم لأنفسهم، وتقديم حكمه وطاعته على حكم أنفسهم، وطاعة أنفسهم، وهو أشفق عليهم وأرحم بهم وأنصح لهم من أنفسهم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾.

٢- أن أزواج النبي ﷺ أمهات المؤمنين من حيث تحريم نكاحهن، ووجوب احترامهن وتوقيرهن وإكرامهن ومحبتهن والدفاع عنهن، لا من حيث الميراث والخلوة وانتشار التحريم وما إلى ذلك.

---

(١) في «تفسيره» (٦/ ٣٨٢-٣٨).

٣- أن أولي الأرحام والأقارب بعضهم أولى ببعض في الإرث، وأن الإرث بالقرابة أولى من الإرث بالمؤاخاة والهجرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ فالتوارث بالمؤاخاة والهجرة نسخ بهذه الآية وآية سورة الأنفال(١).

٤- أن التوارث ثابت بين أهل الإيمان، ولا توارث بين الكافر والمؤمن؛ لقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾.

٥- فضيلة الهجرة؛ لقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾.

٦- أن صلة الأرحام كما تكون في الحياة تكون بعد الممات بالوصية لمن لم يكن وارثًا منهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًاۚ﴾.

٧- أن الأصل في الميراث أنه لذوي القرابة وإنما كان الإرث بالمؤاخاة والهجرة لعارض، فلما زال ذلك العارض عاد الميراث للقرابة؛ لقوله تعالى:﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ۝٦﴾.

٨- أن كل شيء مقدر ومسطر عند الله تعالى في اللوح المحفوظ حتى الناسخ والمنسوخ من الأحكام، وغير ذلك.

٩- توريث مَن لم يكن من أصحاب الفروض ولا العصبات من القرابة، وهم المسمون عند أهل الفرائض «ذوي الأرحام» كالخال والخالة والعمة وبنات الأخت ونحوهم إذا لم يكن هناك صاحب فرض ولا تعصيب. وإلى هذا ذهب أبو حنيفة(٢) وأحمد في المشهور عنه(٣)؛ لعموم قوله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ﴾ وهم القرابة عمومًا. وقوله ﷺ: «**الخال وارث من لا وارث له**»(٤).

---

(١) انظر: «الناسخ والمنسوخ» للنحاس (٢/ ٣٩٤-٣٩٦).
(٢) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٦٩).
(٣) انظر: «المغني» ٩/ ٨٥.
(٤) أخرجه الترمذي في الفرائض (٢١٠٣)، وابن ماجه في الفرائض (٢٧٣٧)-من حديث عمر بن الخطاب-رضي الله عنه-وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

واختار هذا شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله[١]- فيرثون وينزلون منزلة من أدلوا به.

وذهب الإمام مالك[٢] والشافعي[٣] إلى عدم توريث ذوي الأرحام، وأن المال يكون لبيت المال. والأول أرجح للأدلة السابقة؛ ولأن ذوي الأرحام شاركوا غيرهم من المؤمنين بالإيمان وانفردوا بكونهم أقارب للميت فهم أحق، ولهذا الصدقة عليهم صدقة وصلة؛ لأنهم من الأقارب.

* * *

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣١/ ٣٥٨).

(٢) انظر: «موطأ مالك» تحقيق عبد الباقي ٢/ ٥١٨، «المعونة على مذهب عالم المدينة» ص١٩٥٦.

(٣) انظر: «التفسير الكبير» ٩/ ١٥٨، «العذب الفائض» ٢/ ١٧.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ۝٧ لِّيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ۝٨﴾.

قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ﴾؛ الواو: استئنافية، و«إذ»: ظرف متعلق بفعل محذوف، أي: اذكر إذ أخذنا من جميع النبيين ميثاقهم، أي: اذكر في نفسك، واذكر للناس حين أخذنا من النبيين العهد المؤكد عند إرسالهم بإبلاغ رسالات الله تعالى، وإقامة دينه، وإيمان بعضهم ببعض، وشهادة بعضهم لبعض، والتعاون والتناصر؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ۚ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوا أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

وقيل: الميثاق الذي أخذ عليهم حين أخرجوا في صورة الذر من صلب آدم.

والصحيح: أنه عند إرسالهم.

﴿وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾، أي: وأخذنا منك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ميثاقكم، وهذا من عطف الخاص على العام.

وخص هؤلاء الخمسة بالذكر؛ لأنهم أولو العزم من الرسل، وأفضل الأنبياء عليهم السلام.

وقدَّم محمدًا ﷺ؛ لأنه سيدهم وأشرفهم وأفضلهم، وعطف عليه نوحًا عليه السلام؛ لأنه أول الرسل؛ جمعًا بين خاتمهم وأولهم.

ثم ذكر بقية أولي العزم؛ وهم: إبراهيم عليه السلام، أفضلهم بعد محمد ﷺ، ثم موسى عليه السلام، ثالثهم في الأفضلية بعد محمد وإبراهيم عليهما السلام، ثم عيسى ابن مريم آخر الأنبياء قبل محمد عليهما الصلاة والسلام.

قال ابن كثير(١): «فبدأ في هذه الآية بالخاتم؛ لشرفه صلوات الله عليه، ثم رتبهم بحسب وجودهم صلوات الله عليهم».

---

(١) في «تفسيره» ٦/ ٣٨٣.

وهكذا نوَّه بذكر هؤلاء الخمسة في قوله تعالى في سورة الشورى: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾ [الشورى:١٣].

قال ابن كثير[١] بعد ذكره آية الشورى: «فذكر الطرفين والوسط: الفاتح والخاتم، ومن بينهم على الترتيب، فهذه هي الوصية التي أخذ عليهم الميثاق بها».

﴿وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا﴾، أي: عهدًا موثقًا مغلظًا قويًّا مؤكدًا.

﴿لِّيَسۡـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدۡقِهِمۡۚ﴾؛ اللام: للتعليل، أي: أخذ عز وجل الميثاق عليهم لكي يسأل الصادقين يوم القيامة عن صدقهم، وهم الرسل، فيسألهم- تبكيتا وتقريعًا للمكذبين- لهم: هل صدقوا عهودهم، وبلغوا رسالات ربهم؟ وهو سبحانه وتعالى أعلم بذلك منهم؛ ولهذا اختارهم لرسالاته، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ [الأنعام:١٢٤]، وامتدحهم بذلك؛ فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ﴾ [الأحزاب:٣٩].

ووضع «الصادقين» موضع ضميرهم؛ للإيذان من أول الأمر بأنهم صادقون.

كما يسأل المرسل إليهم، هل اتبعوا الرسل وبلغوا عنهم، كما قال تعالى: ﴿ فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٦﴾[الأعراف:٦].

و عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**نضر الله امرأً سمع منا شيئًا فبلغه كما سمع، فرب مبلغ أوعى من سامع**»[٢].

كما يسأل جميع الذين بلغتهم الرسالة: ماذا أجبتم المرسلين؟ تبكيتًا لهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٦٥﴾ [القصص:٦٥]، وقال تعالى: ﴿فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٖۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ٧﴾ [الأعراف:٦- ٧]، وقال تعالى: ﴿۞ يَوۡمَ يَجۡمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ

---

(١) في «تفسيره» ٦/ ٣٨٣.

(٢) أخرجه الترمذي في العلم ٢٦٥٧، وابن ماجه في المقدمة ٢٣٢، وقال الترمذي: «حسن صحيح».

مَاذَآ أُجِبۡتُمۡۖ قَالُواْ لَا عِلۡمَ لَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ١٠٩﴾ [المائدة:١٠٩].

قال قتادة: «كلمتان يسأل عنهما الأولون والآخرون: ماذا كنتم تعملون؟ وماذا أجبتم المرسلين؟ فيسأل عن المعبود، وعن العبادة»(١).

﴿وَأَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، أي: يصيرون إليه بعد سؤالهم، بل وبعد مناقشتهم الحساب مناقشة شديدة عسيرة؛ لتعذيبهم؛ كما قال ﷺ: «**من نوقش الحساب عذب**»(٢).

أي: وهيأ وجهز للكافرين من أمم الأنبياء﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾، أي: مؤلمًا موجعًا، حسيًّا للأبدان، ومعنويًّا للقلوب، وهو عذاب النار الموجودة الآن، المعدة لهم؛ كما قال تعالى: ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ البقرة: ٢٤، [آل عمران:١٣١].

الفوائد والأحكام:

١- التذكير بأخذ ميثاق النبيين بإبلاغ رسالات ربهم، وإقامة دينه، وإيمان بعضهم ببعض، وشهادة بعضهم لبعض، والتناصر بينهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ﴾.

٢- عظم المسؤولة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وعلى أهل العلم بعدهم؛ لأنهم ورثة الأنبياء؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ﴾، وقوله: ﴿وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾.

٣- تخصيص هؤلاء الخمسة منهم- وهم أولو العزم من الرسل- بالذكر؛ لأنهم أشرف الرسل وأفضلهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ﴾.

٤- تقديم ذكر نبينا ﷺ؛ لأنه ﷺ سيد الرسل وأشرفهم وأفضلهم، وذُكر نوح عليه السلام بعده؛ جمعًا بين الفاتح والخاتم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ﴾.

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٤٢٣.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٥٣٦، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها ٢٨٧٦، وأبو داود في الجنائز ٣٠٩٣؛ من حديث عائشة رضي الله عنها.

٥- أن إبراهيم أفضل من موسى؛ لهذا قدم عليه، وأن موسى أفضل من عيسى؛ لهذا قدم عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾.

ويحتمل: أنه إنما قدم محمدًا ﷺ؛ لأنه أشرفهم وأفضلهم، ثم ذكر البقية حسب الترتيب الزمني وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى؛ لأن أفضلهم بعد محمد ﷺ إبراهيم، ثم موسى، ثم نوح وعيسى، على اختلاف بين أهل العلم أيهما أفضل: نوح، أم عيسى؟ عليهم جميعًا الصلاة والسلام.

٦- التذكير بتمام قدرة الله تعالى في خلق عيسى عليه السلام من أم بلا أب؛ بذكره منسوبًا إلى أمه؛ لقوله تعالى: ﴿وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾.

٧- تأكيد وتشديد وتغليظ الميثاق والعهد الذي أخذه الله تعالى على الأنبياء؛ لأنهم رسل الله عز وجل إلى عباده؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾.

٨- أن الله عز وجل أرسل الرسل، وأخذ عليهم الميثاق الغليظ لتبليغ رسالاته إلى الناس؛ لأجل أن يحاسب الخلائق كلهم، فيسأل الصادقين عن صدقهم، ويثيبهم جزيل الثواب، ويحاسب الكاذبين الكافرين ويناقشهم؛ ليعذبهم عذابًا أليمًا؛ لقوله تعالى: ﴿لِّيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

٩- إثبات البعث والمعاد والحساب والجزاء، وسؤال جميع الخلائق عما عملوه؛ لأنه إذا كان عز وجل يسأل الصادقين عن صدقهم، فسؤال المكذبين من باب أولى.

قال ابن القيم: «فإذا سئل الصادقون وحوسبوا على صدقهم، فما الظن بالمكذبين؟!»(١).

١٠- إثبات وجود النار، وأنها معدة للكافرين، بعذابها المؤلم الموجع حسيًّا للأبدان، ومعنويًّا للقلوب.

* * *

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٤٢٣.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾:

عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، قال: «لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب، وأخذتنا ريح شديدة وقُرٌّ[1]، فقال رسول الله ﷺ: «**ألا رجل يأتيني بخبر القوم؟ جعله الله معي يوم القيامة**»، فسكتنا، فلم يجبه منا أحد، ثم قال: «**ألا رجل يأتينا**

(١) أي: برد شديد.

بخبر القوم؟ جعله الله معي يوم القيامة»، فسكتنا، فلم يجبه منا أحد، ثم قال: «**ألا رجل يأتينا بخبر القوم؟ جعله الله معي يوم القيامة**»، فسكتنا، فلم يجبه أحد، فقال: «**قم يا حذيفة، فأتنا بخبر القوم**»، فلم أجد بدًّا إذ دعاني باسمي أن أقوم، قال: «**اذهب فأتني بخبر القوم، ولا تذعرهم علي**»، فلما وليت من عنده جعلت كأنما أمشي في حَمَّام(١)، حتى أتيتهم، فرأيت أبا سفيان يصلي ظهره بالنار، فوضعت سهمًا في كبد القوس، فأردت أن أرميه، فذكرت قول رسول الله ﷺ: «**ولا تذعرهم علي**»، ولو رميته لأصبته، فرجعت وأنا أمشي في مثل الحَمَّام، فلما أتيته فأخبرته بخبر القوم وفرغت، قُرِرْتُ(٢)، فألبسني رسول الله ﷺ من فضل عباءة كانت عليه يصلي فيها، فلم أزل نائمًا حتى أصبحت، فلما أصبحت قال: «**قم يا نومان**»»(٣).

وفي رواية، قال حذيفة: والله، لو رأيتنا مع رسول الله ﷺ بالخندق، وصلى رسول الله ﷺ من الليل هَوِيًّا، ثم التفت إلينا فقال: «**من رجل يقوم، فينظر لنا ما فعل القوم؟**» يشترط له أنه يرجع، «**أدخله الله الجنة**»، فما قام رجل، ثم صلى رسول الله ﷺ هويًّا من الليل، ثم التفت إلينا، فقال: «**من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم؟ ثم يرجع**»- يشرط له رسول الله ﷺ الرجعة- «**أسأل الله أن يكون رفيقي في الجنة**». فما قام رجل من القوم، مع شدة الخوف، وشدة الجوع، وشدة البرد، فلما لم يقم أحد، دعاني رسول الله ﷺ، فلم يكن لي بد من القيام حين دعاني، فقال: «**يا حذيفة، اذهب فادخل في القوم، فانظر ما يفعلون، ولا تحدثن شيئًا حتى تأتينا**».

قال: فذهبت فدخلت في القوم، والريح وجنود الله تفعل بهم ما تفعل، لا تقر لهم قدر، ولا نار، ولا بناء، فقام أبو سفيان، فقال: يا معشر قريش، لينظر امرؤ مَن جليسه.

فقال حذيفة: فأخذت بيد الرجل الذي إلى جنبي، فقلت: من أنت؟ فقال: أنا فلان بن فلان. ثم قال أبو سفيان: يا معشر قريش، إنكم ما أصبحتم بدار مقام، لقد هلك الكراع، وأخلفتنا بنو قريظة، بلغنا منهم الذي نكره، ولقينا من هذه الريح ما

---

(١) من شدة الدفء. والمراد حمَّام الاغتسال الدافئ.

(٢) أي: أحسست بالبرد الشديد.

(٣) أخرجه مسلم في الجهاد والسير، غزوة الأحزاب ١٧٨٨.

ترون، والله ما تطمئن لنا قدر، ولا تقوم لنا نار، ولا يستمسك لنا بناء، فارتحلوا فإني مرتحل، ثم قام إلى جمله وهو معقول، فجلس عليه، ثم ضربه، فوثب به على ثلاث، فما أطلق عقاله إلا وهو قائم، ولولا عهد رسول الله ﷺ: «لا تحدث شيئًا حتى تأتيني»، ثم شئت لقتلته بسهم. قال حذيفة: ثم رجعت إلى رسول الله ﷺ وهو قائم يصلي في مرط لبعض نسائه مرحَّل[1]، فلما رآني أدخلني إلى رحله وطرح عليَّ طرف المرط، ثم ركع وسجد، وإني لفيه، فلما سلم أخبرته الخبر، وسمعت غطفان بما فعلت قريش، فانشمروا إلى بلادهم»[2].

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ﴾، أي: اذكروا نعمة الله تعالى ومنته وفضله عليكم يوم الأحزاب، حين جاءتكم.

﴿جُنُودٞ﴾، نكر للتعظيم، أي: جنود كثيرة عظيمة، وهم الأحزاب الذين تألبوا وتحزبوا من قريش وغطفان وكنانة وهوازن وغيرهم؛ لحرب الرسول ﷺ والمؤمنين، واستئصالهم، والقضاء على الإسلام، وكان سبب ذلك: أن نفرًا من أشراف يهود بني النضير- الذين أجلاهم الرسول ﷺ من المدينة إلى خيبر، لما غدروا ونقضوا العهد- اجتمعوا بأشراف قريش، وألَّبوهم على حرب الرسول ﷺ، ووعدوهم من أنفسهم النصر والإعانة، فأجابوهم إلى ذلك؛ كما اجتمعوا بغطفان فدعوهم إلى ذلك، فاستجابوا لهم أيضًا، فخرجت قريش وأحابيشها وبنو كنانة قائدهم أبو سفيان صخر بن حرب، وعلى غطفان عيينة بن حصن بن بدر، وعلى هوازن عامر بن الطفيل، وكان الجميع أكثر من عشرة آلاف، ولما علم النبي ﷺ بمسيرهم، أمر المسلمين بحفر الخندق حول المدينة مما يلي الشرق، بإشارة سلمان الفارسي رضي الله عنه، فحفروا الخندق، وكان النبي ﷺ معهم يحفر وينقل التراب، حتى إن التراب وارى جلدة بطنه عليه الصلاة والسلام، و كان يردد معهم:

اللهُـــمَّ إن العـــيش عـــيش الآخـــرهْ

---

(١) كساء من صوف فيه تصاوير.

(٢) أخرجه أحمد ٥/ ٣٩٢-٣٩٣، ٣٨٨، وانظر: «سيرة ابن هشام» ٢/ ٢٣١-٢٣٢.

فـــاغفر للأنصـــار والمهـــاجرة[(١)]

ويردد أيضا معهم:

اللهُـــمَّ لـــولا أنـــت مـــا اهتـــدينا

ولا تصـــــدقنا ولا صـــــلينا

فــــأنزلن ســــكينة علينـــــا

وثبـــت الأقـــدام إن لاقينـــا

إن الألى قـــد بغـــوا علينـــا

و إن أرادوا فتنتـــة أبينـــا[(٢)]

وجاء المشركون ونزلوا شرقي المدينة قريبًا من أحد، ونزلت طائفة منهم في أعالي أرض المدينة، وخرج رسول الله ﷺ ومن معه من المسلمين نحو ثلاثة آلاف، وأسندوا ظهورهم إلى سلع، ووجهوهم إلى نحو العدو، وجعل النساء والذراري في آطام المدينة، وذهب حيي بن أخطب إلى بني قريظة وكان لهم حصن شرقي المدينة، وبينهم وبين الرسول ﷺ عهد، فلم يزل بهم حتى نقضوا العهد، ومالئوا الأحزاب على رسول الله ﷺ، فشق ذلك على رسول الله ﷺ وأصحابه، ومكثوا محاصرين النبي ﷺ وأصحابه قريبًا من شهر، حتى اشتد الأمر، وعظم الخطب، وضاق الحال؛ ليعقبه الفرج والنصر، وكان علامة ذلك: أن اقتحم أحد فرسان المشركين- وهو عمرو بن ود العامري- الخندق بفرسه، ومعه اثنان من الفرسان، فندب النبي ﷺ إليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فتجاولا ساعةً، ثم قتله علي رضي الله عنه، وفر صاحباه، فكان ذلك علامة النصر، وأصيب سعد بن معاذ رضي الله عنه في أكحله، وكان ذلك في شوال سنة خمس

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير، حفر الخندق ٢٨٣٥، ومسلم في الجهاد والسير، غزوة الأحزاب ١٨٠٥، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في المغازي، غزوة الخندق ٤١٠٦، ومسلم في الجهاد والسير، غزوة الأحزاب ١٨٠٣، من حديث البراء رضي الله عنه.

من الهجرة، وقيل: سنة أربع من الهجرة(١).

قوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾ نكّر «ريحًا» للتعظيم، أي: ريحًا باردة شديدة الهبوب قوية، وهي الريح الشرقية «الصَّبا»؛ ولهذا قال ﷺ: «**نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور**»(٢). فقوضت خيامهم، وأطفأت نيرانهم، وكفأت قدورهم، فاضطربوا، ولم يقر لهم قرار.

﴿وَجُنُودًا﴾ نكّر«جنودًا» للتعظيم والتكثير، أي: وأرسلنا عليهم جنودًا عظيمة كثيرة من جنودنا من الملائكة، ألقت الرعب والخوف والقلق في قلوبهم، وزلزلتهم، فارتحلوا خائبين خاسرين.

﴿لَّمْ تَرَوْهَا﴾، أي: لم تشاهدوها؛ لأن الملائكة غالبًا لا يرون.

﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾؛ قرأ أبو عمرو بياء الغيبة: «يَعْمَلُونَ»، وقرأ الباقون بتاء الخطاب: ﴿تَعْمَلُونَ﴾.

أي: وكان الله بعملكم، أو بالذي تعملونه أنتم وإياهم﴿بَصِيرًا﴾، أي: مطلعًا عليه ورقيبًا، لا تخفى عليه منه خافية، وسينصركم ويخذل أعداءكم، وسيحاسبكم وجميع الخلائق على أعمالكم يوم القيامة.

﴿إِذْ جَاءُوكُم﴾؛ «إذ»: ظرف بمعنى: «حين»، أي: إذ جاءكم الأحزاب.

﴿مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾، أي: من أعلى المدينة ومن أسفلها؛ ليكونوا كفكي الأسد، حتى يطبقوا على المدينة، جاءهم من فوقهم أبو سفيان ومن معه من قريش وغيرهم من الأحزاب، من الجهة الشمالية الشرقية، وجاءهم من أسفل منهم بنو قريظة وغطفان، من الجهة الجنوبية الغربية. وقيل غير ذلك، فقيل: جاءتهم قريش من أسفل الوادي من جهة الغرب، وغطفان وهوازن من أعلى الوادي من جهة الشرق.

﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ﴾ منكم، أي: مالت عن سننها ومستوى نظرها، وشخصت من شدة القلق والحيرة، والذهول والدهشة.

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ٣٨٤- ٣٨٥.

(٢) أخرجه البخاري في الجمعة ١٠٣٥، ومسلم في الاستسقاء ٩٠٠؛ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾، أي: ارتفعت القلوب من شدة الخوف والرعب والفزع عن أماكنها حتى بلغت الحناجر؛ منتهى الحلقوم؛ قيل: لأن بالفزع تنتفخ الرئة فترتفع، وبارتفاعها ترتفع القلوب. أو هو مثل ضربه الله لاضطراب القلوب.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: «قلنا يوم الخندق: يا رسول الله، بلغت القلوب الحناجر، فهل من شيء نقوله؟ قال: «**نعم، قولوا: اللهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا**». قال: فضرب وجوه أعدائه بالريح، فهزمهم بالريح»(١).

﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾؛ قرأ نافع وأبو جعفر وابن عامر وأبو بكر عن عاصم: ﴿ٱلظُّنُونَا۠﴾ بالألف، وصلًا ووقفًا، وقرأ أبو عمرو ويعقوب وحمزة: «الظُّنُونَ» بغير ألف في الحالين، وقرأ الباقون بالألف في الوقف دون الوصل.

و«الظنونا»: جمع «ظن»، أي: الظنون الكثيرة المختلفة، فمِن ظانٍّ أن الله لا ينصر دينه ونبيه، ولا يتم كلمته، ومن ظان استئصال الرسول ﷺ والمؤمنين، ومن ظان أن ما وعد الله به رسوله من النصر ليس بصحيح، إلى غير ذلك من الظنون الكاذبة.

ومن ظان- مع أن المقام حالك- أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرًا، وهم الرسول ﷺ والمؤمنون.

قال الحسن: «ظنونًا مختلفة، ظن المنافقون أن محمدًا وأصحابه سيستأصلون، وأيقن المؤمنون أن ما وعدهم الله به حق، أنه سيظهر على الدين كله، ولو كره المشركون»(٢).

قال السعدي(٣): «وخندق رسول الله ﷺ على المدينة، فحصروا المدينة، واشتد الأمر، وبلغت القلوب الحناجر، حتى بلغ الظن من كثير من الناس كل مبلغ؛ لما رأوا من الأسباب المستحكمة، والشدائد الشديدة».

﴿هُنَالِكَ﴾؛ اسم إشارة في محل نصب ظرف مكان، أي: في ذلك الموقف والمكان والزمان.

---

(١) أخرجه أحمد ٣/ ٣، والطبري في «جامع البيان» ١٩/ ٢٥.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٩/ ٣٥-٣٦.

(٣) في «تيسير الكريم الرحمن» ٦/ ٢٠٢.

﴿ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾، أي: اختبروا وامتحنوا ومُحِّصوا.

﴿وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا﴾، أي: زلزلت نفوسهم زلزالًا قويًّا، واضطربوا اضطرابًا عظيمًا؛ بسبب هذه الفتنة العظيمة، فاجتمع عليهم أربع شدائد تنوء بحملها الجبال:

الأولى: الخوف والفزع والقلق؛ لمحاصرة الأحزاب لهم وتألبهم عليهم، من داخل المدينة وخارجها، ومن كل حدب وصوب.

والثانية: الجوع الشديد، وضيق الحال، وقد ربط ﷺ على بطنه الحجر من شدة الجوع(١).

الثالثة: التعب والنصب بسبب حفر الخندق.

والرابعة: البرد الشديد.

وواحدة من هذه المصائب كافية، فكيف إذا اجتمعت؟!

وبهذا الابتلاء الشديد، والمحنة العظيمة، محص الله تعالى المؤمنين من المنافقين؛ كما قال تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٤١﴾ [آل عمران: ١٤١].

فنضح كل إناء بما فيه، ونجم وظهر نفاق المنافقين، وتبين ثبات المؤمنين.

قال الشاعر:

فحسبكم هذا التفرق بيننا وكل إناء بالذي فيه ينضح(٢)

قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا ١٢ وَإِذۡ قَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمۡ فَٱرۡجِعُواْۚ وَيَسۡتَـٔۡذِنُ فَرِيقٞ مِّنۡهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوۡرَةٞ وَمَا هِيَ بِعَوۡرَةٍۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارٗا ١٣﴾:

قوله: ﴿وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ﴾؛ الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، ﴿وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، أي: شك وشبهة، وضعف إيمان.

﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ﴾؛ من النصر والتمكين، وهزيمة الكافرين.

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي ٤١٠١، وأحمد ٣/ ٣٠١؛ من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه.

(٢) البيت لحيص بيص. انظر «حياة الحيوان الكبرى» ١/ ١٩٠.

﴿إِلَّا غُرُورًا﴾؛ «إلا»: أداة حصر، أي: إلا خداعًا وباطلًا.

قال قتادة: «قال ذلك أناس من المنافقين: قد كان محمد يعدنا فتح فارس والروم، وقد حصرنا ههنا، حتى ما يستطيع أحدنا أن يبرز لحاجته، ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورًا»(١).

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: أمرنا رسول الله ﷺ بحفر الخندق، قال: وعرض لنا صخرة في مكان الخندق، لا تأخذ فيها المعاول، قال: فشكوها إلى رسول الله ﷺ فجاء رسول الله ﷺ، ووضع ثوبه ثم هبط إلى الصخرة، فأخذ المعول فقال: «**باسم الله**»، فضرب ضربة فكسر ثلث الحجر، وقال: «**الله أكبر، أعطيت مفاتيح الشام، والله إني لأرى قصورها الحمر من مكاني هذا**»، ثم قال: «**باسم الله**»، وضرب أخرى، فكسر ثلث الحجر، فقال: «**الله أكبر، أعطيت مفاتيح فارس، والله أني لأبصر المدائن وأبصر قصرها الأبيض من مكاني هذا**»، ثم قال: «**باسم الله**»، وضرب ضربة أخرى، فقلع بقية الحجر، فقال: «**الله أكبر، أعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني هذا**»(٢).

﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾، أي: فريق وجماعة أخرى من المنافقين.

﴿يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ﴾؛ نادوهم باسم الوطن؛ في دلالة على أنه ليس للأخوة الإيمانية عندهم قدر، ولا وزن. و«يثرب»: اسم من أسماء المدينة؛ كما جاء في حديث أبي موسي الأشعري رضي الله عنه، عن النبي صلي الله عليه وسلم، قال: «**رأيت في المنام أني أهاجر من مكة إلي أرض بها نخل، فذهب وهلي إلي أنها اليمامة أو هجر، فإذا هي المدينة يثرب**»(٣).

وقال ﷺ: «**أمرت بقرية تأكل القرى، يقولون: يثرب، وهي المدينة**»(٤)، كأنه كره تسميتها «يثرب»؛ بتسمية المنافقين لها بذلك في قولهم: ﴿يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ﴾.

﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾؛ قرأ حفص عن عاصم بضم الميم: ﴿لَا مُقَامَ﴾، وقرأ الباقون

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٩/ ٣٩.

(٢) أخرجه أحمد ٤/ ٣٠٣، والنسائي في الكبرى رقم ٨٨٠٧.

(٣) أخرجه البخاري في المناقب ٣٦٢٢، ومسلم في الرؤيا ٢٢٧٢، وابن ماجه في تعبير الرؤيا ٣٩٢١.

(٤) أخرجه البخاري في فضائل المدينة ١٨٧١، ومسلم في الحج، المدينة تنفي شرارها ١٣٨٢؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

بفتحها: «لَا مَقَامَ».

أي: لا إقامة لكم ولا مكان في معركة خاسرة، أي: لا تقيموا هنا. وكانوا عسكروا خارج المدينة دون الخندق.

﴿فَارْجِعُوا﴾، أي: فعودوا إلى بيوتكم ومنازلكم في المدينة. وفي هذا من التخذيل للمؤمنين والإرجاف بهم ما لا يخفى.

ولهذا فإن هذه الطائفة شرُّ طوائف المنافقين، وأضرها على المؤمنين، تُخذِّلهم عن الجهاد، وتأمرهم بترك قتال عدوهم، وأنه لا طاقة لهم به.

﴿وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ﴾، أي: ويطلب فريق من المنافقين الإذن من النبي ﷺ في الانصراف إلى منازلهم؛ ﴿يَقُولُونَ﴾ معللين لطلبهم الانصراف ومعتذرين بقولهم:

﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾، أي: مكشوفة غير محصنة، وعليها خطر، ونخاف أن يستبيحها الأعداء. وهم في هذا كذبة مبطلون؛ ولهذا رد الله عليهم بقوله:

﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾، أي: وليست بيوتهم بعورة كما يزعمون؛ لأن المدينة محصنة، وجيش المسلمين يحرسها.

﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾؛ «إن»: نافية بمعنى: «ما»، أي: ما يريدون باستئذانهم ﴿إِلَّا فِرَارًا﴾؛ «إلا»: أداة حصر، أي: إلا فرارًا من الزحف، وهروبًا من لقاء العدو. وهؤلاء دون الطائفة الأولى.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾:

قوله: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾، أي: ولو دخلت المدينة عليهم من أقطارها، أي: ولو غزيت المدينة، ودخلها الكفار من جوانبها ونواحيها، واستولوا عليها، وصارت الغلبة لهم.

﴿ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلْفِتْنَةَ﴾، أي: ثم سئل هؤلاء الذين يقولون: إن بيوتنا عورة، أي: سألهم الكفار الذين دخلوا عليهم، أي: طلبوا منهم ﴿ٱلْفِتْنَةَ﴾، أي: الشرك والكفر والرجوع عن الإسلام، والكيد له ومظاهرتهم على المؤمنين؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة:١٩١]، أي: الشرك أشد من القتل.

قال الإمام أحمد في قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ [النور:٦٣]، قال: «أتدري ما الفتنة؟ الفتنة: الشرك»(١).

﴿لَأَتَوْهَا﴾؛ قرأ نافع وأبو جعفر وابن كثير: «﴿لَأَتَوْهَا﴾ من غير مد، وقرأ الباقون بالمد: ﴿لَآتَوْهَا﴾، واللام: واقعة في جواب «لو»، أي: لأعطوها مبادرين، دون ممانعة.

﴿وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ﴾، أي: وما تريثوا ﴿بِهَآ﴾، أي: بإعطاء الفتنة بالشرك والكفر والانحياز إلى الكفار.

﴿إِلَّا يَسِيرًا﴾؛ «إلا»: أداة حصر، أي: إلا وقتًا يسيرًا، أي: قليلًا، أي: ريثما يكون السؤال والجواب؛ لأنهم لا ثبات عندهم، ولا إيمان لديهم، ولا مبدأ لهم يتمسكون به، بل يميلون مع الريح حيث مالت تبعًا لأهوائهم وشهواتهم.

﴿وَلَقَدْ كَانُواْ عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ﴾؛ الواو: حالية، أي: والحال أنهم قد كانوا عاهدوا الله من قبل هذا الخوف، واللام: لام القسم لقسم مقدر، و«قد»: حرف تحقيق.

﴿لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾، أي: لا يفرون من الزحف، ويهربون من المعركة. والأدبار: الظهور، وأطلق على الفرار من الزحف: «تولية الأدبار»؛ تقبيحًا وتشنيعًا له.

وهذا العهد بينهم وبين الرسول ﷺ، والمعاهدة مع الرسول ﷺ معاهدة مع الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾[الفتح:١٠].

فهم عاهدوا الرسول ﷺ ألا يفروا، ولا يولوا الأدبار، ولكنهم نقضوا العهد؛ ولهذا توعدهم الله، فقال:

﴿وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا﴾، أي: مسؤولًا عنه، أي: أن الله سيسألهم عن ذلك

(١) أخرجه ابن بطة في «الإبانة الكبرى» رقم ٩٧، وذكره ابن تيمية في «الصارم المسلول» ص٥٦.

العهد الذي نقضوه ولم يفوا به، وسيحاسبهم ويعاقبهم على نقضه. وفي هذا تهديد ووعيد لهم، وحث على الوفاء بعهد الله، وتحذير من نقضه؛ كما قال ﷺ: «**كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته**»(١).

﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ﴾، أي: قل لهم يا محمد: لن ينفعكم الفرار من الزحف، والهروب من القتال، والانصراف إلى بيوتكم، أي: لن يفيدكم شيئًا.

﴿إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ﴾، أي: إن فررتم لتسلموا من الموت أو القتل، فلن يؤخر ذلك آجالكم، ولن يزيد في أعماركم، والحذر لا ينجي من القدر؛ كما قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران:١٥٤].

﴿وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، أي: وحين تفرون من الموت أو القتل لا تمتعون في الحياة إلا متاعًا ووقتًا قليلًا، وهو بقية أعماركم، ومتاع الدنيا كله قليل؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [النساء:٧٧].

﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾، الاستفهام: للنفي، مشرب بالتحدي، و«ذا»: ملغاة، أي: من الذي يمنعكم ويجيركم من الله؟

﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا﴾؛ من قتل وبلاء، ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾؛ من سلامة وعافية، أي: أنه لا أحد يعصمكم من الله إن أراد بكم هذا أو هذا، فلا الفرار ينفعكم، ولا أحد من الخلق يمنعكم.

﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي: غير الله عز وجل ﴿وَلِيًّا﴾؛ يجلب لهم النفع والخير، ويغيثهم، ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾؛ يدفع عنهم الشر والضير، ويجيرهم؛ لأنه عز وجل هو وحده المعطي المانع، الضار النافع، الذي لا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يدفع السيئات إلا هو؛ كما جاء في الحديث: «**اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا**

(١) أخرجه البخاري في النكاح ٥٢٠٠، ومسلم في الإمارة ١٨٢٩، وأبو داود في الخراج ٢٩٢٨، والترمذي في الجهاد ١٧٠٥؛ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك»(١).

قوله تعالى: ﴿۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾﴾:

قوله: ﴿۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ﴾، أي: المثبطين عن الجهاد، المخذلين عن الخروج إليه منكم؛ وهم المنافقون، و«قد»: للتحقيق.

وجاء التعبير: «قد يعلم»، ولم يقل: قد علم؛ ليفيد أن علم الله بهم مستمر من ذلك الوقت إلى اليوم، وما بعده.

﴿وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾، أي: لأصحابهم وعشرائهم وخلطائهم من المنافقين.

﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾، أي: تعالوا إلينا، وإلى ما نحن فيه من الإقامة في الظلال والثمار، أي: ارجعوا؛ كما تقدم من قولهم: ﴿يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾ [الأحزاب:١٣].

﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، أي: ولا يأتون الحرب والقتال﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾؛ «إلا»: أداة حصر، أي: إلا إتيانًا قليلًا؛ رياءً، وتعذيرًا ودفعًا عن أنفسهم المؤمنين؛ لضعف الداعي عندهم، وانعدامه من الإيمان والصبر، ولجبنهم ونفاقهم، فهم لا يشهدون القتال، ولا يتركون غيرهم ليشهده.

﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾؛ «أشحة»: حال، وهي جمع شحيح، والشح: المنع مع الحرص، أي: أشحة عليكم بالقتال معكم بأبدانهم، وبالإنفاق معكم من أموالهم، فلا يجاهدون بأموالهم، ولا بأنفسهم.

﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ﴾، أي: إذا حضر القتال،﴿رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ﴾؛ يمينًا وشمالًا، وهنا وهناك، لا تستقر على حال، من شدة الرعب والجبن، والهلع والجزع، والخوف من إجبارهم على القتال. والخطاب للرسول ﷺ، ولكل من يصلح له.

---

(١) أخرجه أبو داود في الطب ٣٩١٩؛ من حديث عروة بن عامر رضي الله عنه.

﴿كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾، أي: كنظر، أو حال الذي يغشى، أي: يغمى عليه بسبب سكرات الموت، كما قال تعالى: ﴿رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ [محمد:٢٠].

﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ﴾، أي: انتهى القتال، واطمأن الناس، وزال الخوف.

﴿سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾، أي: رموكم وأصابوكم بألسنة ذربة فصيحة بليغة، حادة سليطة عالية؛ مدعين لأنفسهم كذبًا بأنهم أهل الشجاعة والنجدة والإقدام، وأنهم خرجوا معكم وشاركوكم وساعدوكم.

﴿أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ﴾، أي: شديدي الحرص والطمع عند قسمة الغنائم، حريصين كل الحرص على المال، لا خير فيهم؛ كما قال الله تعالى عنهم في سورة النساء: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾﴾ [النساء:٧٢- ٧٣].

وقال تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ [النساء:١٤١].

قال قتادة: «أما عند الغنيمة فأشح قوم، وأسوأ مقاسمة: أعطونا أعطونا؛ فإنا قد شهدنا معكم، وأما عند البأس فأجبن قوم، وأخذله للحق»(١).

﴿أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا﴾، أي: أولئك المعوقون الموصوفون بما ذكر لم يؤمنوا، أي: ليسوا بمؤمنين، بل هم منافقون؛ ولو كانوا مؤمنين ما كانوا يُعَوِّقون عن الجهاد، ويخافون من البأس، ويدّعون ما لا يستحقون من الغنيمة عند انتهاء القتال؛ ولهذا قال: ﴿فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ﴾، أي: فأبطل الله أعمالهم، أي: أبطل ثوابها، فلم ينتفعوا بها؛ لأن من شرط قبول العمل: الإيمان، وهم ليسوا بمؤمنين؛ ولهذا قال تعالى عن الكفار: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان:٢٣].

﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾، أي: وكان إحباط أعمالهم على الله سهلًا هينًا؛

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٩/ ٥٤.

لأنه عز وجل لا يعجزه شيء، وليس بينه وبين أحد من الخلق نسب، إنما هي أعمالهم.

قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾﴾:

قوله: ﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ﴾، أي: يظن هؤلاء المنافقون- من شدة جبنهم وخوفهم وحبهم للحياة وتعلقهم بالدنيا- أن الأحزاب الذين حاصروا المدينة ما زالوا باقين.

﴿لَمْ يَذْهَبُوا۟﴾، أي: لم ينصرفوا خائبين خاسرين.

وقال السعدي(١): «أي: يظنون أن هؤلاء الأحزاب- الذين تحزبوا على حرب رسول الله ﷺ وأصحابه- لم يذهبوا حتى يستأصلوهم، فخاب ظنهم، وبطل حسبانهم».

﴿وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ﴾، أي: يرجعوا إلى حصار المدينة، وهذا على سبيل الفرض والتقدير.

﴿يَوَدُّوا۟﴾، أي: يود هؤلاء المنافقون، أي: يحبون ويتمنون﴿لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ﴾؛ «لو»: حرف تمنٍّ، أي: لو أنهم ساكنون في البادية، بعيدون كل البعد عن المدينة، حتى لا يشاركوا في القتال مع المؤمنين، ولا يلامون في ترك ذلك؛ لبعدهم عنها.

﴿يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ﴾؛ روى رويس عن يعقوب بتشديد السين وفتحها وألف بعدها: «يَسَّاءَلُونَ»، وقرأ الباقون بإسكانها من غير ألف: ﴿يَسْـَٔلُونَ﴾، أي: يسألون القادمين عن أخباركم، وما كان من أمركم وعدوكم، متربصين بكم الدوائر عسى أن يسمعوا خبرًا بانتصار عدوكم فيفرحوا ويشمتوا بكم.

﴿وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا﴾، أي: ولو كانوا فيكم، وبين أظهركم، ما قاتلوا معكم إلا قليلًا، رياءً ومخافة التعيير؛ لشدة جبنهم، وضعف يقينهم، وعدم إيمانهم؛ كما هو شأنهم في الصلاة؛ وهي أعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٦/ ٢٠٧.

قَلِيلًا﴾ [النساء:١٤٢].

والمراد: أن خروجهم معكم لا ينفعكم، بل قد يضركم، وعدمه أفضل لكم، فلا تبالوهم.

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب بالنداء؛ للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾.

٢- نداء المؤمنين بوصف الإيمان تشريفًا وتكريمًا لهم، وترغيبًا في الاتصاف بهذا الوصف، وأن امتثال ما بعده من مقتضيات الإيمان، وعدم امتثاله يعد نقصًا في الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

٣- تذكير المؤمنين بنعمة الله تعالى عليهم؛ بنصرهم على الأحزاب الذين تحزبوا وتعاهدوا على استئصال الرسول ﷺ وأصحابه، وذلك في غزوة الخندق، بإرسال ريح الصَّبا والملائكة عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ الآيات.

والنعمة كما تكون في جلب الخير تكون في دفع الشر.

٤- أن النعمة على الرسول ﷺ والمؤمنين في عهده بالنصر، نعمة على اللاحقين من المؤمنين إلى يوم القيامة؛ لأن الله امتن بهذا النصر على جميع المؤمنين.

٥- كثرة الأحزاب الذين تحزبوا على الرسول ﷺ وأصحابه، وجاؤوا إليهم وحاصروا المدينة؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾، أي: جنود كثيرون.

٦- أن أهل الكفر على اختلاف نحلهم ودياناتهم ملة واحدة ويد واحدة ضد الإسلام وأهله.

٧- تمام قدرة الله تعالى وقوته وعزته، وكثرة جنوده، وتسخيره ريحًا شديدة وجنودًا من ملائكته لهزيمة الأحزاب، ونصرة الرسول ﷺ وأصحابه؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾.

٨- أن الريح من أعظم مخلوقات الله تعالى، يرسلها الله عز وجل لنصرة أوليائه، وإهلاك أعدائه؛ ولهذا قال ﷺ: «**نصرت بالصَّبا، وأهلكت عاد بالدبور**»، وأنها تأتي عذابًا كما تأتي رحمةً.

٩- إثبات وجود الملائكة، وأنهم جنود الله، وأنهم غالبًا لا يشاهَدون؛ لقوله تعالى: ﴿وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾.

١٠- إحاطة علم الله تعالى، واطلاعه التام، وبصره بأعمال العباد كلها، ونصره لأوليائه في الدنيا، وهزيمة أعدائهم، ومحاسبته يوم القيامة لجميع الخلائق؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾، وفي هذا وعد للمؤمنين ووعيد للكافرين.

١١- إطباق الأحزاب على المدينة كفكي الأسد، ومحاصرتهم المؤمنين من فوقهم ومن أسفل منهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾.

١٢- عظم ما أصاب المؤمنين من الكرب، وما ألم بهم من الخطب ذلك اليوم، فزاغت الأبصار وشخصت، وبلغت منهم القلوب الحناجر وارتفعت؛ من شدة الخوف والقلق والفزع؛ والحيرة والذهول والدهشة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾.

١٣- أن الخوف الطبيعي من مخلوق لا يؤاخذ به ولا يعد شركًا.

١٤- أن المخاوف تربك الإنسان، وتتوارد معها الظنون الكثيرة المختلفة، بل والسيئة أحيانًا، وبخاصة عند ضعاف الإيمان، والمنافقين الذين نجم نفاقهم وظهر، فظنوا أن الله لن ينصر دينه ورسوله، وأن ما وعد الله ورسوله غرور وباطل، وغير ذلك، بينما ظن المؤمنون أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾.

وقد ترد عند الضعف بعض الخواطر السيئة حتى عند بعض المؤمنين، من الصحابة وغيرهم، ولكنها سرعان ما تزول، وقد قال الله عز وجل عن الرسل عليهم الصلاة والسلام: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ [يوسف:١١٠](١).

١٥- شدة ما حصل من الابتلاء والامتحان للمؤمنين، والاضطراب والفتنة العظيمة؛ لتمحيصهم وتميز المنافقين من المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ

(١) انظر: ما سبق في الكلام على هذه الآية في سورة يوسف.

وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾.

١٦- أن الشر ليس إلى الله، والخير كله بيديه؛ لهذا ذكر الله النعمة مضافة إليه، وكذا إرسال الريح والجنود، وذكر فعل الابتلاء والزلزال مبنيًّا لما لم يسم فاعله فقال: ﴿ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا﴾.

١٧- حكمة الله تعالى في ابتلاء المؤمنين، وأن هذا من سننه الكونية؛ كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَاءُ وَٱلضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة:٢١٤].

١٨- ظهور نفاق المنافقين ومرضى القلوب بسبب هذا الابتلاء، وانتهازهم الفرصة لتكذيب وعد الله ورسوله بنصر المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾.

١٩- أن الله ورسوله قد وعد المؤمنين بالنصر في القرآن والسنة.

٢٠- إرجاف المنافقين بالمؤمنين، وتخذيلهم إياهم، ودعوتهم لهم بالرجوع وترك الجهاد؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا﴾.

٢١- عدم اعتبار المنافقين رابطة الأخوة الإيمانية بينهم وبين غيرهم من المؤمنين؛ لما يضمرونه من الكفر؛ ولهذا نادوا المؤمنين باسم الوطن بقولهم: ﴿يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ﴾.

٢٢- أن «يثرب» اسم من أسماء «المدينة»؛ للآية، وكما جاء في الحديث، لكن الأولى ألا تسمى به، بل يقال: «المدينة» كما قال ﷺ في الحديث الآخر: «**يقولون يثرب وهي المدينة**»(١).

٢٣- استئذان فريق من المنافقين النبي ﷺ للانصراف إلى منازلهم؛ معللين لذلك ومعتذرين كذبًا بأن بيوتهم عورة، يخافون استباحة العدو لها؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾.

---

(١) سبق تخريجها.

٢٤- إبطال زعمهم أن بيوتهم عورة، وبيان أن مرادهم بذلك الفرار من الزحف؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾.

٢٥- إثبات الإرادة والاختيار للإنسان، وأنه ليس مجبورًا على أفعاله؛ كما يقول الجبرية؛ لقوله تعالى: ﴿إِن يُرِيدُونَ﴾.

٢٦- إثبات علم الله تعالى بما في القلوب، وما تخفيه الصدور؛ لقوله تعالى: ﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾، وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ﴾.

٢٧- مسارعتهم للكفر والشرك، والاصطفاف مع العدو لو انتصر وطلب منهم ذلك؛ لضعف إيمانهم أو انعدامه وخيانتهم وغدرهم، وشدة خوفهم، وحرصهم على الحياة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلْفِتْنَةَ لَأٓتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾﴾.

٢٨- أن أعظم الفتنة: الكفر والشرك، ومظاهرة الكفار على المؤمنين.

٢٩- استهانة المنافقين بحق الله، ونقضهم ما عاهدوا الله عليه من قبل، بأنهم لا يولون الأدبار، ونقضهم ذلك بفرارهم من الزحف بسبب جبنهم وخوفهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَانُواْ عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾.

٣٠- توعدهم بأنهم مسؤولون عن هذا العهد الذي نقضوه، ومحاسبون عليه، وفي هذا إثبات البعث والحساب، وأن كل من عاهد الله سيسأل: هل وفى بعهده أو نقضه؟ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا﴾.

٣١- تحريم الفرار من الزحف وتولية الأدبار.

٣٢- أنه لا ينجي حذر من قدر؛ فالفرار من الزحف لا ينجي من الموت والقتل، ولا يؤخر الأجل، ولا يزيد في العمر؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ﴾.

٣٣- أن البقاء في الدنيا قليل، وأن من فر من الزحف فلن يمتع في الدنيا إلا قليلًا، وهو بقية عمره، وعمره كله مهما طال فهو قليل، بل الحياة الدنيا كلها في الآخرة قليل؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، وفي هذا توبيخ لهم.

٣٤- أنه لا عاصم لهؤلاء الفارين من الزحف، ولا لغيرهم من أمر الله؛ إن أراد بهم سوءًا من قتل وبلاء، أو أراد بهم رحمة من سلامة وعافية، وغير ذلك، فمراده عز وجل نافذ فيهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾.

كما قال ﷺ: «**اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت**»[1].

٣٥- إثبات الإرادة الكونية لله تعالى؛ وهي المشيئة.

٣٦- أن كل ما يقع في الكون من سوء وشر، أو رحمة وخير؛ كل ذلك بتقدير الله تعالى وإرادته الكونية ومشيئته.

٣٧- أنه لا ولي ولا نصير لهؤلاء المنافقين ولا لغيرهم من الكفار من دون الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾.

٣٨- إثبات ولاية الله للمؤمنين، وأن من لا يتولاه الله وينصره، فلا ولي له، ولا ناصر.

٣٩- علم الله تعالى التام بالمعوِّقين المخذلين عن الخروج للجهاد، والمرجفين الداعين للرجوع عنه، من المنافقين وغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾.

٤٠- سعة علم الله تعالى وإحاطته بكل شيء، مما كان ومما يكون، ومما لم يكن لو كان كيف كان يكون.

٤١- أخوة المنافقين وغيرهم من الكفار فيما بينهم، بعضهم لبعض؛ لقوله تعالى: ﴿لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الحشر:١١].

٤٢- عدم شهود المنافقين ومرضى القلوب القتال إلا قليلًا؛ رياءً، ودفعًا للتعيير عن أنفسهم؛ لجبنهم وضعف إيمانهم أو عدمه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان، الذكر بعد الصلاة ٨٤٤، ومسلم في المساجد، استحباب الذكر بعد الصلاة ٥٩٣؛ من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

٤٣- شحهم على المؤمنين، فلا يعينونهم لا بأموالهم، ولا بأنفسهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾.

٤٤- شدة هلعهم وخوفهم وفزعهم، ومحبتهم للحياة، فإذا حضر القتال رأيت نظرهم لا يستقر على حال، تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾.

٤٥- شدة سكرات الموت، وقوة تصوير القرآن للأحوال.

٤٦- شجاعتهم بالقول إذا ذهب الخوف، وسلاطة ألسنتهم وحدتها، وادعاؤهم كذبًا أنهم أهل النجدة والإقدام؛ لقوله تعالى: ﴿سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾.

حالهم كما قال الشاعر:

أسد عليَّ وفي الحروب نعامة ... فتخاء تَفْرَق من صفير الصافرِ(١)

٤٧- شدة طمعهم عند قسمة الغنائم، وحرصهم على المال، وانعدام الخير فيهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾.

٤٨- إثبات كفرهم وعدم إيمانهم؛ لأن صفاتهم هذه إنما هي صفات غير المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ﴾.

٤٩- إحباط الله ثواب أعمالهم؛ لفقدانها شرط الإيمان، وكفرهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾.

٥٠- أن إحباط أعمال هؤلاء المنافقين يسير سهل على الله تعالى؛ لأنه عز وجل لا يعجزه شيء، وليس بينه وبين أحد من خلقه نسب؛ إنما هي أعمالهم، فمن عمل خيرًا أثيب عليه، ومن عمل شرًّا عوقب به؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾.

٥١- بلوغ هؤلاء المعوقين والمنافقين الغاية في الجبن؛ فهم لشدة جبنهم بعد أن ذهب الأحزاب ورجعوا خائبين خاسرين: ما زالوا يظنون أنهم لم يذهبوا خوفًا منهم وحبًّا للحياة؛ لقوله تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُواْ﴾.

---

(١) البيت ينسب لعمران بن حطان قاله للحجاج. انظر: عيون الأخبار لابن قتيبة ١/ ٣٦٣، ربيع الأبرار للزمخشري ٤/ ١٠٦، جمهرة اللغة ٢/ ٩٢٣.

٥٢- أنه لو جاء الأحزاب مرة أخرى- فرضًا وتقديرًا- لودوا أنهم من أهل البادية يسألون عن أخبار المؤمنين، وليسوا من سكان المدينة، حتى لا يشاركوا في القتال، ولا يلحقهم اللوم؛ لبعدهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ﴾.

٥٣- تربص المنافقين بالمؤمنين الدوائر، وسؤالهم عن أخبارهم عسى أن يسمعوا خبرًا بانتصار عدوهم، فيفرحوا عليهم، ويشمتوا بهم.

٥٤- أن هؤلاء المنافقين لو لم يكونوا في البادية- بل بين ظهراني المؤمنين- ما قاتلوا معهم إلا قليلًا؛ رياءً، وخوفًا من افتضاح أمرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا﴾، أي: فلا تكترثوا بهم، فوجودهم كعدمه، بل عدم وجودهم أفضل.

* * *

قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾:

قوله: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾؛ قرأ عاصم بضم الهمزة: ﴿أُسْوَةٌ﴾، وقرأ الباقون بكسرها: «إِسْوَةٌ».

أي: لقد كان لكم أيها المؤمنون في رسول الله ﷺ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾، أي: قدوة حسنة، فالأسوة: القدوة، وهي نوعان: أسوة حسنة، وهي القدوة بالرسول ﷺ، وأسوة سيئة، وهي: القدوة بغيره فيما خالف سنته ﷺ.

أي: لقد كان لكم في رسول الله قدوة حسنة، يجب أن تقتدوا به في أقواله وأفعاله، وفي إخلاصه، وأخلاقه وشمائله، وفي ثباته في الشدائد، وصبره في البأساء والضراء، وفي مصابرته يوم الأحزاب، ومرابطته ودعوته ومجاهدته وانتظاره الفرج من ربه عز وجل، وفي جميع سنته؛ فمن تأسى به ﷺ فقد سلك الصراط المستقيم، المؤدي إلى مرضاة الله تعالى، وإلى العقبى الحسنة، والسعادة في الدنيا والآخرة.

﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ﴾؛ «من»: اسم موصول بدل من الضمير في «لكم» مع إعادة الجار؛ بدل بعض من كل، أي: للذي كان منكم﴿يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ﴾، أي: يأمل لقاء الله تعالى، ويؤمن به، ويطمع في ثوابه، ويخشى عقابه.

﴿وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾، أي: ويرجو اليوم الآخر، أي: ويؤمن باليوم الآخر يوم القيامة، ويؤمل الفوز فيه بالجنة، والنجاة من النار.

﴿وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾؛ بأنواع الذكر؛ بقلبه ولسانه وجوارحه، والتعبد لله تعالى بما شرع من العبادات القلبية والقولية والفعلة، الواجبة والمندوبة، في جميع أحيانه وأحواله، وابتعد عن كل ما نهى الله تعالى عنه.

فلا يوفق لهذه الأسوة الحسنة إلا من كان يرجو الله واليوم الآخر، وذكر الله كثيرًا؛ لأن رجاءه ثواب الله، وخوفه من عقابه، يحثه على التأسي بالرسول ﷺ، وذكر الله عز وجل.

قال ابن كثير(١): «فهذه الآية الكريمة أصل كبير في التأسي به ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله».

وقال السعدي: «واستدل الأصوليون في هذه الآية: على الاحتجاج بأفعال الرسول ﷺ، وأن الأصل أن أمته أسوته في الأحكام، إلا ما دل الدليل الشرعي على اختصاصه به».

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمۡ إِلَّآ إِيمَٰنٗا وَتَسۡلِيمٗا ٢٢﴾:

لما ذكر حال المنافقين ومرضى القلوب، الذين نجم نفاقهم لما حصل لهم هذا الابتلاء، فقالوا: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا﴾؛ ذكر حال المؤمنين، الذين استدلوا بذلك على صدق وعد الله ورسوله، بأن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرًا، وأن العاقبة للتقوى، فازداد إيمانهم.

قوله: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ﴾، أي: ولما رأى المؤمنون المصدقون بوعد الله الأحزاب قد تحزبوا عليهم وحاصروهم.

﴿قَالُواْ﴾ بيقين وثبات وتصديق لوعد الله ورسوله بما سيحصل لهم من الابتلاء والتمحيص، ثم تكون لهم العاقبة والنصر بإذن الله تعالى: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾، أي: هذا الذي وعدنا الله ورسوله من الابتلاء والامتحان؛ كما قال تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن

---

(١) في «تفسيره» ٦/ ٢٠٨.

تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة:٢١٤].

وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران:١٤٢].

﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾؛ فقد رأينا ما أخبرنا الله به ورسوله حقًّا وصدقًا، والصدق: مطابقة الخبر للواقع.

﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾، أي: وما زادهم رؤية الأحزاب وتألبهم عليهم ﴿إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾؛ «إلا»: أداة حصر، أي: إلا إيمانًا وتصديقًا بقلوبهم، ﴿وَتَسْلِيمًا﴾؛ بجوارحهم لحكم الله وقضائه وقدره، وانقيادًا لأمره، وطاعة لرسوله ﷺ.

قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾﴾.

لما ذم المنافقين ومرضى القلوب بفرارهم من الزحف، وتوليهم الأدبار، ونقضهم ما عاهدوا الله عليه، امتدح المؤمنين، وأثنى عليهم بتصديقهم ما عاهدوا الله عليه، وثباتهم على العهد، ووفائهم به.

سبب النـزول:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: «غاب عمي أنس بن النضر عن قتال بدر، فقال: يا رسول الله، غبتُ عن أول قتال قاتلتَ المشركين، لئن الله أشهدني قتال المشركين ليرين الله ما أصنع، فلما كان يوم أحد وانكشف المسلمون، قال: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء- يعني: أصحابه- وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء- يعني: المشركين- ثم تقدم، فاستقبله سعد بن معاذ، فقال: يا سعد بن معاذ، الجنة، ورب النضر، إني لأجد ريحها من دون أحد، قال سعد: فما استطعتُ يا رسول الله ما صنع.

قال أنس: فوجدنا به بضعًا وثمانين ضربة بالسيف، أو طعنة برمح، أو رمية بسهم، ووجدناه قد قتل وقد مثل به المشركون، فما عرفه أحد إلا أخته ببنانه.

قال أنس: كنا نُرى أو نظن أن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ إلى آخر الآية».

وفي بعض الروايات: «فأنزل الله هذه الآية»(١).

قوله: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ «من»: تبعيضية، ونكّر «رجال»: للتعظيم، أي: من المؤمنين رجال عظماء،﴿صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾، أي: وفوا بالذي عاهدوا الله عليه، وقاموا به وأتموه وأكملوه، بالصبر والثبات في القتال لإعلاء كلمة الله، وبذل مهجهم في مرضاة الله، ومسارعتهم إلى مغفرة الله تعالى وطاعته بالأعمال الصالحات، ومجانبة السيئات.

عن زيد بن ثابت رضي الله عنه، قال: «لما نسخنا الصحف في المصاحف، فقدت آية من سورة الأحزاب، كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرؤها، لم أجدها مع أحد إلا مع خزيمة الأنصاري، الذي جعل رسول الله ﷺ شهادته بشهادة رجلين: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾»(٢).

﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾، أي: فمن هؤلاء الرجال العظماء﴿مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾، أي: الذي قضى نحبه، أي: وفى بنذره وعهده في نصرة دين الله، وقضى حياته وأجله، فقتل شهيدًا في سبيل الله، أو مات وهو على العهد مقيمًا على طاعة الله ودينه.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ قضاء نحبه، بأن يستشهد في سبيل الله، أو يموت وهو ثابت على عهد الله ودينه وطاعته.

﴿وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾: تأكيد لقوله: ﴿صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾، وتعريض بالمنافقين الذين بدلوا ونقضوا ما عاهدوا الله عليه، و«تبديلًا»: مفعول مطلق.

والتبديل: التغيير، أي: وما غيروا ما عاهدوا الله عليه، وما نقضوه، بل وفوا به وأتموه، وثبتوا على عهدهم ودينهم، حتى لقوا الله وهم على العهد، وكفاهم ذلك شرفًا وفضلًا.

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد، قوله تعالى:﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ ٢٨٠٦، ومسلم في الإمارة، ثبوت الجنة للشهيد ١٩٠٣، وأحمد ٤/ ١٩٣.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة الأحزاب ٤٧٨٤، وأحمد ٥/ ١٨٨، ١٨٩.

من هؤلاء الرجال الذين ثبتوا في وجه العدو يوم أحد: أنس بن النضر؛ كما جاء في سبب النزول، وعثمان بن عفان، وطلحة بن عبيدالله، وحمزة، وسعيد بن زيد، ومصعب بن عمير رضي الله عنهم، فأما أنس بن النضر، وحمزة، ومصعب بن عمير رضي الله عنهم، فقد استشهدوا يوم أحد، وأما طلحة فقد قطعت يده يومئذ وهو يدافع عن رسول الله ﷺ، وأما بقيتهم فقد قاتلوا ونجوا، وانتظروا نحبهم بعد ذلك.

عن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**طلحة ممن قضى نحبه**»(١).

﴿لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾؛ اللام: للتعليل، أي: وقع ما وقع من وفاء المؤمنين بما عاهدوا الله عليه، ونقض المنافقين، لأجل أن يجزي الله الصادقين بالأجر العظيم والثواب الجزيل.

﴿بِصِدْقِهِمْ﴾؛ الباء: للسببية، أي: بسبب صدقهم بما عاهدوا الله عليه من الإيمان، والعمل الصالح، والجهاد في سبيله؛ كما قال تعالى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَـٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّـٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾﴾ [المائدة:١١٩].

﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ﴾ معطوف على «يجزي»؛ أي: ويعذب المنافقين بالنار، بسبب نفاقهم وكفرهم، ونقضهم ما عاهدوا الله عليه، ﴿إِن شَآءَ﴾ تعذيبهم وأراده كونًا؛ بأن يميتهم على النفاق؛ لأن من مات على النفاق فهو معذب لا محالة وفي الدرك الأسفل من النار.

﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ﴾ إن شاء؛ بأن يوفقهم للإيمان والتوبة والإخلاص، والعمل الصالح، فيثيبهم ولا يعذبهم.

أي: أن الله عز وجل قدّر ما قدر من هذا الابتلاء والامتحان والزلزال؛ لتمحيص الصادقين من المنافقين، ومجازاة الصادقين وإثابتهم بسبب صدقهم وإيمانهم، وتعذيب

---

(١) أخرجه الترمذي في تفسير سورة الأحزاب ٣٢٠٢، وابن ماجه في المقدمة ١٢٦، وقال الترمذي: «حديث غريب».

المنافقين بسبب نفاقهم وكفرهم ونقضهم عهد الله؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ [محمد:٣١]، وقال تعالى: ﴿مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ [آل عمران:١٧٩].

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا﴾، أي: ذا مغفرة واسعة، يستر ذنوب عباده عن الخلق، ويتجاوز عنهم، فلا يعاقبهم عليها؛ كما جاء في حديث ابن عمر رضي الله عنهما في تقرير العبد بذنوبه: «**فيقول الله عز وجل: أنا سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم**»(١).

﴿رَّحِيمًا﴾، أي: ذا رحمة واسعة؛ رحمة: هي صفة من صفاته عز وجل الذاتية الثابتة له سبحانه، ورحمة: هي صفة من صفاته عز وجل الفعلية، التي يوصلها إلى من شاء من خلقه؛ كما قال تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ﴾ [العنكبوت:٢١].

فبمغفرته عز وجل ورحمته وفق من شاء من هؤلاء المنافقين للتوبة، وقبلها منهم.

وقدم المغفرة على الرحمة؛ لأن التخلية قبل التحلية.

قوله تعالى: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ۚ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾.

قوله: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، أي: أرجع الله الأحزاب بسبب كفرهم وظلمهم واعتدائهم.

﴿بِغَيْظِهِمْ﴾؛ الباء: للملابسة، والغيظ: الحنق، وأشد الغضب، أي: مغتاظين مقهورين؛ لخيبتهم، وعدم تحقق مرادهم، مع ما أصابهم من الشدة والنصب والمشقة في أموالهم وأنفسهم.

﴿لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا﴾ «خيرًا»: نكرة في سياق النفي فتعم، أي: لم يصيبوا أيَّ خير مهما قل؛ من نصر، أو غنيمة، أو غير ذلك، بل نالوا الخيبة وخسروا الخسران المبين.

﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾، أي: وأغنى الله المؤمنين وأراحهم وحده من

(١) سبق تخريجه.

كلفة القتال ومشقته، بما أرسل على الأحزاب من الريح والملائكة، فصدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده؛ كما كان رسول الله ﷺ يقول: «**لا إله إلا الله وحده، أعز جنده، ونصر عبده، وغلب الأحزاب وحده، فلا شيء بعده**»(١).

وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما: «**صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده**»(٢).

وعن عبدالله بن أبي أوفى رضي الله عنه، قال: دعا رسول الله ﷺ على الأحزاب، فقال: «**اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم**». وفي رواية: «**اللهم منزل الكتاب، وهازم الأحزاب، اهزمهم وانصرنا عليهم**»(٣).

قال ابن كثير(٤): «فسلط الله عليهم هواء فرق شملهم؛ كما كان سبب اجتماعهم من الهوى، وهم أخلاط من قبائل شتى، أحزابٍ وآراءَ، فناسب أن يرسل عليهم الهواء، الذي فرق جماعتهم، وردهم خائبين خاسرين بغيظهم وحنقهم، لم ينالوا خيرًا، لا في الدنيا، مما كان في أنفسهم من الظفر والمغنم، ولا في الآخرة، بما تحملوه من الآثام في مبارزة الرسول صلوات الله وسلامه عليه بالعداوة، وهمهم بقتله، واستئصال جيشه، ومن هم بشيء وصدق همه بفعله، فهو في الحقيقة كفاعله».

وفي قوله: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾؛ إشارة إلى وضع الحرب بينهم وبين قريش، وهكذا وقع بعدها، لم يغزهم المشركون، بل غزاهم المسلمون في بلادهم؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ حين أجلى الأحزاب عنه: «**الآن نغزوهم ولا يغزوننا، نحن نسير إليهم**»(٥).

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي ٤١١٤؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الحج ١٧٩٧، ومسلم في الحج ١٣٤٤، وأبو داود في الجهاد ٢٧٧٠، والترمذي في الحج ٩٥٠.

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٩٣٣، ٢٩٦٦، ومسلم في الجهاد والسير ١٧٤٢، وأبو داود في الجهاد ٢٦٣١، والترمذي في الجهاد ١٦٧٨، وابن ماجه في الجهاد ٢٧٩٦.

(٤) في «تفسيره» ٦/ ٣٩٦.

(٥) أخرجه البخاري في المغازي ٤١١٠، وأحمد ٤/ ٢٦٢؛ من حديث سليمان بن صرد رضي الله عنه.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾، أي: ذا القوة العظيمة، فلا يعارض قوته شيء؛ كما قال تعالى: ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات:٥٨].

والقوة: صفة يتمكن بها القوي من فعل ما يريد بدون ضعف، وهي أعلى من القدرة؛ لأن القدرة صفة يتمكن بها القادر من فعل ما يريد بدون عجز.

﴿عَزِيزًا﴾: ممتنعًا بنفسه، قاهرًا غالبًا على أمره؛ ولهذا رد هؤلاء الأحزاب بحوله وقوته خائبين خاسرين لم ينالوا خيرًا.

قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾:

لما ذكر ما أوقعه عز وجل بالأحزاب من الكفار؛ من ردهم بغيظهم وحنقهم لم ينالوا أيَّ خير، سوى الخيبة والخسران، أتبع ذلك بذكر ما أوقعه بالذين ظاهروهم من أهل الكتاب؛ وهم بنو قريظة.

قوله: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم﴾، أي: وأنزل الذين ظاهروا الأحزاب، أي: أعانوهم وناصروهم على النبي ﷺ وأصحابه﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ وهم يهود بني قريظة، الذين لما جاءت الأحزاب وحاصروا المدينة نقضوا العهد الذي كان بينهم وبين رسول الله ﷺ، وذلك حين جاءهم حيي بن أخطب النضري ودخل حصنهم، فلم يزل بسيدهم كعب بن أسد حتى نقض العهد، وبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فشق عليه جدًا وعلى المسلمين، فلما رجع ﷺ إلى المدينة مؤيدًا منصورًا بعد أن رد الله الأحزاب خائبين خاسرين، ووضع السلاح أمره الله بالخروج إلى بني قريظة.

﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾، أي: من حصونهم المنيعة ومآمنهم، وكانت منازلهم وحصونهم في الجنوب الشرقي من المدينة.

﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾، أي: وألقى في قلوبهم الخوف الشديد والهلع والفزع، فاستسلموا وخضعوا وذلوا كما فعل بإخوانهم بني النضير، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ

يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ۞﴾ [الحشر:٢].

وكما فعل بالمشركين يوم بدر، قال تعالى: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ [الأنفال:١٢].

وإذا وقع الرعب في القلب انهزم صاحبه من الداخل، ولا أشد فتكًا بالعدو منه؛ ولهذا قال ﷺ: «**نصرت بالرعب مسيرة شهر**»(١).

﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾؛ «فريقًا»: مفعول به مقدم لـ«تقتلون»، أي: فريقًا تقتلونهم وهم الرجال المقاتلون، وقد بلغ عددهم نحو سبع مئة رجل.

﴿وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾؛ وهم النساء، والصبيان غير البالغين.

عن عطية القرظي، قال: «عرضت على النبي ﷺ يوم قريظة، فشكوا فيَّ، فأمر النبي ﷺ أن ينظروا: هل أَنْبَتّ بعد؟ فنظروا، فلم يجدوني أَنْبَتّ، فخلى عني وألحقني بالسبي»(٢).

وقدم المفعول في قوله: ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾؛ لأن هذا الحكم أشد وأبلغ، وأخره في قوله: ﴿وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾؛ لأن الأسر أخف، ربما يمن على الأسير بإطلاقه، مع ما في ذلك من مراعاة الفواصل.

﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ﴾، أي: ملككم أرضهم وديارهم وأموالهم، وجعلها غنيمة لكم. والأرض: أعم من الديار، والديار: جمع دار، وهي المساكن والأحياء. والأموال: الأمتعة والدراهم والدنانير، والمواشي، وغير ذلك.

﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾، أي: وأورثكم أرضًا لم تطؤوها، وهي أرض بني قريظة التي كانت من قبل من شرفها وعزتها عندهم لا تتمكنون من وطئها، فمكنكم الله منها ومن أهلها.

ويحتمل أن المراد بقوله: ﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾: أرضًا يفتحها المسلمون بعد.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه أبو داود في الحدود، الغلام يصيب الحد ٤٤٠٤، والترمذي في أبواب السير، ما جاء في النزول على الحكم ١٥٨٤، وابن ماجه في الحدود، من لا يجب عليه الحد ٢٥٤٢، وأحمد ٥/ ٣١١، ٣١٢.

قيل: خيبر فتحها النبي ﷺ في السنة السابعة[1]، وقيل: مكة، وقيل: فارس، أو ذلك كله.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٗا﴾، أي: لا يعجزه شيء.

وقوله: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ متعلق بقوله: ﴿قَدِيرٗا﴾، وقدم عليه لتأكيد عموم قدرته تعالى على كل شيء.

ومن تمام قدرته عز وجل على كل شيء أن قدر لكم ما قدر من قتلهم، وأسرهم، ووراثة أرضهم وأموالهم.

عن عائشة رضي الله عنها، قالت: «خرجت يوم الخندق أقفو آثار الناس، قالت: فسمعت وئيد الأرض ورائي- يعني: حس الأرض- قالت: فالتفت، فإذا بسعد بن معاذ، إلى أن قالت: ويرمي سعدًا رجل من المشركين من قريش، يقال له: ابن العرقة بسهم له، فقال له: خذها وأنا ابن العرقة، فأصاب أكحله فقطعه، فدعا الله عز وجل سعد، فقال: اللهم لا تمتني حتى تقر عيني من قريظة. قالت: وكانوا حلفاءه ومواليه في الجاهلية، قالت: فرقأ كلمه، وبعث الله عز وجل الريح على المشركين، فكفى الله عز وجل المؤمنين القتال، وكان الله قويًّا عزيزًا، فلحق أبو سفيان ومن معه بتهامة، ولحق عيينة بن بدر ومن معه بنجد، ورجعت بنو قريظة فتحصنوا في صياصيهم، ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة فوضع السلاح، وأمر بقبة من أدم فضربت على سعد في المسجد، قالت: فجاءه جبريل عليه السلام، وإن على ثناياه لنقع الغبار، فقال: أقد وضعت السلاح؟ والله ما وضعت الملائكة بعد السلاح، اخرج إلى بني قريظة فقاتلهم. قالت: فلبس رسول الله ﷺ لأمته، وأذن في الناس بالرحيل أن يخرجوا، فخرج رسول الله ﷺ، فمر على بني غَنْم- وهم جيران المسجد حوله- فقال: «من مرّ بكم؟»، فقالوا: مرّ بنا دحية الكلبي، وكان دحية الكلبي تشبه لحيته وسنه ووجهه جبريل عليه السلام، فأتاهم رسول الله ﷺ، فحاصرهم خمسًا وعشرين ليلة، فلما اشتد حصارهم، واشتد البلاء، قيل لهم: انزلوا على حكم رسول الله ﷺ.

(١) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام ٢/ ٣٢٨.

فاستشاروا أبا لبابة بن عبد المنذر، فأشار إليهم أنه الذبح، قالوا: ننزل على حكم سعد بن معاذ. فقال رسول الله ﷺ: «**انزلوا على حكم سعد بن معاذ**». فنزلوا، وبعث رسول الله صلى الله عله وسلم إلى سعد بن معاذ، فأتي به على حمار عليه إكاف(١) من ليف قد حمل عليه، وحف به قومه، فقالوا: يا أبا عمرو، حلفاؤك ومواليك وأهل النكاية(٢)، ومن قد علمت. قالت: وأنَّى لا يرجع إليهم شيئًا، ولا يلتفت إليهم، حتى إذا دنا من دورهم التفت إلى قومه، فقال: قد آن لي ألا أبالي في الله لومة لائم. قال: قال أبو سعيد: فلما طلع على رسول الله ﷺ، قال: «**قوموا إلى سيدكم فأنزلوه**». فقال عمر: سيدنا الله عز وجل. قال: «**أنزلوه**». فأنزلوه. قال رسول الله ﷺ: «**احكم فيهم**». قال سعد: فإني أحكم فيهم أن تقتل مقاتلتهم، وتسبى ذراريهم، وتقسم أموالهم. فقال رسول الله ﷺ: «**لقد حكمت فيهم بحكم الله عز وجل وحكم رسوله**». قالت: ثم دعا سعد، قال: اللهم إن كنت أبقيت على نبيك ﷺ من حرب قريش شيئًا فأبقني لها، وإن كنت قطعت الحرب بينه وبينهم فاقبضني إليك. قالت: فانفجر كَلْمه، وكان قد برئ حتى لا يرى منه إلا مثل الخُرْص(٣)، ورجع إلى قبته التي ضرب عليه رسول الله ﷺ، قالت عائشة: فحضره رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر، قالت: فوالذي نفس محمد بيده، إني لأعرف بكاء عمر من بكاء أبي بكر، وأنا في حجرتي، وكانوا كما قال الله عز وجل: ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾، قال علقمة: قلت: أيْ أمه، فكيف كان رسول الله ﷺ يصنع؟ قالت: كانت عينه لا تدمع على أحد، ولكنه كان إذا وجد فإنما هو آخذ بلحيته»(٤).

الفوائد والأحكام:

١- وجوب التأسي والاقتداء بالرسول ﷺ في أقواله وأفعاله، وإخلاصه، وشمائله

(١) الإكاف:البرذعة.

(٢) أي:أهل البأس والشدة، والنكاية بالعدو قتلًا وجراحًا.

(٣) الخرص:الحلقة الصغيرة من الحلي، وهو من حلي الأذن.

(٤) أخرجه أحمد ٦/ ١٤١-١٤٢، ومسلم في الجهاد-جواز قتال من نقض العهد ١٧٦٩، وأخرجاه مختصرًا أيضًا من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه والبخاري في الجهاد والسير ٣٠٤٣، ومسلم في الجهاد والسير ١٧٦٨.

وأخلاقه، وفي جهاده وصبره وثباته، وغير ذلك، واتباع سنته؛ لقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾.

٢- إثبات رسالته ﷺ، وأن الأصل أن أمته ﷺ أسوته في الأحكام؛ إلا ما دل الدليل الشرعي على اختصاصه به.

٣- أن جميع سنة النبي ﷺ وطريقته حسنة، والواجب الاقتداء به اقتداء حسنًا، لا غلو فيه ولا تفريط.

٤- أنه لا يوفق للتأسي بالنبي ﷺ والاقتداء به إلا من كان يؤمن بلقاء الله تعالى، ويرجو ثوابه، ويؤمن باليوم الآخر، ويرجو الفوز فيه، وذكر الله كثيرًا؛ لقوله تعالى: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾.

٥- إثبات لقاء الله تعالى، واليوم الآخر، والحساب والجزاء على الأعمال، ووجوب الإيمان بذلك.

٦- أهمية الإيمان باليوم الآخر؛ لأنه من أعظم ما يحفز على العمل الصالح؛ لأن فيه الثواب والجزاء؛ ولهذا كثيرًا ما يقرن في القرآن الكريم بالإيمان بالله تعالى.

٧- الترغيب بذكر الله تعالى ذكرًا كثيرًا، بالقلب واللسان والجوارح، بالعبادة وأنواع الذكر؛ لقوله تعالى: ﴿وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾.

٨- قوة إيمان أصحاب النبي ﷺ، ويقينهم واستدلالهم بما حصل لهم من الابتلاء والشدة يوم الأحزاب على صدق وعد الله ورسوله، بأن النصر مع الصبر والفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾.

٩- ازديادهم بذلك إيمانًا بقلوبهم، وتسليمًا بجوارحهم لقضاء الله تعالى، وانقيادًا لأمره، وطاعة لرسوله ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾؛ بخلاف المنافقين الذين ازدادوا بذلك شكًّا ونفاقًا.

١٠- أن الإيمان يزيد وينقص؛ يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة.

١١- ثناء الله عز وجل على رجال من المؤمنين، وامتداحه لهم؛ لصدقهم ووفائهم

بما عاهدوا الله عليه، بالصبر والثبات في القتال لإعلاء كلمة الله، وبذل مهجهم في مرضاة الله، ومسارعتهم إلى مغفرة الله تعالى، وطاعته بالأعمال الصالحات؛ لقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾.

١٢- أن من هؤلاء الرجال العظماء من قضى نحبه وعهده فاستشهد في سبيل الله، أو مات وهو على العهد قبل نزول هذه الآيات، ومنهم من ينتظر قضاء نحبه وعهده بأن يقتل شهيدًا في سبيل الله، أو يموت وهو ثابت على العهد، من غير تبديل؛ لقوله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾.

١٣- أن الله عز وجل قدّر صدق المؤمنين ووفاءهم بما عاهدوا الله عليه، وقدر نقض المنافقين لما عاهدوا الله عليه وتوليتهم الأدبار؛ ليجزي الصادقين بسبب صدقهم، ويعذب من شاء من المنافقين، ويتوب على من شاء منهم؛ لقوله تعالى: ﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾.

١٤- أن العمل الصالح سبب لدخول الجنة، وليس عوضًا لذلك؛ لقوله تعالى: ﴿بِصِدْقِهِمْ﴾، أي: بسبب صدقهم. وقد قال ﷺ: «**لن يُدخل أحدًا منكم عملُه الجنة**»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل**»(١).

١٥- أن الجزاء من جنس العمل؛ لقوله تعالى: ﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾.

١٦- ذم النفاق، وأنه سبب للعذاب.

١٧- إثبات المشيئة لله تعالى؛ وهي الإرادة الكونية، وأنه سبحانه يعذب من يشاء بعدله، ويتوب على من يشاء بفضله.

١٨- الترغيب في التوبة، وأن المنافق له توبة.

١٩- إثبات صفتي المغفرة والرحمة الواسعتين لله عز وجل، وأن التخلية قبل التحلية؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

٢٠- رد الله عز وجل الذين كفروا من جنود الأحزاب بغيظهم خائبين خاسرين

---

(١) سبق تخريجه.

لم ينالوا أي خير؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا﴾.

٢١- كفايته عز وجل المؤمنين القتال بما أرسل من الريح والملائكة على الأحزاب؛ مما فرقهم شذر مذر؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾.

وفي هذا إشارة إلى وضع الحرب بين المسلمين وبين قريش، وهكذا وقع فلم تَغْزُ قريش بعدها، بل غزاهم المسلمون في عقر دارهم.

٢٢- إثبات تمام قوة الله تعالى وعزته وقهره فلا يعجزه شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾.

٢٣- إنزاله عز وجل يهود بني قريظة أذلة صاغرين من حصونهم؛ لغدرهم ونقضهم عهدهم مع الرسول ﷺ، ومظاهرتهم الأحزاب، وقذف الرعب في قلوبهم، وتمكين المسلمين من قتل مقاتلتهم، وسبي ذراريهم ونسائهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾﴾، وفي هذا امتنان من الله تعالى على المؤمنين.

٢٤- أن الرعب إذا دخل القلوب من أعظم أسباب الهزيمة للعدو، فلا تنفع معه القوة والحصون والمنعة؛ لأنه هزيمة من الداخل.

٢٥- توريث المسلمين أرضهم وديارهم وأموالهم، وأرضًا لم يطأها المسلمون قبل ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾.

وفي هذا دلالة على حل أموال الكفار المحاربين للمسلمين.

٢٦- شدة عقاب الله عز وجل لبني قريظة؛ لخيانتهم ونقضهم العهد، ولأنهم أهل كتاب، وليس من يعلم كمن لا يعلم، والعقوبة بقدر النعمة.

٢٧- تمام قدرة الله تعالى على كل شيء، فلا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾.

سبب النزول:

عن جابر بن عبدالله- رضي الله عنه- قال: «أقبل أبوبكر- رضي الله عنه- يستأذن على رسول الله ﷺ والناس ببابه جلوس، والنبي ﷺ جالس، فلم يؤذن له، ثم أقبل عمر فاستأذن فلم يؤذن له، ثم أذن لأبي بكر وعمر، فدخلا والنبي ﷺ جالس وحوله نساؤه وهو ساكت، فقال عمر: لأكلمن النبي ﷺ لعله يضحك، فقال عمر: يا رسول الله، لو رأيت ابنة زيد- امرأة عمر- سألتني النفقة آنفًا فوجأت عنقها، فضحك النبي ﷺ حتى بدا ناجذه، وقال: «**هن حولي يسألنني النفقة**». فقام أبوبكر- رضي الله عنه- إلى عائشة- رضي الله عنها- ليضربها، وقام عمر- رضي الله عنه- إلى حفصة ليضربها، كلاهما يقولان: تسألان النبي ﷺ ما ليس عنده، فنهاهما رسول الله ﷺ، فقلن نساؤه: والله لا نسأل رسول الله ﷺ بعد هذا المجلس ما ليس عنده، قال: وأنزل الله- عز وجل- الخيار...»(١).

وفي بعض الروايات: «فاعتزل النبي ﷺ نساءه شهرًا، تسعة وعشرين يومًا، فأنزل الله هذه الآيات»(٢).

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾﴾.

قوله: ﴿قُلْ لِأَزْوَاجِكَ﴾ الأزواج جمع زوج، والمراد: زوجاته ﷺ اللاتي اجتمعن في عصمته وطالبنه بزيادة النفقة مما ليس عنده.

---

(١) أخرجه مسلم في الطلاق-بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقًا إلا بالنية (١٤٧٨)، وأحمد (٣/ ٣٢٨)، وأخرجه مسلم أيضًا (١٤٧٩)، والبخاري في المظالم (٢٤٦٨)-من حديث ابن عباس-رضي الله عنهما- عن عمر-رضي الله عنه-مطولًا.

(٢) أخرجه مسلم في الصيام (١٠٨٤)-من حديث جابر بن عبدالله-رضي الله عنه.

قال عكرمة: «وكان تحته تسع نسوة، خمس من قريش: عائشة، وحفصة، وأم حبيبة، وسودة، وأم سلمة، وكانت تحته ﷺ صفية بنت حيي النَّضريَّة، وميمونة بنت الحارث الهلالية، وزينب بنت جحش الأسدية، وجويرية بنت الحارث المصطلقية، رضي الله عنهن وأرضاهن»[١].

والأمر في قوله عز وجل: ﴿قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾ يقتضي الوجوب، أي: قل لهن مخيرًا: ﴿إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ الآية، وهكذا فعل ﷺ.

﴿إِن كُنتُنَّ﴾ ﴿إِن﴾: شرطية، و﴿كُنتُنَّ﴾: فعل الشرط، وجوابه: ﴿فَتَعَالَيْنَ﴾.

﴿تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾: أي: تطلبنها وتؤثرنها على الآخرة، وهي غاية مطلبكن وما فيها من العيش والمتاع.

والحياة الدنيا: هي هذه الدار التي أوجد الله فيها الحياة فيما خلق من الإنس والجن والحيوان والنبات، وهي ما قبل الموت.

وسُميت بـ(الدنيا)؛ لقربها زمنًا، فهي قبل الآخرة، فهي الأولى، كما قال تعالى: ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴿٤﴾﴾ [الضحى:٤]، وقال تعالى: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾﴾ [النازعات:٢٥].

ولأنها دنيئة لا قيمة لها بالنسبة للآخرة كما وصفها الله- عز وجل- ورسوله ﷺ، قال تعالى: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾ [التوبة:٣٨].

وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾﴾ [الرعد:٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾ [آل عمران:١٨٥].

وقال ﷺ: **«لو كانت الدنيا تساوي عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها شربة ماء»**[٢].

وعن عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه- قال: «نام رسول الله ﷺ على حصير،

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٤٠٤).

(٢) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣٢٠)، وابن ماجه في الزهد (٤١١٠)-من حديث سهل بن سعد-رضي الله عنه، وقال الترمذي: «صحيح غريب»، وصححه الألباني.

فقام وقد أثَّر في جنبه. فقلنا: يا رسول الله، لو اتخذنا لك وطاءً فقال: «**مالي وللدنيا إنما أنا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها**»(١).

بينما قال الله- تعالى- في مدح الآخرة: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت:٦٤].

فهي أي الدنيا قبل الآخرة زمنًا، ودونها مقدارًا، بل لا تساوي شيئًا بالنسبة للآخرة، فأين المتأمل في هذا.

﴿وَزِينَتَهَا﴾ يجوز أن يكون هذا من عطف الخاص على العام، والمراد بزينتها: ما يُتزين به ما فيها من المظاهر والأموال، والأزواج، والأولاد، والقصور، والمراكب، والأنعام، والحروث، وغير ذلك (٢).

قال الله تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف:٤٦]، وقال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [آل عمران:١٤]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ [النحل:٨].

﴿فَتَعَالَيْنَ﴾، أي: أقبلن إليَّ، فهو أمر لهن بالمجيء إليه ﷺ.

﴿أُمَتِّعْكُنَّ﴾: جواب الأمر، أي: أعطيكن المتعة، وهي في حقه ﷺ واجبة لأمر الله- عز وجل- له بذلك في هذه الآية، وقوله تعالى: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾﴾ [البقرة:٢٤١].

والمتعة: ما يتمتع به، من دراهم، أو طعام، أو أثاث، أو لباس، أو غير ذلك تُعطى للمطلقة جبرًا لخاطرها، وتطيبًا لقلبها.

﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ﴾، أي: أطلقكن، وأُخْلِ سبيلكن.

وأصل التسريح: الإرسال والإطلاق، والتخلية ضد التقييد والحبس، قال الله

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣٧٧)، وابن ماجه في الزهد (٤١٠٩)، وصححه الألباني.

(٢) انظر: «لسان العرب»، مادة: «زين».

تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ﴾ [البقرة:٢٢٩] (١).

وقدَّم المتعة على التسريح مع أن الأصل أنها بعده؛ للتأكيد عليها والعناية بها، ولئلا يُتساهل فيها، لما فيها من جبر خاطر الزوجة وتطييب قلبها.

﴿وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا﴾ ﴿سَرَاحٗا﴾: مفعول مطلق، و﴿جَمِيلٗا﴾: صفة له.

أي: طلاقًا وفراقًا جميلًا، من دون مغاضبة، ولا معاداة، ولا مشاتمة، ولا توبيخ، ولا عتاب، ولا هجر، ولا مضارة، ولا أذى، لا بقول ولا بفعل، بل بسعة صدر وانشراح بالٍ، ليذهب كلّ منهما إلى طريقه، لا يحمل في نفسه شيئًا على الآخر، ومن ذلك أنه لو طلقهن لكان لهن الزواج بعده؛ لأن هذا من السراح الجميل.

قال ابن كثير رحمه الله(٢): «وقد اختلف الناس في جواز تزويج غيره لهن لو طلقهن على قولين، وأصحهما: نعم لو وقع، ليحصل المقصود من السراح، والله أعلم».

ويدل قوله: ﴿سَرَاحٗا جَمِيلٗا﴾ على ما منحه الله عز وجل من الخُلق العظيم، كما قال عز وجل: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ٤﴾ [القلم:٤].

فلم يعاتبهن ﷺ أو يوبخهن أو يقل لهن: فتعالين أطلقكن؛ لأنه لا خير فيمن لا تريد إلا الدنيا، أو نحو ذلك، فصلوات الله وسلامه عليه.

وتأمل أخي الكريم كم هو البون الشاسع والفرق الواسع بين هديه ﷺ وبين تصرفات كثير من المسلمين عند طلاق زوجته، وقد قال الله- عز وجل: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ٢١﴾ [الأحزاب:٢١].

واسأل المحاكم الشرعية عما يصدر من كثير من الأزواج عند الطلاق من أقوالٍ وأفعالٍ لا تليق بمن كان له أدنى ضمير، فضلًا عن مسلم، من التلاعب بالطلاق والمشاتمات وهضم الحقوق، ونكران الجميل، والأذى للمطلقة، وقد قال الله- عز وجل: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ

(١) انظر: «لسان العرب»، مادة: «سرح».

(٢) في «تفسيره» (٦/ ٤٠٤).

بِهِۦۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾﴾ [البقرة:٢٢٩].

وقال الله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُواْۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًاۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾﴾ [البقرة:٢٣١].

ولما طلق ابن عمر- رضي الله عنهما- امرأته على خلاف السنة غضب النبي ﷺ وقال: «**أيلعب في كتاب الله تعالى وأنا بين أظهركم**»؟!(١).

قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾.

قوله: ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ أي: وإن كان هذا هو غاية مطلبكن ومرادكن، وقنعتن من الدنيا بما تيسر.

﴿وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ هي: ما بعد الدنيا، والمراد: ما أعده الله- عز وجل- لأوليائه من الجنة دار السلام في الدار الآخرة دار القرار.

وإنما قدَّم- والله أعلم- ذِكْر إرادة الحياة الدنيا وزينتها بناءً على ما جاء في سبب النزول وهو المطالبة بزيادة النفقة، ولأن الحياة الدنيا هي الحاضرة القريبة.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾: جملة جواب الشرط السابق، وقرن بالفاء؛ لأنه جملة اسمية.

﴿أَعَدَّ﴾ أي: هيأ وجهَّز.

﴿لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ﴾ المحسنات: اللاتي أحسنَّ في عبادة الله تعالى؛ إخلاصًا لله- عز وجل- ومتابعة لرسوله ﷺ، وإحسانًا إلى عباد الله بأداء حقوقهم.

وأظهر هنا في مقام الإضمار فقال: ﴿أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ﴾ ولم يقل أعد لَكُنَّ لبيان أن هذه الإرادة إحسان، ولحثهن على الإحسان، وليرتب عليه الأجر المذكور بعده،

(١) أخرجه النسائي في الطلاق (٣٤٠١)-من حديث محمود بن لبيد-رضي الله عنه.

فالإحسان هو سبب الأجر، وليس مجرد كونهن أزواجه ﷺ.

و«مِن» في قوله: ﴿مِنكُنَّ﴾: بيانية.

﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ الأجر: هو الثواب، وهو الجنة وما فيها من ألوان النعيم، مما لا يقدر قدر عظمته إلا من وصفه بأنه عظيم، كما قال عز وجل: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝١٧﴾ [السجدة:١٧].

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**قال الله: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أُذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فاقرؤوا إن شئتم:** ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝١٧﴾»(١).

وقوله: ﴿مِنكُنَّ﴾ هذا يدل على ما خصَّ الله- عز وجل- به زوجات النبي ﷺ من الفضل، وأن الله يضاعف للمحسنات منهن أكثر من غيرهن من المحسنات من نساء الأمة، كما قال الله- عز وجل: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ۝٣١﴾ [الأحزاب:٣١].

ومما أعطاه الله تعالى لهن لما اخترن الله ورسوله والدار الآخرة: أن قصره عليهن، فقال تعالى: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ [الأحزاب:٥٢].

وقد خيَّر النبي ﷺ جميع زوجاته بما أمره الله به في هذه الآية، فاخترن كلهن- رضي الله عنهن وأرضاهن- الله ورسوله والدار الآخرة، مع ما كان عليه رسول الله ﷺ من شظف العيش، وقلة ذات اليد.

عن عائشة- رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ جاءها حين أمره الله أن يخيِّر أزواجه، قالت: فبدأ بي رسول الله ﷺ، فقال: «إني ذاكرٌ لكِ أمرًا، فلا عليكِ أن تستعجلي حتى تستأمري أبويكِ، وقد علم أن أبويَّ لم يكونا يأمراني بفراقه، قالت: ثم قال: وإن الله قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾ إلى تمام الآيتين، فقلت له: ففي أي هذا

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٤٤)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٢٤)، وابن ماجه في الزهد (٤٣٢٨).

أستأمر أبويَّ؟ فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة»(١).

وفي حديث جابر- رضي الله عنه- الذي تقدم أوله في سبب نزول الآيتين نحو حديث عائشة، وفي آخره زيادة قول عائشة- رضي الله عنها: «وأسألك ألا تذكر لامرأة من نسائك ما اخترت، فقال: «**إن الله تعالى لم يبعثني معنفًا، ولكن بعثني معلمًا ميسرًا، لا تسألني امرأة منهن عمَّا اخترت إلا أخبرتها**»(٢).

قال العلَّامة السعدي- رحمه الله- تعالى(٣): «في هذا التخيير فوائد عدة منها: الاعتناء برسوله ﷺ، والغيرة عليه، أن يكون بحالة يشق عليه كثرة مطالب زوجاته الدنيوية.

ومنها: سلامته ﷺ بهذا التخيير من تبعة حقوق الزوجات، وأنه يبقى في حرية نفسه إن شاء أعطى وإن شاء منع ﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ ﴾ [الأحزاب:٣٨].

ومنها: تنزيهه عمَّا لو كان فيهن من تُؤثِر الدنيا على الله ورسوله والدار الآخرة وعن مقارنتها.

ومنها: سلامة زوجاته- رضي الله عنهن وأرضاهن- عن الإثم والتعرض لسخط الله ورسوله، فحسم الله بهذا التخيير عنهن التسخط على الرسول ﷺ الموجب لسخطه، المسخط لربه، الموجب لعقابه.

ومنها: إظهار رفعتهن، وعلو درجتهن وبيان علو هممهن أن كان الله ورسوله مرادهن ومقصودهن دون الدنيا وحطامها.

ومنها: استعدادهن بهذا الاختيار للأمر المختار للوصول إلى خيار درجات الجنة، وأن يكن زوجاته في الدنيا والآخرة.

ومنها: ظهور المناسبة بينه وبينهن، فإنه أكمل، وأراد الله أن تكون نساؤه كاملات

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الأحزاب (٤٧٨٦)، ومسلم في الطلاق-باب في الإيلاء واعتزال النساء وتخييرهن (١٤٧٥)، والنسائي في الطلاق (٣٤٣٩)، والترمذي في التفسير (٣٢٠٤)، وابن ماجه في الطلاق (٢٠٥٣).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) في «تسير الكريم الرحمن» (٦/ ٢١٥-٢١٦).

مكملات، طيبات مطيبات ﴿وَالطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ﴾ [النور:٢٦].

ومنها: أن هذا التخيير داعٍ وموجب للقناعة، التي يطمئن لها القلب، وينشرح لها الصدر، ويزول عنهن جشع الحرص وعدم الرضا الموجب لقلق القلب واضطرابه وهمه وغمه.

ومنها: أن يكون اختيارهن هذا سببًا لزيادة أجرهن، ومضاعفته، وأن يكنّ بمرتبة ليس فيها أحد من النساء؛ ولهذا قال: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ﴾ إلى ﴿رِزْقًا كَرِيمًا﴾».

وظاهر الآية والصحيح أن الله- عز وجل- أمر رسوله ﷺ أن يخيّر أزواجه بين الحياة الدنيا وزينتها وبين إرادة الله ورسوله والدار الآخرة.

ورتَّب على هذا وعقَّب عليه إن اخترن الحياة الدنيا وزينتها أن يعطيهن المتعة ويسرحهن سراحًا جميلًا، أي: يطلقهن، وهكذا خيّرهن ﷺ كما أمره الله عز وجل.

وقيل: خيَّرهن بين الطلاق وبقاء الزوجية[1]، فعلى هذا لو اخترن الطلاق لوقع، والصحيح القول الأول، عن عائشة- رضي الله عنها- قالت: «خيَّرنا رسول الله ﷺ فاخترناه، فلم يعدَّها علينا شيئًا»[2]، أي: فلم يعدَّها طلاقًا.

وهكذا إذا خيَّر زوجته بين البقاء معه أو الطلاق فإن اختارت البقاء أو سكتت، فلا يقع الطلاق، وإن اختارت نفسها فالراجح أنه لا يقع الطلاق إلا إذا نواه الزوج فتقع طلقة واحدة رجعية، وقيل: لا تقع الفرقة إلا بإيقاع الطلاق، وقيل غير ذلك.

الفوائد والأحكام:

١- أمر الله- عز وجل- وإيجابه على نبيه ﷺ تخيير زوجاته بين إرادة الحياة الدنيا وزينتها، فيمتعهن ويسرحهن سراحًا جميلا، وبين إرادة الله ورسوله والدار الآخرة، وهكذا فعل ﷺ فقد خير نساءه وفق ما أمره الله عز وجل به فاخترن الله ورسوله والدار الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٤٠٤).

(٢) أخرجه البخاري في الطلاق-باب من خير نساءه (٥٢٦٢)، ومسلم في الطلاق-بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقًا إلا بالنية (١٤٧٧)، والترمذي في الطلاق واللعان (١١٧٩)، وأحمد (٦/ ٤٥).

ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾.

٢- حماية الله تعالى رسوله ﷺ ودفاعه عنه حيث أمره بتخيير أزواجه لما ضيقن عليه وطلبن زيادة النفقة مع ما هو عليه ﷺ من قلة ذات اليد.

٣- أن من كانت إرادتها الحياة الدنيا وزينتها فلا يليق أن تكون فراشًا له ﷺ.

٤- أن التخيير لا يكون طلاقًا، كما في حديث عائشة رضي الله عنها: «خيرنا رسول الله ﷺ فاخترناه، فلم يعدها علينا شيئًا»(١).

٥- تقديم أمر الآخرة على الدنيا وزينتها، والتعريض بحقارة الدنيا ودناءتها، وهوان طالبها.

٦- مشروعية المتعة للمطلقة جبرًا لخاطرها وتطييبًا لقلبها وعونًا لها؛ لقوله تعالى: ﴿أُمَتِّعْكُنَّ﴾.

٧- حسن خلقه ﷺ؛ لقوله: ﴿أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾؛ ولهذا لو اخترن الحياة الدنيا وزينتها، وطلقهن، حل لغيره الزواج بهن.

٨- على الزوج إذا أراد طلاق زوجته أن يسرحها سراحًا جميلًا بإحسان؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ بلا إساءة ولا مضارة.

٩- فضل نساء النبي ﷺ وعلو شأنهن حيث اخترن كلهن- رضي الله عنهن- الله ورسوله والدار الآخرة، على الدنيا وزينتها ومباهجها.

١٠- التنويه بما أعدّه الله للمحسنات من أزواج النبي ﷺ من الأجر العظيم والثواب الجسيم بسبب إحسانهن؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾، ومن ذلك كونهن أزواجه ﷺ في الجنة.

١١- أن الأعمال بالنيات، وأن إرادة الله تعالى ورسوله والدار الآخرة من الإحسان.

١٢- الترغيب في الإحسان في عبادة الله، وإلى عباد الله.

* * *

---

(١) سبق تخريجه.

قال الله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ٣٠ ۞ وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقٗا كَرِيمٗا ٣١﴾.

بعد أن خيَّر رسول الله ﷺ نساءه حسب أمر الله له بين إرادة الحياة الدنيا وزينتها وبين إرادة الله ورسوله والدار الآخرة، خاطبهن الله- عز وجل- بقوله: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ﴾ الآية، مما يدل على أنهن اخترن الله ورسوله والدار الآخرة، وأنه استقر أمرهن تحت رسول الله ﷺ وفي عصمته.

قوله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ٣٠﴾.

قوله: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ﴾ «يا»: حرف نداء، «نساء»: منادى منصوب وعلامة نصبه الفتحة، و«نساء»: مضاف و﴿ٱلنَّبِيِّ﴾: مضاف إليه، وتصدير الكلام لهن بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام، وإضافتهن إلى النبي ﷺ للتشريف والتكريم لهن وإشعارهن بعظم مكانتهن حيث إنهن فراش النبي ﷺ، وأن المخالفة منهن أعظم، والطاعة عليهن أوجب.

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ﴾ ﴿مَن﴾: شرطية، ﴿يَأۡتِ﴾: فعل الشرط و«من» في قوله: ﴿مِنكُنَّ﴾: بيانية.

والفاحشة: ما فحش وساء وقبح في الشرع وفي عرف المسلمين، والمراد بالفاحشة هنا: بذاءة اللسان والتطاول على النبي ﷺ بذلك والإلحاح عليه بزيادة النفقة كما دل عليه سبب النزول.

وقيل: المراد بها الزنا، وقيل: المراد عموم الفاحشة.

وعلى اعتبار أن المراد بالفاحشة: الزنا أو ما يشمل الزنا وغيره؛ فإن الإتيان بالشيء معلقًا بالشرط لا يلزم منه جواز وقوع الشرط، كما قال الله- عز وجل: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ [الأنبياء:٢٢]، وهذا غير ممكن وقوعه.

وهكذا الزنا غير ممكن وقوعه من أزواج النبي ﷺ، بل ولا من أزواج جميع الأنبياء- عليهم الصلاة والسلام- وفي الأثر عن الشعبي قال: «ما زنت امرأة

نبي قط»(١).

قال ابن كثير(٢): «وعلى كل تقدير فهو شرط، والشرط لا يقتضي الوقوع، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر:٦٥]، وكقوله: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنعام:٨٨]، وكقوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [الزخرف:٨١]، وكقوله: ﴿لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٤﴾﴾ [الزمر:٤]».

﴿مُّبَيِّنَةٍ﴾ قرأ ابن كثير وأبوبكر عن عاصم: «مُبيَّنة» بفتح الياء وتشديدها، أي: موضحة، وعليها بينة.

وقرأ الباقون: «مبيِّنة» بكسر الياء وتشديدها، أي: أنها بينة في نفسها.

﴿يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ قرأ ابن كثير وابن عامر بالنون وتشديد العين وكسرها من غير ألف قبلها ونصب «العذاب»: «نُضعِّف لها العذابَ».

وقرأ أبوجعفر وأبوعمر ويعقوب بالياء وتشديد العين وفتحها من غير ألف قبلها ورفع «العذاب»: «يُضعَّف لها العذابُ».

وقرأ الباقون كذلك، إلا أنهم بتخفيف العين وألف قبلها: «يُضاعف لها العذاب»(٣).

والمعنى: أن من أتت منكن بفاحشة فإن العذاب يضاعف لها، أي: يكون عذابها مضاعفًا في الدنيا والآخرة، فيكون عذابها ضعف عذاب غيرها، أي: مثليه، أي: كثره مرتين، حماية له ﷺ ولفراشه؛ ولأن الذنب منها أعظم من غيرها؛ لشرفها وعلو منزلتها، فالعقوبة على قدر النعمة؛ ولهذا كان حد الأَمة نصف حد الحُرّة؛ لعلو منزلة الحُرّة ودنو منزلة الأَمة، وكذا المحصن عقوبته أشد من غير المحصن؛ بسبب نعمة الإحصان.

قال ابن كثير(٤): «فلما كانت محلتهن رفيعة ناسب أن يجعل الذنب لو وقع منهن

---

(١) أخرجه في «أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» ٨/ ١٥٢٣.
(٢) في «تفسيره» (٦/ ٤٠٤).
(٣) انظر: «النشر في القراءات العشر» (٢/ ٢٤٨، ٣٤٨).
(٤) في «تفسيره» (٦/ ٤٠٤).

مغلظًا، صيانةً لجنابهن وحجابهن الرفيع».

﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾﴾ الإشارة إلى تضعيف العذاب على مَن تأتِ بفاحشة من نساء النبي ﷺ.

ومعنى قوله: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ أي: سهلًا على الله- عز وجل- وليس بصعب عليه- عز وجل؛ لأنه- عز وجل- لا يعجزه شيء.

والمناسبة في ختم الآية بقوله: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾- والله أعلم- لئلا يظن ظان أو يتوهم متوهم أن هذا الأمر صعب على الله؛ لكونه يتعلق بأزواج النبي ﷺ، فبيَّن- عز وجل- أن ذلك عليه يسير؛ لأنه- عز وجل- ليس بينه وبين خلقه نسب، إنما هو العمل الصالح؛ ولهذا قال الله- عز وجل- لنبيه ﷺ وأفضل رسله وسيد ولد آدم: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزمر:٦٥].

قوله تعالى: ﴿۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾.

هذا من العدل والفضل في حق أزواج النبي ﷺ، فلما توعّد من تأت منهن بفاحشة بمضاعفة العذاب، جازى من تقنت منهن لله ورسوله وتعمل صالحًا بمضاعفة أجرها مرتين وبالرزق الكريم.

قوله: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ الواو: عاطفة، و«مَن» شرطية كسابقتها، و﴿يَقْنُتْ﴾ فعل الشرط، وجوابه ﴿نُّؤْتِهَآ﴾. والقنوت: دوام الطاعة.

ويختلف القنوت لله والقنوت للرسول ﷺ، فالقنوت لله- عز وجل- قنوت عبادة وخضوع وتذلل وخشوع وتعظيم لله- عز وجل- بعبادته وامتثال أمره واجتناب نهيه.

والقنوت للرسول ﷺ قنوت طاعة له فيما يأمر به من الشرع وفيما ينهى عنه، وقنوت طاعة الزوج بأداء حقوقه التي تجب على الزوجة لزوجها، وعدم مطالبته بما يشق عليه من النفقة وغير ذلك.

﴿وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف: «ويعمل» بالياء.

وقرأ الباقون: ﴿وَتَعْمَلْ﴾ بالتاء، أي: وتعمل عملًا صالحًا، وهو ما كان لله خالصًا،

وصوابًا موافقًا للشرع.

﴿نُؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف: «يؤتها» بالياء، أي: يؤتها الله، أي: يعطها.

وقرأ الباقون: ﴿نُؤْتِهَآ﴾ بالنون(١)، أي: نعطها أجر قنوتها وعملها الصالح مرتين، أي: فنضاعف لها أجرها كثر ثواب غيرها من النساء مرتين.

وهذا من كمال عدله- عز وجل- فإنه لما توعَّد بمضاعفة العذاب على مَن تأتِ منهن بفاحشة، وَعَدَ بمضاعفة الأجر مرتين لمن يَقْنُت منهن لله ورسوله وتعمل عملًا صالحًا، كما قال عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [الحديد:٢٨].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [القصص:٥٢-٥٤].

وعن أبي موسى الأشعري- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاثة يُؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بي فله أجران، وعبد مملوك أدَّى حق الله وحق مواليه فله أجران، ورجل أدَّب أَمَته فأحسن تأديبها، ثم أعتقها وتزوجها فله أجران**»(٢).

﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ أعتدنا: هيأنا وأعددنا وجهزنا من العتاد، وهو ما يُعد للضيف، وما يُعد للمسافر، أي: أعتدنا لها في الجنة.

﴿رِزْقًا﴾ الرزق: العطاء، أي عطاءً ﴿كَرِيمًا﴾ كثيرًا واسعًا طيبًا حسنًا.

قال ابن كثير(٣): «أي: في الجنة، فإنهن في منازل رسول الله ﷺ في أعلى عليين فوق

---

(١) انظر: «النشر» (٢/ ٣٤٨).

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٣٠١١)، ومسلم في الإيمان-وجوب الإيمان برسالة محمد ﷺ إلى جميع الناس (١٥٤)، والنسائي في النكاح (٣٣٤٤)، والترمذي في النكاح (١١١٦).

(٣) في «تفسيره» (٦/ ٤٠٤).

منازل جميع الخلائق، في الوسيلة التي هي أقرب منازل الجنة إلى العرش».

وقال السعدي[1]: «فَقَنَتْنَ لله ورسوله، وعملن صالحًا، فلَهُن بذلك أجرهن».

الفوائد والأحكام:

١- أن العقوبة تعظم بقدر النعمة، فحيث أنعم الله- عز وجل- على زوجات النبي ﷺ بكونهن فراشًا لأفضل الخلق وسيد الأنبياء والمرسلين جعل عقوبة مَن تأتِ منهن بفاحشة مبينة مضاعفة العذاب لها ضعفين، وحاشاهن عن ذلك- رضي الله عنهن؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾.

وهكذا كلما كانت نعمة الله على العبد أعظم كان الواجب عليه من الشكر والطاعة والامتثال أعظم، وعقوبته على المخالفة أشد.

٢- العقوبة والعذاب لمن ارتكب فاحشة مبينة واضحة أيًا كان؛ لأنه إذا كان هذا الوعيد لأزواج النبي ﷺ فغيرهن من باب أولى.

٣- أن العقوبة والمؤاخذة في الإسلام إنما تكون لمن تبين منه فعل الفاحشة؛ لقوله تعالى: ﴿مُّبَيِّنَةٍ﴾، فلا مجال للاتهام والظنون.

٤- ليس بين الله وبين أحد من خلقه نسب إنما هو العمل الصالح وطاعة الله تعالى وتقواه؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ۝٣٠﴾.

فمن أتت بفاحشة مبينة من أزواج النبي ﷺ ضوعف لها العذاب، ولم يدفع عنها ولا ينفعها كونها من أزواج النبي ﷺ.

٥- كمال عدله- عز وجل- فلما توعد من يأت بفاحشة مبينة من نساء النبي ﷺ بمضاعفة العذاب، وعد من تطيع الله ورسوله منهن وتعمل صالحًا بمضاعفة أجرها مرتين، وتهيئة الرزق الكريم الواسع لها في الجنة، وفي هذا مزية عظيمة لهن رضي الله عنهن.

٦- ترغيب أزواج النبي ﷺ بطاعة الله ورسوله والعمل الصالح؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ۝٣١﴾

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» (٦/ ٢١٧).

وفي ذلك ترغيب لغيرهن من رجال الأُمة ونسائها من باب أولى.

٧- الحث على طاعة الزوج؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي: يطع الله ورسوله، ومن طاعة الرسول ﷺ هنا الواجبة على أزواجه طاعته بأداء حقوق الزوجية.

٨- الإشارة إلى أن الجنة موجودة الآن مهيأة لأهلها؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ أي: أعددنا وهيأنا.

٩- العطاء العظيم والرزق الواسع الكريم لمن أطاع الله ورسوله وعمل صالحًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٣٢ وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ٣٣ وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ٣٤﴾.

قال ابن كثير[1]: «هذه آداب أَمَرَ الله بها نساء النبي ﷺ، ونساء الأُمة لهن تبع في ذلك».

قوله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٣٢﴾.

قوله: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ﴾ كرّر النداء لهن لمزيد التنبيه والعناية والاهتمام.

﴿لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ ﴿لَسۡتُنَّ﴾ أصلها: ليس، وتاء الخطاب، ونون النسوة، فلما سُكِّنَت «السين» التقى ساكنان «السين» و«الياء»، فحذفت الياء؛ لأنها حرف لين، وحرف اللين يحذف عند التقاء الساكنين، قال الناظم:

إن ساكنان التقيا اكسر ما سبق　　　وإن يكن لينًا فحذفه استحق

﴿كَأَحَدٖ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر ليس، والكاف للتشبيه، أي: لستن تشبهن أحدًا من النساء.

والمعنى: أنكن يا نساء النبي لا تشبهن أحدًا من النساء سواكنّ في الفضيلة والمنزلة، فأنتن أزواج النبي ﷺ، وفي بيت النبوة، وأمهات المؤمنين، وهذا مما يُميزهن عن غيرهن من النساء، وهذا مع تقوى الله؛ لقوله بعده: ﴿إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ﴾.

والمعنى: لا تشبهن أحدًا من النساء مطلقًا، لكن لا يلزم من ذلك تفضيلهن على غيرهن من جميع الوجوه، وإنما هو تفضيل نسبي للتنبيه على علو مكانتهن، وحثهن على تقوى الله، كما يقال للشخص: أنت لست مثل غيرك، حثًّا له على الامتثال.

وذلك لأن أفضل النساء على الإطلاق: فاطمة بنت النبي ﷺ- رضي الله عنها؛ لما

---

(١) في «تفسيره» (٦/ ٤٠٥).

جاء في حديث عائشة- رضي الله عنها- قالت: «أقبلت فاطمة تمشي، كأن مشيتها مشي النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: مرحبًا بابنتي، ثم أجلسها عن يمينه أو عن شماله، ثم أَسَرَّ إليها حديثًا؛ فبكت، فقلت لها: لِمَ تبكين؟ ثم أَسَرَّ إليها حديثًا؛ فضحكت، فقلت: ما رأيت كاليوم فرحًا أقرب من حزن. فسألتها عما قال، فقالت: ما كنت لأفشي سر رسول الله ﷺ. حتى قُبِض النبي ﷺ، فسألتها، فقالت: أَسَرَّ إلي: «**إن جبريل كان يعارضني القرآن كل سنة مرة، وإنه عارضني العام مرتين، ولا أراه إلا حضر أجلي، وإنك أول أهل بيتي لحاقًا بي**» فبكيت، فقال: «**أما ترضين أن تكوني سيدة نساء أهل الجنة، أو نساء المؤمنين**» فضحكت لذلك»(١).

ولأنها بضعة منه ﷺ كما قال ﷺ: «**فاطمة بضعة مني**»(٢).

ولأن الرسول ﷺ في ميزانها لأنها ماتت بعده. قال عمر بن عبدالعزيز لما توفي ابنه عبدالملك، وكان رجلًا صالحًا: «الحمد لله الذي جعلك في ميزاني، ولم يجعلني في ميزانك».

وأفضل النساء بعد فاطمة- رضي الله عنها- أزواجه ﷺ ورضي الله عنهن، وأفضلهن عائشة وخديجة- رضي الله عنهما؛ لقوله ﷺ: «**كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام**»(٣).

ولأن خديجة رضي الله عنها آزرت النبي ﷺ وناصرته وكانت له نعم المعين في أول دعوته؛ ولأن أولاده ﷺ كلهم منها رضي الله عنها عدا إبراهيم فإنه من مارية القبطية.

وفي الحديث: «أن جبريل عليه السلام قال للنبي ﷺ: «**هذه خديجة جاءت فاقرأ عليها**

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب (٣٦٢٤)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٥٠).

(٢) أخرجه البخاري- في كتاب أصحاب النبي ﷺ، ٣٥١٠، ٣٥٢٣، ٣٥٥٦، ومسلم في فضائل الصحابة ٢٤٤٩، وأبو داود في النكاح ٢٠٧١، والترمذي في المناقب ٣٨٦٧، وابن ماجه في النكاح ١٩٩٨.

(٣) أخرجه البخاري في الأنبياء (٣٤١١)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٣١)، والنسائي في عشرة النساء (٣٩٤٧)، والترمذي في الأطعمة (١٨٣٤)، وابن ماجه في الأطعمة (٣٢٨٠)، من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

السلام من ربها ومني وبشِّرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب»[١].

وبعدهن في الفضل بقية أزواجه ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ﴾.

وأفضل النساء بعدهن مريم ابنة عمران؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٤٢﴾ [آل عمران:٤٢]، أي: على نساء عالمي زمانها.

ثم آسية بنت مزاحم امرأة فرعون؛ لذكرها في الحديث فيمن كمل من النساء كما سبق؛ وذلك لثباتها وصبرها على أذى فرعون وشدة رغبتها فيما عند الله- عز وجل- حيث قالت: ﴿رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١١﴾ [التحريم:١١].

قال ابن كثير رحمه الله[٢]: «قال العلماء: اختارت الجار قبل الدار».

وقد روي عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: «**أفضل نساء أهل الجنة: خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، ومريم بنت عمران، وآسيا امرأة فرعون**»[٣].

ومن أفضل النساء نساء قريش؛ لقوله ﷺ: «**خير نساء ركبن الإبل نساء قريش أحناه على ولد في صغره وأرعاه على زوج في ذات يده**»[٤].

قوله: ﴿إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ﴾ ﴿إِنِ﴾: شرطية، ﴿ٱتَّقَيۡتُنَّ﴾: فعل الشرط، وجوابه دلَّ عليه ما قبله، أي: إن اتقيتن فلستن كأحد من النساء، ويحتمل أن يكون جوابه قوله: ﴿فَلَا

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب (٣٨٢١)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٣٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) في «تفسيره» (٨/ ١٩٩).

(٣) أخرجه ابن حبان وأحمد وأبويعلى والطبراني، وأبوداود في «كتاب الزهد»، والحاكم، وله شاهد من حديث أبي هريرة-رضي الله عنه-في الأوسط للطبراني. انظر:«فتح الباري» (٦/ ٤٤٧).

(٤) أخرجه البخاري في النكاح (٥٠٨٢)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٥٢٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ﴾.

والمعنى: إن اتقيتن الله كما أمر، بفعل أوامره، واجتناب نواهيه.

والمراد بهذا الشرط: الحث والإغراء لهن على تقوى الله- عز وجل- أي: فلستن كأحد من النساء إن اتقيتن، فمنزلتكن أعظم وأفضل من منزلة غيركن من النساء، فلا تقسن أنفسكن بغيركن، فالواجب عليكن من التقوى وحق الزوج أعظم من غيركن.

﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ﴾ الفاء: عاطفة «لا»: ناهية، والجملة معطوفة على ما قبلها، ويحتمل أن تكون الفاء: رابطة لجواب الشرط، فتكون الجملة جواب الشرط ﴿إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ﴾.

والخضوع بالقول بمعنى: لين الكلام وترقيقه وترخيمه، والتطامن والذل والخنوع بالقول، أي: لا يكن قولكن في مخاطبة الرجال الأجانب فيه شيء من التطامن والذل والخنوع وترقيق الكلام وترخيمه، مما قد يكون سببًا لفتنة الرجال[1].

﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ جواب النهي، و«الفاء»: للسببية، أي: فيتسبب عن ذلك الخضوع بالقول أن يطمع الذي في قلبه مرض.

● **ومرض القلب نوعان:**

١- **مرض حسي عضوي**، ليس هو المقصود في مرض القلوب في القرآن الكريم.

٢- **مرض معنوي**، وهو المقصود في مرض القلوب في القرآن الكريم، وهو قسمان أيضًا:

* مرض شبهة وشك ونفاق وشرك وكفر.

* ومرض شهوة، وهو ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

أ- مرض شهوة اتباع الهوى.

ب- ومرض شهوة البطن.

جـ- ومرض شهوة الفرج، وهو المراد بقوله هنا: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾.

فالمعنى: فيطمع الذي في قلبه مرض الشهوة في الحصول على مراده من النساء من

---

(١) انظر:«لسان العرب»، مادة:«خضع»، وانظر:«تفسير ابن كثير» (٦/ ٤٠٥)، «تيسير الكريم الرحمن» (٦/ ٢١٧-٢١٨).

التلذذ بسماع صوت المرأة، أو بما هو أعظم من ذلك، وهو فعل الفاحشة، وذلك بالاسترسال معها في الكلام واستدراجها حتى يصل إلى مقصده، فكلام، ثم موعد، ثم لقاء... إلخ.

ويفهم من قوله: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾: أن مَن كان صحيح القلب فإنه أبعد عن الطمع في المرأة؛ لكن أين سليم القلب، ومَن يضمن سلامة قلبه، وقد قال ﷺ فيما رواه عبدالله بن عمرو بن العاص- رضي الله عنهما: «**إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن، كقلب واحد يصرفه حيث يشاء، ثم قال رسول الله ﷺ: اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك**»(١).

وقال ﷺ: «**الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم**»(٢).

وقال ﷺ: «**من حام حول الحمىٰ يُوشك أن يرتع فيه**»(٣).

فعلى الإنسان أن ينأى بنفسه عن أسباب الفتنة، وعليه مراقبة نفسه وخطرات قلبه، وكم من رجل أو امرأة يظن أنه في منأى عن الفتنة، ثم لا يلبث أن يقع فيها، ولهذا قال ﷺ: «**من سمع بالدجال فلينأ عنه، فوالله إن الرجل ليأتيه وهو يحسب أنه مؤمن فيتبعه مما يبعث به من الشبهات، أو لما يبعث به من الشبهات**»(٤).

وروي أنه ﷺ قال: «**لا يخلون رجل وامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان**»(٥).

وقال بعض السلف: «لا تخلون بامرأة ولو كنت تعلمها وتقرؤها القرآن»(٦).

---

(١) أخرجه مسلم في القدر (٢٦٥٤).

(٢) أخرجه البخاري في الاعتكاف (٢٠٣٨)، ومسلم في السلام (٢١٧٥)، وأبوداود في الصوم (٢٤٧٠)، وابن ماجه في الصيام (١٧٧٩)-من حديث صفية-رضي الله عنها.

(٣) أخرجه البخاري في البيوع (٢٠٥١)، ومسلم في المساقاة (١٥٩٩)، وأبوداود في البيوع (٣٣٢٩)، والنسائي في البيوع (٤٤٥٣)، والترمذي في البيوع (١٢٠٥)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٨٤)-من حديث النعمان بن بشير-رضي الله عنه.

(٤) أخرجه أبوداود في الملاحم (٤٣١٩)-من حديث عمران بن حصين-رضي الله عنه.

(٥) ذكره الترمذي في الرضاع مع حديث (١١٧١) «الحمو الموت» بقوله:على نحو ما رُوي عن النبي ﷺ قال:«**لا يخلون رجل وامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان**».

(٦) روي هذا عن ميمون بن مهران، ويونس بن عبيد. انظر:«ذم الهوى» ص١٤٨، «الإبانة الكبرى» لابن =

ويخطئ أعظم الخطأ مَن يسترسل في مخاطبة النساء الأجانب، أو يبيح لنفسه الخلوة بالمرأة من خادمة أو غيرها، زاعمًا بلسان الحال إن لم يكن بلسان المقال أنه بعيد عن الوقوع في الفتنة، وهو في الحقيقة واقع فيها وفي المحرم، وقد يؤدي به ذلك إلى ما هو أشد وأعظم.

وما حال هذا إلا كما قيل:

ألقاه في اليم مكتوفًا وقال له إياك إياك أن تبتل بالماء[1]

فاحذر يا أخي المسلم ويا أختي المسلمة من التساهل في هذا الأمر، ولنعلم أن العصمة للرسل- عليهم الصلاة والسلام، وأن السلامة غنيمة، والعافية لا يعدلها شيء. نسأل الله السلامة والعافية.

﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾﴾، ﴿قَوْلًا﴾: مفعول مطلق، وبينه وبين ﴿وَقُلْنَ﴾: جناس اشتقاق. ﴿مَّعْرُوفًا﴾ صفة له، أي: وقلن في مخاطبتكن الرجال قولًا معروفًا.

والقول المعروف: ما عُرف في الشرع، وفي عرف المسلمين، ولم يستنكر لا في الشرع ولا في عرف المسلمين، وهو ما لا خضوع فيه ولا انكسار ولا تطامن، مع الرجال الأجانب.

وفي المقابل أيضًا: لا غلظة فيه ولا فحش، ولا تعالي، بل قولًا وسطًا بين ذلك، مع كونه أيضًا بقدر الحاجة من غير زيادة ولا استرسال.

وهذا يدل على جواز مخاطبة المرأة للرجال، وأن صوتها ليس بعورة، لكن على الصفة المذكورة.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى[2]: «فنهاهن عن الخضوع بالقول، فربما ذهب الوهم إلى الإذن في الإغلاظ في القول والتجاوز، فرفع هذا التوهم بقوله: ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾».

وقال ابن كثير رحمه الله تعالى[3]: «ومعنى هذا أنها تخاطب الأجانب بكلام ليس

=

بطة ٢/ ٤٤٢، «حلية الأولياء» ٥/ ٣٤٥.

(١) البيت لعبد الغني النابلسي. انظر: «ديوانه» ص٢٨.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» (٣/ ٤٢٤-٤٢٥).

(٣) في «تفسيره» (٦/ ٤٠٥).

فيه ترخيم، أي: لا تخاطب المرأة الأجانب كما تخاطب زوجها».

وقال السعدي- رحمه الله تعالى[١]: «المنهي عنه القول اللين، الذي فيه خضوع المرأة للرجل وانكسارها عنده، والخاضع هو الذي يُطمع فيه، بخلاف من تكلم كلامًا لينًا ليس فيه خضوع، بل ربما صار فيه ترفع وقهر للخصم، فإن هذا لا يطمع فيه خصمه، ولهذا مدح الله رسوله باللين، فقال: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران:١٥٩]، وقال لموسى وهارون: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه:الآيتان:٤٣، ٤٤]».

وإذا كانت أزواج النبي ﷺ مع أنهن أطهر نساء الأمة وأبعدهن عن الفتنة، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الأحزاب:٣٣].

وقد اختارهن الله- عز وجل- فراشًا لرسوله ﷺ، وهو سيد ولد آدم وأفضل الخلق وأطيبهم، وقد قال الله عز وجل: ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾ [النور:٢٦].

ومع ذلك نهين عن الخضوع بالقول، وأمرن بالقول المعروف في مخاطبة الرجال الأجانب، فإن غيرهن من نساء الأمة معنيات بذلك من باب أولى، فإن خوف الفتنة بهن أشد وأعظم، ولهذا يحرم عليهن الخضوع بالقول؛ لأن المرأة فتنة، كما قال ﷺ: «**ما تركت بعدي فتنة هي أضر على الرجال من النساء**»[٢].

وقال ﷺ في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: «**إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها، فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء**»[٣].

وقال ﷺ: «**ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل العاقل من**

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» (٦/ ٢١٨).

(٢) أخرجه البخاري في النكاح (٥٠٩٦)، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٧٤٠)، والترمذي في الأدب (٢٧٨٠)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٩٨) من حديث أسامة بن زيد-رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٢٧٤٢)، والترمذي في الفتن (٢١٩١)، وابن ماجه في الفتن (٤٠٠٠).

إحداكن»[١].

ولهذا- والله أعلم- جعل الشرع التصفيق للنساء والتسبيح للرجال عندما ينتاب الإمام شيء في الصلاة كما في حديث سهل بن سعد- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**يا أيها الناس ما لكم حين نابكم شيء في الصلاة أخذتم بالتصفيق، إنما التصفيق للنساء، من نابه شيء في صلاته فليقل: سبحان الله**»[٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**التسبيح للرجال، والتصفيق للنساء**»[٣].

وإذا كانت المرأة منهية عن الضرب برجلها في قوله: ﴿**وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ**﴾ [النور:٣١] وذلك لئلا يسمع صوت الخلخال ونحوه من الزينة فهي منهية عن رفع صوتها من باب أولى؛ لأن رفع الصوت اقرب إلى الفتنة من صوت الخلخال.

فيجب على المرأة أن يكون كلامها مع غير المحارم عند الحاجة فقط، وعلى الصفة المذكورة، وهكذا عند كل من تخشى منه الفتنة- حتى ولو كان من بعض المحارم كمحارم الرضاع، والمصاهرة، بل ومحارم النسب ممن تخشى منه الفتنة، كيف لا وقد وجد من وقع على أخته بسبب ما يبث في القنوات الفضائية من الفسق والفجور والدعارة- نسال الله السلامة والعافية.

وعلى المرأة أن تحتاط لنفسها وتحذر من شراك مرضى القلوب، وخاصة بعدما توفرت وسائل المهاتفة حيث تجد بعض الفساق يتصل على أي رقم فإن أجابته امرأة أخذ يستدرجها في الكلام ليغريها في الوصول إلى مراد قلبه المريض.

قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ

---

(١) أخرجه البخاري في الحيض (٣٠٤)، ومسلم في الإيمان (٨٠)-من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري في الجمعة (١٢١٨)، ومسلم في الصلاة (٤٢١)، وأبوداود في الصلاة (٩٤٠)، والنسائي في الإمامة (٧٨٤).

(٣) أخرجه البخاري في الجمعة (١٢٠٣)، ومسلم في الصلاة (٤٢٢)، وأبوداود في الصلاة (٩٣٩)، والنسائي في السهو (١٢٠٧)، والترمذي في الصلاة (٣٦٩)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٠٣٤).

وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾.

قوله: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ قرأ عاصم ونافع وأبوجعفر: ﴿وَقَرْنَ﴾ بفتح القاف.

وقرأ الباقون: «وقِرن» بكسر القاف(١).

وأصلها: «واقررن» بفتح الراء وكسرها، يقال:اقرَرْن واقرِرْن.

وهو مأخوذ من القرار، وهو البقاء والمكث والسكون والاستقرار(٢).

فهو أمر لهن بالبقاء والسكون والاستقرار في بيوتهن، والأصل في الأمر الوجوب.

قال ابن كثير رحمه الله(٣): «أي: إلزَمْنَ بيوتكن فلا تخرجن لغير حاجة، ومن الحوائج الشرعية الصلاة في المسجد بشرطه، كما قال ﷺ: «**لا تمنعوا إماء الله مساجد الله، وليخرجن وهن تفلات، وبيوتهن خير لهن**»(٤).

وإضافة البيوت إليهن في قوله: ﴿بُيُوتِكُنَّ﴾ إضافة تمليك، ويؤيد هذا أنهن- رضي الله عنهن- بقين في هذه البيوت بعد وفاته ﷺ، مع أنه ﷺ لا يورث، وكذا غيره من الأنبياء، كما قال ﷺ: «**نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركنا صدقة**»(٥).

وقيل: إضافة البيوت إليهن في الآية إضافة اختصاص؛ لأن البيوت ملك له ﷺ كما يقال: «سرج الدابة» فأضيف السرج إلى الدابة إضافة اختصاص، وهي وسرجها

---

(١) انظر:«النشر» (٢/ ٣٤٨).

(٢) انظر:«لسان العرب»، مادة:«قرر».

(٣) في «تفسيره» (٦/ ٤٠٥).

(٤) أخرجه البخاري في الأذان (٩٠٠)، ومسلم في الصلاة (٤٤٢)، وأبوداود في الصلاة (٥٦٦)، والنسائي في المساجد (٧٠٦)، والترمذي في الجمعة (٥٧٠)، وابن ماجه في المقدمة (١٦)، وأحمد (٢/ ٧٢-٧٣)- من حديث ابن عمر-رضي الله عنهما، وأخرجه أبوداود في الصلاة-ما جاء في خروج النساء إلى المسجد (٥٦٥)، وأحمد (٢/ ٤٣٨، ٤٧٥)-من حديث أبي هريرة-رضي الله عنه، وأخرجه الإمام أحمد أيضًا من حديث زيد بن خالد الجهني (٥/ ١٩٢-١٩٣)، ومن حديث عائشة-رضي الله عنها-(٦/ ٦٩-٧٠).

(٥) أخرجه البخاري في فرض الخمس (٣٠٩٣، ٣٠٩٤)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٥٨، ١٧٥٩)-من حديث عائشة-رضي الله عنها، وأخرجه البخاري في الوصايا (٢٧٧٦)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٦٠)-من حديث أبي هريرة-رضي الله عنه.

ملك لصاحبها، ومن هذا قوله تعالى: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ﴾ [الطلاق:١] فهذه إضافة اختصاص، أي: البيوت التي تخصهن سكنًا لا ملكًا، إذ الغالب أن المرأة تكون في بيت يملكه زوجها، والصحيح الأول.

وفي إضافة البيوت إليهن إغراء لهن في لزوم بيوتهن فهو أستر وأحفظ لهن وأسلم، وهو الأصل، ولهذا يندب لهن القرار في البيوت، فإن خيفت الفتنة كان القرار عليهن واجبًا.

فلو كان في الخروج خير لهن بوجه من الوجوه لاستحب خروجهن لشهود الصلاة مع المسلمين.

ومن هنا يعلم أنه لا خير في خروج المرأة، بل ولا يجوز لها الخروج إلا للحاجة، وفي حديث عائشة- رضي الله عنها- قالت: خرجت سودة بنت زمعة ليلًا فرآها عمر فعرفها، فقال: إنك والله يا سودة ما تخفين علينا، فرجعت إلى النبي ﷺ فذكرت ذلك له، وهو في حجرتي يتعشى، وإن في يده لعرقًا، فأنزل الله عليه، فرفع عنه، وهو يقول: «**قد أذن الله لكن أن تخرجن لحوائجكن**»(١).

﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾ «الواو»: عاطفة، و«لا»: ناهية و﴿تَبَرَّجْنَ﴾ أصله تتبرجن. والتبرج: التكلف والتعالي لإظهار وكشف ما يجب إخفاؤه أمام الرجال، ومنه قوله تعالى: ﴿فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾ [النساء:٧٨]. أي: عالية مرتفعة، وقولهم «سفينةٌ بارجٌ» أي: مكشوفةٌ.

والتبرج إظهار المرأة محاسنها أمام الرجال الأجانب بكشف شيء من بدنها أو إظهار شيء من زينة اللباس والطيب والحلي وغير ذلك، قال الله- عز وجل: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ [النور:٣١].

﴿تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾ ﴿تَبَرُّجَ﴾: مصدر مضاف إلى الجاهلية، أي: تبرج أهل الجاهلية الأولى من حيث الزمن، وهي ما قبل الإسلام، قال مجاهد: «كانت المرأة تخرج

(١) أخرجه البخاري في النكاح (٥٢٣٧)، ومسلم في السلام (٢١٧٠).

تمشي بين يدي الرجال، فذلك تبرج الجاهلية»[١].

وعلى هذا فالجاهلية الأولى قبل الإسلام يقابلها جاهلية أخرى بعد الإسلام؛ ولهذا جاء في الحديث الذي رواه المعرور بن سويد قال: لقيت أبا ذر في الربذة وعليه حلة وعلى غلامه حلة، فسألته عن ذلك، فقال: إني ساببت رجلًا فعيَّرته بأمه، فقال لي النبي ﷺ: «**يا أبا ذر أعيرته بأمه، إنك امرؤ فيك جاهلية**»[٢].

والجاهلية الأخرى أشد وأعظم؛ لأنها بعدما شع نور الإسلام، فهي تَنَكُّبٌ للطريق- والطريق واضح، فهي تفوق الجاهلية الأولى المبنية على السذاجة أضعافًا مضاعفة، والواقع المرير يدل على هذا.

ويحتمل أن المعنى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ أي: الأولى من حيث المرتبة، فهي جاهلية دنيئة منحطة المرتبة، في أدنى درجة الانحطاط، كما يقال: جاهلية جهلاء، أي: مفرطة في الجهل والسفه والانحطاط.

والمعنيان يرجعان إلى معنى واحد، فالتبرج فعل أهل الجاهلية الأولى قبل الإسلام، وهو فعل أهل الجهل والسفه، قبل الإسلام وبعده، وهو منزلة دنيئة ومنحطة؛ ولذلك نهى الله عنه، والنهي يقتضي التحريم.

وليس في أمر الله- عز وجل- لأزواج النبي ﷺ بالقرار في بيوتهن، ونهيه لهن عن أن يتبرجن تبرج الجاهلية الأولى ما يدل على عدم قرارهن في بيوتهن، ولا عن حصول شيء من التبرج منهن، وقد أمر الله- عز وجل- النبي ﷺ في مطلع هذه السورة بتقوى الله وهو إمام المتقين، كما قال ﷺ: «**والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له**»[٣]، كما نهاه- عز وجل- عن طاعة الكافرين والمنافقين- وحاشاه ﷺ أن يطيعهم.

وإذا كانت أزواج النبي ﷺ- مع ما لهن من السبق والفضل وقوة الإيمان والمكانة الرفيعة، بكونهن فراش النبي ﷺ- إذا كن أمرن بالقرار في بيوتهن، ونهين عن أن

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٤٠٦).

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان (٣٠)، ومسلم في الأيمان (١٦٦١)، وأبوداود في الأدب (٥١٥٧)، والترمذي في البر والصلة (١٩٤٥)، وابن ماجه في الأدب (٣٦٩٠).

(٣) سبق تخريجه.

يتبرجن تبرج الجاهلية الأولى فغيرهن من النساء مأمورات بالقرار في البيوت، ومنهيات عن التبرج من باب أولى.

فيجب على جميع المسلمات القرار في بيوتهن وعدم الخروج منها إلا لحاجة، ويحرم عليهن التبرج ومزاحمة الرجال في الأسواق، ومخالطتهم في الأعمال، لما في الخروج من البيوت والتبرج من الفتنة لهن وللرجال، كما قال ﷺ: «**ما تركت بعدي فتنة هي أضر على الرجال من النساء**»(١).

وخير ما للمرأة قعر بيتها، فإنه أسلم لها وأحفظ من الشرور وأسبابها، وما يؤدي إليه ذلك من الخسارة في الدنيا والآخرة.

﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾.

بعدما أمرهن بالقرار في البيوت ونهاهن عن التبرج وأسباب الشر أمرهن بالخير وأسبابه.

﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الصلاة في اللغة: الدعاء، قال الله- عز وجل: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْۗ﴾ [التوبة:١٠٣] أي: ادع لهم.

وهي في الشرع: التعبد لله- عز وجل- بأقوال وأفعال معلومة مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم.

والمراد بالصلاة هنا ما يشمل الفريضة والنافلة. أي: وأقمن الصلاة إقامة تامة، بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها.

ويأتي دائمًا في القرآن الكريم وفي السنة النبوية التعبير بالأمر بإقامة الصلاة دون الأمر بالصلاة؛ لأن المقصود الأعظم إقامتها إقامة تامة، لا أن تكون صلاة صورية فقط فهذه لا تنفع صاحبها، كما جاء في الحديث: «**إن الرجل لينصرف وما كتب له إلا عشر صلاته، تسعها، ثمنها، سبعها، سدسها، خمسها، ربعها، ثلثها، نصفها**»(٢).

﴿وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: وأعطين الزكاة وادفعنها لمستحقيها.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه أبوداود في الصلاة (٧٩٦)-من حديث عمّار بن ياسر-رضي الله عنه.

والزكاة في اللغة: النماء والزيادة، سميت بذلك؛ لأنها تنمي المال وتزيده وتزكيه وتزكي نفس الغني والفقير على حد سواء.

وهي في الشرع: حق مالي مقدر في مال مخصوص في زمن مخصوص لطائفة مخصوصة، وهم أهل الزكاة الثمانية.

وقد تشمل الزكاة هنا ما يعم الواجب والصدقة، وأمرهن- رضي الله عنهن- بإيتاء الزكاة، إما إعطاءً بالفعل إذا كان عندهن مال، أو بالالتزام بدفعها إذا وجد عندهن مال.

وخص الصلاة والزكاة بالذكر من بين سائر العبادات؛ لأن في الصلاة الإخلاص للمعبود سبحانه، فهي أعظم العبادات البدنية؛ ولأن في الزكاة الإحسان إلى العبيد، فهي أعظم العبادات المالية.

﴿وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ هذا من عطف العام على الخاص، فأمرهن أولًا بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة- لفضلهما وشرفهما- ثم أمرهن بطاعة الله ورسوله عمومًا، والأمر للوجوب.

والطاعة: هي امتثال الطلب بفعل المأمور وترك المحظور، أي: أطعن الله ورسوله بفعل ما أمر الله به ورسوله من الواجبات والمستحبات، وترك ما نهى الله عنه ورسوله، ومن ذلك القيام بما أمر به ﷺ أو نهى عنه مما يتعلق بحقوق الزوجية.

وعطف الرسول ﷺ أو اسمه على لفظ الجلالة بالواو التي تقتضي الجمع والتشريك؛ لأن طاعة الرسول ﷺ من طاعة الله- تعالى، كما قال عز وجل: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠].

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ إنما: أداة حصر، والحصر هو: إثبات الحكم للمذكور ونفيه عما عداه.

وهو حصر إضافي لا يقتضي أن الله لا يريد بآل البيت إلا إذهاب الرجس عنهم وتطهيرهم، بل إن الله يريد بهم هذا وكل خير في الدنيا والآخرة.

والحصر الإضافي هو الذي لا يكون محصورًا بحسب الواقع في هذا الشيء.

والحصر الحقيقي هو الذي يكون محصورًا حسب الواقع بهذا الشيء، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [النساء:١٧١].

فالألوهية مقصورة على الله- عز وجل- لا إله غيره ولا رب سواه.

وكما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة:٦٠]، فالزكاة صرفها محصور في الأصناف الثمانية المذكورة في هذه الآية، لا يجوز صرفها إلى غيرهم، وهكذا.

والمعنى: إنما يريد الله شرعًا بما أمركن به من القرار في البيوت، وترك التبرج، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وطاعة الله ورسوله.

﴿لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ﴾ «اللام»: زائدة، بمعنى «أن»، أي: يريد الله أن يذهب عنكم الرجس. والرجس: النجس حسًّا ومعنى.

فالرجس النجس معنى: الشرك والكفر والمعاصي، كما قال تعالى: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ﴾ [الحج:٢٢]، وقال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ﴾ [الأنعام:١٤٥]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ﴾ [المائدة:٩٠].

والرجس النجس حسًّا: القاذورات والأذى والحدث؛ ولهذا نهى النبي ﷺ عن الاستجمار بالروثة، وقال: «إنها رجس»(١).

والمراد في الآية هنا الرجس المعنوي، أي: إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس المعنوي من الشرك والكفر والمعاصي وسيئ الأخلاق وقبيح الأعمال.

أما الرجس الحسي فإن أهل البيت كغيرهم يحصل لهم الأحداث والنجاسة الحسية ويتطهرون منها كغيرهم من المؤمنين.

﴿أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ﴾، ﴿أَهۡلَ﴾: منصوب على النداء، أي: يا أهل البيت، و«ال» في البيت للعهد الذهني، أي: البيت المعهود المعروف، الذي هو أفضل البيوت وهو بيت النبي ﷺ، كما في قوله: ﴿رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ﴾ [هود:٧٣].

---

(١) أخرجه البخاري في الوضوء (١٥٦)، والنسائي في الطهارة (٤٢)، والترمذي في الطهارة (١٧)، وابن ماجه في الطهارة وسننها (٣١٤)-من حديث ابن مسعود-رضي الله عنه.

وتطلق «أهل» على زوج الرجل؛ ولهذا قال ﷺ لأحد أصحابه لما تزوج: «**بارك الله لك في أهلك**»(١)، وقال في قصة الإفك: «**من يعذرني في رجل بلغني أذاه في أهل بيتي، فوالله ما علمت من أهلي إلا خيرًا**»(٢).

كما تطلق «أهل» على أهل بيت الرجل كلهم من أزواج وأولاد وغيرهم، كما قال ﷺ في الأضحية: «**اللهم هذا عني وعن أهل بيتي**».

والمراد بأهل البيت في الآية أزواج النبي ﷺ؛ لأن الخطاب والسياق معهن- رضي الله عنهن- قال عكرمة: «من شاء باهلته أنها في أزواج النبي ﷺ»(٣).

قال ابن كثير رحمه الله- تعالى(٤): «وهذا نص في دخول أزواج النبي ﷺ في أهل البيت ههنا؛ لأنهم سبب نزول هذه الآية، وسبب النزول داخل فيه قولًا واحدًا، إما وحده على قول، أو مع غيره على الصحيح».

وهذا لا ينافي ما ثبت في الأحاديث أن الرسول ﷺ وضع كساءً على فاطمة وعلي والحسن والحسين- رضي الله عنهم- ثم قرأ: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا**﴾، وقال: «**اللهم هؤلاء أهل بيتي**» كما في حديث واثلة بن الأسقع- رضي الله عنه- قال: «جاء رسول الله ﷺ ومعه علي وحسن وحسين آخذًا كل واحد بيده حتى دخل، فأدنى عليًّا وفاطمة، وأجلسهما بين يديه، وأجلس حسنًا وحسينًا كلًّا منهما على فخذه، ثم لفَّ عليهما ثوبه، أو قال كساءه، وتلا هذه الآية: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا**﴾ **اللهم هؤلاء أهل بيتي وأهل بيتي أحق**»(٥).

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب (٣٧٨٠)-من حديث إبراهيم بن سعد عن أبيه عن جده-رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الشهادات (٢٦٣٧)، ومسلم في التوبة (٢٧٧٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) انظر:«تفسير ابن أبي حاتم» (٩/ ٣١٣٢)، «جامع البيان» (١٩/ ١٠٨)، «أسباب النزول» للواحدي ص(٢٤٠).

(٤) في «تفسيره» (٦/ ٤٠٧).

(٥) أخرجه أحمد (٤/ ١٠٧)، والطبري في «جامع البيان» (١٩/ ١٠٤)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (١٢/ ٧٣)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٩٧٦)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٤١٦)، وأخرجه أيضًا =

وعن عائشة- رضي الله عنها- قالت: «خرج رسول الله ﷺ ذات غداة وعليه «مرْط مُرَحَّل» من شعر أسود، فجاء الحسن فأدخله معه، ثم جاء الحسين فأدخله معه، ثم جاءت فاطمة فأدخلها معه، ثم جاء علي فأدخله معه، ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾»[(١)].

وعن زيد بن أرقم قال: «قام فينا رسول الله ﷺ يومًا خطيبًا بماء يدعى خُمًّا- بين مكة والمدينة- فحمد الله وأثنىٰ عليه، ووعظ وذكَّر، ثم قال: «**أما بعد، ألا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين، وأولهما كتاب الله فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به، فحث على كتاب الله ورغب فيه، ثم قال: وأهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي**» فقال له حصين[(٢)]: ومن أهل بيته يا زيد؟ أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: نساؤه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده. قال: ومن هم؟ قال: هم: آل علي، وآل عقيل، وآل جعفر، وآل عباس. قال: كل هؤلاء حرم الصدقة؟ قال:نعم».

وفي رواية: فقلنا له من أهل بيته؟ نساؤه؟ قال: «لا وايم الله، إن المرأة تكون مع الرجل العصر من الدهر، ثم يطلقها، فترجع إلى أبيها وقومها، أهل بيته أصله وعصبته الذين حرموا الصدقة بعده»[(٣)].

قال ابن كثير[(٤)]- بعد هذه الرواية والتي قبلها: «وهكذا وقع في هذه الرواية والأولى أولى، والأخذ بها أحرى، وهذه الرواية تحتمل أنه أراد تفسير الأهل المذكورين في الحديث الذي رواه، إنما المراد بهم الذين حرموا الصدقة، أو أنه ليس المراد بالأهل

أحمد (٦/ ٢٩٢-٢٩٦)، والطبري أيضًا ١٩/ ١٠٣-١٠٧؛ من حديث أم سلمة رضي الله عنها.

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة-فضائل أهل بيت النبي ﷺ (٢٤٢٤)، وأبوداود (٤٠٣٢)، والترمذي (٢٨١٣)، والطبري في «جامع البيان» (١٩/ ١٠٢).

(٢) يعني:حصين بن سبرة.

(٣) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة-فضائل علي-رضي الله عنه-(٢٤٠٨)، وأحمد (٤/ ٣٦٦)، والدارمي في فضائل القرآن (٣٣١٦).

(٤) في تفسيره (٦/ ٤١١).

الأزواج فقط، بل هم مع آله، وهذا الاحتمال أرجح جمعًا بينها وبين الرواية التي قبلها، وجمعًا أيضًا بين القرآن والأحاديث المتقدمة إن صحَّت؛ فإن في بعض أسانيدها نظرًا، والله أعلم. ثم الذي لا يشك فيه من تدبر القرآن أن نساء النبي ﷺ داخلات في قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾، فإن سياق الكلام معهن، ولهذا قال تعالى- بعد هذا كله: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ [الأحزاب:٣٤]».

فنساؤه ﷺ أهل بيته من حيث الزوجية، وعلي وفاطمة والحسن والحسين أهل بيته من حيث القرابة. وكذا كل من تحرم عليهم الصدقة، وهم بنو هاشم، كلهم من أهل بيته، وهم آل علي، وآل عقيل، وآل جعفر، وآل عباس، فكل هؤلاء من أهل بيته ﷺ، وفي هذا بيان بطلان قول الرافضة الذين يخصُّون آل البيت بعلي وفاطمة والحسن والحسين، ويقولون- أخزاهم الله: إن الله لم يرد أن يطهر أزواج النبي ﷺ، ويرمون عائشة- رضي الله عنها- بالزنا- عليهم من الله ما يستحقون- وهي الطاهرة المطهرة المبرأة من فوق سبع سموات.

﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ أي: ويطهركم من الرجس، ﴿تَطْهِيرًا﴾: مصدر مؤكد، أي: تطهيرًا بالغًا تامًّا.

وعطف التطهير على الإذهاب؛ لأن التطهير أبلغ من الإذهاب؛ لأنه بعد إذهاب الرجس قد يبقى له أثر، فأتبع ذلك بقوله: ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ أي: ويطهركم منه تطهيرًا تامًّا بحيث لا يبقى له أثر.

وفي هذا فضل منه- عز وجل- وامتنان على أهل بيت النبي ﷺ وحث لهم وترغيب في حمده وذكره وشكره بفعل أوامره واجتناب نواهيه؛ حيث جعل بيته ﷺ أبعد البيوت عن الرجس وأطهرها.

ولهذا يكفر من قذف زوجة من أزواجه ﷺ كما يفعل الرافضة أخزاهم الله في قذفهم عائشة- رضي الله عنها. ويجب قتل من فعل ذلك حتى لو تاب، لما في ذلك من القدح في مقام النبوة؛ لأن الله- عز وجل- قال: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾ [النور:٢٦].

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾.

لما أمر عز وجل نساء النبي ﷺ بالعمل الذي هو فعل وترك، أمرهن بالعلم وبيَّن طريقه فقال: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ﴾.

قوله: ﴿وَٱذْكُرْنَ﴾ الخطاب لنساء النبي ﷺ أي: تذكرن واقرأن وتدبرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة واعملن به واعرفن فضل الله ومنته العظيمة عليكن في ذلك وبلغنه للناس.

﴿مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ ﴿مَا﴾: موصولة، ومعنى ﴿يُتْلَىٰ﴾: يقرأ ويقص ويتّبع؛ لأن التلاوة نوعان:

١- تلاوة لفظية، وهي القراءة.

٢- وتلاوة معنوية بمعنى الاتباع، يقال: تلاه يتلوه، إذا اتبعه، وهي أهم، بل هي جل المقصود من التلاوة اللفظية.

و﴿ءَايَٰتِ﴾ جمع آية، وهي في اللغة: العلامة والدلالة، وآيات الله تنقسم إلى قسمين:

١- آيات كونية.

٢- آيات شرعية.

والمراد بها هنا الآيات الشرعية في القرآن الكريم، وسميت آيات لما فيها من الإعجاز اللفظي والمعنوي، وما فيها من الهدى، والتشريع الصالح لكل زمان ولكل مكان ولكل أمة، الدال على أنها من عند الله- عز وجل- كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء:٨٢]. ولما فيها من الدلالة على صدق من جاء بها من عند الله عز وجل.

والقرآن الكريم يتلى بمعنى يقرأ ويقص في بيوتهن بقراءة جبريل على النبي ﷺ حال نزول الوحي، ولم يكن ينزل عليه ﷺ الوحي في لحاف واحدة منهن سوى

عائشة- رضي الله عنها[١]، ويقرأ عليهن ويقص بقراءة النبي ﷺ عليهن وتعليمه لهن، وبقراءتهن هن فقد كان يسمع لبيوته ﷺ دوي بالقراءة كدوي النحل.

والقرآن أيضًا يتلى في بيوتهن بمعنى يُتبع وتطبق أحكامه وآدابه في بيوتهن فهو كتاب هداية ومنهج حياة.

﴿وَٱلْحِكْمَةِ﴾ الحكمة: السنة النبوية، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [النساء:١١٣].

ومن الحكمة أيضًا: ما يشتمل عليه القرآن الكريم من الحِكَم والأحكام والأمر والنهي.

ومنها أيضًا: معرفة العلة والسبب لمشروعية الأحكام، مما يرغب في الإيمان وقبول الحق، ويزيد في اليقين.

فالسُّنَّة حكمة منزلة من عند الله- عز وجل؛ لأنها وإن كانت من فعل الرسول ﷺ أو قوله أو تقريره، فهي وحي من عند الله- عز وجل- كما قال عز وجل: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم:٣، ٤].

كما أن القرآن الكريم كله حكمة، قال تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾ [يونس:١].

وكذا ما يؤخذ من القرآن والسنة من الأحكام والحِكَم ومعرفة العلل لمشروعية الأحكام، كل ذلك من عند الله عز وجل.

والمعنى: تذكرنّ واعرفن فضل الله ونعمته عليكن، واشكرن الله على ذلك واحمدنه وتدبرن ما يقرأ ويقص في بيوتكن من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، تدبرن ذلك لفظًا ومعنى، واتّبعنه، واعملن بها فيه من الأحكام والأخلاق والآداب والحِكَم، واذكرن ذلك للناس وبلغنه لهم.

ويدل هذا على أن المنعم عليه بنعمة يجب عليه شكرها، وأن عليه من الشكر ما ليس على غيره ممن لم تحصل له تلك النعمة، وأن الواجب على من أعطاه الله العلم

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٤١١).

والمعرفة أعظم من الواجب على غيره.

كما يدل على فضل البيوت التي يتلى فيها القرآن والسنة، وتطبق فيها أحكامها وآدابها، وفي الحديث يقول ﷺ: «**لا تجعلوا بيوتكم قبورًا**»(١)، أي: اجعلوا فيها شيئًا من العبادة، من الصلاة والذكر وقراءة القرآن ونحو ذلك، ولهذا قال ﷺ: «**فصلوا أيها الناس في بيوتكم، فإن أفضل الصلاة صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة**»(٢).

وإذا كانت أمهات المؤمنين- رضي الله عنهن- مأمورات بذكر ما يتلى في بيوتهن من آيات الله- عز وجل- وسنة رسوله ﷺ، فالأمة كلها مأمورة بذلك من باب أولى، ذكورها وإناثها، فإن في ذلك الهدى والفلاح والسعادة والنجاح. نسأل الله الهداية والتوفيق.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ۝٣٤﴾، ﴿كَانَ﴾: مسلوبة الزمان، أي: إنه- عز وجل- كان وما زال لطيفًا خبيرًا.

وقوله: ﴿لَطِيفًا﴾، أي: ذا اللطف الواسع التام، وله معنيان:

١- **اللطف بمعنى: معرفة أسرار الأمور وحكمها الدقيقة الخفية**، فهو أخص من الخبير، فاللطيف يدرك الدقيق، والخبير يدرك الخفي، ولهذا قُدم اللطيف على الخبير في جميع المواضع التي اقترنا فيها في القرآن، كما في هذه الآية، وكما في قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ۝١٠٣﴾ [الأنعام:١٠٣]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [الحج:٦٣، لقمان:١٦]، وقوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ۝١٤﴾ [الملك:١٤].

٢- **واللطف بمعنى الإحسان إلى عباده والتيسير عليهم والتخفيف عنهم**، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ۝١٩﴾ [الشورى:١٩]، وقال عز وجل: ﴿إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾ [يوسف:١٠٠]، فعدي «اللطيف» في الآية

(١) أخرجه أبوداود في المناسك (٢٠٤٢)-من حديث أبي هريرة-رضي الله عنه-وصححه الألباني.

(٢) أخرجه البخاري في الأذان (٧٣١)، ومسلم في صلاة المسافرين (٧٨١)، وأبوداود في الصلاة (١٠٤٤)، والنسائي في قيام الليل (١٥٩٩)، والترمذي في الصلاة (٤٥٠)-من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه.

الأولى بالباء، وعدي في الآية الثانية باللام؛ ولهذا قال ابن القيم- رحمه الله تعالى- في «النونية»[(١)]:

وهو اللطيف بعبده ولعبده ... واللطف في أوصافه نوعان
إدراك أسرار الأمور بحكمة ... واللطف عند مواقع الإحسان

قال السعدي- رحمه الله[(٢)]- بعد أن ذكر أن «اللطيف» الذي يدرك سرائر الأمور، وخفايا الصدور، وخبايا السموات والأرض، والأعمال التي تُبيَّن وتُسَر، قال: «ومن معاني «اللطيف» الذي يسوق عبده إلى الخير ويعصمه من الشر بطرق خفية لا يشعر بها ويسوق إليه من الرزق ما لا يدريه، ويريه من الأسباب التي تكرهها النفوس ما يكون ذلك طريقًا له إلى أعلى الدرجات، وأرفع المنازل».

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه[(٣)]:

وكم لله من لطف خفي ... يدق خفاه عن فهم الذكيِّ
وكم يسر أتى من بعد عسر ... ففرج كربة القلب الشجيِّ
وكم أمر تساء به صباحًا ... وتأتيك المسرة بالعشيِّ
إذا ضاقت بك الأحوال يومًا ... فثق بالواحد الفرد العليِّ
ولا تجزع إذا ما ناب خطب ... فكم لله من لطف خفيِّ

وقوله ﴿خَبِيرًا﴾، أي: ذا الخبرة والاطلاع الواسع على بواطن الأمور وخفياتها ودقائقها، وهو أخص من العليم، وإذا كان عز وجل عالمًا بالبواطن والخفيات والدقائق فعلمه بالظواهر والجليات وجلائل الأمور من باب أولى.

ومن لطفه- عز وجل- بأزواج النبي ﷺ بلوغهن هذه المنزلة بأن جعلهن في البيوت التي تتلى فيها آيات الله والحكمة، ومن خبرته بهن اختيارهن لرسوله ﷺ

---

(١) ص(١٤٩).
(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» (٦/ ٢٢٠-٢٢١).
(٣) انظر: «ديوانه» ص١٦٠.

أزواجًا، وإعطاؤهن هذا الفضل، وتخصيصهن به.

وفي كونه- عز وجل- عالمًا بأسرار الأمور وحكمها، وبدقائقها وجلائلها، وبواطنها وظواهرها، وخفياتها وجلياتها، وكونه ذا لطف وإحسان إلى عباده: ترغيب وترهيب ووعد ووعيد، فعلينا جميعًا مراقبته في السر والعلانية، والبُعد عن معصيته، والتعرض لنفحات جوده وإحسانه بلزوم طاعته.

الفوائد والأحكام:

١- تميز نساء النبي ﷺ وعلو مكانتهن على سائر النساء، فهن فراش النبي ﷺ وأزواج أفضل الخلق وسيد الأنبياء والمرسلين، وأمهات المؤمنين، فما عليهن من تقوى الله أعظم مما على من غيرهن؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ﴾.

٢- أن الإنسان قد يشرف بشرف من اتصل به، فشرف أزواج النبي ﷺ بكونهن فراشه ﷺ، وهكذا يشرف الجليس بجليسه الصالح، ونحو ذلك.

٣- وجوب تقوى الله على أزواج النبي ﷺ كغيرهن.

٤- نهي نساء النبي ﷺ عن لين الكلام وترقيقه والخضوع بالقول عند مخاطبة الرجال الأجانب، وغيرهن من النساء يحرم عليهن ذلك من باب أولى؛ لضعف إيمانهن وخوف الفتنة بهن وعليهن من باب أولى؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ﴾.

٥- أن من تقوى الله- عز وجل- عدم خضوع المرأة بالقول؛ لقوله تعالى: ﴿إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ﴾.

٦- أن من الرجال مَن في قلبه مرض الشهوة، ومن النساء أيضًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ﴾؛ ولهذا يجب على المرء الاحتراز من هذا المرض بالابتعاد عن مواطن الفتنة وأسبابها، فمن ذا الذي يضمن سلامة قلبه من هذا المرض؟ ولهذا حرم الإسلام الخلوة بالأجنبية مطلقًا، وأمر بالبعد عن الوسائل والأسباب المؤدية إلى الزنا والفواحش، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَسَآءَ سَبِيلٗا ٣٢﴾

[الإسراء:٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام:١٥١].

ويظلم نفسه أشد الظلم مَن يعرضها لأسباب الفتنة ظانًّا أنه بمعزل عنها كما هو حال الكثيرين- والله المستعان.

٧- جواز مخاطبة المرأة للرجال عند الحاجة إلى ذلك بالقول المعروف من غير خضوع في ذلك، وأن صوتها ليس بعورة؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾.

٨- وجوب قرار المرأة في بيتها وعدم الخروج إلا لحاجة؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ فهذا أستر وأحفظ لهن وأسلم، وهذا- وإن كان في أزواج النبي ﷺ فغيرهن مأمورات بذلك من باب أولى؛ لأن خوف الفتنة عليهن وبهن أشد، فخير ما للمرأة قعر بيتها، وأن لا ترى الرجال ولا يرونها كما قالت عائشة- رضي الله عنها.

٩- نهي المرأة المسلمة من أن تتبرج تبرج الجاهلية الأولى بإظهار محاسنها أمام الرجال الأجانب ومخالطتهم؛ لقوله تعالى لنساء النبي ﷺ: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾، وغيرهن من النساء منهيات عن ذلك من باب أولى.

١٠- ذم الجهل، وذم الجاهلية الأولى- جاهلية ما قبل الإسلام، وفي هذا ذم للجاهلية المعاصرة من باب أولى؛ لأنها اختيار للجهل عن علم وبصيرة، لا عن سذاجة، وهي أشد وأنكى من الجاهلية الأولى، بل تفوقها أضعافًا مضاعفة؛ لأنه تهيأ لها من أسباب الفساد والفتنة ووسائلها ما لم يتهيأ لغيرها، نسأل الله العافية والسلامة.

١١- أمر الله- عز وجل- وإيجابه على نساء النبي ﷺ إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، وهو أمر لهن ولسائر الأمة رجالها ونسائها.

١٢- أن المطلوب إقام الصلاة إقامة تامة بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ﴾ أي: أقمنها إقامة تامة.

١٣- أن الصلاة أعظم من الزكاة؛ لهذا قدمت في الذكر على الزكاة بقوله: ﴿وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ﴾، وهي أعظم العبادات البدنية، كما أن الزكاة أعظم

العبادات المالية؛ لهذا خصهما الله بالذكر من بين العبادات.

١٤- جواز عطف اسم الرسول ﷺ ووصفه على اسم الله- عز وجل- بالواو؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾؛ لأن طاعة الرسول ﷺ من طاعة الله- عز وجل- كما قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠].

١٥- تقديم الخاص وهو الأمر بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة على العام وهو الأمر بطاعة الله ورسوله، وعطفه عليه لبيان أهمية الخاص.

١٦- عناية الله- عز وجل- بأهل بيت النبوة وإرادته إذهاب الرجس عنهم وتطهيرهم تطهيرًا كاملًا من الفواحش والذنوب والمعاصي ومن الخضوع بالقول، وتبرج الجاهلية الأولى، وغير ذلك، وذلك بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾.

وفي هذا إظهار فضيلة أهل البيت؛ لأن الله خصهم هنا بإرادته شرعًا ومحبته إذهاب الرجس عنهم وتطهيرهم، وإلا فإنه عز وجل يريد ذلك لجميع العباد.

١٧- إثبات الإرادة الشرعية لله تعالى.

١٨- أن أزواج النبي ﷺ من أهل بيته؛ لأن الخطاب وسياق الآيات معهن، فلا يجوز إخراجهن من أهل بيته، ولهذا فإن من قذف واحدة منهن كفر؛ لأن بيت النبوة أطهر البيوت وأبعدها عن الرجس.

١٩- أمر الله- عز وجل- لأزواج النبي ﷺ بذكر ما يتلى في بيوتهن من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، تذكيرًا لأنفسهن بذلك، وتدبرًا له، تلاوة ومعنى وأحكامًا، تعلمًا وتعليمًا لأنفسهن ولغيرهن؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾، وغيرهن من الأمة مأمور بذلك من باب أولى.

٢٠- الامتنان على أزواج النبي ﷺ بما يتلى في بيوتهن من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، ونعمت النعمة هذه لمن مَنَّ الله عليه بها وعرف قدرها؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾.

٢١- الرد على الذين ينكرون السنة، ويرون الاقتصار على العمل بالقرآن.

٢٢- أن مَن أنعم الله عليه بنعمة عظيمة يجب عليه شكرها بقدرها، وأن الواجب على مَن آتاه الله العلم والحكمة أعظم من الواجب على غيره؛ لقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾.

٢٣- فضل الله- عز وجل- على أمهات المؤمنين، ورفع شأنهن بما يسر لهن من نقل الكثير من السنة وشرائع الدين، وبخاصة ما يتعلق بأحوال النبي ﷺ الخاصة مع أهله وفي بيوته وبيوت زوجاته ﷺ، وغير ذلك.

٢٤- فضل البيوت التي يتلى فيها القرآن والسنة ويتدبر فيها ألفاظهما ومعانيهما وتطبق فيها أحكامهما وآدابهما.

٢٥- إثبات صفة اللطف التام له- سبحانه وتعالى-، بالإحسان لعباده وبهم، وإدراك أسرار الأمور وحِكَمها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا﴾.

٢٦- إثبات صفة الخبرة التامة له- عز وجل- والعلم الشامل المحيط بكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿خَبِيرًا﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾.

ذكر الله- عز وجل- في الآيات السابقة ما أعدّه لأزواج النبي ﷺ من الثواب، ثم أتبع ذلك بذكر ما أعده لغيرهن من الرجال والنساء.

سبب النزول:

عن أم سلمة- رضي الله عنها- قالت: قلت للنبي ﷺ: ما لنا لا نُذْكَر في القرآن كما يُذْكَر الرجال؟ قالت: فلم يرعني منه ذات يوم إلا ونداؤه على المنبر، قالت: وأنا أُسرِّح شعري، فلففت شعري، ثم خرجت إلى حجرة من حجر بيتي، فجعلت سمعي عند الجريد فإذا هو يقول عند المنبر: «**يا أيها الناس، إن الله يقول**: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ إلى آخر الآية»(1).

ولهذا- والله أعلم- جاء التفصيل في ذكر حكم الرجال والنساء في هذه الآية خلافًا لما عليه غالب خطابات القرآن الكريم، فهي توجه للذكور، من باب تغليبهم على الإناث؛ لأن الذكور على وجه العموم أشرف، كما قال تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة:٢٢٨]؛ ولأنهم قوامون على النساء يجب عليهم تعليمهن وتوجيههن، وإذا استقاموا في الغالب استقمن.

ومثل هذه الآية في التفصيل في ذكر حكم الرجال والنساء قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ﴾ [النساء:٣٢]، وقوله تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ [النساء:٧]، وقوله: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ [آل عمران:١٩٥]. وهذه الآيات كلها نزلت لأسباب وأحوال لأجلها

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٣٠٥)، والطبري في «جامع البيان» (١٩/ ١١٠-١١١).

جاء التفصيل في ذكر حكم الرجال والنساء؛ تنبيهًا على العناية بالمرأة، وعظم مكانتها في الإسلام.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾، ﴿إِنَّ﴾: حرف توكيد ونصب، ﴿ٱلْمُسْلِمِينَ﴾: اسمها منصوب بها وعلامة نصبه الياء؛ لأنه جمع مذكر سالم، ﴿وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾: معطوف عليه منصوب بالكسرة؛ لأنه جمع مؤنث سالم، وكذا ما بعده معطوف عليه، وخبر ﴿إِنَّ﴾ هو قوله: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾.

وقدَّم الذكور على الإناث في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ وما بعده؛ لأن الذكور أفضل من حيث العموم- كما تقدم.

أما من حيث الخصوص فكم من امرأة خير من زوجها بل من عشرات الرجال، ولهذا ينبغي أن نقدم في مخاطباتنا وكتاباتنا من قدّم الله- عز وجل- لا كما يقول بعضهم: سيداتي آنساتي سادتي.

كما أنه لا يجوز أن يفخر رجل على امرأة، سواء كانت زوجته أو غيرها؛ لأنها قد تكون خيرًا منه دينًا وخلقًا وكرمًا، بل وشجاعة، وهذا أمر مشاهد وواقع، والفخر كل الفخر والعز كل العز بتقوى الله تعالى، قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات:١٣].

ومعنى الإسلام: الاستسلام لله ظاهرًا، أي: بفعل الجوارح الظاهرة، بأداء الأعمال الظاهرة من الصلاة والزكاة والصيام والحج وغير ذلك، كما جاء في حديث جبريل- عليه السلام- حين سأله النبي ﷺ عن الإسلام، فقال: «**الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت الحرام إن استطعت إليه سبيلًا**»(١).

﴿وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ يؤخذ من عطف هذا على ما قبله أن الإسلام غير الإيمان؛ لأن العطف في الأصل يقتضي المغايرة.

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٨)، وأبوداود في السنة (٤٦٩٥)، والنسائي في الإيمان وشرائعه (٤٩٩٠)، والترمذي في الإيمان (٢٦١٠)، وابن ماجه في المقدمة (٦٣)، من حديث عمر بن الخطاب، رضي الله عنه.

ومعنى الإيمان: هو الاستسلام لله باطنًا بتصديق القلب وإيمانه بكل ما يجب الإيمان به من أمور الغيب التي أخبر الله بها في كتابه، أو في سنة رسوله ﷺ، ومن ذلك: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والإيمان بالقدر خيره وشره، كما جاء في حديث جبريل- عليه السلام- حين سأله النبي ﷺ عن الإيمان، فقال: «**الإيمان: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره من الله تعالى**»(١).

والإسلام والإيمان من الكلمات المترادفة التي إذا اجتمعت افترقت، أي: صار لكل منهما تعريف خاص، وإذا افترقت اجتمعت، أي: حمل كل منهما على معنى الآخر، كالبر والتقوى، والفقير والمسكين، ونحو ذلك.

والإيمان أعلى وأخص من الإسلام، فكل مؤمن مسلم، وليس كل مسلم مؤمنًا، قال تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات:١٤].

ولما أعطى رسول الله ﷺ رهطًا وسعد جالس وترك رجلًا يقول سعد: هو أعجبهم إلي، فقلت: يا رسول الله، مالك عن فلان؟ والله إني لأراه مؤمنًا، فقال رسول الله ﷺ: «**أو مسلمًا**» ثلاث مرات، يقول ﷺ: «**أو مسلمًا**»(٢).

وإنما كان الإيمان أخص وأعلى؛ لأنه في القلب الذي عليه مدار صلاح الجسد كله وفساده، كما قال ﷺ: «**ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**»(٣).

﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ﴾ أي: والمطيعين والمطيعات، مع دوام الطاعة والذل والخضوع

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان-إذا لم يكن الإيمان على الحقيقة (٢٧)، ومسلم في الإيمان-من يخاف على إيمانه لضعفه (١٥٠)، وأبوداود في السنة (٤٦٨٣)، والنسائي في الإيمان وشرائعه (٤٩٩٢)، وأحمد (١/ ١٧٦)-من حديث سعد بن أبي وقاص-رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الإيمان (٥٢)، ومسلم في المساقاة (١٥٩٩)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٨٤)-من حديث النعمان بن بشير-رضي الله عنه.

والسكون؛ لأن القنوت في الأصل: دوام الطاعة والتذلل والخضوع لله عز وجل.

قال الله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾ [الزمر:٩]، وقال تعالى: ﴿وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الروم:٢٦]، وقال تعالى: ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [آل عمران:٤٣].

قال ابن كثير رحمه الله تعالى[(١)]: «فالإسلام بعده مرتبة يرتقي إليها- يعني الإيمان- ثم القنوت ناشئ عنهما».

أي: أن القنوت أعلى من الإسلام والإيمان؛ لأنه ناشئ عنهما، فالقانت معه الإسلام والإيمان مع زيادة القنوت.

﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ﴾ الصدق في الأصل: هو الإخبار بما يطابق الواقع، أي: الصادقين والصادقات بأقوالهم، بكونها مطابقة للواقع، وبإيمانهم بكونه خالصًا لله تعالى، وبأعمالهم بكونها خالصةً لوجه الله، موافقة لشرعه.

والصدق منجاة لصاحبه في الدنيا والآخرة، قال ﷺ: «**عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقًا. وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابًا**»[(٢)].

وفي قصة الثلاثة الذين خلِّفوا كما رواها البخاري وغيره أعظم شاهد على فضل الصدق وعظيم عاقبته، فبسبب الصدق خلد الله ذكرهم في القرآن الكريم، وأمر بالاقتداء بهم فقال في آخر قصتهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾

---

(١) في «تفسيره» (٦/ ٤١٤).

(٢) أخرجه البخاري في الأدب- باب ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ (٦١٣٤)، ومسلم في البر والصلة والآداب- باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله (٢٦٠٧)، وأبو داود في الأدب (٤٩٨٩)، والترمذي في البر والصلة (١٩٧١)-من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

[النور:١١٩].

قال مالك بن دينار رحمه الله: «قولوا لمن لم يكن صادقًا: لا تتعب»[١].

وروي عن ابن المبارك: «قل لمن لم يكن مخلصا لا تتعب».

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله[٢]: «فإن الصدق خصلة محمودة، ولهذا كان بعض الصحابة لم تجرب عليه كذبة لا في الجاهلية ولا في الإسلام، وهو علامة على الإيمان كما أن الكذب أمارة على النفاق، ومن صدق نجا».

﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ﴾ ذكر الله- عز وجل- الصبر وسط هذه الصفات العشر؛ لأنها كلها تحتاج إلى الصبر.

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «ألا إن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا قطع الرأس بان الجسد»، ثم رفع صوته، فقال: «ألا لا إيمان لمن لا صبر له»[٣].

والصبر في اللغة: الحبس والمنع.

وهو حبس النَّفْس عن الجزع، واللسان عن التشكي، والجوارح عما حرم الله، وذلك بالصبر على أحكام الله الشرعية والكونية والجزائية، فلا يكرهها، ولا يتسخط لها أو يتضجر منها.

والصبر ثلاثة أنواع:

١ - صبر على طاعة الله.

٢- وصبر عن معصية الله.

٣- وصبر على أقدار الله المؤلمة.

فأعظمها: الصبر على طاعة الله، ففيه تكليف وعمل، كأداء الصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، والجهاد، وغير ذلك. ومنه، بل ومن أعظمه صبر نبينا محمد ﷺ على ما لقي من أذى قومه في سبيل الله. وكذا غيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

---

(١) انظر:«تلبيس إبليس» ص١٣٧.

(٢) في «تفسيره» (٦/ ٤١٤).

(٣) انظر:«تيسير العزيز الحميد» ص٥١٢.

ثم الصبر عن معصية الله، وهو: حبس النفس وكفها ومنعها عن بعض شهواتها المحرمة كالزنا والربا والاعتداء والسرقة ونحو ذلك.

فهو كف وحبس للنفس عن المحرمات، لا عمل فيه، ولهذا جاء في المرتبة الثانية بين أنواع الصبر عمومًا.

لكن بالنسبة للصابرين فقد يكون بعضهم الصبر على الطاعة أهون عليه من الصبر عن المعصية والفاحشة، ومن أعظم الصابرين عن المعصية والفاحشة نبي الله يوسف بن يعقوب- عليهما السلام. فقد ابتلي بذلك فصبر فصرف الله عنه السوء والفحشاء، ولهذا قال فيما حكى الله عنه: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٩٠﴾ [يوسف:٩٠].

ثم الصبر على أقدار الله المؤلمة حين وقوع المصيبة، كما قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ۝١٥٦﴾ [البقرة:١٥٥، ١٥٦].

قال ﷺ لإحدى بناته لما أخبر أن ابنًا لها في النزع، قال ﷺ: «**مرها فلتصبر وتحتسب فإن لله ما أخذ، وله ما أبقى، وكل شيء عنده بأجل مسمى**»(١).

وعن أنس بن مالك- رضي الله عنه- قال: مرّ النبي ﷺ بامرأة تبكي عند قبر، فقال: «**اتقي الله واصبري**» قالت: إليك عني فإنك لم تصب بمصيبتي. ولم تعرفه، فقيل لها إنه النبي ﷺ، فأتت باب النبي ﷺ، فلم تجد عنده بوّابين، فقالت: لم أعرفك. فقال: «**إنما الصبر عند الصدمة الأولى**»(٢).

ومنه صبر أيوب- عليه السلام- على المرض، قال تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ۝٤٤﴾ [ص:٤٤].

قال ابن كثير رحمه الله(٣): «هذه سجية الثبات، وهي الصبر على المصائب، والعلم

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز (١٢٨٤)، ومسلم في الجنائز (٩٢٣)-من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز (١٢٨٣)، ومسلم في الجنائز (٩٢٦)، وأبوداود في الجنائز (٣١٢٤)، والنسائي في الجنائز (١٨٦٩)، والترمذي في الجنائز (٩٨٨)، وابن ماجه في الجنائز (١٥٩٦).

(٣) في «تفسيره» (٦/ ٤١٤).

بأن المقدور كائن لا محالة، وتلقي ذلك بالصبر والثبات، وإنما الصبر عند الصدمة الأولى، أي: أصعبه في أول وهلة، ثم ما بعده أسهل منه، وهو صدق السجية وثباتها».

وجاء الصبر على أقدار الله في المرتبة الثالثة؛ لأنه صبر على أمر ليس من مقدور الإنسان، قال ابن القيم: «ومن لم يصبر صبر الكرام سلا سلو البهائم»، قال الأشعث بن قيس: «إنك إن صبرت إيمانا واحتسابا، وإلا سلوت سلو البهائم»(١).

وقال الشاعر:

أتصبر للبلوى رجاءً وحِسبةً ... فتؤجرَ أم تسلو سلو البهائمِ(٢)

والصبر منزلة عظيمة ودرجة عالية رفيعة أمر الله بها رسوله ﷺ سيد الخلق وأفضلهم فكانت من أخص صفاته ﷺ وصفات أولي العزم من الرسل- عليهم الصلاة والسلام- وصفات أنبياء الله وأصفيائه، ذكره الله- عز وجل- في أكثر من تسعين موضعًا في كتابه العزيز؛ لأنه من عزائم الأمور، قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف:٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾ [آل عمران:١٨٦]، وقال سبحانه: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ [الشورى:٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ﴾ [يونس:١٠٩]، وقال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [هود:٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [النحل:١٢٧]، وقال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾﴾ [المعارج:٥]، أي: لا جزع فيه.

وأمر الله به المؤمنين جميعًا، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [البقرة:١٥٣]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾ [آل عمران:٢٠٠].

ومن ثمرات الصبر العظيمة أن الله يحب الصابرين وهو معهم كما قال عز وجل:

---

(١) انظر: «زاد المعاد» ٤/ ١٧٧، ١٧٨.

(٢) البيت لأبي تمام. انظر: «الصناعتين» ص٢١٢.

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [البقرة:١٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنفال:٤٦].

وهو سبب للإمامة في الدين والنصر على الأعداء، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة:٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ [الأعراف:١٣٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ﴾ [آل عمران:١٢٠].

وهو من أسباب التوفيق لخصال الخير والخلق الطيب، قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ [فصلت:٣٤، ٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [القصص:٨٠].

وهو سبب لمضاعفة الأجور، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزمر:١٠]، وقال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ [القصص:٥٤].

وسبب للخيرية في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ [النحل:١٢٦].

وسبب للعقبى الحسنة في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد:٢٤]، وقال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [هود:٤٩].

وسبب للمغفرة والرحمة والفوز والجزاء الحسن، قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل:١١٠]، وقال تعالى: ﴿إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [المؤمنون:١١١]، وقال تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧]، وقال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان:٧٥، ٧٦]، وقال تعالى: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟

جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾ [الإنسان:١٢].

وإنما أطلت في موضوع الصبر لحاجة الأمة إليه وعظيم منزلته فهو من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، وقد قال ﷺ: «**وما أعطي أحد عطاءً خيرًا وأوسع من الصبر**»(١).

وقال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: «**الصبر نصف الإيمان، واليقين الإيمان كله**»(٢).

﴿وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ﴾ الخشوع: السكون والطمأنينة والتؤدة والوقار والتواضع الحامل عليه الخوف من الله ومراقبته في أداء العبادات كلها من صلاة وزكاة وصيام وحج وغير ذلك، كما في الحديث: «**أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»(٣).

ومن أعظم ذلك الخشوع في الصلاة التي هي الصلة بين العبد وبين ربه، وعمود الإسلام، وأعظم أركانه بعد الشهادتين وذلك بحضور القلب فيها وسكون الجوارح، وتذكر المسلم أنه في هذا الموقف يناجي ربه ملك الملوك، فلا يترك قلبه سارحًا في الفلوات، ولا جوارحه تتحرك هنا وهناك، فرِجْل تقدم ورِجْل تؤخر، وامتخاط، ونظر في الساعة، والتفات يمينًا وشمالًا، ونحو ذلك.

﴿وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ﴾ أي: والمتصدقين والمتصدقات من أموالهم فرضًا ونفلًا، والصدقة بذل المال تقربًا إلى الله- عز وجل- والإحسان إلى المحتاجين في وجوه الخير عامة. فهي تدل على صدق إيمان باذلها، ومن أهمها الزكاة الواجبة، قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة:١٠٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة:٦٠].

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٦٩)، ومسلم في الزكاة (١٠٥٣)، وأبوداود في الزكاة (١٦٤٤)، والنسائي في الزكاة (٢٥٨٨)، والترمذي في البر والصلة (٢٠٢٤)-من حديث أبي سعيد الخدري-رضي الله عنه.

(٢) رواه الطبراني موقوفًا بإسناد صحيح، انظر:«مجمع الزوائد» (١/ ٥٧). وانظر «تيسير العزيز الحميد» ص٥١٢.

(٣) أخرجه البخاري في الإيمان-سؤال جبريل النبي عليه السلام عن الإيمان (٥٠)، ومسلم في الإيمان-باب الإسلام ما هو؟ وبيان خصاله (٩)، والنسائي في الإيمان وشرائعه (٤٩٩١)، وابن ماجه في المقدمة (٦٤) من حديث أبي هريرة-رضي الله عنه.

وتشمل الصدقة أيضًا جميع النفقات الواجبة والمستحبة على الأقارب، وعلى الفقراء والمساكين والضيوف، قال الله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة:٢٤٥]، وقال تعالى: ﴿إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَـٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [التغابن:١٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ [المزمل:٢٠]، وقال تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران:٩٢].

وقال ﷺ: «**سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله**» فذكر منهم: «**ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه**»(١)، وقال ﷺ: «**ما نقصت صدقة من مال**»(٢).

والتصدق أعم من إنفاق المال وبذله في سبيل الله، كما قال ﷺ: «**إن بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن منكر صدقة، وفي بضع أحدكم صدقة**»، قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: «**أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر**»(٣).

﴿وَٱلصَّـٰٓئِمِينَ وَٱلصَّـٰٓئِمَـٰتِ﴾ الصيام: هو الإمساك عن المفطرات الحسية والمعنوية من طلوع الفجر إلى غروب الشمس.

ويشمل صوم الواجب كصوم رمضان والكفارات والنذور، والصوم المندوب كصيام أيام البيض والاثنين والخميس، وست من شوال، ويوم عرفة، ويوم عاشوراء، وصيام يوم وفطر يوم. وكذا صوم أيِّ يوم من السنة ما لم يكن منهيًا عن صيامه، كالعيدين، وإفراد الجمعة بالصوم، ونحو ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان-من جلس في المسجد ينتظر الصلاة (٦٦٠)، ومسلم في الزكاة-فضل إخفاء الصدقة (١٠٣١)، وأبوداود في آداب القضاة (٥٣٨٠)، والترمذي في الزهد (٢٣٩١)-من حديث أبي هريرة-رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٨٨)، والترمذي في البر والصلة (٢٠٢٩)-من حديث أبي هريرة-رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في الزكاة (١٠٠٦)-من حديث أبي ذر-رضي الله عنه.

وفي الحديث: «الصوم نصف الصبر»(١)؛ لأن فيه أنواع الصبر الثلاثة كلها.

وأفرد الصيام بالذكر؛ لأنه عبادة مستقلة.

﴿وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ﴾ لما ذكر الصائمين والصائمات أتبعه بقوله: ﴿وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ﴾؛ لأن الصيام من أكبر العون على كسر الشهوة والغض من البصر وحفظ الفرج وتحصينه، كما في حديث عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه- قال: كنا مع النبي ﷺ شباب لا نجد شيئًا، فقال لنا رسول الله ﷺ: «**يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء**»(٢).

والمعنى: والحافظين فروجهم والحافظات فروجهن عن الفواحش وما حرم الله.

ومن أخص صفات المؤمنين والمؤمنات وأوجبها حفظ فروجهم عما حرم الله عليهم من الفواحش، من الزنا، واللواط، والاستمناء باليد، والسحاق، وما يؤدي إلى فعل الفواحش من الخلوة المحرمة والنظر المحرم والسماع المحرم وغير ذلك، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧﴾ [المؤمنون:٥-٧، المعارج:٢٩-٣١].

وقد جعل الله- عز وجل- غريزة الشهوة في الإنسان؛ ليحصل التزاوج بين الذكور والإناث للتناسل وعمارة الكون، وإشباع هذه الرغبة بالطريق الشرعي.

وفي ذلك أيضًا ابتلاء واختبار ليتميز من يتقي الله في استعمالها فيما أباح الله- عز وجل- ويجاهد النفس والهوى والشيطان عن استعمالها فيما حرم الله.

فعلى الإنسان المسلم أن يجاهد نفسه بغض بصره، وحفظ فرجه، ذكرًا كان أو أنثى، وليعلم أن هذه الغريزة موجودة عنده وعند غيره، ولكن الشأن كل الشأن في المجاهدة

---

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات ٣٥١٩، والدارمي في الطهارة ٦٥٤-من حديث رجل من بني سليم عن رسول الله ﷺ، وقال الترمذي: «حديث حسن».

(٢) أخرجه البخاري في النكاح (٥٠٦٦)، ومسلم في النكاح (١٤٠٠)، وأبوداود في النكاح (٢٠٤٦)، والنسائي في الصيام (٢٢٣٩)، والترمذي في النكاح-ما جاء في فضل التزويج والحث عليه (١٠٨١)، وابن ماجه في النكاح (١٨٤٥).

في البعد بها عن أسباب الفتنة وما حرم الله، كما جاء في مقالة أحد النفر الثلاثة الذين أووا إلى غار، فانطبقت عليهم الصخرة، ولم يستطيعوا الخروج إلا بالتوسل إلى الله- عز وجل- بصالح أعمالهم حيث قال أحدهم: «اللهم إنه كانت لي ابنة عم، وكانت أحب الناس إليَّ، فراودتها عن نفسها، فامتنعت، حتى ألَمَّت بها سنة، فجاءتني فأعطيتها شيئًا من المال على أن تخلي بيني وبين نفسها، فلما جلست منها مجلس الرجل من امرأته، قالت: اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه، فقمت وتركتها وتركت المال الذي أعطيتها، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه» الحديث[(١)].

واعلم أخي الكريم أنه كلما اشتد هذا الداعي عند الإنسان وجاهده، فإنه أعظم أجرًا من غيره.

وإن من أعظم نعم الله على الإنسان أن يسلم من أسباب الفتن، وما يؤدي إلى الوقوع في الفواحش من الخلوة المحرمة والنظر المحرم، والسماع المحرم، ورؤية الأفلام المثيرة للغرائز في القنوات الفضائية وغيرها، ومن أعظم الابتلاء أن تعرض له تلك الأسباب مع ضعفه أمام نوازع النفس وشهواتها.

ولهذا يُجرم أعظم الإجرام في حق الأمة دعاة التغريب والفساد والانحلال، الذين ينادون بإخراج المجتمع عن تعاليم الإسلام السامية ومبادئه الرفيعة العالية، الداعية إلى غض الأبصار، وحفظ الفروج، والبعد عن أسباب الفتنة، حيث ينادي أولئك المستغربون الذين هم من جلدتنا ويتكلمون بلغتنا، ينادون بمقالاتهم وكتاباتهم بكشف المرأة عن وجهها ونبذ الحجاب، وبخروجها إلى العمل، والاختلاط بالرجال، ويقولون: «إن المجتمع يتنفس برئة واحدة».

وهم بهذا النداء يريدون إشباع رغباتهم وجر الأمة إلى أسباب الفتن والفواحش، وقد قال ﷺ: **«ما تركت بعدي فتنة هي أضر على الرجال من النساء، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء، فإن فتنة بني إسرائيل كانت في النساء»**[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء (٣٤٦٥)، ومسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار (٢٧٤٣)، وأبوداود في البيوع (٣٣٨٧)-من حديث ابن عمر-رضي الله عنهما.

(٢) سبق تخريجه.

ويا ليت هؤلاء المستغربين عندما ينادون بتقليد الغرب في الانحلال يُنْصِفون في ذلك فينادون في المقابل بتنظيم المؤسسات في العالم العربي والإسلامي والأخذ بأسباب التقدم الصناعي والتجاري والزراعي والإداري، وتنظيم الوقت والنوم المبكر والقيام المبكر- كما هو الحال عند الغربيين.

فالعجب كل العجب أن هؤلاء المستغربين ينادون بتقليد الغرب بالغث فقط، ويا ليتهم على الأقل أنصفوا بتقليدهم بالغث والسمين، إن كان لابد من ذلك، نسأل الله إصلاح الأحوال.

﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ ختم الله- عز وجل- الصفات السابقة بقوله: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾؛ لأن الذكر يشمل جميع الصفات المذكورة وغيرها من أنواع الطاعات الفعلية والقولية، الظاهرة والباطنة، من الواجبات والمستحبات، وغير ذلك.

فهو أشبه بعطف العام على الخاص، وبالخاتم على تلك الصفات؛ لفضله وشموله لها، ولهذا أكَّده بقوله: ﴿كَثِيرًا﴾.

وقد أمر الله- عز وجل- بالذكر ورغَّب فيه وحثَّ عليه، وبيَّن فضله، وأثنىٰ على الذاكرين، قال تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت:٤٥]، وقال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا﴾ [آل عمران:٤١]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾﴾ [الأحزاب:٤١]، وقال تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة:١٥٢]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء:١٠٣].

ورتَّب عليه الفلاح، قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنفال:٤٥، الجمعة:١٠]، وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾ [الأعلى:١٤، ١٥].

وذكر أنه من أسباب الثبات والفلاح، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنفال:٤٥].

وأثنى عز وجل على أولي الألباب بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ

وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ﴾ [آل عمران:١٩١].

وجعل عز وجل وجل القلوب واطمئنانها عند ذكر الله من شرط الإيمان، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال:٢، الحج:٣٥]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد:٢٨].

وقال عز وجل في المنافقين: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾ [النساء:١٤٢].

وقال عن الكافرين: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِۖ﴾ [الزمر:٤٥].

وهكذا بيّن المصطفى ﷺ فضل الذكر والذاكرين، فعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: كان رسول الله ﷺ يسير في طريق مكة فمر على جبل يقال له: جُمْدان، فقال: «**سيروا هذا جُمْدان، سبق المفردون، قالوا: وما المفردون؟ قال: الذاكرون الله كثيرًا والذاكرات**»(١).

وعن معاذ بن جبل- رضي الله عنه- أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما عمل آدمي عملًا قط أنجى له من عذاب الله من ذكر الله**»، وقال معاذ: قال رسول الله ﷺ: «**ألا أخبركم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من تعاطي الذهب والفضة، ومن أن تلقوا عدوكم غدًا فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: ذكر الله عز وجل**»(٢).

وعن سهل بن معاذ بن أنس الجهني عن أبيه عن رسول الله ﷺ: أن رجلًا سأله فقال: أي المجاهدين أعظم أجرًا يا رسول الله؟ قال: «**أكثرهم لله ذكرًا**».

قال: فأي الصائمين أكثر أجرًا؟ قال: «**أكثرهم لله ذكرًا**»، ثم ذكر الصلاة والزكاة والحج والصدقة كل ذلك يقول رسول الله ﷺ: «**أكثرهم لله ذكرًا**»، فقال أبوبكر- رضي الله عنه- لعمر رضي الله عنه: ذهب الذاكرون بكل خير. فقال رسول الله ﷺ: «**أجل**»(٣).

وعن أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه- أنه قال: يا رسول الله، أي العباد أفضل

---

(١) أخرجه مسلم، في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار (٢٦٧٦)، وأحمد (٢/ ٤١١).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٢٣٩)، وأخرجه أيضًا (٦/ ٤٤٧)-من حديث أبي الدرداء-رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٤٣٨).

درجة عند الله يوم القيامة؟ قال: «**الذاكرون الله كثيرًا**»، قال: قلت: يا رسول الله، ومِن الغازي في سبيل الله؟ قال: «**لو ضرب بسيفه في الكفار والمشركين حتى ينكسر ويختضب دمًا لكان الذاكرون الله أفضل منه درجة**»(١).

والذكر يكون بالقلب، ويكون باللسان، ويكون بالجوارح.

والذكر بالقلب هو أهم أنواع الذكر، ومن أعظم ذلك التفكير في عظمة الله عز وجل وآياته الكونية والشرعية، ومن ذلك كون القلب حاضرًا مواطئًا للذكر باللسان والجوارح.

والذكر باللسان بقراءة القرآن الكريم، والأذكار والأوراد الواردة، وتعليم الخير وبيان الحق، والدعوة إلى الله- تعالى- والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والسلام، وغير ذلك، ولابد فيه من مواطأة القلب للسان.

والذكر بالجوارح يكون باستعمال جميع الجوارح من اليدين والرجلين وجميع أجزاء الجسم، وحواسه في طاعة الله عز وجل بفعل ما أمر الله به من العبادات البدنية والمالية وغيرها.

وكف هذه الجوارح، وحفظها عما نهى الله عنه، مع حضور القلب ومواطأته للجوارح في ذلك كله.

قال النبي ﷺ: «**إذا استيقظ الرجل من الليل، وأيقظ امرأته فصليا ركعتين كتبا من الذاكرين الله كثيرًا والذاكرات**»(٢).

والذكر بالجوارح يشمل جميع الطاعات الفعلية سواء ما كان منها مؤقتًا بوقت معين كالصلوات الخمس، والسنن الرواتب، والزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت الحرام وما كان منها مطلقًا كبر الوالدين، وصلة الأرحام ونوافل العبادات من الصلاة، والصدقة، والصيام وغير ذلك، وما كان منها مقيدًا بوجود سببه كصلاة الكسوف، والاستسقاء، والجهاد في سبيل الله وغير ذلك.

كما يشمل الذكر بالجوارح ترك جميع المنهيات سواء ما كان منها النهي عنه مقيدًا

---

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٣٧٦)، وقال الترمذي: «حديث غريب».

(٢) أخرجه أبوداود في التطوع-قيام الليل (١٣٠٩)، وابن ماجه في إقامة الصلاة-ما جاء فيمن أيقظ أهله من الليل (١٣٣٥)-من حديث أبي سعيد وأبي هريرة-رضي الله عنهما، وصححه الألباني.

بوقت معين كالكلام حال الصلاة، والخطبة، وحلق الشعر، والطيب وغير ذلك من محظورات الإحرام حال الإحرام. وكذا ما كان النهي عنه مقيدًا بمكان معين كقتل الصيد في الحرم وغير ذلك.

والذكر باللسان من أيسر أنواع الذكر ويشمل جميع الأذكار من قراءة القرآن الكريم الذي هو أصل الذكر، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر:٩]، وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ۝٥٨﴾ [آل عمران:٥٨]، وقال تعالى: ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ۝١﴾ [ص:١]. وكذا غيره من الأذكار النبوية؛ لأن السنة كلها ذكر قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل:٤٤]، أي: أنزلنا إليك السنة لتبين للناس القرآن الكريم.

والذكر باللسان: منه المقيد بزمان كالذكر أدبار الصلوات، وفي الصباح والمساء ونحو ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ۝٢٠٥﴾ [الأعراف:٢٠٥]، وقال تعالى: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٢٥﴾ [الإنسان:٢٥]، والذكر أيام عشر ذي الحجة، كما قال عز وجل: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ﴾ [البقرة:٢٠٣].

ومنه المقيد بمكان كالذكر عند المشعر الحرام، وعند دخول المسجد والخروج منه، وعند دخول البيت والخروج منه وعند دخول الخلاء والخروج منه، وعند رمي الجمار وغير ذلك.

ومنه المقيد بحال كالذكر عند الأذان والوضوء، والنوم، وعند الأكل والشرب واللبس، وعند الجماع، والسفر، والنزول وهبوب الرياح، وعند الهم والحزن، وغير ذلك.

ومنه الذكر المطلق في جميع الأوقات، فقد جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إن شرائع الإسلام قد كثرت عليَّ فأخبرني بشيء أتشبث به، قال: «**لا يزال لسانك رطبًا من ذكر الله**»(١)، أي: في جميع الأوقات، وفي أنواع الذكر كلها من التسبيح،

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٣٧٥)، وابن ماجه في الأدب (٣٧٩٧)-من حديث عبدالله بن بسر- رضي الله عنه-وقال الترمذي:«حسن غريب»..

والتحميد، والتهليل، والتكبير وغير ذلك.

قال ﷺ: «**سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، هن الباقيات الصالحات**»(١).

وقال ﷺ: «**لأن أقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، أحب إليَّ مما طلعت عليه الشمس**»(٢).

وقال ﷺ: «**أحب الكلام إلى الله أربع: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر. لا يضرك بأيهن بدأت**»(٣).

وقال ﷺ: «**أفضل الكلام أربع: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر**»(٤).

وقال ﷺ: «**كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم**»(٥).

إلى غير ذلك من أنواع الذكر التي لا تكاد تحصى.

والحكمة من تنوع الذكر - والله أعلم - أمور ثلاثة:

الأول: عدم الملل.

الثاني: ألا يكون القلب غافلا فيكون الذكر كالآلة يحركه.

الثالث: اختلاف معانيها وفوائدها، وذلك لا يحصل بنوع واحد.

هذا من حيث العموم، وهناك فائدة الاقتداء بالنبي ﷺ واتباع السنة بجميع أنواعها.

ومع لزوم المسلم لذكر الله - عز وجل - ينبغي أن يقر ويعترف بالتقصير، ويقول

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٦٨)-من حديث النعمان بن بشير-رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار (٢٦٩٥)، والترمذي في الدعوات (٣٥٩٧)-من حديث أبي هريرة-رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في الآداب (٢١٣٧)-من حديث سمرة بن جندب-رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري-معلقًا-في الأيمان والنذور-باب إذا قال:والله لا أتكلم اليوم فصلى أو قرأ.. «صحيح البخاري مع الفتح» (١١/ ٥٦٦) من حديث أبي هريرة-رضي الله عنه.

(٥) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٤٠٦)، ومسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار (٢٦٩٤)، والترمذي في الدعوات (٣٤٦٧)، وابن ماجه في الأدب (٣٨٠٦)-من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

كما قال أعرف الخلق بربه ﷺ: «**لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك**»[(١)].

ومما يجب التنبيه عليه وهو من الأهمية بمكان أنه ينبغي للمسلم أن يحرص كل الحرص على الأذكار والأدعية الواردة في القرآن الكريم، وفي سنة المصطفى ﷺ الذي أعطى جوامع الكلم، فإن هذه الأذكار والأدعية جامعة مانعة، ومن دعا بها فهو حري بالإجابة بإذن الله- عز وجل- مع انتفاء الموانع.

وينبغي عدم الاغترار بما أحدثه الناس من تخصيص بعض الأدعية، ومن أذكار وأدعية مسجوعة متكلفة لا يخلو الكثير منها من الاعتداء بالدعاء الذي نهى الله عنه ورسوله، كما يفعل الكثير من أئمة المساجد في القنوت، وعند ختم القرآن، إضافة إلى المبالغة في رفع أصواتهم في الدعاء- مما يؤدي إلى مبالغة المأمومين برفع أصواتهم في التأمين- وكذا الإطالة في ذلك مما لا نسبة بينه وبين الصلاة، وكل هذا مما يخالف السنة، قال الله- تعالى- لنبيه ﷺ: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾ [الإسراء:١١٠]، وقال تعالى: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [الأعراف:٢٠٥]، وقال تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأعراف:٥٥] أي: المعتدين في الدعاء.

ولما رفع الصحابة أصواتهم بالدعاء قال ﷺ: «**أيها الناس، أربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا إن الذي تدعونه سميع بصير، أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته**» وفي رواية: «**إنه معكم إنه سميع قريب، تبارك اسمه وتعالى جده**»[(٢)].

ولهذا ينبغي لأئمة المساجد وفَّقهم الله وهداهم أن يتقوا الله في أنفسهم وفيمن يصلون خلفهم، فيحرصوا على أدعية الكتاب والسُّنة، والمأثور عن سلف الأمة، ويلزموا طريق القصد، فإن ذلك أحرى بالقبول والإجابة.

كما ينبغي أن يعلم أن الشرع كله مبني على الاتباع لا على الابتداع، ولهذا لما علَّم

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة (٤٨٦)، وأبوداود في الصلاة (٨٧٩)، والنسائي في التطبيق (١١٠٠)، والترمذي ي الدعوات (٣٤٩٣)، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٤١)-من حديث عائشة-رضي الله عنها.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٩٩٢)، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٧٠٤)، وأبوداود في الصلاة (١٥٢٦)، والترمذي في الدعوات (٣٣٧٤)-من حديث أبي موسى الأشعري-رضي الله عنه.

النبي ﷺ البراء بن عازب- رضي الله عنه- الدعاء الذي يُقال عند النوم: «**اللهم أسلمت نفسي إليك**..- إلى قوله: **آمنت بكتابك الذي أنزلت ونبيك الذي أرسلت**» قال البراء: ورسولك الذي أرسلت، فقال النبي ﷺ: «**لا، ونبيك الذي أرسلت**»[1].

ومن هنا يعلم أهمية الاتباع في الأذكار والأدعية وغيرها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «والمشروع للإنسان أن يدعو بالأدعية المأثورة؛ فإن الدعاء من أفضل العبادات، وقد نهانا الله عن الاعتداء فيه، فينبغي لنا أن نتبع فيه ما شرع وسن، كما أنه ينبغي لنا ذلك في غيره من العبادات، والذي يعدل عن الدعاء المشروع إلى غيره- وإن كان من أحزاب بعض المشايخ- الأحسن له أن لا يفوته الأكمل الأفضل، وهي الأدعية النبوية، فإنها أفضل وأكمل باتفاق المسلمين من الأدعية التي ليست كذلك، وإن قالها بعض الشيوخ، فكيف وقد يكون في عَيْنِ الأدعية ما هو خطأ أو إثم، أو غير ذلك.

ومن أشد الناس عيبًا من يتخذ حزبًا ليس بمأثور عن النبي ﷺ، وإن كان حزبًا لبعض المشايخ، ويدع الأحزاب النبوية التي كان يقولها سيد بني آدم، وإمام الخلق، وحجة الله على عباده، والله أعلم»[2].

قوله: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ هذا هو خبر «إن» في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ الآية.

﴿أَعَدَّ﴾ بمعنى هيَّأ وجهَّز- فالجنة الآن موجودة مهيأة لأهلها.

﴿لَهُم﴾، أي: للموصوفين بالصفات المذكورة خاصة، من قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ وغلب هنا الذكور على الإناث كما هو الغالب.

﴿مَّغْفِرَةً﴾ جاءت منكرة للتعظيم بدليل قوله عطفًا عليها: ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي:

---

(١) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣١١)، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٧١٠)، وأبوداود في الأدب (٥٠٤٦)، والترمذي في الدعوات (٣٥٧٤)-من حديث البراء بن عازب-رضي الله عنه.

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٥٢٥).

مغفرة عظيمة وأجرًا عظيمًا.

و«المغفرة» ستر الذنب عن الخلق والتجاوز عن العقوبة، كما جاء في حديث ابن عمر- رضي الله عنهما- في المناجاة: أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله- عز وجل- يدني المؤمن يوم القيامة، حتى يضع عليه كنفه، فيقرره بذنوبه فيقول: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم، أي ربي. حتى إذا قرره بذنوبه ورأى في نفسه أنه هالك، قال الله- عز وجل: سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم**»(١).

ومنه سُمي «المِغْفَر» وهو البيضة التي توضع على الرأس تستره وتقيه السهام.

أي: أعد الله وهيأ لهم مغفرة عظيمة لذنوبهم؛ لأن الحسنات يذهبن السيئات.

﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي: ثوابًا عظيمًا، والأجر في الأصل ما يؤخذ مقابل العمل، والعمل في الحقيقة إنما هو سبب للمغفرة والأجر العظيم، وليس عوضًا عنهما، وإنما سماه الله- عز وجل- «أجرًا»؛ لبيان تكفله عز وجل به، وأنه لا يضيع عنده، وإلا فهو- سبحانه وتعالى- لا يجب عليه شيء لخلقه، لكنه بفضله وكرمه ألزم به نفسه، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ [الأعراف:١٥٦].

﴿عَظِيمًا﴾ صفة لـ(أجرًا)، أي: ثوابًا عظيمًا في الجنة.

وإذا كان عز وجل وصف هذا الأجر بأنه «أجر عظيم» فلا يمكن أن يقدر أحد عظمة هذا الأجر إلا من وصفه بذلك وهو العظيم سبحانه قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة:١٧]، وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- عن رسول الله ﷺ قال: «**قال الله تبارك وتعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر**»(٢).

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير (٤٧٧٩)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٢٤)، والترمذي في التفسير (٣١٩٧)، وابن ماجه في الزهد (٤٣٢٨).

وقدَّم عز وجل المغفرة للذنوب على الأجر العظيم؛ لأن التخلية قبل التحلية، فيزيل عنهم المكروه، ثم يمنحهم ويعطيهم المحبوب.

وفي ذكره- عز وجل- لهذه الصفات وما أعدَّه الله للمتصفين بها من الذكور والإناث بيان فضل الله- عز وجل- على الجنسين معًا، والحث والإغراء على الاتصاف بهذه الصفات التي يترتب عليها ما أعده الله لأهلها من المغفرة والأجر العظيم.

الفوائد والأحكام:

١- بيان ما أعدَّه الله- عز وجل- للمتصفين بالصفات العشر المذكورة في الآية من الذكور والإناث على حد سواء من المغفرة والأجر العظيم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ إلى قوله: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾.

٢- التأكيد على أن النساء يشتركن في هذه الصفات كالرجال، وأن لهن من المغفرة والأجر العظيم مثلهم؛ لهذا كرر ذكرهن مع كل صفة ترغيبًا لهن في الخير، ورفعة لشأنهن في الإسلام في الدنيا والآخرة.

٣- الحث والإغراء على الاتصاف بالصفات العشر المذكورة وبيان فضلها، وتعظيمها، وهي الإسلام، والإيمان، والقنوت، والصدق، والصبر، والخشوع، والتصدق، والصوم، وحفظ الفروج، وذكر الله- تعالى؛ لأن الله- عز وجل- ذكر المتصفين بها على وجه الثناء عليهم وامتداحهم، وذكر عظيم ما أعده الله لهم من المغفرة والأجر العظيم، وذلك لأنها صفات جامعة عظيمة ترتكز عليها مقومات الدين كلها.

٤- فضل الذكور من حيث العموم على الإناث؛ لأن الله قدمهم في الذِّكر في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾، وكذا ما بعده، وهذا لا يمنع أن تكون بعض النساء خيرًا من بعض الرجال كما هو الواقع وليس لرجل أن يفخر على امرأة فقد تكون خيرًا منه في خلقها ودينها ودنياها وآخرتها.

٥- ينبغي أن نقدم في كتاباتنا ومخاطباتنا الذكور؛ لأن الله قدمهم.

٦- أن الإسلام غير الإيمان إذا ذكرا معًا؛ لأن الله- عز وجل- عطف قوله: ﴿وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ على قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾أما إذا ذكر أحدهما منفردًا فإنه يتضمن الآخر.

٧- ختم الصفات المذكورة بقوله: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾؛ لأن الذِّكر يشمل ما ذُكِر من الصفات؛ ليكون أشبه بعطف العام على الخاص وكالخاتم على تلك الصفات.

٨- أن الجنة موجودة الآن مهيأة لأهلها؛ لقوله تعالى: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي هيأ هذا وأعده لهم الآن في الدار الآخرة.

٩- لا يستطيع أحد أن يُقدِّر قدر عظم الأجر الذي أعده الله للموصوفين بالصفات المذكورة إلا العظيم سبحانه الذي وصف هذا الأجر بأنه عظيم.

١٠- تكفُّل الله- عز وجل- بثواب المذكورين، وأنه لا يضيع عنده، لهذا سمّاه أجرًا، وأوجبه على نفسه تفضلًا منه وكرمًا وإحسانًا وامتنانًا.

١١- أن التخلية قبل التحلية فمغفرة الذنوب قبل الأجر والثواب؛ ولهذا قدم المغفرة على الأجر فقال: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾.

***

قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾.

سبب النزول:

رُويَ عن ابن عباس- رضي الله عنهما- «أن رسول الله ﷺ خطب زينب بنت جحش لزيد بن حارثة فاستنكفت منه، وقالت: أنا خير منه حسبًا- وكانت امرأة فيها حدة- فأنزل الله- عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ الآية كلها»(١).

قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ «الواو»: عاطفة. و«ما»: نافية. و﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص. ﴿لِمُؤْمِنٍ﴾: جار ومجرور خبر ليس مقدم، واسمها جملة: ﴿أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ مؤخر.

وقوله: ﴿لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ كل منهما نكرة في سياق النفي فيعم كل مؤمن ومؤمنة؛ ولهذا قال بعد ذلك: ﴿أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ بضمير الجمع.

﴿إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا﴾ أي: إذا حكم الله ورسوله بأمر، إيجابًا أو تحريمًا. و﴿أَمْرًا﴾ واحد الأمور، أي: شأنًا سواء كان أمرًا، أو نهيًا.

والقضاء إذا أضيف إلى الله- عز وجل- في الأصل احتمل أن يراد به القضاء الكوني، أو القضاء الشرعي، أو هما معًا، وإذا أضيف إلى الرسول ﷺ فالمراد به القضاء والأمر الشرعي لا غير؛ لأن القضاء والأمر الكوني إلى الله- عز وجل- وحيث عطف وصف الرسول أو اسمه على اسم الله- عز وجل- حمل القضاء والأمر هنا على القضاء والأمر الشرعي؛ لأن القضاء والأمر الكوني لا يضاف إلى الرسول ﷺ، وأيضًا فإن القضاء الكوني لا خيرة فيه لا للمؤمن ولا لغيره، بل لابد أن يقع.

ويدل قوله: ﴿إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا﴾ على إثبات رسالة النبي ﷺ، وأن ما قضى به

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٩/ ١١٢-١١٣) من طريق العوفي، ومن طريق ابن لهيعة عن ابن عباس-رضي الله عنهما-وهكذا رُويَ عن مجاهد وقتادة ومقاتل بن حيان وغيرهم أنها نزلت في زينب بنت جحش، وقيل:إنها نزلت في أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط وهبت نفسها للنبي ﷺ فزوجها زيد بن حارثة بعد فراقه زينب فسخطت. انظر:«جامع البيان» (١٩/ ١١٤)، «تفسير ابن كثير» (٦/ ٤١٧).

الرسول ﷺ هو من قضاء الله- عز وجل- كما قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النساء:٨٠].

﴿أَن يَكُونَ﴾ قرأ حمزة والكسائي وعاصم بالياء «أن يكون»، وقرأ الباقون بالتاء «أن تكون»[1].

﴿ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ﴾ أي: الاختيار من أمرهم وشأنهم، ولو خالف ذلك قضاء وأمر الله ورسوله.

ويحتمل أن قوله: ﴿مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ﴾ من إضافة الشيء إلى مفعوله، أي: أن يكون لهم الخيرة مما أمروا به.

ويحتمل أنه من إضافة الشيء إلى فاعله، أي: من أمر الله ورسوله إياهم.

والمعنى: وما كان جائزًا شرعًا لأي مؤمن أو مؤمنة إذا قضى الله ورسوله شأنًا شرعيًّا أمرًا أو نهيًا، أن يكون لهم الاختيار خلاف أمر الله ورسوله، أو الاختيار في امتثال ذلك أو عدمه، بل يجب عليهم الامتثال، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٍ أَن يَقۡتُلَ مُؤۡمِنًا إِلَّا خَطَـٔٗاۚ﴾ [النساء:٩٢] أي: ما كان ذلك جائزًا له في شرع الله.

ولهذا جاء في الحديث: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن**» بمعنى أن إيمانه يحجزه عن ذلك، وإذا وقع منه ذلك فبسبب ضعف الإيمان أو ارتفاعه في تلك الحال.

قال ابن القيم رحمه الله[2]: «فدل هذا على أنه إذا ثبت لله ورسوله في كل مسألة من المسائل حكم طلبي أو خبري، فإنه ليس لأحد أن يتخير لنفسه غير ذلك الحكم فيذهب إليه، وأن ذلك ليس لمؤمن ولا مؤمنة أصلًا، فدل على أن ذلك منافٍ للإيمان.

وقد حكى الشافعي- رضي الله عنه- إجماع الصحابة والتابعين ومن بعدهم على أن من استبانت له سنة رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها لقوله أحد. ولم يسترب أحد من أئمة الإسلام في صحة ما قاله الشافعي رضي الله تعالى عنه».

---

(١) انظر: «النشر» (٢/ ٣٤٨).

(٢) انظر: «بدائع التفسير» (٣/ ٤٢٧).

وقد استُدل بهذه الآية على أن الأمر للوجوب إذا تجرد عن القرائن، فإذا أمر الله ورسوله بأمر وجب امتثاله، وأن الخيرة فيما اختاره وقضاه الله ورسوله.

﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ «الواو»: عاطفة، و«من»: شرطية، و﴿يَعْصِ﴾: فعل الشرط مجزوم بحذف حرف العلة، وجواب الشرط جملة: ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ واقترن الجواب بالفاء؛ لكونه جملة فعلية اقترنت بـ«قد».

والمعصية: مخالفة الأمر، أو عدم امتثال الطلب أمرًا كان أو نهيًا،و هي ضد الطاعة، أي: ومن يعص الله ورسوله بمخالفة ما جاء في الكتاب والسنة، أو في أحدهما. فمَن خالف ما جاء فيهما معًا فهو عاصٍ لله ورسوله، وهذا ظاهر، ومن خالف ما جاء في أحدهما فهو أيضًا عاص لله ورسوله:

عاصٍ لله؛ لأن القرآن والسُّنَّة كل منهما وحي من عند الله كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم:٣، ٤].

وعاصٍ للرسول ﷺ؛ لأنه هو المرسل من عند الله- عز وجل- بالوحيين الكتاب والسنة، وطاعته طاعة لله- عز وجل- ومعصيته معصية لله- عز وجل- كما قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠]، ومفهوم هذا أن معصية الرسول ﷺ معصية لله.

﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ الضلال: بمعنى التيه والبُعد عن الطريق الحق. ﴿مُّبِينًا﴾ أي: بينًا ظاهرًا واضحًا من «أبان» اللازم بمعنى «بان».

وهذا يدل على عظم جرم مخالفة أمر الله ورسوله، فمعصية الله ورسوله ضلال بيِّن، وبقدر ما تكون المعصية ومخالفة أمر الله ورسوله يكون الضلال البيِّن. كما أنه بقدر ما تكون الطاعة، وامتثال أمر الله ورسوله يكون الإيمان واليقين.

وفي حديث أنس- رضي الله عنه- قال: «خطب النبي ﷺ لجليبيب امرأة من الأنصار من أبيها، فقال: حتى أستأمر أمها، فامتنعت أمها، فقالت الجارية: أتريدون أن تردوا على رسول الله ﷺ أمره، إن كان قد رضيه لكم فأنكحوه، قال أنس: فكأنها جلَّت عن أبويها، وقالا: صدقت، فذهب أبوها إلى رسول الله ﷺ فقال: إن كنت رضيته فقد رضيناه. قال: فإني قد رضيته، قال: فزوجها، ثم فزع أهل المدينة، فركب جليبيب فوجوده قد قتل، وحوله أناس من المشركين قد قتلهم. قال أنس: فلقد رأيتها وإنها

لَـمِن أنفق بيت بالمدينة»(١).

وروي من حديث أبي برزة الأسلمي بأطول من هذا، وفي آخره: «**فما كان في الأنصار أيم أنفق منها**»، وفي رواية: «أن رسول الله ﷺ دعا لها فقال: «**اللهم صب عليها الخير صبًّا، ولا تجعل عيشها كدًّا**» فما كان في الأنصار أيِّمٌ أنفق منها»(٢).

وذكر ابن عبدالبر في الاستيعاب(٣): «أن الجارية لما قالت في خدرها: أتردون على رسول الله ﷺ أمره، تلت هذه الآية: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾.

ومع هذا ومع ما رُوي في سبب نزول الآية فإن الآية أعم من ذلك كله، ولهذا رُويَ عن طاوُس أنه سأل ابن عباس- رضي الله عنهما- عن ركعتين بعد العصر فنهاه، وقرأ ابن عباس- رضي الله عنهما: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾(٤).

قال ابن كثير رحمه الله(٥): «فهذه الآية عامة في جميع الأمور، وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشيء فليس لأحد مخالفته، ولا اختيار لأحد، ولا رأي ولا قول، كما قال الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء:٦٥]».

وفي الحديث: «**لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به**»(٦).

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١٣٦).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٤٢٢).

(٣) (٤/ ٢٧٢).

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ٤١٩.

(٥) في «تفسيره» (٦/ ٤١٩).

(٦) أخرجه الشيخ أبوالفتح نصر بن إبراهيم المقدسي الشافعي في كتاب «الحجة على تارك المحجة» بإسناد صحيح، كما قال شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب في «كتاب التوحيد»: قال النووي: «حديث صحيح، رويناه في كتاب الحجة بإسناد صحيح». وقال في «فتح المجيد»: «رواه الطبراني وأبوبكر بن عاصم والحافظ أبونعيم في الأربعين، التي شرط لها أن تكون من صحيح الأخبار». انظر: «فتح المجيد» ص٣٣١-٣٣٢.

ولهذا شدد في مخالفة ذلك فقال: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾، كقوله: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النور:٦٣].

الفوائد والأحكام:

١- وجوب تقديم قضاء الله ورسوله على كل أمر وعلى مراد النفس؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾.

٢- إثبات رسالة النبي ﷺ وأن ما قضى به ﷺ فهو قضاء الله- تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا﴾ فيجب طاعته في ذلك، قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠].

٣- جواز عطف اسم الرسول ﷺ أو وصفه على اسم الله- عز وجل- بالواو في مقام التشريع والطاعة؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا﴾؛ لأن ما شرعه الرسول هو من شرع الله وطاعته طاعة لله.

٤- أن الخيرة والخير كل الخير فيما اختاره الله وفيما قضاه الله ورسوله فيجب الامتثال والتسليم لأمر الله ورسوله ﷺ.

٥- أن الأصل في الأمر الوجوب إذا تجرد عن القرائن؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا﴾.

٦- أن مخالفة ما قضى الله ورسوله عصيان لله ولرسوله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾.

٧- أن معصية الله ورسوله ضلال مبين وبعد عن طريق الحق والصراط السوي وعن سبيل النجاة والفلاح في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾؛ لأن مَن ضل عن الصراط المستقيم في الدنيا ضل في الآخرة عن طريق الجنة إلى طريق النار، نسأل الله السلامة.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْاْ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾.

سبب النزول:

عن أنس بن مالك- رضي الله عنه- قال: «إن هذه الآية: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ نزلت في شأن زينب بنت جحش وزيد بن حارثة- رضي الله عنهما»(١).

قال العلامة السعدي رحمه الله(٢): «وكان سبب نزول هذه الآيات أن الله- تعالى- أراد أن يشرع شرعًا عامًّا للمؤمنين، أن الأدعياء ليسوا في حكم الأبناء حقيقة من جميع الوجوه، وأن أزواجهم لا جناح على من تبناهم في نكاحهن، وكان هذا من الأمور المعتادة، التي لا تكاد تزول إلا بحادث كبير، فأراد الله أن يكون هذا الشرع قولًا من رسوله وفعلًا، وإذا أراد الله أمرًا جعل له سببًا».

قوله: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ «الواو»: استئنافية، و«إذ»: ظرف منصوب بفعل محذوف تقديره: اذكر إذ تقول. والخطاب للنبي ﷺ، أي: اذكر يا محمد حين تقول.

وأَمَرَ الله- عز وجل- نبيه ﷺ بذكر ما قاله وما حصل منه، تذكيرًا له ﷺ بذلك ليكون لوعظ الله- عز وجل- له موقعه من نفسه؛ لأن الله- عز وجل- وعظه في هذه الآيات موعظة عظيمة على مقالته المذكورة، حتى قالت عائشة- رضي الله عنها: «لو كتم محمد ﷺ شيئًا مما أوحى الله إليه من كتاب الله لكتم هذه الآية»(٣).

﴿لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ أي: لمن أنعم الله عليه، وهو زيد بن حارثة- رضي الله عنه، أنعم الله عليه بالإسلام، الذي هو أعظم نعمة كما قال الله تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة:٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الأحزاب (٤٧٨٧).
(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» (٦/ ٢٢٣).
(٣) سيأتي تخريجه.

[النساء:٦٩]، فأعظم نعمة أنعم الله بها على العباد نعمة الإسلام والإيمان. نسأل الله الهداية والثبات على الحق.

قال السعدي رحمه الله(١): «وهذه شهادة من الله له- يعني لزيد- أنه مسلم مؤمن ظاهرًا وباطنًا، وإلا فلا وجه لتخصيصه بالنعمة، إلا أن المراد بها النعمة الخاصة».

﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ أي: وأنعمت عليه يا محمد بالعتق من الرق والتربية والرعاية، ولهذا يقول الفرضيون: «العتاقة: عصوبة سببها نعمة المعتق على رقيقه بالعتق»(٢).

وجاء العطف بالواو التي تقتضي التشريك؛ لأن النعمتين مختلفتان، والنعمة الأولى من الله وهي الإسلام، والنعمة الثانية من الرسول ﷺ وهي العتق، فلما اختلفت النعمتان صارت الواو لا تدل على الاشتراك لامتناع الاشتراك بين شيئين مختلفين، ولهذا جاز العطف بها هنا.

وذلك؛ لأن الأمور غير الشرعية لا يجوز العطف فيها بالواو إلا إذا اختلف المعنى كما في هذا الموضع.

أما الأمور الشرعية فيجوز فيها عطف اسم الرسول ﷺ أو وصفه أو ضميره على اسم الله؛ لأن طاعة الرسول ﷺ طاعة لله، كما قال عز وجل: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء:٨٠].

والمراد بالآية: زيد بن حارثة- رضي الله عنه، كما دل عليه سبب النزول، وكان من سبي الجاهلية، وكان عند خديجة- رضي الله عنها- فوهبته للنبي ﷺ فأعتقه وتبناه، فكان يُدعى زيد بن محمد، حتى أبطل الله- عز وجل- التبني، وأنزل قوله تعالى: ﴿ مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿٤﴾ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» (٦/ ٢٢٦).

(٢) انظر: «الإحكام شرح أصول الأحكام» لابن قاسم ٣/ ٤٦٣، «توضيح الأحكام من بلوغ المرام» ٤/ ٢٤٩.

[الأحزاب:٤، ٥].

وقوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب:٤٠].

وكان زيد زوجًا لزينب بنت جحش- رضي الله عنها- وكان تزوجها بمشورة النبي ﷺ، وكان فيها شمم وترفع عليه فشاور النبي ﷺ في طلاقها، فقال له رسول الله ﷺ: «**أمسك عليك زوجك واتق الله**»(١).

قال ابن كثير رحمه الله(٢): «وكان سيدًا كبير الشأن جليل القدر، حبيبًا إلى النبي ﷺ، يقال له الحِبُّ، ويقال لابنه أسامة: الحِبُّ بن الحِبِّ، وكان رسول الله ﷺ زوّج زيدًا بابنة عمه زينب بنت جحش الأسدية، فمكثت عنده قريبًا من سنة، ثم وقع بينهما، فجاء زيد يشكوها إلى النبي ﷺ، فجعل رسول الله ﷺ يقول له: «**أمسك عليك زوجك واتق الله**».

﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ عُدي الفعل ﴿أَمْسِكْ﴾ بـ«على»؛ لأنه ضمن معنى الضم، أي: اضمم عليك زوجك.

فمعنى «الإمساك» عدم المفارقة، أي: لا تفارق زوجك، واضممها إليك، أي: لا تطلقها.

والمراد بقوله: ﴿زَوْجَكَ﴾: زينب بنت جحش- رضي الله عنها.

﴿وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ بفعل أوامره، واجتناب نواهيه عامة، وفي أمر زوجك خاصة.

وأمْره ﷺ زيدًا بتقوى الله لا يلزم منه أن يكون زيد فعل خطأ كما قال بعضهم: إنه ربما عاب زينب، وهذا لا دليل عليه، فلا يجوز أن يقال هذا بمحض الخرص والتخمين.

وما الذي يمنع أن يقال اتق الله لمن كان متقيًا، فقد قالها المولى- عز وجل- لخير المتقين وقدوة الناس أجمعين محمد ﷺ، قال عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب:١] ولم يكن ذلك؛ لأنه ﷺ أطاع الكافرين والمنافقين.

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» (٣/ ٤٢٦).

(٢) في «تفسيره» (٦/ ٤١٩).

فقوله ﷺ لزيد: «**اتق الله**» حث وإغراء له على تقوى الله وإمساك زوجه وعدم طلاقها.

ويؤخذ من الآية كراهية الطلاق كما في الحديث: «**أبغض الحلال إلى الله الطلاق**»(١).

وفي حديث بعث الشيطان سراياه وجنوده للإفساد في الأرض قوله ﷺ: «**فيأتيه أحدهم فيقول: ما زلت بفلان، حتى شرب الخمر، فيقول: لم تفعل شيئًا، يستغفر الله ثم يتوب، ويأتيه الآخر فيقول: ما زلت بفلان، حتى زنى، فيقول: لم تفعل شيئًا، يستغفر الله ثم يتوب، فأتاه الثالث فقال: مازلت بفلان بينه وبين امرأته حتى طلقها، فيدنيه الشيطان، ويقول له: أنت أنت**»(٢).

وحيث كان الطلاق محبوبًا للشيطان ومن تزيينه، فهو أمر مبغض عند الله- تعالى.

ويؤخذ من الآية: أنه ينبغي لمن بدا له طلاق زوجته أن لا يتعجل، وأن يستشير من يثق به من أهل العلم والرأي والنصح والشفقة، كما يؤخذ منها أن المستشار مؤتمن يجب عليه أن يقدم محض النصيحة، وأن من النصيحة لمن استشار في فراق زوجه أن يؤمر بإمساكها، مهما أمكن صلاح الحال، فهو خير من الفرقة(٣).

﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ «الواو»: عاطفة، و«تخفي»: معطوف على قوله: ﴿تَقُولُ﴾ أي: واذكر أيضًا إذ تخفي ﴿فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾.

ومعنى ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ﴾ أي: وتضمر وتسر في نفسك.

﴿مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ ﴿مَا﴾: اسم موصول بمعنى «الذي» في محل نصب مفعول «تخفي» أي: وتخفي في نفسك الذي الله مبديه، ولفظ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾: مبتدأ، و«مبديه» خبره، ومعنى ﴿مُبْدِيهِ﴾: مظهره ومبينه.

---

(١) أخرجه أبوداود في الطلاق (٢١٧٨)، وابن ماجه في الطلاق (٢٠١٨)-من حديث ابن عمر رضي الله عنهما وضعفه كثير من أهل العلم، وقد حسنه بعضهم، ويدل على صحة معناه حديث جابر المذكور بعده.

(٢) أخرجه مسلم في صفة القيامة (٢٨١٣)-من حديث جابر-رضي الله عنه.

(٣) انظر: «تيسير الكريم الرحمن» (٦/ ٢٢٦).

ولم يقل: «ما يبديه الله» بل قال: ﴿مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ﴾ فجاء التعبير بالجملة الاسمية الدالة على التحقق والثبوت: أي أن هذا أمر: لابد أن يبديه الله- عز وجل- وهذا هو الذي وقع فعلًا.

وبين قوله: ﴿وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ﴾، وقوله: ﴿مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ﴾ طباق.

والذي أخفاه النبي ﷺ وأبداه الله وأظهره، هو علمه ﷺ أن الله سيزوجه إياها بعد طلاق زيد بن حارثة لها وانتهاء عدتها[1]، خلافًا لما زعمه بعضهم من أن الذي أخفاه هو حبه لها، وأن لو فارقها زيد تزوجها.

قال ابن القيم رحمه الله بعدما رد هذا الزعم وأبطله[2]: «وأخفى في نفسه أن يتزوجها إن طلقها زيد، وكان يخشى من قالة الناس: أنه تزوج امرأة ابنه؛ لأن زيدًا كان يدعى ابنه، فهذا هو الذي أخفاه في نفسه، وهذه هي الخشية من الناس التي وقعت له، ولهذا ذكر- سبحانه وتعالى- هذه الآية يعدد فيها نعمه عليه، لا يعاتبه فيها، وأعلمه أنه لا ينبغي له أن يخشى الناس فيما أحل الله له، وأن الله أحق أن يخشاه فلا يتحرج ما أحله له؛ لأجل قول الناس».

﴿وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُ﴾ أي: وتخاف الناس، فالخشية بمعنى الخوف لكنها أخص منه.

ومعنى ﴿وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ﴾ أي: وتخاف الناس، وتخشى من قولهم: تزوج امرأة ابنه الذي تبناه، وخالف ما عليه العرب حيث يعدون هذا عيبًا.

وهذا يدل على أن الرسول ﷺ، وكذا غيره من الأنبياء من باب أولى ليسوا بمعصومين من الوقوع في الصغائر، ومن ذلك الخوف من الناس، لكنهم يُنَبَّهون إلى ذلك ولا يُقَرُّون عليه، بل سرعان ما يحدثون توبة منه.

﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُ﴾ أي: إن الله- عز وجل- أولى وأوجب أن تخشاه وتخافه وحده.

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٤٢٠)، «فتح الباري» (٨/ ٥٢٤).

(٢) انظر: «بدائع التفسير» (٣/ ٤٢٦).

فهو ﷺ لما جاءه زيد بن حارثة يستشيره في طلاق زينب قال له: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ وأخفى في نفسه ما أعلمه الله من أنه سيزوجه إياها بعد طلاق زيد لها واعتدادها، وذلك منه ﷺ خشية أن يقول الناس تزوج محمد امرأة ابنه الذي تبناه فيعيبونه بذلك.

وكان الذي ينبغي ألا يقول ﷺ قولًا يظهر منه خلاف ما أعلمه الله، فكان الأولى أن يسكت، أو يقول: أنت وذاك، أو أنت وشأنك، أو أنت أدرى بحالك، أو انظر ما يبدو لك في هذا الأمر أو نحو ذلك، بدل أن يقول له: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ خشية أن يقول الناس تزوج امرأة ابنه.

قالت عائشة- رضي الله عنها: «لو كتم محمد ﷺ شيئًا مما أوحى إليه من كتاب الله لكتم: ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾»(١).

وهذا يدل على ثبوت رسالته ﷺ، وعلى أنه ﷺ قد بلَّغ الرسالة كما أوحى الله إليه، وأدى الأمانة، وبلغ البلاغ المبين.

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾ «الفاء»: عاطفة، و«لما»: ظرف بمعنى «حين»، متضمن معنى الشرط.

﴿وَطَرًا﴾، أي: حاجة، أي: قضى حاجته، وفرغ منها.

والمعنى: فلما قضى زيد بن حارثة منها- أي: من زينب بنت جحش- حاجته، فلم يبق له فيها رغبة ولا حاجة، بل رغب عنها، وطلقها وانتهت عدتها.

وهذا يدل على أن زيدًا طلقها من ذات نفسه، ولم يكره على ذلك، وأن الزوج لا يعتبر قضى وطره وحاجته من زوجته إلا بعد طلاقه لها وانتهاء عدتها، فهنا يعتبر قضى وطره منها بالكلية(٢).

وفي ذكر زيد- رضي الله عنه- باسمه بيان شرفه وفضله، إذ لم يذكر في القرآن

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (١٧٧)، والترمذي في التفسير (٣٠٦٨)، والطبري في «جامع البيان» (١١٧/١٩).

(٢) انظر: «تيسير الكريم الرحمن» (٦/ ٢٢٧).

الكريم اسم صحابي سواه- رضي الله عنه- وعن الصحابة أجمعين.

﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ كاف الخطاب: مفعول أول لـ«زوج»، و«ها»: مفعول ثانٍ، أي: ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ قدرًا كبقية أزواج النبي ﷺ، و﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ خاصة شرعًا حيث تولى الله- عز وجل- تزويجه إياها من فوق سبع سموات، ولهذا كانت زينب رضي الله عنها تفتخر على بقية أزواج النبي ﷺ بذلك، فعن أنس بن مالك- رضي الله عنه- قال: «إن زينب بنت جحش كانت تفخر على أزواج النبي ﷺ، فتقول: «**زوجكن أهاليكن، وزوجني الله من فوق سبع سموات**»(١).

وعنه- رضي الله عنه- قال: «لما انقضت عدة زينب قال رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة: **اذهب فاذكرها عليّ**، فانطلق حتى أتاها وهي تخمر عجينها، قال: فلما رأيتها عظمت في صدري- حتى ما أستطيع أن أنظر إليها- أن رسول الله ﷺ ذكرها، فولَّيتها ظهري، ونكصت على عقبي، وقلت: يا زينب أبشري، أرسلني رسول الله ﷺ يذكرك. قالت: ما أنا بصانعة شيئًا حتى أؤامر ربي، فقامت إلى مسجدها، ونزل القرآن، وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن، ولقد رأيتنا حين دخَلتُ على رسول الله ﷺ أطعمنا عليها الخبز واللحم، فخرج الناس، وبقي رجال يتحدثون في البيت بعد الطعام، فخرج رسول الله ﷺ واتبعته فجعل يتبع حجر نسائه يسلم عليهن ويقلن: يا رسول الله، كيف وجدت أهلك؟ فما أدري أنا أخبرته أن القوم قد خرجوا أو أُخبر- قال: فانطلق حتى دخل البيت، فذهبت أدخل معه، فألقي الستر بيني وبينه، ونزل الحجاب، ووعظ القوم بما وعظوا به: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ الآية»(٢).

وعن الشعبي قال: «كانت زينب تقول للنبي ﷺ: إني لأدل عليك بثلاث، ما من نسائك امرأة تدل بهن: أن جدي وجدك واحد، وأني أنكحنيك الله من السماء، وأن السفير جبريل- عليه السلام»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٢٠).

(٢) أخرجه مسلم في النكاح-زواج زينب بنت جحش ونزول الحجاب وإثبات وليمة العرس (١٤٢٨)، وأحمد (٣/ ١٩٥-١٩٦).

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٩/ ١١٨-١١٩)، والحاكم (٤/ ٢٥).

قال ابن كثير رحمه الله- تعالى(١): «وكان الذي تولى تزويجها منه هو الله- عز وجل- بمعنى أنه أوحى إليه، أن يدخل عليها بلا ولي، ولا مهر، ولا عقد، ولا شهود من البشر».

﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ هذا فيه بيان الحكمة من أمر الله- عز جل- رسوله ﷺ بالزواج من زينب- رضي الله عنها- بعد طلاق زيد لها.

﴿لِكَيْ﴾ «اللام»: للتعليل، و«كي»: حرف مصدري، و﴿لَا﴾: نافية.

﴿حَرَجٌ﴾ أي: ضيق ومشقة ومانع.

﴿فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ﴾ أي: في نكاح أزواج أدعيائهم أي: الأبناء الذين ادعوهم وتبنوهم ونسبوهم إلى أنفسهم، وهم من أبناء غيرهم لا من أبنائهم، كما قال عز وجل: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾ [الأحزاب:٤].

وفي تسميتهم أدعياء تأكيد لبطلان دعوى نسبتهم أبناء لغير آبائهم، وأنهم لا ينسبون إلى من ادعاهم.

﴿إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ أي: إذا قضى الأدعياء من أزواجهم حاجة، وفرغوا منهن، ورغبوا عنهن وطلقوهن وانتهت عدتهن.

وقوله هنا: ﴿إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ فيه تأكيد لما سبق بيانه من أن زيدًا- رضي الله عنه- طلق زينب رغبة عنها، من غير أن يُكره على ذلك.

قال ابن القيم(٢): «لتقتدي أمته به في ذلك، ويتزوج الرجل بامرأة ابنه من التبني، لا امرأة ابنه من الصلب».

وقال ابن كثير(٣): «أي: إنما أبحنا لك تزويجها، وفعلنا ذلك؛ لئلا يبقى حرج على المؤمنين في تزويج مطلقات الأدعياء».

فكان من الحكمة من تزويجه ﷺ من زينب: إبطال ما كان مشهورًا في الجاهلية من

---

(١) في «تفسيره» (٦/ ٤٢٠).

(٢) انظر: «بدائع التفسير» (٣/ ٤٢٦).

(٣) في «تفسيره» (٦/ ٤٢١).

أن ابن التبني لا يجوز لمن تبناه أن يتزوج بامرأته من بعده، من باب البيان بالفعل الذي هو أبلغ من القول، خصوصًا إذا اقترن بالقول[(١)]. وقد مُهد لذلك بإبطال التبني في أول السورة.

ويؤخذ من الآية أن ما ثبت في حقه ﷺ ثابت في حق الأمة إلا ما دل الدليل على تخصيصه به[(٢)]، كما يؤخذ منها توكيد بطلان الادعاء والتبني.

﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ أمر الله ينقسم إلى قسمين: أمر كوني- وأمر شرعي.

والمراد بالأمر هنا الأمر الكوني؛ لأنه هو الذي لابد أن يفعل، ولابد أن يقع، أما الأمر الشرعي فإنه قد يفعل وقد لا يفعل.

قال ابن كثير[(٣)]: «أي: وكان هذا الأمر الذي وقع قد قدره الله وحَتَّمه، وهو كائن لا محالة، كانت زينب في علم الله ستصير من أزواج النبي ﷺ».

وفي الآية منقبة عظيمة لزينب بنت جحش- رضي الله عنها- تدل على فضلها حيث تولى الله- عز وجل- تزويجها لنبيه ﷺ، وكان- والله أعلم- من أسباب ذلك: طاعتها لرسول الله ﷺ لما أشار عليها أن تتزوج زيدًا وهو من الموالي، وهي من أعلى أصول العرب نسبًا، لكنها- رضي الله عنها- آثرت طاعة رسول الله ﷺ ورضيت بزيد نزولًا عند مشورته ﷺ، وإن كان في ذلك غض من مرتبتها، ولهذا رفع الله شأنها وأعلى قدرها وزوجها برسول الله ﷺ، وكفاها ذلك فخرًا.

الفوائد والأحكام:

١- تذكير الله- عز وجل- لنبيه ﷺ ووعظه له بقوله: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ﴾.

٢- نعمة الله تعالى على زيد بن حارثة بالإسلام التي هي أكبر نعمة أنعم الله بها على العباد.

---

(١) انظر: «تيسير الكريم الرحمن» (٦/ ٢٢٦).

(٢) انظر: «دقائق التفسير» (٤/ ٤٩٣-٤٩٥).

(٣) في «تفسيره» (٦/ ٤٢١).

٣- أن المنعم بجميع النعم هو الله- عز وجل- وأن أكبر نعمة أنعم الله بها على المؤمن نعمة الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ﴾ أي: بالإيمان قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ [النساء:٦٩]، ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة:٦، ٧].

٤- جواز نسبة النعمة إلى المتسبب بها وإن كانت كل النعم من الله- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ أي: وأنعمت عليه يا محمد بالتحرير من الرق، فالإعتاق من الرق نعمة من المعتِق على عتيقه.

وإنما جاز العطف في قوله: ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾؛ لاختلاف النعمتين، فالنعمة الأولى: الإسلام، والثانية: العتق.

٥- الإشارة إلى دنو منزلة الرقيق؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ فإن من يكون تحت إنعام الخلق فهو ذليل.

٦- ينبغي لمن أراد طلاق زوجته أن لا يتعجل وأن يستشير من يثق به من أهل العلم والرأي والنصح والشفقة لخطورة الأمر، وهكذا تنبغي الاستشارة في الأمور المهمة؛ لأن زيدًا استشار النبي ﷺ أنصح الناس للخلق أجمعين. وقد أحسن القائل:

شاور سواك إذا نابتك نائبة ... يومًا وإن كنت من أهل المشوراتِ
فالعين تنظر منها ما دنا ونأى ... ولا ترى نفسها إلا بمرآةِ[(١)]

قال الآخر:

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن ... برأي نصيح أو نصيحة حازمِ
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة ... فإن الخوافي قوة للقوادمِ[(٢)]

وقد قيل: «ما خاب من استخار، ولا ندم من استشار»[(٣)].

(١) البيتان للأرجاني. انظر: «ديوانه» ١/ ٢٤٦.
(٢) البيتان لبشار بن برد. انظر: «ديوانه» ٤/ ١٧٣.
(٣) انظر: «أدب الدنيا والدين» ص٣٠٠.

٧- أن المستشار مؤتمن يجب عليه أن يقدم محض النصيحة لمن استشاره، وأن من النصيحة لمن استشار في فراق زوجه أن يؤمر بإمساكها مهما أمكن صلاح الحال فهو خير من الفرقة؛ لقوله ﷺ: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾.

٨- الترغيب والإغراء بتقوى الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَاتَّقِ اللَّهَ﴾.

٩- أن الله لا تخفى عليه خافية مما تخفيه النفوس بين جوانحها وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾.

١٠- لا ينبغي إخفاء ما سيبديه الله، ولا خشية الناس في فعل ما أباح الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾.

والذي أخفاه في نفسه وخشي من إظهاره للناس أن الله سيزوجه زينب بعد فراق زيد لها خوفًا من أن يقال تزوج امرأة ابنه وتحرجًا من ذلك.

ومثل هذا قد يقع من الأنبياء، لكنهم لا يُقَرّون عليه.

١١- وجوب خشية الله وحده دون الناس؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾.

١٢- أمانته ﷺ في تبليغ ما أوحى إليه، قالت عائشة- رضي الله عنها: «لو كتم محمد ﷺ شيئًا مما أوحى الله إليه من كتاب الله لكتم هذه الآية: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾».

١٣- منقبة عظيمة وشرف كبير لزيد بن حارثة رضي الله عنه: حيث ذكر الله اسمه في القرآن الكريم دون غيره.

١٤- أن زيدًا- رضي الله عنه- هو الذي طلق زينب بنت جحش بطواعية من نفسه بعد أن قضى حاجته منها؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾ أي: قضى حاجته منها فلم يبق له فيها من حاجة. وفي هذا رد على من يزعم كذبًا أن الرسول ﷺ أكرهه على طلاقها.

١٥- جواز الطلاق؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾ أي: وطلقها وفارقها وانتهت عدتها.

١٦- أنه لا يصح تزويج المطلقه حتى ينتهي حق الزوج الأول؛ لقوله: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ

مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا ﴾.

١٧- منقبة عظيمة لزينب بنت جحش- رضي الله عنها- ورفعة لها وإعلاء لشأنها حيث تولى الله- عز وجل- تزويجها بنفسه لرسوله ﷺ بسبب طاعتها لرسول الله ﷺ لما أمرها بالزواج من زيد وهو مولى من الموالي وهي من أعلى أصول العرب نسبًا؛ لقوله تعالى: ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا ﴾، ومن ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه.

١٨- جواز الزواج بزوجة الابن المدعى؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْاْ مِنْهُنَّ وَطَرًا ﴾، والبيان بالفعل أقوى من البيان بالقول.

١٩- أن زواج النبي ﷺ بزينب لحكمة دينية شرعية وهي بيان جواز نكاح زوجة الابن المدعى إذا فارقها.

٢٠- رفع الحرج عن المؤمنين في جواز زواج الرجل بامرأة ابنه المدعى؛ لقوله تعالى: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْاْ مِنْهُنَّ وَطَرًا ﴾.
فالادعاء والتبني لا أثر له، وقد أبطله الإسلام.

٢١- أن ما ثبت في حقه ﷺ من الأحكام ثابت في حق الأمة ما لم يقم الدليل على تخصيصه بذلك.

٢٢- أن أمر الله- عز وجل- وقضاءه الكوني واقع لا محالة؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَـٰلَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾﴾.

قوله: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ﴾، ﴿مَّا﴾: نافية، أي: ليس على النبي من حرج، وقوله: ﴿عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر كان مقدم، واسمها قوله: ﴿مِنْ حَرَجٍ﴾، والتقدير: ما كان على النبي حرج، و﴿مِنْ﴾: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة لعموم النفي من حيث المعنى، أي: ما كان عليه أيّ حرج.

والحرج في الأصل: الضيق والشدة، والمعنى لا إثم عليه ولا ذنب، ولا لوم.

﴿فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ﴾ «ما»: موصولة أو مصدرية، والتقدير: في الذي فرض الله له عمومًا أو في فرض الله له عمومًا، وإن كان مخالفًا لما اعتاده الناس.

ومعنى الفرض في الأصل: التقدير، فإن عدي الفعل ﴿فَرَضَ﴾ بـ«على»، فهو بمعنى: الإيجاب.

وإن عُدِّي باللام كما في قوله: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَـٰنِكُمْ﴾ [التحريم:٢]، وقوله هنا: ﴿فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ﴾ فهو بمعنى: أحل وأباح له، أي: لا إثم عليه ولا ذنب ولا يلام على فعل أمر أحله الله له، وأمره به كزواجه بزينب التي طلقها دَعِيّه زيد بن حارثة وزواجه بتسع من الزوجات.

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ﴾ ﴿سُنَّةَ﴾ منصوب على المصدر، وسنة الله طريقته ﴿فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟﴾ أي: سبقوا من قبل من الأنبياء- عليهم السلام- أن لا حرج على أحد منهم فيما أحله الله له ولأمته.

وبهذا قطع الله- عز وجل- الطريق على من يعيبون النبي ﷺ بزواجه من زينب بعد طلاق زيد لها. والذي كان النبي ﷺ قد تبناه قبل إبطال حكم التبني.

قال ابن كثير(١): «أي: هذا حكم الله في الأنبياء قبله، لم يكن ليأمرهم بشيء وعليهم في ذلك حرج وهذا رد على من توهم من المنافقين نقصًا في تزويجه امرأة زيد مولاه ودعيه الذي كان قد تبناه».

وقال السعدي(٢): «وفي هذا رد على من طعن بزواجه بزينب بعد أن طلقها زيد، وعلى من طعن في كثرة أزواجه».

كما أن في هذه الآية ردًّا على الذين يغلون بالنبي ﷺ ويصرفون له شيئًا من العبودية الخاصة بالله- عز وجل- فهو ﷺ عبد من عباد الله تعالى مكلف بفعل الطاعات وترك المنهيات، عبد لا يُعْبَد، ورسول لا يكذب.

وفي الآية أيضًا رد على غلاة الصوفية الذين يزعمون أن الإنسان يصل إلى مقام يخرج به من التكاليف وهذا باطل، ولو كان أحد يصل إلى مقام رفع التكاليف لوصل إليه نبينا محمد ﷺ القائل: «**والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له**»(٣).

﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ أي: وكان أمر الله وقضاؤه وحكمه الكوني. ﴿قَدَرًا﴾ أي: أمرًا وقضاءً وحكمًا، ﴿مَّقْدُورًا﴾ أي: مقضيًا وكائنًا لا محالة، محددًا وقت وقوعه، وكيفية وقوعه، لا يتأخر، ولا يتقدم، ولا يتغير.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾﴾.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ بدل من ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قوله قبل هذا: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ﴾ أو خبر لمبتدأ محذوف تقديره: «هم».

﴿يُبَلِّغُونَ﴾ التبليغ: الإيصال، ومنه ما جاء في حديث الثلاثة: الأبرص، والأقرع، والأعمى، قال السائل: «رجل مسكين وابن سبيل قد انقطعت بي الحبال في سفري، فلا

---

(١) في «تفسيره» (٦/ ٤٢١).

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» (٦/ ٢٢٧).

(٣) سبق تخريجه.

بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك»[1] أي: لا أستطيع الوصول إلى بلدي إلا بالله ثم بك.

﴿رِسَٰلَٰتِ﴾ جمع رسالة، أي: يبلغون ويوصلون ما أرسلهم الله به من الوحي إلى عباد الله بأمانة.

﴿وَيَخۡشَوۡنَهُۥ﴾ أي: يخافونه، والخشية أشد وأخص من الخوف، فهي خوف ورهبة مع تعظيم، ولهذا قالوا: الخشية لا تكون إلا مع عظم المخشي وعلم الخاشي؛ لقوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر:٢٨].

﴿وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ﴾ هذا لتأكيد ما سبق؛ لأن الخشية عبادة، والعبادة لا تكون إلا لله، أي: ولا يخافون أحدًا سواه في تبليغ رسالاته، فلا تمنعهم سطوة أحد أيًا كان عن تبليغ رسالات الله، ولا يخشون ما قالت الناس في تناول ما أحلّ الله لهم.

ففي الآية امتداح لأنبيائه، وأتباعهم الذين يبلغون شرع الله ويخشونه، ولا يخشون أحدًا سواه. وفي مقدمتهم أفضلهم وأشرفهم نبينا محمد ﷺ.

فقد قام ﷺ بالبلاغ والدعوة خير قيام فبلّغ الرسالة وأدّى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين، فما ترك خيرًا إلا دلّ الأمة عليه، ولا شرًّا إلا حذّرها منه، وترك أمته على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعده إلا هالك، ممتثلًا قول الله- عز وجل: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٠٨﴾ [يوسف:١٠٨].

عن أبي ذر رضي الله عنه قال: «تركنا رسول الله ﷺ وما طائر يطير بجناحيه إلا عندنا منه علم»[2].

ثم قام بالبلاغ بعده أصحابه- رضي الله عنهم، فكانوا- رضي الله عنهم وأرضاهم- خير صحب، وأفضل مَن قام بدعوته بعده، فنقلوا رسالته وسنته إلى مَن بعدهم بأمانة وإخلاص، ونقلها بعدهم كل جيل عن سلفهم حتى يومنا هذا وما تزال

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء (٣٤٦٤)، ومسلم في الزهد والرقائق (٢٩٦٤)-من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

(٢) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» ١/ ٢٦٧.

ولله الحمد.

عن أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يحقرن أحدكم نفسه**» قالوا: يا رسول الله، كيف يحقر أحدنا نفسه؟ قال: «**يرى أمرًا لله عليه فيه مقال، ثم لا يقول فيه، فيقول الله- عز وجل- له يوم القيامة: ما منعك أن تقول في كذا وكذا؟ فيقول: خشية الناس. فيقول: فإياي كنت أحق أن تخشى**»(١).

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ «كفى» هنا فعل لازم، جُرّ فاعله بالباء، ﴿حَسِيبًا﴾ تمييز، أي: حافظًا لأعمال عباده، ومحاسبًا ومجازيًا لهم عليها.

ومعنى ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ أي: ما أعظم كفاية الله- عز وجل- في حسابه الخلائق، وحفظ أعمالهم، ومجازاتهم عليها.

الفوائد والأحكام:

١- لا حرج ولا إثم ولا لوم على النبي ﷺ ولا على أحد من أمته في فعل ما أباحه الله لهم. وما أمرهم الله به حتى- وإن كان مخالفًا لما عليه الناس؛ لقوله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ﴾.

٢- أن النبي ﷺ مكلف كغيره من الأمة، ويلحقه الحرج فيما لم يحله الله تعالى له.

وفي هذا الرد على من طعن في زواجه ﷺ من زينب بنت جحش بعد أن طلقها زيد بن حارثة وقد كان ﷺ تبناه قبل إبطال حكم التبني، وعلى من طعن بزواجه ﷺ بتسع زوجات.

٣- الرد على مَن زعم من غُلاة الصوفية وغيرهم، بأن الإنسان قد يصل إلى مقام يخرج به من التكاليف، ولو كان ذلك لأحد من الخلق لكان لسيد ولد آدم نبينا محمد ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ﴾.

٤- الرد على مَن يغلون بالنبي ﷺ ويرفعونه إلى مقام الربوبية الخاصة بالله- عز وجل- فهو مكلف كغيره وعبد لا يعبد ورسول لا يكذب شرفه الله بالنبوة والرسالة؛

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣٠، ٧٣)، وابن ماجه في الفتن-باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٤٠٠٨)، وانظر:«تفسير ابن كثير» (٦/ ٤٢٢).

لقوله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ﴾.

٥- أن سنة الله- عز وجل- في أنبيائه ورسله وأتباعهم واحدة أن لا حرج على أحد منهم في فعل ما أباحه الله لهم أو أمرهم به؛ لقوله تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ﴾.

٦- أن أمر الله- عز وجل- وقضاءه قدرٌ مقدورٌ لابد من وقوعه كما قدر الله- عز وجل- على الكيفية التي قدره الله عليها وفي الوقت الذي قدره الله فيه من غير أن يتقدم أو يتأخر؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾.

٧- امتداح الله- عز وجل- لأنبيائه وثناؤه عليهم في تبليغهم رسالات الله وخشيته وحده دون غيره، وكذا من سلك طريقهم في تبليغ دعوة الحق وخشية الله وحده دون سواه؛ لقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾.

٨- إثبات الرسالات فيمن سبق؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [فاطر:٢٤].

٩- أن إبلاغ الرسالة من خشية الله.

١٠- أن الله- عز وجل- نعم الكافي في حفظ أعمال العباد ومحاسبتهم ومجازاتهم عليها؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾، وفي هذا إثبات سعة علمه وإحاطته بالعباد وأعمالهم وبكل شيء، ومحاسبة العباد ومجازاتهم على أعمالهم خيرها وشرها.

*　　*　　*

قال الله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾.

قوله: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾ ﴿ مَّا ﴾ نافية، ﴿مُّحَمَّدٌ ﴾ يعني رسول الله ﷺ، وإنما عبر عنه باسمه ﴿مُّحَمَّدٌ﴾ مجردًا باعتباره شخصًا من الناس، لمزيد الإيضاح والبيان؛ لأنهم كانوا يقولون لزيد بن حارثة: زيد بن محمد.

أي: ما كان محمد رسول الله ﷺ أبا أحد من رجالكم تبنيًا، وقيل: ولادة ونسبًا، وقيل: لا هذا ولا هذا.

فالمعنى على القول الأول: ما كان محمد رسول الله أبا أحد من رجالكم تبنيًا؛ لأنه قال: ﴿أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾، فأضاف الرجال إلى نفس المخاطبين، ولو قال: ما كان محمد أبا أحد من الرجال، لانتفى أن يكون أبًا لأحد من الرجال لا نسبًا ولا تبنيًا.

وعلى هذا فيكون المراد بالآية نفي ما كان مشهورًا عندهم من أن زيد بن حارثة زيد بن محمد، وفي هذا توكيد إبطال بنوة التبني والادعاء. ونهي أن يقال: زيد بن محمد.

والمعنى على القول الثاني: ما كان محمد رسول الله ﷺ أبا أحد من رجالكم ولادة ونسبًا، قالوا: لأن أبناء النبي ﷺ الذكور ماتوا صغارًا قبل بلوغ سن الرجولة.

قال ابن كثير(١): «وقوله: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾ نهي أن يقال بعد هذا «زيد بن محمد»، أي: لم يكن أباه، وإن كان قد تبناه، فإنه صلوات الله وسلامه عليه لم يعش له ولد حتى بلغ الحلم، فإنه وُلِد له القاسم والطيب والطاهر، من خديجة فماتوا صغارًا، وولد له إبراهيم من مارية القبطية، فمات أيضًا رضيعًا، وكان له من خديجة أربع بنات: زينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة رضي الله عنهن أجمعين. فمات في حياته ثلاث، وتأخرت فاطمة حتى أصيبت به، صلوات الله وسلامه عليه، ثم ماتت بعد ستة أشهر».

ويظهر من كلام ابن كثير- رحمه الله- حمل الآية على القولين؛ ولهذا قال السعدي(٢) رحمه الله: «لا أبوة نسب، ولا أبوة ادعاء».

---

(١) في «تفسيره» (٦/ ٤٢٢-٤٢٣).

(٢) في «تفسير الكريم الرحمن» (٦/ ٢٢٨).

ولا يمنع من حمل الآية على ما يشمل نفي أبوة النسب كون الحسن والحسين- رضي الله عنهما- أبناء ابنته فاطمة- رضي الله عنها- وقد بلغا مبلغ الرجال؛ لأنهما ليسا من صلبه مباشرة، ولا ينسبون إليه، وإنما هما أبناء علي- رضي الله عنه- من ابنته ﷺ فاطمة- رضي الله عنها- وإن كان ﷺ يناديهما باسم البنوة كما قال ﷺ عن الحسن: «**إن ابني هذا سيد**»[1].

﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ﴾ بعدما نفى أن يكون محمد ﷺ أبا أحد من رجالهم أثبت له الرسالة وخَتْم النبوة به، أي: ولكنه رسول الله، مرسل من عند الله- عز وجل- وخاتم النبيين.

قرأ عاصم: ﴿وَخَاتَمَ﴾ بفتح التاء، وقرأ بقية السبعة: «وخاتِم» بكسر التاء اسم فاعل.

«والخاتَم» بفتح التاء في الأصل: ما يختم به على الشيء، ومنه الخاتم الذي يوضع في الإصبع، ويكتب عليه اسم صاحبه، فإذا كتب كتابًا ختمه بهذا الخاتم، وقد كان للنبي ﷺ خاتم في خنصر يده اليسرى مكتوب عليه محمد رسول الله، يختم به كتبه للملوك وغيرهم.

و«الخاتِم» بكسر التاء في الأصل، ما يكون ختامًا للشيء.

وهو ﷺ خاتَم الأنبياء- عليهم السلام- به خُتموا، فهو كآلة الختم والطابع عليهم.

وهو ﷺ خاتِم الأنبياء عليهم السلام، أي: آخرهم.

وإذا كان ﷺ كالخاتم على الأنبياء، وهو آخرهم فيؤخذ من القراءتين أنه أفضل الأنبياء، وأن دينه أفضل الأديان.

ولهذا كان دينه مهيمنًا على الأديان كلها مشتملًا على جميع محاسنها وزيادة، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾

---

(١) أخرجه البخاري في الصلح (٢٧٠٤)، وأبوداود في السنة (٤٦٦٢)، والنسائي في الجمعة (١٤١٠)، والترمذي في المناقب (٣٧٧٣)-من حديث أبي بكرة-رضي الله عنه.

[المائدة:٤٨]، وقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ [الأنعام:٩٠].

كما يؤخذ من ذلك أنه لا نبي بعده ﷺ.

قال ابن كثير(١): «فهذه الآية نص في أنه لا نبي بعده وإذا كان لا نبي بعده فلا رسول بطريق الأولى والأحرى، لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة، فإن كل رسول نبي، ولا ينعكس».

وعلى ذلك دلت السنة النبوية المطهرة، فعن جابر بن عبدالله- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «**مثلي ومثل الأنبياء قبلي كمثل رجل بنى دارًا فأحسن بناءها إلا موضع لبنة فكان الناس يمرون، فيقولون: ما أحسن هذا لولا موضع هذه اللبنة. قال ﷺ: وأنا موضع تلك اللبنة، وأنا خاتم النبيين**»(٢).

وفي حديث ثوبان- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله زوى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زُويَ لي منها، وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض- إلى أن قال- وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين، لا نبي بعدي**»(٣).

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**فُضِّلت على الأنبياء بست: أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب مسيرة شهر، وأحلت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، وأرسلت إلى الخلق كافة، وخُتم بي النبيون**»(٤).

وعن جبير بن مطعم- رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن لي أسماء: أنا محمد وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر**

---

(١) في «تفسيره» (٦/ ٤٢٣).

(٢) أخرجه البخاري في المناقب-باب خاتم النبيين (٣٥٣٤)، ومسلم في الفضائل-ذكر كونه ﷺ خاتم النبيين (٢٢٨٧)، والترمذي في الأمثال-باب مثل النبي والأنبياء (٢٨٦٢)، وأخرجه أيضًا من حديث أبي هريرة-رضي الله عنه-البخاري (٣٥٣٥)، ومسلم (٢٢٨٦)، وأحمد (٢/ ٣١٢).

(٣) أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة (٢٨٨٩)، وأبوداود في الفتن والملاحم (٤٢٥٢)، والترمذي في الفتن (٢١٧٦)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٥٢).

(٤) أخرجه مسلم في المساجد (٥٢٣)، والترمذي في السير-ما جاء في الغنيمة (١٥٥٣).

الناس على قدمي، وأنا العاقب الذي ليس بعده نبي»[١].

وعن أنس بن مالك- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الرسالة والنبوة قد انقطعت، فلا رسول بعدي ولا نبي**»[٢].

وعن العرباض بن سارية- رضي الله عنه- قال: قال النبي ﷺ: «**إني عند الله لخاتم النبيين، وإن آدم- عليه السلام- لمنجدل في طينته**»[٣].

وعن عبدالله بن عمرو- رضي الله عنه- قال: خرج علينا رسول الله ﷺ يومًا كالمودع، فقال: «**أنا محمد النبي الأمي- ثلاثًا- ولا نبي بعدي، أوتيت فواتح الكلم وخواتمه وجوامعه، وعلمت كم خزنة النار وحملة العرش، وتُجُوِّز بي**[٤]**، وعُوفيتُ، وعُوفيتْ أمتي، فاسمعوا وأطيعوا مادمت فيكم، فإذا ذُهب بي فعليكم بكتاب الله، أحلوا حلاله، وحرموا حرامه**»[٥].

قال ابن كثير رحمه الله[٦]: «وقد أخبر تعالى في كتابه، ورسوله في السنة المتواترة عنه أنه لا نبي بعده، ليُعلموا أن كل من ادعى هذا المقام بعده فهو كذاب أفاك، دجال ضال مضل، ولو تخرق وشعبذ، وأتى بأنواع السحر والطلاسم، والنَّيْرجيّات[٧]، فكلها محال وضلال عند أولي الألباب».

ولا ينافي كونه خاتم الأنبياء وآخرهم نزول عيسى ابن مريم- عليه السلام- في آخر الزمان؛ لأنه لا يأتي بشريعة جديدة، بل يحكم بشريعة محمد ﷺ.

ويؤخذ من الآية: إثبات النبوات السابقة، وقد جاء في الحديث أن عدد الأنبياء

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٨٩٦)، ومسلم في الفضائل-باب في أسمائه ﷺ (٢٣٥٤)، والترمذي في الأدب (٢٨٤٠).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٢٩٧)، والترمذي في الرؤيا-باب ذهبت النبوة وبقيت المبشرات (٢٢٧٢).

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ١٢٧).

(٤) أي:إن الله خفف عن أمتي بسببي.

(٥) أخرجه أحمد (٢/ ١٧٢، ٢١٢).

(٦) في «تفسيره» (٦/ ٤٢٥).

(٧) النَّيْرجيّات:أخذ كالسحر ونحو ذلك، انظر:«القاموس المحيط»، «تاج العروس» مادة:«نيرج».

مائة ألف وأربعة وعشرون ألفًا؛ الرسل منهم ثلاثمائة وخمسة عشر جمًّا غفيرًا أو ثلاثمائة وبضعة عشر جمًّا غفيرًا»(١).

وقد ذُكر من الرسل في القرآن الكريم خمسة وعشرون رسولًا، قال الله تعالى: ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر:٧٨].

﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ «كان»: مسلوبة الزمان، تفيد اتصاف اسمها بخبرها في جميع الأوقات، أي: كان الله ومازال بكل شيء عليمًا.

وقوله: ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: بكل شيء من الأشياء صغيرًا كان أو كبيرًا، خفيًّا كان أو جليًّا.

﴿عَلِيمًا﴾ أي: ذا العلم الواسع المحيط بجميع الأشياء في أطوارها الثلاثة: قبل الوجود، وبعد الوجود، وبعد العدم، كما قال- عز وجل: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾ [طه:٩٨].

ولما سئل موسى عليه السلام عن القرون الأولى قال: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾ [طه:٥٢].

ومن علمه- عز وجل- المحيط بكل شيء علمه بأن محمدًا ﷺ ليس أبًا لأحد من رجالهم، وأنه رسول الله وخاتم النبيين لا نبي بعده.

كما أن من علمه- عز وجل- المحيط بكل شيء علمه بأفعال العباد قبل وقوعها وما تخفيه صدورهم، وما توسوس به نفوسهم، مما يوجب مراقبة الله.

وفي هذا رد على المعتزلة والقدرية الذين ينفون علمه- عز وجل- بأفعال العباد قبل وقوعها- تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا.

قال الله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾ [غافر:١٩]، وقال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ [ق:١٦].

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٦٦) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه. و(٥/ ١٧٨، ١٧٩) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

الفوائد والأحكام:

١- نفي أن يكون نبينا محمد ﷺ أبًا لزيد بن حارثة، وإن كان قد تبناه في الجاهلية؛ لقوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾.

وفي هذا الرد على من زعم أن محمدًا تزوج امرأة ابنه، والتأكيد على إبطال حكم التبني، والذي أبطله الله- عز وجل- بقوله: أول هذه السورة: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾﴾ [الآية:٤].

٢- أن أبناءه ﷺ كلهم ماتوا صغارًا لم يبلغ أحد منهم مبلغ الرجال، ولله في ذلك حكمة.

٣- إثبات رسالة نبينا محمد ﷺ، وأنه مرسل من عند الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾.

٤- أن نبينا محمد ﷺ هو خاتم النبيين وآخرهم، وهو ﷺ أفضلهم كالخاتم عليهم ودينه مهيمن على جميع الأديان؛ لقوله تعالى: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾.

٥- أن كل مَن ادَّعى النبوة بعده ﷺ فهو كذاب أفَّاك دجال ضال مضل، ومن صدقه فهو كافر مكذِّب للقرآن، فخاتم النبيين هو محمد ﷺ لا نبي بعده؛ لقوله تعالى: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾، وقوله ﷺ في حديث ثوبان: «**وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي**».

٦- عموم علم الله- عز وجل- وإحاطته بكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾، وهذا يوجب مراقبة الله تعالى على الدوام وفي كل حال.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾﴾:

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾، أي: اذكروا الله بأنواع الذكر وأنواع العبادة، بقلوبكم وألسنتكم وجوارحكم،﴿ذِكْرًا كَثِيرًا﴾؛ «ذكرًا»: مفعول مطلق،﴿كَثِيرًا﴾: صفة له، أي: ذكرًا كثيرًا من حيث كمه وعدده؛ لأن الذكر يشمل الذكر الخاص المقيد بأوقات؛ كالصلوات الخمس وسننها والأذكار بعدها، وكأذكار الصباح والمساء، وأذكار العوارض والأسباب، وغير ذلك؛ كما يشمل الذكر المطلق في جميع الأوقات.

﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾؛ التسبيح: تنزيه الله تعالى عن النقائص والعيوب، وعن مماثلة المخلوقين، وما لا يليق به سبحانه.

﴿بُكْرَةً﴾؛ أول النهار،﴿وَأَصِيلًا﴾؛ آخر النهار، أي: في الصباح والمساء، والإبكار والعشي، وخص هذين الوقتين؛ لفضلهما وشرفهما، أو باعتبار شمولهما- كما قال بعض أهل العلم- لجميع الأوقات الفاضلة: من أوقات الصلوات المكتوبات وغيرها، قال تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الروم:١٧].

أو باعتبار إطلاقهما على جميع الوقت؛ كما قال تعالى عن رزق أهل الجنة: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم:٦٢]، ومعلوم أن رزق أهل الجنة مستمر على الدوام في جميع الأوقات لا ينقطع.

ومن أخص ما يدخل تحت قوله تعالى: ﴿ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ۝٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾: ذكر الله بالقلب واللسان، بقراءة القرآن والتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير، وغير ذلك من الأذكار الموظفة في الصباح والمساء، وأدبار الصلوات، وعند العوارض والأسباب، والذكر المطلق في جميع الأوقات والأحوال، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمۡۚ﴾ [النساء:١٠٣].

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والورق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم، فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟**» قالوا: بلى، يا رسول الله. قال: «**ذكر الله تعالى**»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: جاء الفقراء إلى النبي ﷺ، فقالوا: ذهب أهل الدثور من الأموال بالدرجات العلا، والنعيم المقيم، يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ولهم فضل من أموال، يحجون بها ويعتمرون ويجاهدون ويتصدقون! قال: «**ألا أحدثكم، إن أخذتم أدركتم من سبقكم، ولم يدرككم أحد بعدكم، وكنتم خير من أنتم بين ظهرانيه، إلا من عمل مثله؟ تسبحون وتحمدون وتكبرون خلف كل صلاة ثلاثًا وثلاثين...**»(٢).

وعن عبدالله بن بسر رضي الله عنه؛ أن رجلًا قال: يا رسول الله، إن شرائع الإسلام قد كثرت عليَّ، فأخبرني بشيء أتشبث به. قال: «**لا يزال لسانك رطبًا من ذكر الله**»(٣).

﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾.

لما أمر عز وجل بذكره ذكرًا كثيرًا، وتسبيحه بكرة وأصيلًا، أتبع بذكر جزاء ذلك وثوابه؛ ترغيبًا فيه.

---

(١) أخرجه أحمد ٥/ ١٩٥، والترمذي في الدعوات ٣٣٧٧، وابن ماجه في الأدب، فضل الذكر ٣٧٩٠.

(٢) أخرجه البخاري في الأذان ٨٤٣، ومسلم في المساجد ٥٩٥.

(٣) أخرجه أحمد ٤/ ١٩٠، والترمذي في الدعوات، ما جاء في فضل الذكر، وابن ماجه في الأدب، فضل الذكر ٣٧٩٣، وقال الترمذي: «حسن غريب».

قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيۡكُمۡ﴾؛ صلاة الله على المؤمنين: ذكرهم والثناء عليهم عند ملائكته في الملأ الأعلى، وقيل: رحمته إياهم، فمن ذكر الله وسبحه صلى عليه الله وذكره؛ كما قال تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُونِىٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِى وَلَا تَكۡفُرُونِ ١٥٢﴾ [البقرة:١٥٢].

وقال ﷺ: «**يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه، إذا ذكرني في نفسه، ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ، ذكرته في ملأ خير منهم**»(١).

﴿وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾، أي: وملائكته يصلون عليكم، بدعائهم واستغفارهم لكم؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْۖ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ٧ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٨ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾[غافر:٧- ٩].

﴿لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ﴾، أي: ليخرجكم بسبب رحمته بكم، وثنائه عليكم، ودعاء ملائكته واستغفارهم لكم من ظلمات الجهل والضلال إلى نور العلم والهدى واليقين.

﴿وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا﴾، أي: وكان عز وجل ذا رحمة خاصة بالمؤمنين في الدنيا والآخرة، فهداهم في الدنيا إلى الصراط المستقيم، وهداهم في الآخرة إلى جنات النعيم.

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ رأى امرأة من السبي قد أخذت صبيًّا لها فألصقته إلى صدرها، وأرضعته، فقال: «**أترون هذه طارحة ولدها في النار؟**» قلنا: لا، وهي تقدر على ألا تطرحه. قال: «**لله أرحم بعباده من هذه بولدها**»(٢).

وهو عز وجل رحيم رحمة عامة بجميع الخلق؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد ٧٤٠٥، ومسلم في الذكر، الحث على ذكر الله ٢٦٧٥، والترمذي في الدعوات ٣٦٠٣، وابن ماجه في الأدب ٣٨٢٢؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب، رحمة الوالد ٥٩٩٩، ومسلم في التوبة ٢٧٥٤.

لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة:١٤٣، الحج:٦٥].

﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾؛ التحية: ما يُحيَّا به الضيف والقادم، وهي من المخلوقين: الدعاء بالسلامة والبقاء. ومن الله عز وجل: الوعد والبشارة بالسلامة والبقاء، ومنح ذلك بفضله عز وجل.

وقوله: ﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾ من إضافة المصدر إلى مفعوله، أي: تحيتهم يوم يلقون ربهم عز وجل سلام منه عليهم؛ كما قال تعالى: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ۝٥٨﴾ [يس:٥٨].

وسلام من ملائكته أيضًا عليهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ۝٢٤﴾ [الرعد:٢٣- ٢٤].

ويجوز أن يكون﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾ من إضافة المصدر إلى فاعله، فيكون المعنى: تحية بعضهم بعضًا: سلام؛ كما قال تعالى: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ [يونس:١٠].

والمعنى الأول أظهر من حيث السياق، وأقوى من حيث المعنى، ولا منافاة بين القولين من حيث المعنى؛ فتحيتهم يوم يلقون ربهم سلام منه تعالى عليهم، ومن ملائكته أيضًا، وسلام من بعضهم على بعض.

كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝٢٥ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ۝٢٦﴾ [الواقعة:٢٥- ٢٦]، أي: سلامًا من ربهم ومن ملائكته، ومن بعضهم على بعض.

﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾، أي: وهيأ عز وجل وجهز لهم في الجنة﴿أَجْرًا كَرِيمًا﴾، أي: جزاءً وثوابًا واسعًا كثيرًا عظيمًا، لا يقدر قدره إلا من أعده لهم- وهو أكرم الأكرمين- مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٧﴾ [السجدة:١٧].

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ۝٤٦ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ۝٤٧ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ۝٤٨﴾:

هذا هو النداء الثالث للنبي ﷺ في هذه السورة الكريمة، ففي النداء الأول أبلغه عز وجل ما هو متعلق بذاته، وبالنداء الثاني ما هو متعلق بأزواجه، وما تخلل ذلك من التكليف والتذكير، ثم أبلغه وبين له في هذا النداء مهام وأركان رسالته في خمسة أوصاف وصفه بها في هذه الآيات.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾، أي: بعثناك برسالتنا إلى الناس؛ كما قال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ﴾ [الأعراف:١٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [سبأ:٢٨].

وقد جمع الله له هنا بين وصف النبوة بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾، ووصف الرسالة بقوله: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾.

كما جاء في الدعاء: «**آمنت بكتابك الذي أنزلت، ونبيك الذي أرسلت**»(١).

﴿شَٰهِدٗا﴾: حال، أي: شاهدًا لله تعالى بالوحدانية، وأنه لا إله غيره، ولا رب سواه؛ كما قال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٨﴾ [آل عمران:١٨].

وشاهدًا على الناس بأعمالهم يوم القيامة؛ كما قال تعالى: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ٤١﴾ [النساء:٤١]، وقال تعالى: ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾ [البقرة:١٤٣].

﴿وَمُبَشِّرٗا﴾: معطوف على «شاهدًا»، أي: ومبشرًا للمؤمنين بالجنة، والثواب الجزيل، والفضل الكبير؛ كما قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا ٤٧﴾ [الأحزاب:٤٧].

﴿وَنَذِيرٗا﴾، أي: ونذيرًا للكافرين والمنافقين والمكذبين، أي: مخوفًا لهم من النار والعذاب الأليم.

---

(١) أخرجه البخاري في الوضوء، فضل من بات على وضوء ٢٤٧، ومسلم في الذكر والدعاء، ما يقول عند النوم وأخذ المضجع ٢٧١٠، من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

وعن عطاء بن يسار، قال: لقيت عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، وقلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة. قال: «أجل، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ وحرزًا للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق، لا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلى الله. ويفتح بها أعينًا عميًا، وآذانًا صمًّا، وقلوبًا غلفًا»(١).

وكان ﷺ يقول: «**أنا النذير العريان** »(٢)، وكان ﷺ إذا خطب كأنه منذر جيش يقول صبحكم ومساكم(٣).

وقدم البشارة على الإنذار؛ لأن رحمة الله تعالى سبقت غضبه؛ كما قال تعالى: «**إن رحمتي سبقت غضبي**»(٤).

ولأن النبي ﷺ أرسل رحمة للعالمين، والتبشير هو الأصل؛ ولهذا قال ﷺ: «**بشروا، ولا تنفروا**»(٥).

﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ﴾، أي: وداعيًا الناس إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له.

﴿بِإِذۡنِهِۦ﴾، أي: بأمره عز وجل الكوني والشرعي لك بذلك.

﴿وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾؛ يستضاء به في ظلمات الجهل والضلال، ويهتدى بنوره إلى الصراط المستقيم، صراط الله عز وجل؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ [الشورى:٥٢- ٥٣].

---

(١) أخرجه البخاري في البيوع، كراهية السخب في الأسواق ٢١٢٥، وأحمد ٢/ ١٧٤.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه مسلم في الجمعة، تخفيف الصلاة والخطبة ٨٦٧، من حديث جابر رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في التوحيد ٧٤٢٢، ومسلم في التوبة ٢٧٥١، وابن ماجه في المقدمة ١٨٩؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) أخرجه مسلم في الجهاد والسير ١٧٣٢؛ من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

قال ابن كثير[١]: «وأمرك ظاهر فيما جئت به من الحق؛ كالشمس في إشراقها وإضاءتها، لا يجحدها إلا معاند».

﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾؛ سبق الكلام عليه في مطلع السورة، وفي هذا تأكيد لما سبق.

﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾ من إضافة المصدر إلى فاعله، أي: واترك أذاهم لك، أي: لا تكترث بما يصدر منهم من أذى إليك، واتركه، ولا تهتم به، وفي هذا تسلية له ﷺ وتقوية لقلبه، وتهديد لهم؛ بدليل قوله بعده: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾.

وقيل: إن قوله: ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾ من إضافة المصدر إلى مفعوله، أي: دع أذاك إياهم، أي: لا تؤذهم، ولا تعاقبهم، واصفح وتجاوز عنهم، والصحيح الأول.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ﴾، أي: واعتمد على الله تعالى، وفوض إليه في جميع أمورك، وفي متاركتك لهم، وعدم مبالاتك فيهم، وفي كفايته إياك من شرهم، وغير ذلك.

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾؛ الباء زائدة للتوكيد، أي: وكفى الله وكيلًا لك، ولكل من توكل عليه، يكفيك شر أعدائك، وكل ما أهمك، ويصلح شأنك؛ كما قال تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة:١٣٧].

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب بالنداء؛ للتنبيه والعناية والاهتمام، ونداء المؤمنين بوصف الإيمان؛ للحث على الاتصاف بهذا الوصف، والتشريف والتكريم لهم، وأن امتثال ما بعده من مقتضيات الإيمان، وعدم امتثاله نقص في الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

٢- مشروعية الإكثار من ذكر الله تعالى وتسبيحه، وفضيلة ذلك؛ لأن الله عز وجل أمر بذكره ذكرًا كثيرًا، وتسبيحه بكرة وأصيلًا، وحث على ذلك، ورغب فيه، بذكر صلاته عز وجل وملائكته على المؤمنين المسبحين، وما أعد لهم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا

---

(١) في «تفسيره» ٦/ ٤٣١.

﴿كَثِيرًا ۝٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٤٢ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ﴾ الآية.

٣- ينبغي أن يجمع العبد بين تعظيم الله تعالى بذكره وعبادته، وبين تنزيهه عن النقائص والعيوب، وعن مشابهة المخلوقين، وما لا يليق به.

٤- ينبغي الإكثار من ذكر الله تعالى على الدوام في جميع الأوقات؛ لأن الله لم يجعل للذكر حدًّا ينتهي إليه، ولم يعذر أحدًا على تركه إلا مغلوبًا على عقله.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «إن الله لا يفرض على عباده فريضة إلا جعل لها حدًّا معلومًا، ثم عذر أهلها في حال عذر، غير الذكر؛ فإن الله لم يجعل له حدًّا ينتهي إليه، ولم يعذر أحدًا في تركه إلا مغلوبًا على عقله، فقال: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء:١٠٣]، بالليل والنهار، في البر والبحر، وفي السفر والحضر، والغنى والفقر، والصحة والسقم، والسر والعلانية، وعلى كل حال، وقال: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٤٢﴾، فإذا فعلتم ذلك صلى عليكم هو وملائكته، قال الله عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ﴾»(١).

٥- ثناؤه عز وجل على المؤمنين الذاكرين المسبحين عند ملائكته في الملأ الأعلى، ورحمته بهم؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ﴾.

٦- إثبات وجود الملائكة، وصلاتهم على المؤمنين بالدعاء والاستغفار لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَلَائِكَتُهُ﴾، أي: وملائكته يصلون عليكم، أي: يدعون ويستغفرون لكم.

٧- أن صلاته عز وجل على المؤمنين هو و ملائكته، وثناؤه عليهم، ورحمته بهم؛ لإخراجهم من ظلمات الجهل والضلال، إلى نور العلم والهدى واليقين؛ لقوله تعالى: ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾.

٨- إثبات العلة والحكمة في أفعاله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿لِيُخْرِجَكُم﴾، وفي هذا رد على نفاة الحكمة في أفعال الله، الذين يقولون: إنه يفعل لمجرد المشيئة.

٩- إثبات رحمة الله تعالى الخاصة بالمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٩/ ١٢٤.

رَحِيمًا﴾، وذلك بهدايتهم في الدنيا إلى سلوك الصراط المستقيم، وهدايتهم في الآخرة إلى جنات النعيم، وفي هذا بيان فضيلتهم، وحث على الإيمان وترغيب فيه.

١٠- بشارة المؤمنين بما لهم عند لقاء الله عز وجل من التحية والسلام والإكرام، وبما أعد لهم من الأجر الكريم الواسع العظيم؛ لقوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾﴾.

١١- إثبات لقاء الله تعالى، والبعث والمعاد، والحساب والجزاء على الأعمال.

١٢- عظم ما للمؤمنين عند الله عز وجل من الأجر وسعته وكثرته، وأنه معَدٌّ الآن مجهز في جنات النعيم، التي أعدت للمتقين.

١٣- أن التخلية بالتسليم من الآفات قبل التحلية بإعطاء الأجر؛ لقوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾﴾.

١٤- تكفله عز وجل بهذا الأجر، وضمانه له؛ ولهذا سماه عز وجل أجرًا، مع أنه عز وجل لا يجب عليه شيء لخلقه.

١٥- تشريف الله عز وجل وتكريمه للنبي ﷺ بندائه له باسم النبوة، وتخصيصه بذلك من بين الأنبياء عليهم السلام؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾.

١٦- إثبات نبوته ﷺ ورسالته؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾.

١٧- إثبات شهادته ﷺ على الناس يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿شَٰهِدًا﴾.

١٨- أن الله عز وجل أرسله ﷺ بشيرًا للمؤمنين بالسعادة في الدنيا والآخرة، ونذيرًا للكافرين والمنافقين من الشقاء في الدنيا والآخرة، والنار؛ وداعيًا إلى عبادته عز وجل وحده لا شريك له، وهاديًا إلى صراطه المستقيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾.

١٩- إثبات الإذن لله تعالى، بقسميه: الإذن الكوني، والإذن الشرعي، وأن إرساله ﷺ شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الله، كل ذلك بإذن الله الكوني والشرعي.

٢٠- في وصفه ﷺ بهذه الأوصاف الخمسة العظيمة تنويه بشأنه، ورفعة لقدره ﷺ، وبيان لمنهجه وأصول دعوته.

٢١- أنه ﷺ بما جاء به من الوحي نور كالسراج يضيء للناس طريقهم وسط دياجير الظلم، كما قال كعب بن زهير(١):

إن الرسول لنور يستضاء به   مهند من سيوف الله مسلول

٢٢- في تقديم البشارة على الإنذار إشارة إلى أن رحمة الله عز وجل سبقت غضبه، وأنه ﷺ بعث رحمة للعالمين، والتبشير هو الأصل.

٢٣- تبشير المؤمنين بما لهم من الله من الفضل الكبير؛ لقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ۝٤٧﴾.

٢٤- نهيه ﷺ عن أن يطيع الكافرين والمنافقين؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾، وليس في هذا دلالة على طاعته ﷺ لهم، وحاشاه من ذلك، وليس في نهي الله عز وجل له عن ذلك غضاضة عليه ﷺ، وهو نهي له ولأمته.

٢٥- تسلية الله تعالى له ﷺ بأمره بترك أذاهم، والصبر عليه، وعدم المبالاة به، وتقوية قلبه، وتهديدهم ووعيدهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾.

٢٦- أمره له بالتوكل عليه عز وجل في ذلك، والاعتماد عليه والتفويض له في دعوته، وفي جميع أموره، ووعده له بكفايته؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾.

٢٧- افتقاره ﷺ إلى ربه، وأنه لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا.

٢٨- وجوب التوكل على الله تعالى، والاعتماد عليه في جميع الأمور، وعظم كفايته عز وجل لمن توكل عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾، لأن الأمر له ولأمته.

* * *

(١) انظر: «جمهرة أشعار العرب» ص٦٤٠.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾﴾.

قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ «يا»: حرف نداء، و«أي»: منادى مبني على الضم في محل نصب و«ها»: للتنبيه، و﴿الَّذِينَ﴾: صفة لأي، أو بدل منها.

والإيمان في اللغة: التصديق، وفي الشرع: قول باللسان واعتقاد بالجنان وعمل بالأركان.

﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ ﴿إِذَا﴾: ظرفية شرطية غير عاملة، ﴿نَكَحْتُمُ﴾ فعل الشرط، وجوابه قوله: ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾.

والنكاح في اللغة: الضم والجمع، ويطلق في الشرع: على عقد الزوجية الصحيح، وعلى الجماع، فإذا أضيف إلى أجنبية، فقيل: نكح فلان بنت فلان، فالمعنى: عقد عليها وتزوجها.

وإذا أضيف إلى الزوجة، فقيل: نكح فلان زوجته، فالمعنى: وطئها وجامعها.

والمراد بالنكاح هنا العقد؛ لقوله بعد ذلك: ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ﴾ أي: من قبل أن تجامعوهن. بل إن النكاح في القرآن كله، إنما هو بمعنى العقد، اللهم إلا في قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ [البقرة:٢٣٠] فجمهور أهل العلم على أن المعنى: حتى يطأها ويجامعها بدليل قوله ﷺ: «**حتى تذوقي عسيلته، ويذوق عسيلتك**»(١).

قال ابن كثير(٢): «هذه الآية الكريمة فيها أحكام كثيرة، منها إطلاق النكاح على العقد وحده، وليس في القرآن آية أصرح في ذلك منها، وقد اختلفوا في النكاح: هل هو حقيقة في العقد وحده أو في الوطء، أو فيهما؟ على ثلاثة أقوال. واستعمال القرآن إنما هو في العقد والوطء بعده، إلا في هذه الآية، فإنه استعمل في العقد وحده؛ لقوله: ﴿يَا أَيُّهَا

(١) أخرجه البخاري في الشهادات (٢٦٣٩)، ومسلم في النكاح (١٤٣٣)، والنسائي في النكاح (٣٢٨٣)، والترمذي في النكاح (١١١٨)، وابن ماجه في النكاح (١٩٣٢)-من حديث عائشة-رضي الله عنها.
(٢) في «تفسيره» (٦/ ٤٣١).

ﱡﭐﭐﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝﱠ» الَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ ﴾».

﴿ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ أي: اللاتي صدّقن بقلوبهن وانقدن بجوارحهن لما جاء عن الله ورسوله قولًا وعملًا، وبحكمهن نساء أهل الكتاب؛ لأن الله أباحهن للمؤمنين قال تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ وَطَعَامُكُمۡ حِلّٞ لَّهُمۡۖ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [المائدة:٥].

﴿ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ ﴿ثُمَّ﴾ تدل على أن الطلاق إنما يكون بعد النكاح، ولا يكون قبله، وفي حديث المسور بن مخرمة أن رسول الله ﷺ قال: «**لا طلاق قبل النكاح**»(١).

وفي حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال: «**لا نذر لابن آدم فيما لا يملك، ولا عتق له فيما لا يملك، ولا طلاق له فيما لا يملك**»(٢).

فالطلاق لا يكون قبل النكاح، وهذا هو قول جمهور أهل العلم من السلف والخلف لهذه الآية، وهذه الأحاديث.

وقيل: يصح الطلاق قبل النكاح، كأن يقول: إن تزوجت فلانة فهي طالق، والصحيح القول الأول(٣).

وإذا كان الطلاق لا يصح ولا يكون قبل النكاح فالظهار لا يصح ولا يكون قبل النكاح من باب أولى(٤).

كما تدل ﴿ثُمَّ﴾ على أن الطلاق وإن تأخر بعد العقد فالحكم لا يتغير مادام قبل

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الطلاق-لا طلاق قبل النكاح (٢٠٤٨، ٢٠٤٩). وبوّب البخاري له بباب:لا طلاق قبل النكاح، وقوله:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ الآية، انظر:«فتح الباري» (٩/ ٣٨١). وقال الألباني:«حسن صحيح».

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ١٨٩-١٩٠)، وأبوداود في الطلاق-الطلاق قبل النكاح (٢١٩٠)، والترمذي في الطلاق-لا طلاق قبل النكاح (١١٨١)، وابن ماجه في الطلاق-لا طلاق قبل النكاح (٢٠٤٧). وقال الألباني:«حسن صحيح».

(٣) انظر:«تفسير ابن كثير» (٦/ ٤٣١-٤٣٢).

(٤) انظر:«تيسير الكريم الرحمن» (٦/ ٢٣٤).

المسيس؛ لأن ﴿ثُمَّ﴾ تدل على التراخي، فسواء طلقها بعد العقد مباشرة أو تأخر.

والخطاب في قوله: ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾ للأزواج الذكور؛ لأنهم هم الذين بأيديهم عقدة النكاح والطلاق.

والطلاق في اللغة: حل قيد البعير ونحوه. وفي الشرع: حل عقدة النكاح أو بعضه، فإن كان الطلاق بائنًا لا تحل الزوجة بعده فهو حل لقيد النكاح كله، وإن كان الطلاق رجعيًا يجوز للزوج مراجعتها بعده فهو حل لبعض قيد النكاح.

﴿مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف بضم التاء وألف بعد الميم: «تُماسوهن» وقرأ الباقون بفتح التاء وبدون ألف: ﴿تَمَسُّوهُنَّ﴾[1].

والمعنى: من قبل أن تجامعوهن وتطؤوهن.

وكنى عن الجماع بالمس، كما كنى عنه بالإتيان والإفضاء والملامسة، من باب الكناية عما يستقبح ذكره، قال ابن عباس- رضي الله عنهما ـ: «و«المس» و«اللمس» و«المباشرة»: الجماع، ولكن الله يكني ما شاء بما شاء»[2].

وقال في قوله: ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ [النساء:٢١]: «والإفضاء: الجماع، ولكن الله حيي كريم يكني عما يشاء»[3].

ويؤخذ من الآية إباحة الطلاق، وإباحة كونه قبل المسيس؛ لأن الله أخبر به عن المؤمنين على وجه لم يلمهم ولم يؤنبهم عليه، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ [البقرة:٢٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ [البقرة:٢٣٧].

﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ «الفاء»: رابطة لجواب الشرط؛ لأنه جملة اسمية، و«ما»: نافية، و﴿لَكُمْ﴾: جار ومجرور خبر مقدم.

---

(١) انظر: «المهذب في القراءات العشر» (٢/ ١٤٦).

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٧/ ٦٤-٦٧)-تحقيق أحمد شاكر، والبيهقي في «سننه» (١/ ١٢٥)، وذكره ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٢٧٦).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٩٠٨).

﴿مِنْ عِدَّةٍ﴾ ﴿مِنْ﴾: حرف جر زائد من حيث الإعراب مؤكد من حيث المعنى لعموم النفي، و﴿عِدَّةٍ﴾ مبتدأ مؤخر مرفوع بضمة مقدرة على آخره، منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد.

والعدة في اللغة: مأخوذة من العدد. وفي الشرع: تربص مفارقة في الحياة، أو بعد الممات، مدة محدودة شرعًا. فلا تتزوج سواء كانت مطلقة أو متوفى عنها حتى تنتهي عدتها، وإن كانت متوفى عنها فتجتنب مع ذلك الخروج لغير حاجة، والطيب ولبس الحلي، والزينة ونحو ذلك مما يجب عليها اجتنابه في عدتها.

﴿تَعْتَدُّونَهَا﴾، الخطاب: للأزواج، أي: فما لكم أيها الأزواج عليهن أيّ عدة تعتدونها.

وفي خطاب الأزواج في هذا دلالة على أن العدة حق للأزواج أوجبها الله- عز وجل- على الزوجات احترامًا وتعظيمًا لحق الأزواج، فهي بهذا حق لله- عز وجل- وحق للأزواج، ولهذا ليس للزوج إسقاطها عن زوجته.

ومعنى ﴿تَعْتَدُّونَهَا﴾، أي: تحصونها وتضبطونها بالحساب، بثلاثة قروء إن كانت من ذوات الأقراء وهي الحيض على الصحيح، أو بثلاثة أشهر إن كانت لا تحيض لصغر أو إياس.

فإذا طلقت المرأة قبل المسيس، وهو الجماع فلا عدة عليها، لكن الخلفاء الراشدين- رضي الله عنهم- جعلوا للخلوة بها حكم الجماع، فإذا خلا بها وجبت عليها العدة جامع أو لم يجامع، وعلى هذا جمهور أهل العلم.

قال ابن كثير رحمه الله(١): «وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء: أن المرأة إذا طلقت قبل الدخول بها لا عدة عليها، فتذهب فتتزوج في فورها إن شاءت، ولا يستثنى من هذا إلا المتوفى عنها زوجها، فإنها تعتد منه أربعة أشهر وعشرًا، وإن لم يكن دخل بها بالإجماع أيضًا».

ويفهم من قوله: ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾

(١) في «تفسيره» (٦/ ٤٣٢)، وانظر: «تيسير الكريم الرحمن» (٦/ ٢٣٥).

أنه إذا كان الطلاق بعد المسيس فعليها العدة.

﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ أي: أعطوهن ما يتمتعن به من المال، من دراهم أو أثاث، أو لباس، أو عقار أو غير ذلك، والأمر للوجوب، فالمتعة واجبة حسب يسر الرجل وعسره وليس لها حد من حيث الكيفية ولا الكمية، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ (٢٣٦)﴾ [البقرة:٢٣٦].

وعن سهل بن سعد وأبي أسيد- رضي الله عنهما: «أن رسول الله ﷺ تزوج أميمة بنت شراحيل، فلما أُدْخِلَت عليه بسط يده إليها، فكأنها كرهت ذلك، فأمر أبا أسيد أن يجهزها ويكسوها ثوبين رَازِقِيَّيْنِ»(١).

وهذا إن لم يسم لها صداق، فإن سُمي لها صداق فلها نصف المسمى ولا متعة لها، قال تعالى: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ [البقرة:٢٣٧].

عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «**إن كان سَمى لها صداقًا، فليس لها إلا النصف، وإن لم يكن سمى لها صداقًا، فأمتعها على قدر عسره ويسره، وهو السراح الجميل**»(٢).

وقوله: ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ كما يدل على أنها لها المتعة يدل أيضًا على أنه ليس لها غير ذلك من النفقة والسكنى ونحو ذلك.

﴿وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ السراح والتسريح قد يطلق على الطلاق، قال تعالى: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة:٢٢٩].

والمراد بالسراح هنا هو تخلية سبيلهن، لذكر الطلاق قبله بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

---

(١) أخرجه البخاري في الطلاق-من طلق وهو يواجه امرأته بالطلاق (٥٢٥٧)، ومسلم في الأشربة (٢٠٠٧).

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٩/ ١٢٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣١٤٢)-الأثر (١٧٧١٧).

إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ الآية.

والجميل: الطيب الذي لا مضارة فيه.

أي: خلوا سبيلهن من غير مضارة لهن ولا أذى، وذلك بأن يكون عن رضىً، وبالكلام الطيب اللين، كأن يقول: ما أراد الله بيننا شيئًا، وأنا لم أر منك ولم أسمع منك إلا خيرًا ونحو ذلك، وسيرزقك الله، كما قال عز وجل: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾﴾ [النساء: ١٣٠].

ويكون ذلك مع المعاملة الحسنة وطلاقة الوجه وانبساط القلب؛ لأن المطلقة عمومًا تتأثر بسبب الطلاق، فكيف بمن طلقت قبل الدخول بها، وخصوصًا إذا كانت راغبة في الزوج، يضاف إلى ذلك أن أهل القالة من الناس سيطلقون ألسنتهم، لماذا طلقت؟ ماذا فيها؟ ما سبب ذلك؟ إلخ. فكان من رحمة الله- عز وجل- أن أمر المطلق قبل المسيس بأمرين جبرًا لخاطر المطلقة وتخفيفًا للأمر عليها، ولينشرح صدرها لما قدره الله:

الأول: أن يمتعها بشيء من المال أيًّا كان نوعًا وكثرةً وقلةً.

والثاني: السراح الجميل، والقول الطيب اللين، وعدم المضارة.

وفي هذين الأمرين ما يطيب القلوب، ويسل السخائم، ويجعل كلًّا منهما يذكر صاحبه بالخير، بدل أن يقدح كل منهما بالآخر، كما أن في ذلك سدًّا للطريق أمام أهل القالة من الناس الذين قد يطلقون ألسنتهم فيها وفي زوجها- والله المستعان.

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾.

٢- نداء المؤمنين بوصف الإيمان تشريف وتكريم لهم، وحث على الاتصاف بهذا الوصف، وأن امتثال ما بعده من مقتضيات الإيمان، وأن عدم امتثال ذلك يعد نقصًا في الإيمان.

٣- أن النكاح قد يطلق على العقد وحده، كما في قوله في هذه الآية: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾.

٤- لا طلاق قبل النكاح؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾، ومن باب أولى: لا إيلاء، ولا ظهار، ولا تحريم؛ قبل النكاح.

٥- أن عقدة النكاح والطلاق بأيدي الأزواج؛ لأن الله وجَّه الخطاب في الآية للذكور من المؤمنين.

٦- مشروعية النكاح، وإباحة الطلاق؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾، وإباحة كونه قبل المسيس؛ لقوله تعالى: ﴿مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾.

٧- لا عدة على المطلقة قبل المسيس والجماع؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾، وسواء كان الطلاق بعد النكاح مباشرة أو تأخر بعد ذلك؛ لأن ﴿ثُمَّ﴾ تدل على التراخي، لكن الخلفاء الراشدين- رضي الله عنهم- جعلوا للخلوة بها حكم الجماع، فإذا خلا بها وجبت عليها العدة جامع أو لم يجامع، وعلى هذا جمهور العلماء.

٨- أن المطلقة بعد المسيس عليها العدة؛ لمفهوم قوله: ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾.

٩- أن العدة حق للأزواج؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ وقد أوجبها الله- عز وجل- عليهن احترامًا وتعظيمًا لحقهم، فهي أيضًا حق لله- عز وجل- ولهذا فليس للزوج إسقاطها عن زوجته.

١٠- وجوب المتعة للمطلقة قبل المسيس جبرًا لخاطرها بقدر يُسر الزوج وعُسره، وليس لها سوى ذلك لا نفقة ولا سكن؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾.

وهذا إذا لم يُفرض لها مهر، فإن فُرض لها مهر فلها نصفه دون المتعة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ [البقرة:٢٣٧].

١١- يجب على الزوج إذا طلق زوجته أن يخلي سبيلها من غير مضارة لها، وأن يكون بالكلام الطيب اللين؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾﴾، فيجمع لها بين الإحسان الفعلي بالمتعة، والإحسان القولي بالسراح الجميل.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٥٠)﴾.

قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ سبق الكلام عليه إعرابًا ومعنى في مطلع السورة.

ونداؤه ﷺ بوصف النبوة فيه إثبات نبوته والدلالة على فضله ﷺ.

﴿إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ﴾ المتكلم هو الله- عز وجل- بضمير العظمة (إنا)؛ لأنه- عز وجل- هو العظيم الذي له كمال العظمة، كما قال عز وجل في الحديث القدسي: «**العزة إزاري، والكبرياء ردائي، فمن ينازعني عذبته**»(١).

ومعنى قوله: ﴿أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ﴾ أي: جعلناهن حلالًا لك، والإحلال ضد التحريم، وقوله: ﴿أَحْلَلْنَا﴾ يدل على أن التحليل والتحريم إلى الله- عز وجل- وما أحله الرسول ﷺ أو حرمه فهو بوحي الله- عز وجل- إليه كما قال عز وجل: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (٤)﴾ [النجم:٣، ٤].

والمراد بأزواجه اللاتي أحلهن له: أزواجه اللاتي معه قد تزوج بهن واللاتي في عصمته وقت نزول الآية، بدليل قوله: ﴿أَحْلَلْنَا﴾ بصيغة الماضي، وبدليل أن الله سماهن أزواجه، فهن اللاتي معه وبعصمته حال نزول الآية، كما يدل على هذا قوله بعد ذلك: ﴿اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ أي: فيما مضى، ويكون المراد بذكر إحلالهن له توكيد حلهن له، والامتنان عليه بذلك ودفع ما يمكن أن يعاب به من اجتماع تسع نسوة في عصمته.

وقيل: المراد بذلك أزواجك اللاتي تريد أن تتزوج بهن وتؤتيهن أجورهن، والصحيح القول الأول، وهو الذي يدل عليه ظاهر الآية.

﴿اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ أي: اللاتي أعطيتهن مهورهن، وسمي المهر أجرًا؛ لأنه

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب (٢٦٢٠)، وأبوداود في اللباس (٤٠٩٠)، وابن ماجه في الزهد (٤١٧٤)-من حديث أبي سعيد وأبي هريرة-رضي الله عنهما.

في مقابل الانتفاع والاستمتاع بالزوجة، وهو واجب، بل من شرط صحة النكاح.

قال ابن كثير(١): «يقول تعالى مخاطبًا نبيه صلوات الله وسلامه عليه- بأنه أحل له من النساء أزواجه اللاتي أعطاهن مهورهن وهي الأجور هاهنا كما قاله مجاهد وغير واحد، وكان مهره لنسائه اثنتي عشرة أوقية ونشًا، وهو نصف أوقية، فالجميع خمسمائة درهم، إلا أم حبيبة بنت أبي سفيان، فإنه أمهرها عنه النجاشي- رحمه الله- أربعمائة دينار، وإلا صفية بنت حُييّ فإنه اصطفاها من سبي خيبر، ثم أعتقها، وجعل عتقها صداقها، وكذلك جويرية بنت الحارث المصطلقية أدى عنها كتابتها إلى ثابت بن قيس بن شماس وتزوجها- رضي الله عن جميعهنّ».

﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ الواو: عاطفة، و«ما»: موصولة، أي: وأحللنا لك اللاتي ملكت يمينك من الإماء، تنتفع وتستمع بهنّ.

والمعنى: وما ملكت من السراري والإماء، وإنما أضيف الملك إلى اليمين؛ لشرفها؛ ولأنها هي الآخذة والمعطية كما في الحديث: «**حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه**»(٢).

ولا يقال: إن هذا من باب المجاز، إذ من المعلوم أن اليد بمفردها لا تملك، وإنما الذي يملك هو الشخص نفسه، يملك ذات المملوك ومنافعه ومنها منفعة الاستمتاع بالبضع إذا كان المملوك أمة.

﴿مِمَّآ﴾ «من»: بيانية، و﴿مَا﴾ موصولة، أي: من الذي، ﴿أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ﴾.

وهذه الجملة بيان للاسم الموصول «ما» في قوله: ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾، أي: وما ملكته يمينك من الذي أفاء الله عليك.

ومعنى ﴿أَفَآءَ﴾: رد، ومنه الفيء، وهو: ظل الزوال بعد الشمس، سمي بذلك؛ لأنه رجع إلى حاله بعد ذهاب الشمس فصار ظلًّا.

والمعنى: من الذي رد الله عليك وأنعم به عليك من الغنيمة؛ لأن ذلك رد للمال،

(١) في تفسيره (٦/ ٤٣٣).

(٢) أخرجه البخاري في الأذان (٦٦٠)، ومسلم في الزكاة (١٠٣١)، والنسائي في آداب القضاة (٥٣٨٠)، والترمذي في الزهد (٢٣٩١)-من حديث أبي هريرة-رضي الله عنه.

ممن لا يستحقه، وليس هو أهلًا له إلى من يستحقه، وهو أهل له، وهم المؤمنون، فالمال والأرض والتخويل إنما يستحقه أهل الإيمان، كما قال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء:١٠٥].

وقال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور:٥٥]. وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الأعراف:٣٢].

ومما أفاء الله ورد على رسوله ﷺ من الغنيمة والسبي صفية بنت حُييّ ابن أخطب اليهودي من سبايا غزوة خيبر، أعتقها ﷺ وجعل عتقها صداقها، وجويرية بنت الحارث المصطلقية من سبايا غزوة بني المصطلق أدى عنها كتابتها إلى ثابت بن قيس وتزوجها ﷺ.

فعن عائشة- رضي الله عنها- قالت: «لما قسم رسول الله ﷺ سبايا بني المصطلق وقعت جويرية بنت الحارث في السهم لثابت بن قيس بن الشماس، أو لابن عم له، فكاتبته عن نفسها، وذكر أنها ذهبت إلى رسول الله ﷺ تستعينه على كتابتها، فقال لها رسول الله ﷺ: «**أقضي عنك، وأتزوجك؟**» قالت: نعم يا رسول الله، قال: «**قد فعلت**»[١].

وخص الفيء بالذكر؛ لأنه سبب ملك اليمين، ومما أباحه الله- عز وجل- له ﷺ مارية القبطية التي أهداها إليه المقوقس ملك مصر، فقبلها النبي ﷺ فاستحلها وأتت منه بولده إبراهيم، كما ملك ﷺ ريحانة بنت شمعون النضرية[٢].

﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ﴾ الواو: عاطفة، ﴿وَبَنَاتِ﴾ وما بعده معطوف على قوله: ﴿أَزْوَاجَكَ﴾ أي: إنا أحللنا لك أزواجك، وما ملكت

(١) أخرجه ابن إسحاق في السيرة. انظر:«السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٢٩٤-٢٩٥). وأخرجه أبوداود في العتق (٣٩٣١)، وحسنه الألباني.

(٢) انظر:«تفسير ابن كثير» (٦/ ٤٣٣).

يمينك وبنات عمك.

أي: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ﴾ وإن نزلن، والعم أخو الأب والجد.

﴿وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ﴾ وإن نزلن، والعمة أخت الأب والجد.

﴿وَبَنَاتِ خَالِكَ﴾ وإن نزلن، والخال أخ الأم والجدة.

﴿وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ﴾ وإن نزلن والخالة أخت الأم والجدة.

وأفرد في ذكر الذكور فقال: ﴿عَمِّكَ﴾ و﴿خَالِكَ﴾ بينما جمع في ذكر الإناث فقال: ﴿عَمَّٰتِكَ﴾، ﴿خَٰلَٰتِكَ﴾.

قال ابن كثير(١): «لشرف الذكور كقوله تعالى: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ﴾ [النحل:٤٨]، وقوله تعالى: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة:٢٥٧]، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام:١]».

وقيل: لأن العم والخال جنس، فيشمل الواحد والجمع، وجمع العمة والخالة؛ لأنهما مختومتان بتاء الواحدة، فلو أفرد لأشعر أنهما عمة واحدة وخالة واحدة، وقيل: أفردهما لحسن النظم والسبك.

وهؤلاء الأربع المذكورات في هذه الآية هن الحلال من الأقارب، وما عداهن من الأقارب محرمات، وهن سبع، وهن المذكورات في سورة النساء في قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ﴾ [النساء:٢٣].

قال السعدي(٢) في كلامه على قوله تعالى: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ﴾ الآية. قال: «شمل العم والعمة والخال والخالة، القريبين والبعيدين، وهذا حصر المحللات يؤخذ من مفهومه أن ما عداهن من الأقارب غير محلل، كما تقدم في سورة النساء، فإنه لا يباح من

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٤٣٣).

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» (٦/ ٢٣٦-٢٣٧).

الأقارب من النساء غير هؤلاء الأربع، وما عداهن من الفروع مطلقًا والأصول مطلقًا، وفروع الأب والأم، وإن نزلوا، وفروع من فوقهم لصلبه فإنه لا يباح».

﴿ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ﴾ أي: هاجرن معك من مكة إلى المدينة، أي: اجتمعن معك في دار الهجرة، وهي المدينة، سواءٌ هاجرن قبله أو بعده.

وليس معنى قوله: ﴿هَاجَرۡنَ مَعَكَ﴾ أن يكنّ هاجرن بصحبته، فقد هاجر ﷺ وحده ليس معه إلا صاحبه أبوبكر الصديق- رضي الله عنه.

والهجرة في اللغة: الترك، وفي الشرع: الانتقال من بلد الشرك إلى بلد الإسلام.

فلا يحل له من هؤلاء الأربع المذكورات إلا من هاجرن معه، أما من لم يهاجرن معه فيحرمن عليه ﷺ، وهذا من خصائصه ﷺ في النكاح، وهي خصوصية تضييق.

عن أم هانئ قالت: «خطبني رسول الله ﷺ، فاعتذرت إليه بعذري، ثم أنزل الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ إلى ﴿ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ﴾ قالت: فلم أكن أحل له، ولم أكن ممن هاجر معه، كنت من الطلقاء»[1].

قال السعدي[2]: «﴿ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ﴾ قيد لحل هؤلاء للرسول، كما هو الصواب من القولين في تفسير هذه الآية، وأما غيره- عليه الصلاة والسلام- فقد علم أن هذا قيد لغير الصحة».

وقيل: إن قوله: ﴿ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ﴾ ليس قيدًا للحل، إنما هو فقط لبيان الأفضل.

وقال ابن كثير[3]: في كلامه على قوله تعالى: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ﴾ قال: «هذا عدل وسط بين الإفراط والتفريط، فإن النصارى لا يتزوجون المرأة إلا إذا كان الرجل بينه وبينها سبعة أجداد فصاعدًا، واليهود يتزوج أحدهم بنت أخيه وبنت أخته فجاءت هذه الشريعة الكاملة الطاهرة بهدم إفراط النصارى، فأباح بنت

(١) أخرجه الترمذي في تفسير سورة الأحزاب (٣٢١٤)، والطبري في «جامع البيان» (١٩/ ١٣٠-١٣١)، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» (٦/ ٣٣٧). ومعنى قوله: «قيد لغير الصحة» أي: أن هذا قيد للكمال.

(٣) في «تفسيره» (٦/ ٤٣٣).

العم والعمة، وبنت الخال والخالة، وتحريم ما فرطت فيه اليهود من إباحة بنت الأخ والأخت، وهذا بشع فظيع».

﴿وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا﴾.

﴿وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً﴾ الواو: عاطفة، و«امرأة»: معطوف على قوله: ﴿إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ﴾ الآية، أي: وأحللنا لك امرأة ﴿مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾.

فالمحللات له ﷺ أزواجه اللاتي آتاهن أجورهن، وما ملكت يمينه، وبنات عمه وبنات عماته وبنات خاله وبنات خالاته اللاتي هاجرن معه، وامرأة مؤمنة وهبت نفسها له إن أراد نكاحها فهي له حلال بدون صداق.

و«امرأة» نكرة في سياق الإثبات، والنكرة في سياق الإثبات لا تقتضي العموم في الأصل، لكنها هنا أفادت العموم.

أي: وأحللنا لك أيَّ امرأة مؤمنة وهبت نفسها لك؛ لأن المقام مقام امتنان، إذ لو قيدت بواحدة لم تكتمل بها المنة فلو وهبت أكثر من امرأة أنفسهن للنبي ﷺ وقبلهن حل له ذلك.

و﴿مُّؤۡمِنَةً﴾ صفة لـ«امرأة» وهي قيد يُـخرج غير المؤمنة، حتى ولو كانت كتابية، مما أباحه الله للأمة، فإنها لا تحل له ﷺ، وقد عُد هذا من خصائصه ﷺ: أنه لا يجوز له أن يتزوج بكتابية، بخلاف أمته، ولم يقع هذا منه فعلًا، فلم يتزوج كتابية، وهذه خصوصية تضييق في حقه ﷺ، كما أنها أيضًا خصوصية تكريم ورفعة لمقامه ﷺ؛ لأن الكتابية دون المؤمنة.

﴿إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾، ﴿إِن﴾: شرطية، ﴿وَهَبَتۡ﴾: فعل الشرط، وجواب الشرط محذوف، تقديره: إن وهبت نفسها للنبي فهي حل له.

والهبة: إعطاء الشيء والتبرع به وبذله بلا عوض ومن دون مقابل.

والمعنى: إن أعطت وبذلت نفسها للنبي ﷺ بغير عوض ومن دون ولي.

وأظهر في مقام الإضمار في قوله: ﴿لِلنَّبِيِّ﴾ للإشارة إلى أن العلة في إباحتها له كونه نبي الله؛ ولهذا قال بعد ذلك: ﴿خَالِصَةٗ لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ﴾ كما أن في ذلك إشارة إلى علو شأنه ﷺ ومكانته.

﴿إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا﴾ أظهر هنا أيضًا في مقام الإضمار فقال: ﴿إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ﴾ دون أن يقول: «إن أردت» إشارة وتنبيهًا على علو شأنه ﷺ ورفعة مكانته، وعظيم منزلته.

والضمير في قوله: ﴿يَسۡتَنكِحَهَا﴾ يعود على المرأة الواهبة نفسها له ﷺ، والمراد أنه ﷺ له الخيار في قبولها وعدمه، فإن أراد أن يستنكحها، أي: يقبل نكاحها ويتزوجها فله ذلك، وإن لم يرد نكاحها ردها.

وهذه الجملة ﴿إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا﴾ ذكرت مع الواهبة نفسها له ﷺ دون ما قبلها مما أحل الله له في الآية لرفع الحرج عنه ﷺ لو ردّها؛ لأن رده ﷺ لها من أشد الأمور عليه لما جبل عليه ﷺ من جليل الصفات وعظيم الأخلاق وشدة الحياء، كما قال أبوسعيد رضي الله عنه: «كان النبي ﷺ أشد حياءً من العذراء في خدرها»[1] فخلقه ﷺ يأبى أن يرد امرأة وهبت نفسها له ﷺ لما جبل عليه ﷺ من الخُلق والحياء، ولهذا رفع الله- عز وجل- عنه الحرج في ذلك، بجعل الخيار له في قبولها وعدمه، فقال: ﴿إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا﴾ أي: إن شئت فاقبلها وإن شئت فردها، ولا حياء في الدين.

﴿خَالِصَةً لَّكَ﴾: حال من امرأة.

والخالص من الشيء الذي لا يخالطه غيره، أي: أن هذا الحكم خاص بك لا يشاركك فيه أحد من الأمة، فلو أن امرأة وهبت نفسها لغيرك لم تحل له، حتى يعطيها شيئًا مع موافقة وليها وحضور الشهود.

فمن خصائصه ﷺ أن تهب المرأة نفسها له، ويتزوجها بلا مهر ولا ولي ولا شهود[2].

﴿مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ ﴿دُونِ﴾ بمعنى: سوى، أي: من سوى المؤمنين، فلا يحل أن تهب المرأة نفسها لأحد من المؤمنين، ولا يحل لهم الزواج منها بالهبة. وإذا لم يحل لها أن تهب نفسها لأحد من المؤمنين فيتزوجها، فمن باب أولى لا يحل لها أن تهب نفسها لأحد

(١) أخرجه البخاري في المناقب (٣٥٦٢)، ومسلم في الفضائل (٢٣٢٠)، وابن ماجه في الزهد (٤١٨٠).
(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٤٣٦).

من الكافرين؛ لأن الكافر لا يحل له الزواج بمؤمنة مطلقًا كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ﴾ [البقرة:٢٢١].

ويؤخذ من قوله: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ﴾ أن ما لم يدل الدليل على تخصيصه ﷺ به من الأحكام فهو وأمته به سواء.

كما يؤخذ من ذلك أن الله- عز وجل- يختص بأحكامه من يشاء، مع ما سبقت الإشارة إليه من علو شأنه ﷺ وعظيم منزلته.

عن أنس بن مالك- رضي الله عنه- قال: «جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ تعرض عليه نفسها، قالت: يا رسول الله، ألك بي حاجة، فقالت بنت أنس: ما أقل حياءها، واسوأتاه واسوأتاه. قال: «**هي خير منك رغبت في النبي ﷺ فعرضت عليه نفسها**»(١).

وعن أنس بن مالك- رضي الله عنه- أن امرأة أتت النبي ﷺ فقالت: «يا رسول الله، ابنة لي كذا وكذا، فذكرت من حسنها وجمالها، فآثرتك بها، فقال: قد قبلتها، فلم تزل تمدحها، حتى ذكرت أنها لم تصدع، ولم تشتك شيئًا قط، فقال: لا حاجة لي في ابنتك»(٢).

وعن سهل بن سعد الساعدي- رضي الله عنه- أن امرأة جاءت إلى رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله، إني قد وهبت نفسي لك، فقامت قيامًا طويلًا، فقام رجل فقال: يا رسول الله زوجنيها إن لم يكن لك بها حاجة، فقال رسول الله ﷺ: هل عندك من شيء تصدقها إياه؟ فقال: ما عندي إلا إزاري هذا، فقال رسول الله ﷺ: إن أعطيتها إزارك جلست لا إزار لك، فالتمس شيئًا. فقال: لا أجد شيئًا. فقال: التمس ولو خاتمًا من حديد، فالتمس، فلم يجد شيئًا. فقال له النبي ﷺ: هل معك من القرآن شيء؟ قال: نعم سورة كذا، وسورة كذا، لسور يسميها. فقال له رسول الله ﷺ: «**زوجتكها بما معك من القرآن**»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في النكاح-عرض المرأة نفسها (٥١٢٠)، والنسائي في النكاح (٣٢٤٩)، وابن ماجه في النكاح (٢٠٠١)، وأحمد (٣/ ٢٦٨).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ١٥٥).

(٣) أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٥٠٣٠)، ومسلم في النكاح-باب الصداق وجواز كونه تعليم قرآن وخاتم (١٤٢٥)، وأبوداود في النكاح (٢١١١)، والنسائي في النكاح (٣٢٨٠)، والترمذي في النكاح =

واختلف في الواهبات أنفسهن له ﷺ من هن؟

فعن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال في قوله: ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ قال: «هي ميمونة بنت الحارث»(١).

وعن عائشة- رضي الله عنها- قالت: «التي وهبت نفسها للنبي ﷺ: خولة بنت حكيم»(٢).

وروي عن محمد بن كعب وعمرو بن الحكم وعبدالله بن عبيدة، قالوا: «تزوج رسول الله ﷺ ثلاث عشرة امرأة، ست من قريش: خديجة وعائشة وحفصة، وأم حبيبة، وسودة، وأم سلمة، وثلاث من بني عامر بن صعصعة، وامرأتان من بني هلال ابن عامر: ميمونة بنت الحارث، وهي التي وهبت نفسها للنبي ﷺ، وزينب أم المساكين- امرأة من بني أبي بكر بن كلاب، من القرطاء، وهي التي اختارت الدنيا، وامرأة من بني الجون، وهي التي استعاذت منه، وزينب بنت جحش الأسدية، والسبيّتان: صفية بنت حيي بن أخطب، وجويرية بنت الحارث بن عمرو بن المصطلق الخزاعية»(٣).

قال ابن كثير(٤) بعد سياقه لهذا الأثر: «وفيه انقطاع، هذا مرسل، والمشهور أن زينب التي كانت تدعى أم المساكين هي: زينب بنت خزيمة الأنصارية، وقد ماتت عند النبي ﷺ في حياته».

وقال أيضا بعد ذكره بعض الأحاديث والآثار في الواهبات أنفسهن: «والغرض من هذا أن اللاتي وهبن أنفسهن من النبي كثير».

ولم يكن في عصمته ﷺ شيء من الواهبات أنفسهن؛ لأنه ﷺ لم يقبل واحدة منهن، عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «لم يكن عند رسول الله ﷺ امرأة وهبت

= (١١١٤)، وابن ماجه في النكاح (١٨٨٩)، وأحمد (٥/ ٣٣٦).

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٦/ ٤٣٥).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣١٤٤)-الأثر (١٧٧٢٨).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣١٤٣)-الأثران (١٧٧٢٦، ١٧٧٢٧).

(٤) في «تفسيره» (٦/ ٤٣٦).

نفسها له»[١].

قال ابن كثير[٢] بعد ذكر هذا عن ابن عباس: «أي: أنه لم يقبل واحدة ممن وهبت نفسها له، وإن كان ذلك مباحًا له ومخصوصًا به؛ لأنه مردود إلى مشيئته، كما قال تعالى: ﴿إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾ أي: إن اختار ذلك.

وقيل من الواهبات أنفسهن له: زوجه ميمونة بنت الحارث- رضي الله عنها- وهو مروي عن ابن عباس أيضًا»[٣].

والصحيح الأول.

ومع أنه ﷺ لم يقبل واحدة من الواهبات أنفسهن نجد أن بعض أزواجه يَغَرْنَ من كون المرأة تهب نفسها له ﷺ، فعن عائشة- رضي الله عنها: «أنها كانت تُعيّر النساء اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ، قالت: ألا تستحي المرأة أن تعرض نفسها بغير صداق؟ فأنزل الله- عز وجل: ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ﴾ [الأحزاب:٥١] قالت: إني أرى ربك يسارع لك في هواك»[٤].

وعنها قالت: «كنت أغار من اللاتي وهبن أنفسهن من النبي ﷺ، وأقول: أتهب امرأة نفسها؟ فلما أنزل الله ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ﴾ [الأحزاب:٥١] قلت: ما أرى ربك إلا يسارع في هواك»[٥].

وفي حديث أنس لما عرضت المرأة نفسها عليه ﷺ، فقالت ابنته: ما أقل حياءها. فقال ﷺ: «**هي خير منك رغبت في النبي ﷺ فعرضت عليه نفسها**»[٦].

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾، ﴿قَدْ﴾: للتحقيق و﴿مَا﴾: موصولة

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣١٤٤)-الأثر (١٧٧٢٩).

(٢) في «تفسيره» (٦/ ٤٣٦).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) أخرجه أحمد (٦/ ١٥٨).

(٥) أخرجه البخاري في تفسير سورة الأحزاب (٤٧٨٨)، ومسلم في الرضاع (١٤٦٤)، والنسائي في النكاح (٣٣٩٩).

(٦) سبق تخريجه.

بمعنى «الذي» تفيد العموم، أي: قد علمنا كل الذي فرضنا عليهم؛ لأن علمه- عز وجل- وسع كل شيء، كما قال عز وجل: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾ [طه:٩٨].

و﴿فَرَضْنَا﴾ بمعنى: أوجبنا. أي: قد علمنا كل الذي فرضناه وأوجبناه على المؤمنين من أحكام في أزواجهم، فهي معلومة لنا، وفرضناها عليهم عن علم أن المصلحة تقتضي فرضها عليهم دون سواهم.

من أمرهم بالنكاح وإيجابه عليهم- كما قال تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ [النور:٣٢].

ومن وجوب الصداق فيه، كما قال تعالى: ﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ [النساء:٤]، وقال تعالى: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ [النساء:٢٤].

ومن وجوب الولي، كما قال ﷺ: «**لا نكاح إلا بولي**»(١).

ومن وجوب الشاهدين، ومن تحريم الزيادة على أربع زوجات حرائر، وإباحة وطء ملك اليمين مطلقًا، كما قال تعالى: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء:٣].

ومن إباحة نكاح المؤمنات والكتابيات، كما قال تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [المائدة:٥].

ومن تحريم نكاح المشركات والكافرات، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ [الممتحنة:١٠].

إلى غير ذلك مما فرضه الله عز وجل وأوجبه، أو حرمه على المؤمنين في أنكحتهم.

﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ الواو: عاطفة، و«ما»: معطوفة على ﴿أَزْوَاجِهِمْ﴾ وهي اسم موصول بمعنى «الذي» يفيد العموم.

---

(١) أخرجه أبوداود في النكاح (٢٠٨٥)، والترمذي في النكاح (١١٠١، ١١٠٢)، وابن ماجه في النكاح (١٨٨١)، وأحمد (٤/ ٣٩٨، ٤١٣، ٤١٨)-من حديث أبي موسى الأشعري-رضي الله عنه-وصححه ابن حبان (١٢٤٣-١٢٤٥)، والحاكم (٢/ ١٦٩). والألباني.

والمراد بقوله هنا: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ من الإماء خاصة بقرينة قوله: ﴿فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾ فالكلام فيما فرضه الله من أحكام الزوجية، فلهم أن يطؤوا منهن ما شاؤوا من غير تحديد بعدد ومن غير قيد ولا شروط إلا الاستبراء، وأداء ما عليهم لهن من حقوق ملك اليمين.

وإنما أضاف الملك إلى اليمين، وهي اليد اليمنى؛ لأنها الآخذة المعطية، كما قال ﷺ: «**حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه**»(١). وفي هذا تشريف لها.

والمعنى: وما ملكوه بأنفسهم؛ لأن اليد وحدها لا تملك، وليس هذا من باب المجاز، كما يقول بعضهم، بل السياق يدل على هذا المعنى بلا إشكال.

وسواء ملكوا هذه الإماء بطريق السبي أو الشراء، أو الهبة، أو بالإرث أو غير ذلك؛ لعموم قوله تعالى: ﴿**وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ**﴾ [المؤمنون:٥، ٦]، [المعارج:٢٩، ٣٠].

وذلك بعد استبرائها بحيضة أو بوضع الحمل إن كانت حاملًا؛ لقوله ﷺ في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: «**لا توطأ حامل حتى تضع ولا حائل حتى تحيض حيضة**»(٢).

﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ ﴿لِكَيْلَا﴾ متعلق بما سبق، إما بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا﴾ وما بعده، وإما بقوله ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

واللام في قوله: ﴿لِكَيْلَا﴾: للتعليل، و«كي»: مصدرية، و«لا»: نافية.

والخطاب للرسول ﷺ، و﴿حَرَجٌ﴾ بمعنى ضيق ومشقة في النكاح.

أي: لكيلا يكون عليك ضيق ومشقة في هذا النكاح، وذلك أن النساء كن يأتين يهبن أنفسهن له، ويعرضن أنفسهن عليه ﷺ، فإذا لم تحل له الواهبة نفسها كان عليه ضيق في ذلك من وجهين: إن رغب فيها كان عليه ضيق أن لا يتزوجها، وإن لم يرغب فيها كان

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه مسلم في الرضاع (١٤٥٦)، وأبوداود في النكاح (٢١٥٧)، والنسائي في النكاح (٣٣٣٣)، والترمذي في النكاح (١١٣٢).

عليه ضيق وحرج في ردها وقد جادت بنفسها له، فأحلها الله- عز وجل- له، وجعل له الخيار في ذلك، فلا يلام على الزواج بها ولا على ردها، فالله جعل له ذلك كله.

وأيضًا لكيلا يكون عليك ضيق ومشقة لو حصرت في أربع زوجات، وذلك لما في كثرة أزواجه من المصالح العظيمة لهن، ولأهلهن، وللأُمة كلها، فذلك مصلحة لهن ظاهرة، وشرف لأهلهن، ومصلحة تفوق ذلك للمسلمين جميعًا، فهن اللاتي نقلن سنته ﷺ وسيرته الخاصة إلى الناس- رضي الله عنهن.

وأيضًا لكيلا يكون عليك ضيق ومشقة بأن يقال: كيف أحل لنفسه الواهبة والتسع دون الأمة؟ فبين الله- عز وجل- أن الأمر له سبحانه في ذلك فهو الذي أحل لرسوله ﷺ ما أحل، وخصه بما خصه به، وفرض على المؤمنين ما فرض، وأحل لهم ما أحل بعلم منه- عز وجل- كما قال تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ﴾.

فالعلة في إحلال الله- عز وجل- لنبيه ﷺ ما أحل، وتخصيصه بذلك من دون المؤمنين دفع الحرج والضيق والمشقة عنه ﷺ.

كما أنه أيضًا لا حرج عليه، ولا على أمته فيما فرض الله له في اتباعه والاقتداء به؛ لأن لها به الأسوة، كما قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب:٢١] إلا ما دل الدليل على خصوصيته بذلك.

﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾﴾ «كان»: مسلوبة الزمان تفيد تحقيق اتصاف اسمها بخبرها في جميع الأوقات، أي: كان الله وما زال غفورًا رحيمًا.

و﴿غَفُورًا﴾ على وزن «فعول» صفة مشبهة، أو صيغة مبالغة، يدل على سعة مغفرته- عز وجل- قال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾﴾ [الرعد:٦]، والمغفرة: ستر الذنوب عن الخلق، والتجاوز عن العقوبة.

﴿رَّحِيمًا﴾ على وزن «فعيل» صفة مشبهة، أو صيغة مبالغة، يدل على سعة رحمته، كما قال عز وجل: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ [الأنعام:١٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف:١٥٦]، ورحمته- عز وجل- تنقسم إلى قسمين: رحمة هي صفة من صفاته

الذاتية الثابتة له عز وجل.

ورحمة فعلية يوصلها إلى من شاء من خلقه، كما قال عز وجل: ﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ﴾ [العنكبوت:٢١]. وتنقسم إلى قسمين:

رحمة عامة لجميع الخلق المؤمن والكافر والبر والفاجر والناطق والبهيم في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فما هم فيه من نعم الله- تعالى- وأما في الآخرة فالعدل في حسابهم حتى إنه ليقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء كما قال ﷺ: «**لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء**»(١).

ورحمة خاصة بالمؤمنين بتوفيقهم للطريق المستقيم في الدنيا، وحفظهم ورعايتهم، وتوفيقهم لطريق الجنة وإدخالهم إياها في الآخرة نسأل الله- تعالى- من فضله، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣].

ومن مقتضى رحمته- عز وجل- الإحسان إلى خلقه والإنعام عليهم، وليست هي الإحسان والإنعام كما يقول نفاة الصفات.

فبالمغفرة التخلية وزوال المرهوب، وبالرحمة التحلية وحصول المطلوب. نسأل الله التوفيق.

الفوائد والأحكام:

١- تخصيصه ﷺ من بين الأنبياء بندائه بوصف النبوة تشريف وتكريم له وبيان؛ لفضله على سائر الأنبياء؛ لقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ كما ناداه- عز وجل- بوصف الرسالة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة:٦٧]، وقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ﴾ [المائدة:٤١].

٢- إثبات العظمة لله- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَحْلَلْنَا﴾ بضمير العظمة.

٣- أن التحليل والتحريم إلى الله- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ﴾.

٤- وجوب المهور للنساء؛ لأن الله سماها أجورًا؛ لأنها في مقابل الاستمتاع بهن؛ لقوله

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٨٢)، والترمذي في صفة القيامة (٢٤٢٠)-من حديث أبي هريرة-رضي الله عنه.

تعالى: ﴿ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ﴾.

٥- أن الله- عز وجل- أحل لنبيه الزواج بأكثر من أربع نسوة إكرامًا له ﷺ، ولحكم بالغة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ﴾.

والمراد بهن التسع اللاتي اجتمعن في عصمته ﷺ.

٦- أن الله- عز وجل- أباح لنبيه ﷺ ما ملكت يمينه من الإماء، يملك رقابهن ومنافعهن ومن ذلك الاستمتاع بمنفعة البضع مما أفاءه الله عليه في قتال الكفار؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ﴾.

وكذا ما ملكه بغير السبي كمارية القبطية التي أهداها إليه المقوقس.

وإنما خص الله في الآية ما جاء بطريق الفيء؛ لأن هذا هو السبب المشروع للرق.

وهكذا أمته ﷺ أسوة به في إباحة ملك اليمين لهم؛ ولهذا قال بعده: ﴿قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾.

٧- إثبات الرق؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ﴾

٨- فضل اليمين؛ لأن الله أضاف الملك إليها فقال: ﴿وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ﴾، ﴿وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾.

٩- أن الطريق المشروع للرق هو السبي وأخذ الفيء من الكفار في الحرب بينهم وبين المسلمين؛ لإعلاء كلمة الله- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ﴾.

فلا يجوز الاسترقاق بغير هذا السبب، فلا يجوز سرقة الأطفال وبيعهم على أنهم أرقاء.

ولا يجوز للناس بيع أولادهم عند الحاجة على أنهم أرقاء، فهؤلاء كلهم أحرار.

١٠- أنه لا يباح من الأقارب من النساء إلا أربع: بنات العم، وبنات العمة، وبنات الخال، وبنات الخالة، فما عداهن من الفروع والأصول لا يحل نكاحهن؛ لقوله تعالى: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ﴾.

١١- أنه لا يحل له ﷺ من قراباته المذكورة إلا من هاجرن معه، وهذه خصوصية من خصائصه ﷺ ولكنها خصوصية تضييق.

١٢- لا تحل غير المؤمنة للنبي ﷺ حتى ولو كانت كتابية؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً﴾ وهذه أيضًا خصوصية تضييق.

وفيها أيضًا تكريم له ﷺ؛ لأن الكتابية دون المؤمنة.

١٣- إباحة الواهبة نفسها للنبي ﷺ، يتزوجها بلا مهر ولا ولي ولا شهود، خصوصية خصه الله عز وجل بها؛ لقوله ﷺ: ﴿وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ خَالِصَةٗ لَّكَ﴾.

١٤- علو منزلة النبي ﷺ وعظمها عند ربه- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا﴾ فأظهر في مقام الإضمار وفي هذا دلالة على تعظيم الله- عز وجل- لنبيه ﷺ.

١٥- أن النبي ﷺ له الخيار في قبول ورد من تهب نفسها له؛ لقوله تعالى: ﴿إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا﴾ وفي هذا رفع للحرج عنه ﷺ في حال قبوله أو رده لها؛ لأن الله جعل ذلك له فلا يلام على قبولها؛ لأن الله أباح ذلك له ولا على ردها؛ لأن الله خيره في ذلك.

١٦- إثبات الإرادة للنبي ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا﴾.

وفي هذا رد على الجبرية الذين يقولون إن العبد مجبور على أفعاله لا اختيار له.

١٧- لا يحل للمرأة أن تهب نفسها لأحد من المؤمنين غير النبي ﷺ، ولا يحل لأحد منهم الزواج منها بالهبة؛ لقوله تعالى: ﴿خَالِصَةٗ لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ﴾.

وقد اختلف أهل العلم هل يصح النكاح بلفظ الهبة، كأن يقول الولي: وهبتك ابنتي على صداق قدره كذا وكذا، ونحو ذلك، أو لابد أن يكون النكاح بلفظ التزويج، أو الإنكاح، والظاهر- والله أعلم- أن النكاح يصح وينعقد بكل ما دل عليه من عبارات إذا تمت شروطه من فرض الصداق، ووجود الولي والشاهدين، وغير ذلك.

١٨- أن ما لم يدل الدليل على تخصيصه ﷺ به من الأحكام فهو وأمته فيه سواء وهذا يفهم من قوله: ﴿خَالِصَةٗ لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ﴾.

١٩- أنه- عز وجل- يختص بأحكامه من يشاء لا يسأل عما يفعل؛ لقوله تعالى: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

٢٠- تقرير علمه عز وجل بما فرضه على المؤمنين من أحكام النكاح وملك اليمين ووجوب مراعاتها، كما شرعها الله- عز وجل- وبينها؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾.

٢١- رفع الحرج عن النبي ﷺ والضيق والشدة في النكاح؛ لهذا أباح الله له الواهبة نفسها له وجعل الخيار له في قبولها وردها كما أباح له الزواج بأكثر من أربع زوجات توسيعًا عليه ﷺ، ولحكم عظيمة؛ لقوله تعالى: ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾.

٢٢- إثبات العلة والحكمة في أفعال الله- تعالى، والرد على نفاتها من أهل البدع؛ لقوله تعالى: ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾.

٢٣- إثبات صفة المغفرة الواسعة لله عز وجل فهو يستر ذنوب التائبين من عباده، ويتجاوز عنهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾.

٢٤- إثبات صفة الرحمة الواسعة لله عز وجل؛ رحمة ذاتية ثابتة له- عز وجل- ورحمة فعلية يوصلها من شاء من خلقه؛ رحمة عامة لجميع الخلق، ورحمة خاصة بالمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿رَّحِيمًا﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿۞ تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾﴾.

قوله: ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾ قرأ ابن كثير وأبوعمرو وابن عامر ويعقوب وأبوبكر «ترجئ» بهمزة مضمومة وقرأ الباقون: ﴿تُرْجِي﴾ بغير همز(١).

ومعنى القراءتين واحد، ومعنى ﴿تُرْجِي﴾: تؤخر، و﴿مَن﴾: اسم موصول، بمعنى الذي ﴿مِنْهُنَّ﴾ أي: من أزواجك.

والمعنى: تؤخر من تشاء من أزواجك، فلا تقسم لها.

﴿وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾ الواو: عاطفة، و﴿وَتُـْٔوِيٓ﴾ بمعنى: تضم، أي: وتضم إليك من تشاء من أزواجك فتقسم لها.

أي: فلك الخيار في القسم وتركه لمن شئت من أزواجك، وفي هذا توسعة عليه ﷺ.

ويدل على هذا القول قوله في الآية قبلها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ وقوله بعد ذلك: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّۚ﴾.

ويدل عليه قول عائشة- رضي الله عنها: «أن رسول الله ﷺ كان يستأذن في يوم المرأة منا بعدما أنزلت هذه الآية: ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَۚ﴾ فقيل لها: ما كنت تقولين؟ فقالت: كنت أقول: إن كان ذاك إليَّ، فإني لا أريد يا رسول الله أن أوثر عليك أحدًا»(٢).

ومع هذا كان صلوات الله وسلامه عليه يقسم لهن، وإن لم يكن القسم عليه واجبًا بدليل هذه الآية.

---

(١) انظر: «الغاية في القراءة العشر» ص(٣٦٤).

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة الأحزاب (٤٧٨٩)، ومسلم في الطلاق (١٤٧٦)، وأبوداود في النكاح (٢١٣٦).

ويحتمل أن المعنى ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ﴾ أي: تؤخر التي تشاء من الواهبات أنفسهن لك فلا تقبلها، بل تردها.

﴿وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾ فتقبلها وتتزوجها، فلك الخيار في قبول ورد من شئت من الواهبات أنفسهن لك، وفي هذا أيضًا توسعة عليه ﷺ ورفع للحرج عنه، كما قال تعالى: ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾.

ويدل على هذا قول عائشة- رضي الله عنها: «كنت أغار من اللاتي وهبن أنفسهن من النبي ﷺ، وأقول: أتهب امرأة نفسها، فلما أنزل الله: ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ قلت: ما أرى ربك إلا يسارع في هواك»[(١)].

قال ابن كثير[(٢)] بعد أن ذكر حديث عائشة- رضي الله عنها- الدال على عدم وجوب القسم، وحديثها هذا الذي يقتضي أن الآية نزلت في الواهبات أنفسهن قال: «ومن ههنا اختار ابن جرير أن الآية عامة في الواهبات، وفي النساء اللاتي عنده أنه مخير فيهن، إن شاء قسم، وإن شاء لم يقسم، وهذا الذي اختاره حسن جيد قوي، وفيه جمع بين الأحاديث».

﴿وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ﴾ الواو: عاطفة، و«من»: اسم موصول بمعنى «الذي»، ومعنى ﴿ٱبْتَغَيْتَ﴾: طلبت وأردت من أزواجك، فقسمت لها، ﴿مِمَّنْ عَزَلْتَ﴾ ممن لم تقسم لها.

﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ الجناح: الحرج والضيق والإثم.

أي: فلا حرج عليك ولا تضييق ولا إثم بأن تعود إلى القسم لمن لم تقسم لها، كما أنه لا حرج عليك ولا تضييق ولا إثم في ترك القسم لمن قسمت لها.

والمعنى: أن له الخيار في القسم وتركه لمن شاء من أزواجه فيقسم لهذه ويترك هذه، ويعود للقسم لمن لم يقسم لها، ويترك القسم لمن كان قد قسم لها، فهو بالخيار في ذلك كله.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) في «تفسيره» (٦/ ٤٣٧).

ويحتمل أن المعنى ﴿وَمَنِ ٱبۡتَغَيۡتَ﴾ أي: طلبت وأردت من الواهبات أنفسهن لك ﴿مِمَّنۡ عَزَلۡتَ﴾ أي: ممن عزلت منهن ورددتها ولم تقبلها، بأن بدا لك رغبة فيها بعد عزلها وردها ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكَۚ﴾ أي: فلا حرج ولا تضييق ولا إثم عليك في طلب وقبول من رددتها بادئ الأمر.

فخير الله- عز وجل- رسوله ﷺ- بين القسم وعدمه بعد أن كان واجبًا عليه، كما هو الحال بالنسبة للأمة، كما قال عز وجل: ﴿فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ٣﴾ [النساء:٣]، وأن له إن اختار عدم القسم أن يعود فيقسم لمن لم يقسم لها، وليس لها حق أن تمتنع من القسم بسبب أنه اختار بادئ الأمر عدم القسم لها؛ لأن الله خيره في ذلك، إلا أنه لما جبل عليه من كريم الأخلاق كان يقسم لهن، وإن لم يكن القسم واجبًا في حقه، ويقول: «**اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك**»(١) يعني المحبة والميل القلبي ونحو ذلك.

كما خيَّره الله- عز وجل- في قبول من تهب نفسها له أو ردها، وأن له أن يعود إلى قبول من رد منهن وفي ذلك كله توسعة له ﷺ ورفع للحرج عنه.

ويؤخذ من قوله: ﴿وَمَنِ ٱبۡتَغَيۡتَ مِمَّنۡ عَزَلۡتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكَۚ﴾ أنه يجوز للإنسان أن يرجع بطلب حقه بعد إسقاطه بشرط أن يكون الحق متجددًا، كما إذا أسقطت المرأة حقها من زوجها ثم بدا لها أن تأخذ حقها، فيجب عليه إعطاؤها حقها فيما يستقبل؛ لأنه متجدد، أما ما مضى فليس لها المطالبة به وقد أسقطته؛ لأنه قد مضى ولا يتجدد.

وفي قوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكَۚ﴾ دليل على أنه مكلف كغيره من الأمة، إذ لو لم يكن مكلفًا ما احتيج إلى نفي الجناح عنه، وفي هذا رد على غلاة الصوفية الذين يقولون إن العبد قد يصل إلى منزلة يرفع عنه فيها التكليف، وهذا من تخريفاتهم إذ لو كان ذلك لأحد لكان لرسول الله ﷺ سيد ولد آدم وأفضل البشرية على الإطلاق.

﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعۡيُنُهُنَّ﴾ الإشارة للتخيير له ﷺ بين أن يرجي من يشاء من أزواجه، ويؤوي إليه من يشاء منهن.

---

(١) سيأتي تخريجه.

وهذه الجملة وما بعدها تعليل لما سبق من تخيير الله- عز وجل- لرسوله ﷺ بين أن يرجي من أزواجه من شاء ويؤوي إليه منهن من شاء.

وفي هذا دلالة على أن أفعال الله- عز وجل- وأحكامه الكونية والشرعية معللة، أي: أنه- عز وجل- يفعل ويحكم لحكمة سواء علمنا تلك الحكمة أو لم نعلمها، وفي هذا رد على المبتدعة القائلين بأن أفعاله وأحكامه ليست مبنية على الحكمة والعلة، وإنما يفعل ويحكم بمجرد المشيئة تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا.

﴿أَدْنَىٰٓ﴾ أي: أقرب.

﴿أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ﴾ تقر: مأخوذ من القرار، وهو السكون، أو من القر، وهو البرد، أو منهما جميعًا: أي من القرار والقر. يقال: أقر الله عينك، أو قرت عينك- بمعنى سكنت أو بردت؛ لأن العين إذا بردت دل ذلك على الفرح والسرور، فإذا دمعت كان دمعها باردًا؛ بخلاف ما إذا حميت العين فإن ذلك يدل على الحزن، فيكون دمعها حارًا.

﴿وَلَا يَحْزَنَّ﴾ معطوف على قوله ﴿تَقَرَّ﴾ والحزن: ضد الفرح والسرور.

﴿وَيَرْضَيْنَ﴾ معطوف أيضًا على ﴿تَقَرَّ﴾.

واعترض بجملة ﴿وَلَا يَحْزَنَّ﴾ بين قوله: ﴿تَقَرَّ﴾ وقوله: ﴿وَيَرْضَيْنَ﴾؛ لأن صلة جملة ﴿وَلَا يَحْزَنَّ﴾ بقوله: ﴿تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ﴾ أقوى؛ لأن قوله: ﴿وَلَا يَحْزَنَّ﴾ لإثبات كمال ضده وهو قرار العين.

﴿بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾ «ما»: اسم موصول، أي: بالذي آتيتهن، أي: أعطيتهن، وهي تنصب مفعولين، الأول: الهاء، والثاني محذوف والتقدير: بالذي أعطيتهن من التخيير في القسم وعدمه.

﴿كُلُّهُنَّ﴾: توكيد للفاعل في ﴿وَيَرْضَيْنَ﴾ ولهذا جاء مرفوعًا، ولو كان توكيدًا للهاء في ﴿ءَاتَيْتَهُنَّ﴾ لكان منصوبًا.

والمعنى: ذلك التخيير من الله- عز وجل- لك في القسم وعدمه أقرب أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما أعطيتهن كلهن؛ لأنهن إذا علمن أن التخيير في ذلك من الله- عز وجل- قرت أعينهن ولم يحزن ورضين بحكم الله- عز وجل- بخلاف ما لو كان هذا من النبي ﷺ بلا تخيير من الله- عز وجل- له فقد يكون في نفوسهن بعض

الشيء، وأن هذا ليس من شرع الله، ففي هذا التخيير من الله- عز وجل- لنبيه ﷺ مراعاة شعور أزواجه ﷺ وتطييب خواطرهن وتطمين قلوبهن، وأن الإسلام بأحكامه العادلة وتعاليمه السمحة جاء بما يشرح الصدور ويطمئن القلوب ويسعدها في دينها ودنياها وآخرتها.

قال ابن كثير[1]: «﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾ أي: إذا علمن أن الله قد وضع عنك الحرج في القسم، إن شئت قسمت وإن شئت لم تقسم لا جناح عليك في أي ذلك فعلت، ثم مع هذا أنت تقسم لهن اختيارًا منك لا أنه على سبيل الوجوب».

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ ﴿مَا﴾: اسم موصول يفيد العموم، والقلوب: جمع قلب، وهي محل العقول والإرادات الباطنة وعليها مدار صلاح الأعمال وفسادها، ومحلها الصدور. قال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف:١٧٩]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج:٤٦].

وقال ﷺ: «**ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، إذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**»[2].

ولا ينافي كون القلب في الصدر أن يكون بينه وبين المخ والدماغ اتصال كما قال بعض المحققين، وأثبت ذلك علم الطب.

والمعنى: والله يعلم الذي في قلوبكم كله لا تخفى عليه منه خافية، كما قال عز وجل: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾ [آل عمران:١٥٤].

أي: بما تخفيه الصدور والقلوب من المكنونات، ومن ذلك الميل إلى بعض النساء دون بعض مما قد لا يستطيعه الزوج، كما قال عز وجل: ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ﴾ [النساء:١٢٩].

وكما جاء في حديث عائشة- رضي الله عنها- قالت: كان رسول الله ﷺ يقسم

---

(١) في «تفسيره» (٦/ ٤٣٧).

(٢) سبق تخريجه.

فيعدل، ويقول: «**اللهم هذا قَسْمِي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك**»(١).

قال أبوداود بعد قوله: «**فلا تلمني فيما تملك ولا أملك**»: «يعني القلب».

فقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ﴾ من باب بيان العفو والتجاوز، والعذر عما لا يملكونه، ولا يستطيعونه.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمٗا﴾ هذا كالتعليل لما قبله. و«كان»: مسلوبة الزمان، أي: كان وما زال عليمًا حليمًا- سبحانه وتعالى.

وقوله ﴿عَلِيمًا﴾، أي: ذا العلم الواسع المحيط بالأشياء كلها في أطوارها الثلاثة قبل الوجود وبعد الوجود وبعد العدم، كما قال موسى عليه السلام لما سئل عن القرون الأولى: ﴿قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ۝٥٢﴾ [طه:٥٢].

فهو- عز وجل- يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، يتعلق علمه بالواجب وهو ما يستحقه من صفات الكمال، وبالمستحيل الوقوع كما في قوله تعالى: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ [الأنبياء:٢٢]، وبالممكن الوقوع وهو سائر المعلومات كأفعال العباد وأقوالهم وغير ذلك.

والعلم في الأصل: إدراك الأشياء على ما هي عليه إدراكًا جازمًا.

﴿حَلِيمٗا﴾، أي: ذا الحلم الواسع، فلا يعاجل مَن عصاه بالعقوبة، بل يمهل ولا يهمل، قال ابن القيم(٢):

وهو الحليم فلا يعاجل عبده بعقوبة ليتوب من عصيان

الفوائد والأحكام:

١- التوسعة من الله عز وجل على النبي ﷺ، بأن جعل الله الخيار له في القسم وتركه لمن

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ١٤٤)، وأبوداود في النكاح-باب في القسم بين النساء (٢١٣٤)، والنسائي في عشرة النساء-ميل الرجل إلى بعض نسائه دون بعض (٣٩٤٣)، والترمذي في النكاح-ما جاء في التسوية بين الضرائر (١١٤٠)، وابن ماجه في النكاح-القسمة بين النساء (١٩٧١).

قال ابن كثير (٦/ ٤٣٨):«وإسناده صحيح ورجاله كلهم ثقات».

(٢) في «النونية» ص(١٤٨).

شاء من أزواجه؛ لقوله تعالى: ﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ﴾.

ومع هذا فقد كان ﷺ يقسم لهن كرمًا منه وتفضلًا- وإن لم يكن القسم عليه واجبًا.

٢- تخصيصه ﷺ دون الأمة في قبول نكاح الواهبات أنفسهن له أو ردهن توسعة عليه ورفعًا للحرج عنه؛ لقوله تعالى: ﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ﴾.

٣- إباحة الله- عز وجل- لنبيه ﷺ أن يعود فيقسم لمن اختار أولًا عدم القسم لهن من زوجاته؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ وذلك من تمام تخيير الله- عز وجل- له ﷺ والتوسعة عليه ودفع الحرج عنه.

٤- إباحته- عز وجل- له ﷺ نكاح من رد من الواهبات أنفسهن إن بدا له رغبة فيهن؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾.

٥- أنه ﷺ مكلف كغيره من الأمة؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾.

وفي هذا الرد على مَن يزعم من غلاة الصوفية أن الإنسان قد يصل إلى منزلة ترفع عنه فيها التكاليف ولو كان ذلك الأمر لأحد لكان للنبي ﷺ.

٦- أن أفعال الله- عز وجل- وأحكامه الكونية والشرعية كلها لحكم عظيمة؛ لقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾.

٧- أن في هذا التخيير للنبي ﷺ مراعاة لشعور أزواجه وتطييبًا لخواطرهن وتطمينًا لقلوبهن إذا علمن أن التخيير من الله عز وجل.

٨- علم الله- عز وجل- بما في القلوب من الأسرار والمكنونات والمعتقدات؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ وعلمه بما ظهر أولى.

وفي هذا إشارة إلى أن ما في القلب مما لا يملكه الإنسان لا يؤاخذ عليه، كالميل والمحبة؛ ولهذا قال ﷺ: «**اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تؤاخذني فيما تملك ولا أملك**»(١).

٩- إثبات صفة العلم الواسع لله- عز وجل- أزلًا وأبدًا المحيط بكل شيء؛ لقوله

(١) سبق تخريجه.

تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾.

١٠- إثبات صفة الحلم الواسع لله- عز وجل- وأنه سبحانه لا يعاجل من عصاه بالعقوبة؛ لقوله تعالى: ﴿حَلِيمًا﴾.

*　　*　　*

قال الله تعالى: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا ﴿٥٢﴾﴾.

قوله: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ﴾ قرأ أبو عمرو ويعقوب بتاء التأنيث: «لا تحل». وقرأ الباقون: ﴿لَّا يَحِلُّ﴾(١)، وذكَّر الفعل مع أن الفاعل مؤنث لوجود الفصل بقوله: ﴿لَكَ﴾.

ومعنى ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ﴾ أي: تحرم عليك النساء، فالقرآن تارة يعبر بالتحريم، وتارة بنفي الحل.

﴿مِنۢ بَعۡدُ﴾ أي: من بعد أزواجك الموجودات، وهن التسع اللاتي اجتمعن في عصمتك، واللاتي خيرتهن بأمر الله فاخترن الله ورسوله والدار الآخرة، فلا يجوز لك أن تتزوج غيرهن ولا أن تزيد عليهم.

ويحتمل أن المعنى: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ﴾ أي: تحرم عليك النساء من بعد اللاتي ذكرن في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةٗ لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ﴾ [الأحزاب: ٥٠].

وبهذا قال جماعة من مفسري السلف، واختاره الطبري(٢).

وعلى هذا فيحرم عليه ما لم يذكر في هذه الآية من النساء، ومن ذلك نساء أهل الكتاب وهن حلال لأمته.

قال ابن كثير(٣) بعدما ذكر اختيار الطبري: «وهذا الذي قاله جيد، ولعله مراد كثير ممن حكينا عنه من السلف، فإن كثيرًا منهم رُوِيَ عنه هذا وهذا ولا منافاة، والله أعلم».

---

(١) انظر: «النشر» (٢/ ٢٤٩)، «الغاية» ص(٢٦٥).

(٢) انظر: «جامع البيان» (١٩/ ١٤٦-١٥٠).

(٣) في «تفسيره» (٦/ ٤٣٨-٤٣٩).

ويظهر الفرق بين القولين فيما لو قدر فرضًا أن أزواجه توفين في حياته ﷺ أو بعضهن، فليس له أن يتزوج سوى هؤلاء اللاتي أحل الله له بقوله: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾.

﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ الواو: عاطفة، و«لا»: لتأكيد النفي.

و﴿تَبَدَّلَ﴾ وإن كانت بصورة الفعل الماضي، فإن أصلها فعل مضارع؛ لأن أصلها «تتبدل»، فأدغمت إحدى التاءين في الأخرى، ولهذا دخلت عليه ﴿أَن﴾ ونصبته، ولو كان فعلًا ماضيًا ما صح دخولها عليه ولا نصبها له.

ومعنى: ﴿تَبَدَّلَ﴾: تستبدل، أي: ولا يحل لك أن تستبدل أزواجك اللاتي معك بأزواج أخر، بأن تطلق اللاتي معك وتستبدلهن بغيرهن.

وهل له أن يطلق من شاء منهن دون استبدال. قال ابن كثير(١): «فإن الآية إنما دلت على أنه لا يتزوج بمن عدا اللواتي في عصمته، وأنه لا يستبدل بهن غيرهن، ولا يدل ذلك على أنه لا يطلق واحدة منهن من غير استبدال».

﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ الواو: للحال، أي: ولو في حال إعجاب الأزواج الأخر لك بحسنهن وجمالهن، فهذا لا يبرر لك الزواج بغير أزواجك اللاتي معك، وهن اللاتي اجتمعن في عصمته ﷺ: عائشة وحفصة وأم سلمة وأم حبيبة، وزينب بنت جحش وميمونة وجويرية، وسودة، وصفية. حتى لو ماتت واحدة منهن أو أكثر في حياته ﷺ لم يجز له أن يستبدلها بغيرها، وهذا من الجزاء العاجل من الله لهن لَـمَّا اخترن الله ورسوله والدار الآخرة، وآثرن البقاء معه ﷺ مع شظف العيش، فحرم الله عليه أن يزيد عليهن، أو يستبدل بهن غيرهن.

قال السعدي(٢): «وهذا شكر من الله الذي لم يزل شكورًا لزوجات رسوله، رضي الله عنهن، حيث اخترن الله ورسوله والدار الآخرة أن رحمهن، وقصر رسوله عليهن،

---

(١) في «تفسيره» (٦/ ٤٣٩).

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» (٦/ ٢٤٠).

فحصل بهذا أمنهن من الضرائر، ومن الطلاق؛ لأن الله قضى أنهن زوجاته في الدنيا والآخرة، لا يكون بينه وبينهن فرقة».

ومن هنا نعلم أنه ﷺ حصر في العدد، وهو تسع زوجات، وفي المعدود وهن التسع المذكورات، بخلاف أمته ﷺ فقد حصروا في العدد أربع زوجات ولم يحصروا في المعدود، فللإنسان إذا كان بعصمته أربع زوجات أن يطلق من شاء منهن ويستبدلها بغيرها، وكذا لو ماتت واحدة منهن فله أن يستبدلها بغيرها.

فقد وسع عليه ﷺ من جهة جواز الزواج بتسع زوجات لمصالح معلومة وضيق عليه من جهة عدم جواز استبدالهن بغيرهن. كما حصرت الأمة على أربع زوجات وفي ذلك الكفاية، ووسع عليهم في جواز استبدالهن بغيرهن.

﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾، ﴿إِلَّا﴾أداة استثناء بمعنى «لكن»، أي: لكن ما ملكت يمينك من الإماء فهن حلال لك من غير حصر بعدد معين؛ لأن الإماء ليس لهن حق في القسم كالحرائر، فلا يُثرن غيرة الزوجات، وإن كان لهن حق المملوك على مالكه كما هو معلوم.

وأضاف الملك إلى اليمين مع أن المعنى: إلا ما ملكت أنت؛ لشرف اليمين فهي الآخذة والمعطية، كما في الحديث: «**حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه**»[(١)].

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾، أي: حفيظًا ومطلعًا وشهيدًا على كل شيء، خفيًّا كان أو جليًّا، ظاهرًا أو باطنًا، كبيرًا أو صغيرًا، خاصًّا بالرسول ﷺ أو عامًّا له وللأمة، مما يوجب على العبد مراقبة الله- عز وجل- في جميع أحواله الظاهره والباطنة.

الفوائد والأحكام:

١- تحريم الله- عز وجل- على نبيه ﷺ النساء غير أزواجه التسع اللاتي اجتمعن في عصمته وأنه لا يجوز أن يتبدل بهن غيرهن جزاء لهن- رضي الله عنهن- حيث اخترن الله ورسوله والدار الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن الله رفع

---

(١) سبق تخريجه.

هذا التحريم.

ويحتمل أن المراد بقوله: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ﴾ أي من بعد اللاتي ذكرهن الله- عز وجل- في قوله: ﴿إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ الآية.

وعلى هذا فيكون المحرم عليه الزواج بغير من ذُكرن في هذه الآية، وهن التسع اللاتي في عصمته، والأربع بعدهن بنات العم وبنات العمات وبنات الخال وبنات الخالات، ومن وهبت نفسها له.

عن عائشة- رضي الله عنها- قالت: «ما مات رسول الله ﷺ حتى أحل الله له النساء»(١).

وعن أم سلمة- رضي الله عنها- قالت: «لم يمت رسول الله ﷺ حتى أحل الله له أن يتزوج من النساء ما شاء إلا ذات محرم، وذلك قول الله- عز وجل: ﴿تُرۡجِي مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ وَتُـٔۡوِيٓ إِلَيۡكَ مَن تَشَآءُ﴾»(٢).

قال ابن كثير(٣) بعد ذكر ما رُوي عن أم سلمة- رضي الله عنها: «فجعلت هذه ناسخة للتي بعدها في التلاوة كآيتي عدة الوفاة في البقرة، الأولى ناسخة للتي بعدها»(٤).

وقال أيضًا حكاية عن بعض المفسرين من السلف: «ثم إن الله تعالى رفع عنه الحرج في ذلك ونسخ حكم هذه الآية، وأباح له التزوج، ولكن لم يقع منه بعد ذلك

(١) أخرجه النسائي في النكاح (٣٢٠٤)، والترمذي في تفسير سورة الأحزاب (٣٢١٦)، والدارمي في النكاح (٢٢٤١). وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح» وصححه الألباني.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣١٤٥)-الأثر (١٧٧٣٧).

(٣) في «تفسيره» (٦/ ٤٣٨).

(٤) جمهور العلماء على أن آيتي عدة الوفاة الأولى منهما ناسخة للتي بعدها، واختار بعض المحققين كابن تيمية وابن كثير والسعدي أنهما محكمتان. انظر: «الناسخ والمنسوخ» للنحاس (٢/ ٨٩)، «أحكام القرآن» لابن العربي (٣/ ١٥٧١).

تزوج؛ لتكون المنة للرسول ﷺ عليهن».

وقد رجح الطبري أن الآيتين محكمتان، وأن المعنى: لا يحل لك النساء من بعد اللواتي أحللتهن لك بقولي: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾[١].

٢- أنه ﷺ مكلف كغيره من البشر، وأن التكليف لا يسقط عن أحد مهما بلغت منزلته؛ لقوله تعالى: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ﴾، وفي هذا رد على غلاة الصوفية ونحوهم الذين يزعمون أن الأولياء قد يصلون إلى مرتبة يسقط عنهم بها التكليف.

٣- أن النبي ﷺ كغيره من البشر يعجبه الحسن والجمال في النساء، في الظاهر والباطن؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ﴾؛ ولهذا قال ﷺ: «**حبب إلي من دنياكم النساء والطيب**»[٢].

٤- جواز النظر إلى المخطوبة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ﴾، وجواز تزوجها لحسنها.

وعلى هذا دل قوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء:٣]. وقوله ﷺ للمغيرة بن شعبة- رضي الله عنه- لما خطب امرأة: «**انظر إليها، فإنه أحرى أن يؤدم بينكما**»[٣].

٥- أن مما يرغب في المرأة حسنها، كما أن مما يرغب فيها دينها وأخلاقها وحسبها ومالها، كما قال ﷺ: «**تنكح المرأة لأربع: لمالها، ولجمالها، ولحسبها، ولدينها. فاظفر بذات**

---

(١) انظر: «جامع البيان» (١٠/ ١٥٠)، وانظر: «الناسخ والمنسوخ» للنحاس (٢/ ٥٩٣)، «الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه» (ص٣٣٦).

(٢) أخرجه النسائي في عشرة النساء (٣٩٣٩)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، وقال الألباني: «حسن صحيح».

(٣) أخرجه النسائي في النكاح (٣٢٣٥)، والترمذي في النكاح (١٠٨٧)، وابن ماجه في النكاح (١٨٦٦)- من حديث المغيرة بن شعبة-رضي الله عنه-وصححه الألباني.

الدين تربت يداك»[(١)].

٦- إباحة الإماء للنبي ﷺ بلا حصر ولا عدد كغيره من الأمة؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾.

٧- أن الوطء بملك اليمين أهون على المرأة من الوطء بالزواج؛ لأن الغيرة بين الزوجات وملك اليمين أقل.

٨- ثبوت الرق إذا وجد سببه الشرعي، وهو السبي في القتال بين المسلمين والكفار؛ لإعلاء كلمة الله لا لغير ذلك، وفي الحديث يقول ﷺ: «**ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطى بي ثم غدر، ورجل باع حرًا فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيرًا فاستوفى منه ولم يعطه أجره**»[(٢)].

٩- شرف اليد اليمنى؛ لأن الله أضاف الملك إليها فقال: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾.

١٠- إثبات رقابته- عز وجل- على كل شيء شهادة واطلاعًا وحفظًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾ وعلى هذا فيجب على العبد مراقبة الله- عز وجل- في جميع أحواله الظاهرة والباطنة، على الدوام، في السر والعلن.

* * *

---

(١) أخرجه البخاري في النكاح (٥٠٩٠)، ومسلم في الرضاع (١٤٦٦)، وأبوداود في النكاح (٢٠٤٧)، والنسائي في النكاح (٣٢٣٠)، وابن ماجه في النكاح (١٨٥٨)-من حديث أبي هريرة-رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في البيوع (٢٢٢٧)، وابن ماجه في الأحكام (٢٤٤٢)-من حديث أبي هريرة-رضي الله عنه.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾﴾.

سبب النزول:

عن أنس- رضي الله عنه- قال: «لما تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش، دعا القوم فطعموا، ثم جلسوا يتحدثون، فإذا هو كأنه يتهيأ للقيام، فلم يقوموا، فلما رأى ذلك قام، فلما قام قام من قام معه، وقعد ثلاثة نفر، فجاء النبي ﷺ ليدخل فإذا القوم جلوس، ثم إنهم قاموا فانطلقت فجئت فأخبرت النبي ﷺ أنهم قد انطلقوا، فجاء حتى دخل، فذهبت أدخل، فألقي الحجاب بيني وبينه فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ﴾ الآية»(١).

وعنه- رضي الله عنه- قال: «بنى النبي ﷺ بزينب بنت جحش بخبز ولحم فأرسلت على الطعام داعيًا، فيجيء قوم فيأكلون ويخرجون، ثم يجيء قوم فيأكلون ويخرجون، فدعوت حتى لم أجد أحدًا أدعوه، فقلت: يا نبي الله ما أجد أحدًا أدعوه، قال: ارفعوا طعامكم، وبقي ثلاثة رهط يتحدثون في البيت، فخرج النبي ﷺ إلى حجرة عائشة، فقال: السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته، قالت: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته، كيف وجدت أهلك؟ بارك الله لك، فتقرّى(٢) حجر نسائه كلهن يقول لهن كما قال لعائشة، ويقلن له كما قالت عائشة، ثم رجع النبي ﷺ فإذا ثلاثة من رهط في البيت يتحدثون، وكان النبي ﷺ شديد الحياء، فخرج منطلقًا نحو حجرة عائشة- رضي الله

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الأحزاب (٤٧٩١)، ومسلم في النكاح-زواج زينب بنت جحش (١٤٢٨).

(٢) تقرّي:أي:تتبع.

عنها، فما أدري أَخبرته أو أُخبر أن القوم خرجوا، فرجع حتى إذا وضع رجله في أسكفة البيت داخلة وأخرى خارجة أرخى الستر بيني وبينه وأُنزلت آية الحجاب»(١).

وكان زواجه ﷺ بزينب في السنة الخامسة من الهجرة وقيل في السنة الثالثة(٢).

قال ابن كثير(٣): «هذه آية الحجاب، وفيها أحكام وآداب شرعية، وهي مما وافق تنزيلها قول عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- ثم ذكر قول عمر رضي الله عنه: «وافقت ربي في ثلاث، فقلت: يا رسول الله، لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى؟ فأنزل الله: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة:١٢٥]، وقلت: يا رسول الله، إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر، فلو حجبتهن؟ فأنزل الله آية الحجاب، وقلت لأزواج النبي ﷺ لما تمالأن عليه في الغيرة: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ [التحريم:٥] فنزلت كذلك»(٤) وفي رواية ذكر أسارى بدر»(٥).

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِيَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾﴾.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ﴾ ﴿لَا﴾: ناهية، والأصل في النهي التحريم، وبيوت النبي ﷺ هي منازل نسائه ﷺ التسع لكل امرأة منهن بيت يقال: «بُيوت» بضم الباء، و«بِيوت» بكسرها، وهما قراءتان سبعيتان.

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٧٩٣)، ومسلم في النكاح (١٤٢٨)، والترمذي في التفسير (٣٢١٧)، والطبري في «جامع البيان» (١٩/ ١٦٢).

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٤٤٠).

(٣) في «تفسيره» (٦/ ٤٤٠-٤٤١).

(٤) أخرجه البخاري في الصلاة (٤٠٢)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٣٩٩)، والترمذي في التفسير (٢٩٥٩)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٠٠٩)-من حديث عمر بن الخطاب-رضي الله عنه.

(٥) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة-فضائل عمر بن الخطاب (٢٣٩٩).

وأضاف البيوت إليه ﷺ؛ لأنه ﷺ يسكن فيها ويأوي إليها، وأضافهن في قوله: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ [الأحزاب:٣٤] إلى نسائه؛ لأن هذه البيوت ملك لهن فكل امرأة من نسائه ﷺ جعل لها ﷺ بيتًا ملكًا لها وخاصًا بها؛ ولهذا لما توفي ﷺ بقيت زوجاته في هذه البيوت، ولو كانت هذه البيوت ملكًا له لما بقين فيها؛ لقوله ﷺ: «**نحن معاشر الأنبياء لا نُورَث، ما تركنا صدقة**»[1].

وقيل العكس، وهو أن البيوت له ﷺ حقيقة، ولهذا أضيفت إليه، وإنما أضيفت لنسائه في الآية الأخرى لسكناهن في هذه البيوت.

﴿إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء، وهو استثناء مفرغ من أعم الأحوال، أي: لا تدخلوها في حال من الأحوال إلا في حال الإذن لكم.

و﴿يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ بالبناء للمفعول ليشمل ذلك ما إذا كان الإذن من الرسول ﷺ أو من بعض أزواجه وأهله وخدمه.

وأطلق الإذن؛ لبيان أنه معتبر بكل ما دل عليه من قول، كأن يُقال للمستأذن: ادخل، ونحو ذلك، وبكل ما دل عليه من فعل، كفتح الباب له، ونحو ذلك.

﴿إِلَىٰ طَعَامٍ﴾ أي: إلا أن يؤذن لكم بالدخول إلى طعام، والأصل أن يعدّى الفعل ﴿يُؤْذَنَ﴾ بـ«في» أو بـ«الباء» فيقال: يؤذن في الدخول، أو بالدخول، لكنه هنا عُدّي بـ«إلى»؛ لأنه ضمن معنى الدعاء، أي: إلا أن تدعوا إلى طعام ويؤذن لكم بالدخول، وفيه إشارة إلى أن الأصل في المجيء إلى الطعام الدعوة، وذم الطفيليين الذين يأتون على رائحة الطعام بدون دعوة، ولهذا قال بعد ذلك: ﴿وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟﴾.

وإنما حسن تضمين الفعل «أذن» معنى الفعل «دعا» دون تضمين الحرف «إلى» معنى الحرف «في» أو «الباء»؛ لأن الأكثر ورودًا في القرآن الكريم أن يضمن الفعل معنى فعل آخر، لا أن يضمن الحرف معنى حرف آخر- مع أن كلًا منهما وارد في القرآن الكريم، وحمل ما جاء مثل هذا على الأكثر أولى.

﴿إِلَىٰ طَعَامٍ﴾ قيد: لبيان الواقع، وهو أن دخولهم؛ لأجل الطعام، وإذا كان القيد لبيان

---

(١) سبق تخريجه.

الواقع فلا مفهوم له، وعلى هذا فيجوز الدخول بعد الإذن ولو لم يكن ذلك؛ لأجل الطعام.

﴿غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ ﴿غَيْرَ﴾: حال، ﴿نَٰظِرِينَ﴾ أي: منتظرين ومتحينين، من «نَظَرَ» المتعدي بنفسه، يقال: نظرته؛ بمعنى انتظرته، كما في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾ [الأعراف:٥٣]، أي: هل ينتظرون إلا تأويله، وقوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [الأنعام:١٥٨] [النحل:٣٣].

وليس ذلك من النظر بالعين المتعدي بـ«إلى» كقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة:٢٣].

﴿إِنَىٰهُ﴾ أي: نضجه واستواءه وإدراكه.

والمعنى: حال كونكم غير منتظرين ومتحرين ومتحينين نضجه واستواءه وإدراكه، وهذا يحتمل أنهم يتحينون وقت نضج الطعام فإذا نضج وأوشك أن يقدّم فاجؤوا بالدخول ليأكلوا، كما يفعل الطفيليون والضيفنن(١).

أو أنهم يدخلون مبكرين ويجلسون ينتظرون نضج الطعام واستواءه، وهذا وذاك كل منهما فيه مشقة وتثقيل على النبي ﷺ.

فمن شروط الدخول الإذن، وألا يكونوا منتظرين ومتحينين نضج الطعام واستواءه. وهذا أدب قرآني كريم من آداب الضيافة والدخول على الآخرين، فلابد من الإذن مع مراعاة عدم المشقة على صاحب البيت بمفاجأته بالدخول عند تقديم الطعام، أو بإطالة الجلوس عنده والتثقيل عليه انتظارًا لنضج الطعام، وبعد الأكل.

ومثل هذا التأخر بالمجيء من بعض المدعوين، فيحبس الناس، إما لعدم المبالاة، أو ليظهر قدره.

﴿وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟﴾ الواو: عاطفة، و«لكن»: حرف استدراك، و﴿إِذَا﴾: ظرفية شرطية غير عاملة، بمعنى «حين» أي: ولكن حين تدعون فادخلوا، وهذا تصريح بما فهم من الجملة قبلها لئلا يتوهم أن في النهي عن دخول بيت النبي ﷺ إلا بعد الإذن؛ أنهم لا يدخلونها أبدًا، فقال: ﴿وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟﴾.

---

(١) الضيفنن: الذي يأتي مع الضيف بلا دعوة.

وقوله: ﴿دُعِيتُمْ﴾ بالبناء للمفعول؛ ليشمل ما إذا كانت الدعوة من الرسول ﷺ أو ممن لهم الإذن في الدعوة في بيوته من أزواجه وأهله وخدمه، وكان ﷺ جوادًا كريمًا، يكثر من دعوة الناس إلى طعامه.

والمعنى: إذا دعيتم للمجيء والحضور لتناول الطعام أو لغير ذلك فادخلوا، والدخول أخص من الإجابة، فإذا وجد المدعو الباب مفتوحًا فلا يلزم الاستئذان ويكفي السلام.

وإجابة الدعوة في الأصل واجبة، قال ﷺ: «**ومن دعاكم فأجيبوه**»(١).

وعن ابن عمر- رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا دعا أحدكم أخاه فليجب عرسًا كان أو غيره**»(٢).

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**لو دعيت إلى ذراع أو كراع لأجبت، ولو أهدي إليَّ ذراع أو كراع لقبلت**»(٣).

﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ﴾ الفاء: عاطفة، و«إذا»: ظرفية شرطية غير عاملة، ﴿طَعِمْتُمْ﴾ أي: أكلتم من الطعام، ولم يقل: شبعتم؛ لأن الطعام قد يكون قليلًا فلا يشبع.

﴿فَانتَشِرُوا﴾ أي: تفرقوا، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَوٰةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [الجمعة: ١٠].

فإذا قضى الإنسان حاجته من الطعام ينبغي أن ينصرف؛ لأن حاجته والمقصود الذي دعي إليه انتهى.

﴿وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ هذا تأكيد لقوله: ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا﴾، بل تصريح بما فهم منه. والواو في قوله: ﴿وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ عاطفة، و«لا» مؤكدة للنفي، وهو

---

(١) أخرجه أبوداود في الأدب (٥١٠٩)، والنسائي في الزكاة (٢٥٦٧)-من حديث ابن عمر-رضي الله عنهما-وصححه الألباني.

(٢) أخرجه البخاري في النكاح (٥١٧٣)، ومسلم في النكاح (١٤٢٩)، وأبوداود في الأطعمة (٣٧٣٦)، والترمذي في النكاح (١٠٩٨)، وابن ماجه في النكاح (١٩١٤).

(٣) أخرجه البخاري في الهبة وفضلها والتحريض عليها (٢٥٦٨).

معطوف على قوله: ﴿غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾.

و﴿مُسۡتَـٔۡنِسِينَ﴾ حال، والتقدير: ولا تمكثوا حال كونكم مستأنسين لحديث، واللام في قوله: ﴿لِحَدِيثٍۚ﴾؛ للتعليل، أي: لأجل الحديث، والاستئناس: استفعال من الأنس الذي هو ضد الوحشة، أي: طلب الأنس والارتياح.

والمعنى: ولا حال كونكم مستأنسين مطمئنين منبسطين لحديث تتحدثون به أو تسمعونه وترتاحون له، مما يطول ويكون فيه ثقل على النبي ﷺ.

ويفهم من ذلك أن الحديث العابر الخفيف بعد الأكل لا بأس به حسب المقتضى وما جرت به العادة والعرف.

قال ابن كثير(١): «﴿وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ﴾ أي: كما وقع لأولئك النفر الثلاثة الذين استرسل بهم الحديث، ونسوا أنفسهم، حتى شق ذلك على رسول الله ﷺ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ﴾.

وقيل: إن المراد أن دخولكم منزله بغير إذنه كان يشق عليه، ويتأذى به، لكن كان يكره أن ينهاهم عن ذلك من شدة حيائه- عليه الصلاة والسلام- حتى أنزل الله النهي عن ذلك؛ ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ﴾ ولهذا نهاكم وزجركم عنه».

﴿إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ﴾ هذا تعليل للنهي السابق، والإشارة لما تضمنه النهي السابق من الدخول بلا إذن، أو تحري نضج الطعام ثم المفاجأة بالدخول، أو التبكير في المجيء وإطالة الجلوس انتظارًا لنضج الطعام، أو الاستئناس والجلوس للحديث بعده، فكل هذا مما يؤذي النبي ﷺ.

والخطاب في قوله: ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ للمؤمنين المخاطبين بهذه الآية ويدخل تحته دخولًا أوليًّا أولئك النفر الذين ذكروا في سبب النزول.

وأظهر في مقام الإضمار، فقال: ﴿يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ﴾ ولم يقل: «يؤذيه» تنبيهًا لعلو شأنه ورفعته وفضله ﷺ.

---

(١) في «تفسيره» (٦/ ٤٤٥).

ومعنى: ﴿يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ﴾ أي: يضايقه ويشق عليه، لما في الدخول دون إذن والمفاجأة بذلك من المشقة، ولما في إطالة الجلوس عنده بلا حاجة من تثقيل عليه وحبسه عن شؤونه وأعماله مع كثرة مشاغله ﷺ؛ لأنه رسول الأمة وقائدها، فإطالة الجلوس عنده تكون على حساب مصالح الأمة.

ولهذا أمرهم بتقديم الصدقة بين يدي مناجاته ﷺ تخفيفًا عليه، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾ [المجادلة:١٢].

وهو ﷺ كغيره من البشر يتأذى، لكنه ﷺ أشد صبرًا وتحملًا، وأكرم الناس خلقًا، ولهذا لم ينههم هو بنفسه ﷺ حتى نهاهم الله- عز وجل- دفاعًا عن نبيه ﷺ ورفعًا للحرج عنه.

﴿فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ﴾ الفاء: عاطفة، أي: فيستحيي منكم أن يمنعكم من الدخول، أو يخرجكم، أو يذهب لشؤونه ويترك الجلوس معكم ونحو ذلك.

وقد كان ﷺ أشد الناس حياءً، كما قال أبوسعيد رضي الله عنه: «كان النبي ﷺ أشد حياءً من العذراء في خدرها»[(١)].

والحياء خلق عظيم يؤدي إلى أحسن العواقب، ولهذا لما رأى النبي ﷺ رجلًا يعظ أخاه في الحياء قال: «**دعه فإن الحياء لا يأتي إلا بخير**»[(٢)].

لكن ليس من الحياء أن يقصر الإنسان فيما يجب عليه، أو لا يسأل عما يهمه في أمر دينه، فلا حياء في الدين، فعن أم سلمة- رضي الله عنها- قالت: جاءت أم سليم امرأة أبي طلحة إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن الله لا يستحيي من الحق، هل على المرأة من غسل إذا هي احتلمت؟ فقال رسول الله ﷺ: «**نعم، إذا هي رأت الماء**»[(٣)].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب (٦١١٧)، ومسلم في الإيمان (٣٧)، وأبوداود في الأدب (٤٧٩٦)-من حديث عمران بن حصين-رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الغسل (٢٨٢)، ومسلم في الحيض (٣١٣)، والنسائي في الطهارة (١٩٧)، والترمذي في الطهارة (١٢٢)، وابن ماجه في الطهارة وسننها (٦٠٠).

قال السعدي(١): «فالأمر الشرعي، لو كان يتوهم أن في تركه أدبًا وحياءً، فإن الحزم كل الحزم، اتباع الأمر الشرعي وأن يجزم أن ما خالفه ليس من الأدب في شيء».

﴿وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ﴾ أي: إن الله- عز وجل- لا يستحيي من فعل الحق وقول الحق وبيان الحق لكم؛ لأن الحياء من الحق معناه: ترك الحق، أو يستلزم ترك الحق، والله- عز وجل- ﴿لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ﴾ فعلًا له وقولًا له وبيانًا، وهو سبحانه ﴿يَقُولُ ٱلۡحَقَّ وَهُوَ يَهۡدِي ٱلسَّبِيلَ ۝٤﴾ [الأحزاب:٤].

والحق هو: الصدق في الأخبار، والعدل في الأحكام، كما قال عز وجل: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ﴾ [الأنعام:١١٥]. أي: صدقًا في الأخبار وعدلًا في الأحكام.

فهو- عز وجل- لا يستحيي من الحق، فعلًا وقولًا له وبيانًا، ومن ذلك نهيه- عز وجل- عن دخول بيوت النبي ﷺ بلا إذن، وإطالة الجلوس عنده انتظارًا لنضج الطعام، أو استئناسًا للحديث بعد الأكل، فلا حياء في الدين، وفي بيان الحق.

وإذا كانت الآية بمنطوقها تدل على أن الله- عز وجل- لا يستحيي من الحق، فإنها تدل بمفهومها على أنه- عز وجل- يستحيي من غير الحق.

وهذه الآداب والشروط كما ينبغي مراعاتها عند دخول بيوت النبي ﷺ ينبغي مراعاتها في دخول بيوت غيره من المسلمين، فلا ينبغي دخول بيوت الغير إلا بعد إذنهم، أو دعوتهم، ولا ينبغي التثقيل على صاحب المنزل بإطالة الجلوس سواء قبل الأكل أو بعده.

﴿وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ﴾ الواو: للاستئناف، و«إذا»: ظرفية شرطية غير عاملة.

والهاء في قوله: ﴿سَأَلۡتُمُوهُنَّ﴾ ضمير مفعول أول لـ«سأل» يعود إلى أزواج النبي ﷺ، ولم يسبق لهن ذكر في هذه الآية، لكن سبق ذكر النهي عن دخول بيوت النبي ﷺ، وهن في هذه البيوت، والخطاب للمؤمنين، كما هو في أول الآية.

﴿مَتَٰعٗا﴾ مفعول ثانٍ لـ«سأل». والمتاع: كل ما يتمتع به من مطعم أو مشرب أو ملبس أو أثاث أو نقود أو غير ذلك، والمعنى: إذا طلبتم منهن متاعًا أيًّا كان.

وهذا يدل على جواز سؤالهن سؤال استجداء، ومن باب أولى جواز سؤالهن سؤال

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» (٦/ ٢٤١-٢٤٢).

استفهام واستخبار وفتوى.

﴿فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ﴾ أي: فليكن سؤالكم لهن من وراء حجاب أي: من خلف ستار، منفصل غير متصل بهن يفصل بينكم وبينهن ويحول بينكم وبين رؤيتهن، كأن تكون داخل غرفة ونحو ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾ [فصلت:٥]. فلا يكفي حجاب غيرهن من النساء من خمار وملحفة ونحو ذلك.

قال ابن كثير[١]: «أي: وكما نهيتكم عن الدخول عليهن، كذلك لا تنظروا إليهن بالكلية، ولو أن لأحدكم حاجة يريد تناولها منهن، فلا ينظر إليهن، ولا يسألهن حاجة إلا من وراء حجاب».

ويحتمل أن المراد بالحجاب حجاب البدن كحجاب غيرهن من النساء، فقد كن يخرجن للجهاد والحج ولحاجاتهن، وفي الحديث: «**قد أذن الله لكنَّ في الخروج لحوائجكن**»[٢].

وسواء حملناه على هذا أو على هذا فإنه يؤخذ من الآية أنه لا يجوز سؤال أزواجه ﷺ إلا من وراء حجاب، ولا يجوز سؤالهن إلا لحاجة لقوله: ﴿مَتَٰعٗا﴾[٣].

وإذا جاز تكليم أزواج النبي ﷺ عند الحاجة، فمن باب أولى يجوز تكليم غيرهن من النساء عند الحاجة إذا أمنت الفتنة.

كما يؤخذ من الآية وجوب الحجاب على أزواج النبي ﷺ، ولهذا قالت عائشة- رضي الله عنها- في ذكرها حديث الإفك: «فخمرت وجهي بجلبابي» يعني لما رأت صفوان[٤].

﴿ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ﴾: تعليل للأمر بكون سؤالهن من وراء حجاب يدل على تعليل الأحكام؛ للاطمئنان وزيادة الإيمان.

والإشارة في قوله ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ لمصدر الفعل ﴿فَسۡـَٔلُوهُنَّ﴾ أي: سؤالهن من وراء

---

(١) في «تفسيره» (٦/ ٤٤٥).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) انظر: «تيسير الكريم الرحمن» (٦/ ٢٤٢).

(٤) أخرجه البخاري في المغازي (٤١٤١)، ومسلم في الفضائل (٢٧٧٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

حجاب أطهر لقلوبكم وقلوبهن. والخطاب للمؤمنين، وبخاصة من يسأل أزواج النبي ﷺ.

و﴿أَطْهَرُ﴾ على وزن «أفعل» اسم تفضيل، أي: أبلغ في طهارة قلوبكم وقلوبهن، وأنقى وأسلم وأبعد عن الفتنة والشر، إذ لا عصمة في هذا الباب إلا للرسل- عليهم صلوات الله وسلامه- فهم المعصومون من الفواحش ومقدماتها ودواعيها.

وإذا كان هذا الخطاب لأفضل الأمة بعد نبيها ﷺ وأبرها قلوبًا وأزكاها نفوسًا، وهم صحابة رسول الله ﷺ، ومع أفضل نساء الأمة وأعفها أزواجه ﷺ، وهم الصفوة المختارة، وخير القرون[١]، فمن دونهم من الأمة من باب أولى في وجوب البعد عن أسباب الفتنة، وأن يكون سؤالهم للنساء وتكليمهم لهن عند الحاجة من وراء حجاب حفاظًا على طهارة القلوب؛ لأن خواطر الريبة والفاحشة إلى قلوبهم أقرب لضعف الإيمان واليقين عندهم.

ومن العجب كل العجب أن يرفع أناس عقيرتهم ويمدوا ألسنتهم ويتطاولوا بها قائلين: إن الحجاب إنما هو خاص بأمهات المؤمنين. وإذا كانت العلة لأجل طهارة القلوب والخوف من تدنسها فإن وجوب الحجاب على من سوى أمهات المؤمنين من باب أولى وأحرى.

ويؤخذ من الآية حرص الشرع على طهارة القلوب وتزكية النفوس والبعد بها عما يكون سببًا للوقوع فيما يشينها ويدنسها، وذلك أن في مشروعية الحجاب سدًّا لكثير من أبواب الشر وذرائع الفساد، والنظر سهم من سهام إبليس كما جاء في الحديث[٢].

وقد قيل:

كل الحوادث مبداها من النظر ... ومعظم النار من مستصغر الشرر
كم نظرة فتكت في قلب صاحبها ... فتك السهام بلا قوس ولا وتر[٣]

---

(١) قال ﷺ: «**خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**» الحديث أخرجه البخاري في الشهادات (٢٦٥٢)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٥٣٣)، والترمذي في المناقب (٣٨٥٩)، وابن ماجه في الأحكام (٢٣٦٢)-من حديث عبدالله بن مسعود-رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الطبراني-من حديث ابن مسعود رضي الله عنه-كما ذكر ابن كثير في «تفسيره» (٦/ ٤٥)، ورُوِيَ أيضًا من حديث حذيفة-رضي الله عنه، انظر: «كشف الخفاء» (٢/ ٤٥٥).

(٣) انظر: «التفسير القيم» ص(٦٢٤-٦٢٩).

﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ الواو: عاطفة، و«ما»: نافية، و﴿كَانَ﴾ مسلوبة الزمان، والخطاب للمؤمنين، ﴿أَن تُؤْذُوا﴾ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل رفع اسم كان مؤخر، وخبرها ﴿لَكُمْ﴾ مقدم.

أي: ما كان أذى رسول الله ﷺ جائزًا لكم، ولا لائقًا بكم يا معشر المؤمنين بأي نوع من الأذى، وفي أي وقت من الأوقات، لا بقول ولا بفعل، لا لشخصه ﷺ ودعوته في حياته، ولا لسنته بعد مماته.

أي: أن أذيته ﷺ بأي نوع من الأذى في حياته أو بعد مماته أمر محرم شرعًا ولا يليق بمسلم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً﴾ [النساء:٩٢].

وفي وصفه ﷺ في أول الآية بوصف النبوة، ووصفه هنا بوصف الرسالة تشريف له ﷺ، وتحذير من أذيته في شخصه ببدنه وعرضه وأهله وماله، ومن أذيته في دينه، في حياته وبعد مماته.

وفي هذا ما يدل على شناعة ما يقول الرافضة في حق زوجه عائشة- رضي الله عنها- وأنهم بذلك يرتكبون أعظم الأذية له ﷺ، كما يدل على شدة حرمة ما يرتكبه بعض من ينتسبون إلى الإسلام من أهل البدع وغيرهم من الأذية له ﷺ لشخصه، أو لدينه، وأن ذلك ينافي الإيمان. ناهيك عن الحملة المسعورة التي يشنها أعداء الإسلام من اليهود والنصارى وعبدة الأوثان وأهل الإلحاد والزندقة للنيل من رسول الله ﷺ ودين الإسلام ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [التوبة:٣٢]، وليس بعد الكفر ذنب، نسأل الله السلامة والعافية.

﴿وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا﴾ الواو: عاطفة، و«لا»: لتأكيد النفي، ﴿أَن تَنكِحُوا﴾: ﴿أَن﴾ والفعل بعده في تأويل مصدر في محل رفع معطوف على قوله: ﴿أَن تُؤْذُوا﴾ أي: ما كان أذى رسول الله ﷺ ونكاح أزواجه من بعده جائزًا لكم.

و«النكاح» في اللغة: الضم والجمع، ويطلق في الشرع على العقد وعلى الوطء، والمراد به هنا: العقد، أي: لا يجوز لكم شرعًا، ولا يليق بكم نكاح أزواجه ﷺ من بعده أبدًا في أي حال من الأحوال، وفي أي وقت من الأوقات؛ لأن ذلك مما يؤذيه؛ فنكاح أزواجه ﷺ من بعده محرم على الأمة تحريمًا مؤبدًا؛ احترامًا له ﷺ.

قال ابن كثير(١): «أجمع العلماء قاطبة على أن من توفي عنها رسول الله ﷺ من أزواجه أنه يحرم على غيره تزوجها من بعده؛ لأنهن أزواجه في الدنيا والآخرة وأمهات المؤمنين، كما تقدم، واختلفوا فيمن دخل بها ثم طلقها في حياته هل يحل لغيره أن يتزوجها؟ على قولين، مأخذهما: هل دخلت هذه في عموم قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ﴾ أم لا؟ فأما من تزوجها ثم طلقها قبل أن يدخل بها فما نعلم في حلها لغيره- والحالة هذه- نزاعًا والله أعلم».

وقال السعدي(٢): «فإنهن زوجاته في الدنيا والآخرة، والزوجية باقية بعد موته، فلذلك لا يحل نكاح زوجاته بعده لأحد من أمته».

وهكذا وقع كونا فلم يتزوج أحد من بعده زوجاته ﷺ.

﴿إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ۝٥٣﴾ الإشارة في قوله: ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ إلى المصدر المفهوم من قوله: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ﴾ أي: إن ذلكم يعني أذية رسول الله ﷺ ونكاح أزواجه من بعده.

﴿كَانَ﴾: مسلوبة الزمان، أي: كان وما زال عند الله عظيمًا.

أي: إن أذية رسول الله ﷺ ونكاح أزواجه من بعده أمر في غاية النكارة وإثم كبير، وذنب، عظّمه الله- تبارك وتعالى- وشدد فيه وتوعد عليه.

وإذا كان الله- عز وجل- وصف هذا الأمر بأنه عظيم فلا يعرف كنه عظمته ومقدارها إلا العظيم سبحانه، فليحذر الذين يقعون في أذية رسول الله ﷺ من هذا الوعيد الشديد، فإن الله لهم بالمرصاد.

قوله تعالى: ﴿إِن تُبۡدُواْ شَيۡـًٔا أَوۡ تُخۡفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا ۝٥٤﴾.

قوله: ﴿إِن تُبۡدُواْ شَيۡـًٔا أَوۡ تُخۡفُوهُ﴾ ﴿إِن﴾: شرطية، و﴿تُبۡدُواْ﴾: فعل الشرط، أي: إن تظهروا، ﴿شَيۡـًٔا﴾: نكرة في سياق الشرط؛ فتعم كل شيء مما يتعلق بأذية رسول الله ﷺ، أو نكاح أزواجه من بعده، أو غير ذلك من أي شيء كان.

﴿أَوۡ تُخۡفُوهُ﴾ أي: أو تسروه في أنفسكم وتكنه ضمائركم وتنطوي عليه سرائركم،

---

(١) في «تفسيره» (٦/ ٤٤٥).

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» (٦/ ٢٤٣).

فلا تظهروه لأحد من الناس مطلقًا، أو تخفوه عن عامة الناس فقط دون خاصتكم من أقاربكم أو أصحابكم فلا تخفونه عنهم.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾: جملة جواب الشرط المتقدم، واقترنت بالفاء؛ لأنها جملة اسمية، و﴿كَانَ﴾ مسلوبة الزمان، أي: كان الله عز وجل وما زال بكل شيء عليمًا.

فعلمه- عز وجل- محيط بالأشياء كلها في أطوارها الثلاثة: قبل الوجود، وبعد الوجود، وبعد العدم، كما قال موسى- عليه السلام- عندما سئل عن القرون الأولى قال: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾ [طه:٥٢].

وسواء كان ذلك الشيء مما أبداه الناس، وأظهروه، أو مما أخفوه، وأضمروه، وغير ذلك قال عز وجل: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾ [غافر:١٩]، وقال تعالى: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾﴾ [الرعد:١٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾﴾ [طه:٧].

وفي الآية وعد ووعيد؛ لأنه إذا كان ما يظهرونه، وما يخفونه عنده عز وجل سواء؛ لإحاطة علمه- عز وجل- بكل شيء، فإنه سيجازى كلًا بعمله، وفي هذا وعد للمحسن بالثواب ووعيد للمسيء بالعقاب، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت:٤٦].

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

٢- تشريف المؤمنين وتكريمهم بندائهم بوصف الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، وفيه حث على الاتصاف بهذا الوصف، وأن امتثال الطلب بعده من مقتضيات الإيمان، وعدم امتثاله يعد نقصًا في الإيمان.

٣- عدم جواز دخول بيوت النبي ﷺ إلا بإذن؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾.

٤- أن البيت ينسب لساكنه كما ينسب لمالكه؛ لقوله تعالى: ﴿بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ﴾.

٥- أن الإذن بالدخول معتبر بكل ما دل عليه من قول أو فعل، ومن كل من له حق

الإذن؛ لإطلاق قوله: ﴿إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾.

٦- من أُذن له بالدخول جاز له الدخول، سواء كان ذلك لأجل الطعام أو لغير ذلك؛ لأن قوله: ﴿إِلَىٰ طَعَامٍ﴾ قيد لبيان الواقع فلا مفهوم له.

٧- التعريض بمن يتحينون وقت نضج الطعام واستوائه، فيفاجئون بالدخول، أو يدخلون مبكرين ويجلسون انتظارًا لنضج الطعام؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾.

٨- إذا دعي المسلم للطعام أو لغيره ينبغي أن يجيب الدعوة وهي في الأصل واجبة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ﴾ وسواء كان الداعي صاحب البيت أو من يقوم مقامه من أهل وولد وخدم وغيرهم.

٩- التعريض بذم الطفيليين والضيفنن الذين يأتون من دون دعوة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ﴾.

١٠- ينبغي للمدعوين الانتشار بعد تناول الطعام وعدم الجلوس للحديث، والتثقيل على النبي ﷺ، فليس هذا وقت الجلوس والاستئناس للحديث؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾.

١١- أن الله عز وجل إنما نهى عن دخول بيوت النبي ﷺ- بلا إذن، أو تحري نضج الطعام ثم المفاجأة بالدخول بلا إذن، أو التبكير بالمجيء وإطالة الجلوس انتظارًا لنضج الطعام، أو الاستئناس والجلوس للحديث بعد الطعام- دفاعًا عن النبي ﷺ؛ لأن هذا كله مما يؤذيه ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ﴾.

١٢- إثبات الحكمة و العلة؛ لقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ﴾، وقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾.

١٣- أنه ﷺ كغيره من الرسل يتأذى بما يتأذى منه البشر، لكنه يختلف عن غيره بقوة صبره وشدة تحمله ﷺ، بما فاق به جميع الرسل فضلًا عن جميع البشر.

١٤- شدة حيائه ﷺ وما جبل عليه من كريم الأخلاق وعظيم السجايا؛ لقوله تعالى: ﴿فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ﴾ أي: فيستحيي منكم أن يمنعكم من الدخول، أو يأمركم

بالخروج، أو يترك الجلوس معكم ويذهب لشأنه.

١٥- هذه الآداب التي أمر الله بمراعاتها عند دخول بيوت النبي ﷺ، وعند الدعوة إلى الطعام، يجب مراعاتها عند المسلمين فيما بينهم عند دخول البيوت وعند الدعوة إلى الطعام.

١٦- أن الله- عز وجل- لا يستحيي من الحق؛ فعلًا له وقولًا وبيانًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ ومفهوم هذا أنه- عز وجل- يستحيي من غير الحق.

١٧- عدم جواز سؤال أزواج النبي ﷺ إلا من وراء حجاب، ولحاجة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ وإذا كان هذا مع أزواج النبي ﷺ فغيرهن من النساء من باب أولى.

١٨- جواز تكليم النساء الأجانب عند الحاجة إذا أمنت الفتنة، ومن وراء حجاب؛ لقوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾.

١٩- أن الفتنة في مخاطبة النساء قد تكون من الرجل وحده، أو من المرأة وحدها، أو منهما معًا.

٢٠- حرص الشرع على طهارة القلوب وتزكية النفوس والبُعد بها عما يكون سببًا للوقوع فيما يشينها ويدنسها؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾.

٢١- وجوب الحجاب على المرأة المسلمة؛ لقوله- تعالى- عز وجل: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾.

وهذه الآية وإن كانت في أزواج النبي ﷺ باتفاق أهل العلم، إلا أنها عامة لهن ولغيرهن من نساء الأمة؛ لأن طهارة القلوب كما أنها مطلب بالنسبة لأزواج النبي ﷺ ولمن يخاطبونهن، فهي بالنسبة لغيرهن ولمن يخاطبون غيرهن مطلوبة من باب أولى؛ لأن خوف الفتنة عليهم أشد.

ولهذا قال ﷺ: «**إياكم والدخول على النساء**» فقال رجل من الأنصار: أفرأيت يا رسول الله الحمو؟ قال: «**الحمو الموت**»(١).

---

(١) أخرجه البخاري في النكاح (٥٢٣٢)، ومسلم في السلام (٢١٧٢)، والترمذي في الرضاع (١١٧١)- =

وهذا عام في جميع النساء، وهو في معنى قوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ ومن أجل هذا لم تُوجَب عليهن صلاة الجماعة؛ بل لم تستحب منهن مع ما فيها من الفضل[1]. قال ﷺ: «**لا تمنعوا إماء الله مساجد الله، وبيوتهن خير لهن**»[2].

٢٢- تحريم أذية النبي ﷺ بأي نوع من الأذى؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ سواء كان ذلك في حياته أو بعد مماته.

٢٣- تحريم نكاح أزواجه ﷺ من بعده تحريمًا مؤبدًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا﴾ وذلك احترامًا له ﷺ، ولأنهن أمهات المؤمنين وزوجاته في الدنيا والآخرة.

٢٤- أن أذى النبي ﷺ ونكاح أزواجه ﷺ من بعده أمر في غاية النكارة وإثم كبير وذنب عظيم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾.

٢٥- أن الذنوب تتفاوت في العظم، فمنها كبائر، ومنها صغائر ومنها عظائم، ومنها دون ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾.

٢٦- عناية الله- عز وجل- برسوله ﷺ ودفاعه عنه وحمايته له ولفراشه، مما يدل على علو مكانته ﷺ وشرفه عند ربه.

٢٧- سعة علم الله- عز وجل- وإحاطته بكل شيء أزلًا وأبدًا، وأن السر والجهر عنده سواء؛ لقوله تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾.

وفي هذا ما يوجب مراقبة الله تعالى، ووعد لمن اتقى الله وامتثل أمره، ووعيد لمن خالف أمره وعصاه.

٢٨- إثبات صفة العلم الواسع لله عز وجل، المحيط بكل شيء.

* * *

من حديث عقبة بن عامر-رضي الله عنه.

(١) انظر: «أضواء البيان» (٦/ ٥٨٤، ٥٩٢-٥٩٣، ٥٩٦).

(٢) أخرجه البخاري في الجمعة (٩٠٠)، ومسلم في الصلاة (٤٤٢)، والنسائي في المساجد (٧٠٦)-من حديث ابن عمر-رضي الله عنهما.

قال الله تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾﴾.

قال ابن كثير(١): «لما أمر الله- تعالى- النساء بالحجاب من الأجانب، بيَّن أن هؤلاء الأقارب لا يجب الاحتجاب منهم، كما استثناهم في سورة النور، عند قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ [النور:٣١] إلى آخرها، وفيها زيادات على هذه».

قوله: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ﴾ ﴿لَّا﴾: نافية، والجناح: هو الحرج والضيق والإثم، ﴿عَلَيْهِنَّ﴾: أي:على أزواجه ﷺ اللاتي قال الله عنهن: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ﴾ [الأحزاب:٥٣].

أي: لا حرج ولا ضيق ولا إثم عليهن في عدم الاحتجاب عمن ذكروا في هذه الآية، ومن باب أولى ليس على غيرهن من نساء الأمة حرج في عدم الاحتجاب عنهم.

﴿فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ﴾ أي: في عدم الاحتجاب عنهم، وهكذا من ذكر بعدهم. والآباء: يشمل الأجداد من جهة الأب ومن جهة الأم وإن علوا.

﴿وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ﴾ أي: ولا حرج عليهن في عدم الاحتجاب عن أبنائهن، ويشمل ذلك أبناءهن مباشرة، وأبناء أولادهن وإن نزلوا.

﴿وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ﴾ سواء كانوا أشقاء، أو لأب، أو لأم.

﴿وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ﴾ يشمل أبناء الإخوة وإن نزلوا؛ لأنهن عمات لابن الأخ المباشر، وعمات لأولاده وإن نزلوا، فعمة الرجل عمة لأولاده ذكورهم وإناثهم وإن نزلوا.

﴿وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾ يشمل أيضًا أبناء الأخوات وإن نزلوا؛ لأنهن خالات لابن الأخت المباشر، وخالة الرجل خالة لأولاده ذكورهم وإناثهم، وإن نزلوا.

---

(١) في «تفسيره» (٦/ ٤٤٦)، وانظر: «تيسير الكريم الرحمن» (٦/ ٢٤٤).

قال السعدي(١): «ولم يذكر فيها الأعمام والأخوال؛ لأنهن إذا لم يحتجبن عمن هن عماته وخالاته من أبناء الإخوة والأخوات، مع رفعتهن عليهم، فعدم احتجابهن عن عمهن وخالهن من باب أولى، ولأن منطوق الآية الأخرى المصرحة بذكر العم والخال(٢) مقدّم على ما يفهم من هذه الآية».

كما لم يذكر هنا البعولة وآباء البعولة وأبناءهم لذكرهم في آية سورة النور. ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾ [النور:٣١].

﴿وَلَا نِسَآئِهِنَّ﴾ أي: ولا جناح عليهن ولا حرج في عدم الاحتجاب عن غيرهن من النساء أمثالهن في الأنوثة، وقيل: نسائهن من المؤمنات فقط، فلا يجوز ترك الحجاب عند الكافرات؛ لأنهن قد يصفن المرأة للآخرين، والصحيح الأول فلا تحتجب المرأة عن غيرها من النساء مؤمنات كنّ أو كافرات.

﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ أي: ولا جناح عليهن في ترك الحجاب عمّا ملكت أيمانهن من الأرقاء ذكورهم وإناثهم، فإذا ملكت المرأة الرقيق ملكًا تامًّا فلا حرج عليها في عدم الاحتجاب عنه.

عن أنس- رضي الله عنه- أن النبي ﷺ أتى فاطمة بعبد وهبه لها، قال: وعلى فاطمة ثوب إذا قنعت به رأسها لم يبلغ رجليها، وإذا غطت رجليها لم يبلغ رأسها، فلما رأى النبي ﷺ ما تلقى، قال: «**إنه ليس عليك بأس، إنما هو أبوك وغلامك**»(٣).

وعن أم- سلمة رضي الله- عنها أن النبي ﷺ قال: «إذا كان لإحداكن مكاتب، وكان عنده ما يؤدي فلتحتجب منه»(٤).

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» (٦/ ٢٤٤).

(٢) أي:في قوله تعالى في سورة النساء:﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ ﴾ [النساء:٢٣].

(٣) أخرجه أبوداود في اللباس-في العبد ينظر إلى شعر مولاته (٤١٠٦)، وصححه الألباني.

(٤) أخرجه أبوداود في العتق (٣٩٢٨)، والترمذي في البيوع (١٢٦١)، وابن ماجه في الأحكام (٢٥٢٠)، وقال الترمذي:«حديث حسن صحيح».

ومفهوم هذا أنه إذا لم يكن عنده ما يؤدي فلا تحتجب عنه، والمملوك أولى.

ومما ينبغي أن يعلم أن المرأة إنما يجوز لها ترك الحجاب مع مملوكها هي إذا كانت تملكه ملكًا تامًّا، فإن كانت تملك بعضه، أو هو ملك لزوجها أو لغيره وجب عليها الاحتجاب عنه.

وما عدا من ذكروا في هذه الآية وآية سورة النور يجب الاحتجاب منهم، وفي ترك الحجاب عنهم جناح وحرج وإثم كما هو مفهوم الآية.

﴿وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ﴾ فيه التفات من الغيبة إلى الخطاب، والهدف منه لفت انتباه المخاطب، كما أن في توجيه الخطاب والأمر إليهن توكيدًا على وجوب تقوى الله عليهن وتجديدها والاستمرار عليها في جميع أحوالهن وأمورهن عامة وفيما ذكر قبل هذا خاصة من الحجاب عن غير المحارم.

وإذا كان هذا الأمر بتقوى الله- عز وجل- لأزواج النبي ﷺ وهنّ الطاهرات المطهرات الطيبات فغيرهن من النساء مأمورات بذلك من باب أولى وأحرى.

وليس في أمر الله لنساء نبيه ﷺ بالتقوى ما يدل على حصول مخالفة منهن- رضي الله عنهن- مع أنهن غير معصومات، فقد أمر الله بالتقوى من هو أتقى الناس وأخشاهم لله نبينا محمد بن عبدالله سيد الأولين والآخرين، وأفضل رسل رب العالمين، والقائل ﷺ: «**والله إني لأتقاكم لله وأخشاكم له**»(١).

ولله در الخليفة الراشد عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- لما قيل له: اتق الله، قال بلسان المؤمن حقًّا العارف بقيمة هذه الوصية وثمرتها: «لا خير فيكم إذا لم تقولوها لنا، ولا خير فينا إذا لم نسمعها منكم»(٢).

وتجد الكثير من الناس يأنف أن يقال له: اتق الله، وربما وجد في نفسه غضاضة أن يقال له ذلك، وكأنه يزكي نفسه، وقد قال الله- عز وجل- عن صنف من الناس: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾ [البقرة:٢٠٦].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: «تاريخ المدينة» لابن شبة ٢/ ٧٧٣، «الخراج» لأبي يوسف ص٢٢.

دخل أحد الزائرين على مريض فقال له: «طهور إن شاء الله»، فرد عليه المريض بغضب: ماذا تقول، ماذا عملت أنا... إلخ.

وعن ابن عباس- رضي الله عنهما- أن النبي ﷺ دخل على أعرابي يعوده، وكان النبي ﷺ إذا دخل على مريض يعوده قال: «لا بأس طهور إن شاء الله»، فقال له: «لا بأس طهور إن شاء الله» قال: قلت طهور، كلا، بل هي حمى تفور أو تثور على شيخ كبير تزيره القبور. فقال النبي ﷺ: «فنعم إذًا»(١).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا﴾ أي: إن الله- عز وجل- كان على كل شيء من الأشياء صغيرها وكبيرها، خفيها وجليها، باطنها وظاهرها ﴿شَهِيدًا﴾أي: مطلعًا حاضرًا، رقيبًا حفيظًا.

و﴿شَهِيدًا﴾ على وزن «فعيل» صفة مشبهة، أو صيغة مبالغة، يدل على سعة وكمال اطلاعه على كل شيء، وأنه لا تخفى عليه خافية، في الأرض ولا في السماء، مما يوجب مراقبته- عز وجل- في كل شيء، ومن ذلك الاحتجاب عن غير المحارم، وتقواه في كل شيء.

وفي الآية وعد لمن أطاع الله واتقاه، ووعيد لمن خالف أمره وعصاه.

الفوائد والأحكام:

١- لا حرج ولا إثم على النساء في عدم الاحتجاب عمن ذكروا في الآية؛ لقوله تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيۡهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخۡوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآءِ إِخۡوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّۗ﴾.

٢- وجوب الاحتجاب على النساء عمن لم يذكروا في هذه الآية وفي آية سورة النور: ﴿وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوۡ ءَابَآئِهِنَّ أَوۡ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآئِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾ [النور:٣١].

٣- وجوب تقوى الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَۚ﴾ وإذا كان هذا الأمر لنساء النبي ﷺ

(١) أخرجه البخاري في المناقب (٣٦١٦).

فغيرهن من الأمة ذكورًا وإناثًا مأمورون بذلك من باب أولى وأحرى.

٤- إثبات شهادته- عز وجل- واطلاعه على كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا﴾.

وفي هذا دلالة على وجوب مراقبة الله تعالى، ووعد لمن أطاع الله، ووعيد لمن خالف أمره وعصاه.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾.

قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ هذه جملة خبرية. والملائكة: جمع ملك، وهم خلق من خلق الله- عز وجل- خلقهم الله من نور، يعبدون الله- عز وجل- ويفعلون ما يؤمرون، كما قال عز وجل: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء:٢٠]، وقال عز وجل: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:٦]، وجاز عطف قوله: ﴿وَمَلَائِكَتَهُ﴾ على اسمه- عز وجل- بالواو، لأنهم مشاركون بالفعل، وهو الصلاة على النبي ﷺ، وفي إضافتهم إلى الله- عز وجل- إشارة إلى شرفهم وفضلهم وتكريم لهم.

والإيمان بالملائكة؛ بوجودهم وأعمالهم وأحوالهم على جهة الإجمال والتفصيل، كما ورد في الكتاب والسنة ركن من أركان الإيمان الستة.

والصلاة في اللغة: الدعاء.

ومعنى صلاة الله- عز وجل- على نبيه ﷺ: ثناؤه عليه بين الملائكة في الملأ الأعلى.

قال أبو العالية: «صلاة الله: ثناؤه عليه عند الملائكة، وصلاة الملائكة الدعاء».

وقال ابن عباس- رضي الله عنهما: «﴿يُصَلُّونَ﴾: يُبَرِّكون»(١).

قال الترمذي: «وروي عن سفيان الثوري، وغير واحد من أهل العلم، قالوا: «صلاة الرب الرحمة، وصلاة الملائكة: الاستغفار»(٢).

ولا يمتنع أن يكون معنى صلاة الله على الرسول ﷺ بمعنى الثناء والتبريك والرحمة، وهكذا معنى صلاته- عز وجل- على المؤمنين، قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة:١٥٧].

---

(١) ذكره البخاري عنهما معلقًا في تفسير سورة الأحزاب-باب قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ «فتح الباري» (٨/ ٥٣٢)، وأخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٩/ ١٧٤).

(٢) ذكره الترمذي في الوتر-فضل الصلاة على النبي ﷺ (٤٨٥).

ومعنى صلاة الملائكة عليه ﷺ: دعاؤهم واستغفارهم له، وهكذا صلاة الملائكة على المؤمنين دعاؤهم واستغفارهم لهم، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا ﴿٤٣﴾﴾ [الأحزاب:٤٣].

وقال ﷺ: «**إن الله وملائكته يصلون على ميامن الصفوف**»(١).

أما السلام من الله على رسوله فهو تسليمه لنبيه ﷺ وحفظه له من الآفات والشرور ومن كل سوء ومكروه، وهكذا السلام من الله على المؤمنين أن يسلمهم من الآفات والشرور ونحو ذلك، قال تعالى في سلامه على عباده: ﴿تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٞۚ﴾ [الأحزاب:٤٤]، وقال تعالى: ﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ﴿٥٨﴾﴾ [يس:٥٨].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾.

بعدما أخبر عز وجل أنه هو وملائكته يصلون على النبي، أمر المؤمنين بالصلاة والسلام عليه ترغيبًا لهم بذلك وحثًّا وبيانًا لفضل الصلاة والسلام عليه ﷺ وشرفه وفضله وعلو مكانته عند الله وملائكته والمؤمنين.

وقوله: ﴿صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ أمر، والأصل في الأمر الوجوب، ولهذا فإن الصلاة على النبي ﷺ وإن كانت مستحبة في جميع الأوقات فإنها تجب في بعض الأحوال، كما في التشهد في الصلاة، كما في حديث فضالة بن عبيد- رضي الله عنه- قال: سمع رسول الله ﷺ رجلًا يدعو في صلاته، لم يمجد الله ولم يصل على النبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «**عجل هذا**»، ثم دعاه وقال له ولغيره: «**إذا صلى أحدكم فليبدأ بحمد الله- عز وجل- والثناء عليه، ثم ليصل على النبي، ثم ليدع بعد بما شاء**»(٢).

وهكذا علّم ﷺ أصحابه في الصلاة أن يصلوا عليه في التشهد، كما سيأتي في صفة

---

(١) أخرجه أبوداود في الصلاة-من يستحب أن يلي الإمام (٦٧٦)، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها (١٠٠٥)-من حديث عائشة-رضي الله عنها. وحسّنه الألباني بلفظ:«إن الله وملائكته يصلون على الذين يصلون الصفوف».

(٢) أخرجه أبوداود في الوتر-باب الدعاء (١٤٨١)، والنسائي في السهو (١٢٨٤)، والترمذي في الدعوات (٣٤٧٧)، وأحمد (٦/ ١٨)، وصححه الألباني.

الصلاة عليه ﷺ وقال لهم: «**صلوا كما رأيتموني أصلي**»(١).

وأكد السلام توكيدًا لفظيًّا بالمصدر، فقال: ﴿وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾؛ لأنه لم يتقدم ما يؤكده بخلاف الصلاة، فقد تقدم تأكيدها معنويًّا بذكر أن الله يصلي عليه وملائكته، وهذا أبلغ من التأكيد اللفظي.

والصلاة والسلام من المؤمنين على الرسول ﷺ: دعاؤهم الله أن يصلي ويسلم عليه.

وتصح الصلاة والسلام على النبي ﷺ بأي صيغة كانت، وفي أي وقت؛ لأن الله أطلق ذلك.

عن كعب بن عجرة- رضي الله عنه- قال: سألنا رسول الله ﷺ فقلنا: يا رسول الله، كيف الصلاة عليكم أهل البيت. فإن الله علمنا كيف نسلم عليكم؟ قال: «**قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد**»(٢).

وصفة السلام عليه ﷺ، كما أمر الله- عز وجل- في قوله: ﴿صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ أن نقول: اللهم صلِّ وسلم على نبينا محمد، أو صلى الله وسلم على نبينا محمد، ونحو ذلك.

ومن ذلك ما جاء في التشهد: «**السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته**»(٣).

والمشروع الجمع بين الصلاة والسلام عليه ﷺ كما أمر الله- عز وجل- وكما جاء

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٠٨)-من حديث مالك بن الحويرث-رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الأنبياء (٣٣٧٠)، ومسلم في الصلاة (٤٠٦)، وأبوداود في الصلاة-الصلاة على النبي ﷺ بعد التشهد (٩٧٦)، والنسائي في السهو-كيف الصلاة على النبي ﷺ (١٢٨٧)، والترمذي في الوتر-صفة الصلاة على النبي ﷺ (٤٨٣)، وابن ماجه في إقامة الصلاة-الصلاة على النبي ﷺ (٩٠٤).

(٣) أخرجه البخاري في الأذان (٨٣١)، ومسلم في الصلاة (٤٠٢)، وأبوداود في الصلاة (٩٦٨)، والنسائي في التطبيق (١١٦٢)، والترمذي في الصلاة (٢٨٩)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (٨٩٩)-من حديث عبدالله بن مسعود-رضي الله عنه.

في التشهد في الصلاة، لكن في التشهد في الصلاة يقدم السلام، كما جاء في صفة التشهد، وفي خارج الصلاة تقدم الصلاة على السلام، كما جاء في الآية: ﴿صَلُّوا۟ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسۡلِيمًا﴾.

والصلاة على النبي ﷺ مشروعة كل وقت، بل ومستحبة[١]، وتتأكد يوم الجمعة للأحاديث الواردة في ذلك، وتجب في بعض الأحوال كما في التشهد في الصلاة عند طائفة من أهل العلم، بل عدَّها بعض أهل العلم ركنًا من أركان الصلاة وشرطًا لصحتها[٢].

كما تتأكد أو تجب عند ذكره ﷺ، يدل على هذا قوله ﷺ: «**رغم أنف رجل ذكرت عنده، فلم يصلِّ عليَّ**»[٣]، وقوله في الحديث الآخر: «**البخيل من ذكرت عنده فلم يصلِّ عليَّ**»[٤].

فالصلاة عليه ﷺ واجبة، أمر الله- عز وجل- المؤمنين بها، وشرعها لهم رسوله ﷺ، وهي من أفضل الأعمال؛ ولهذا قدَّم- عز وجل- الخبر بأنه وملائكته يصلون على النبي على أمر المؤمنين بذلك بيانًا لفضل الصلاة عليه ﷺ، وعلو مكانته عند الله وفي الملأ الأعلى، وترغيبًا للمؤمنين على امتثال الأمر بالصلاة والسلام عليه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من صلى عليَّ صلاة واحدة صلى الله عليه بها عشرًا**»[٥].

---

(١) تكره الصلاة على النبي ﷺ عند الذبح؛ لأنه مقام توحيد وعبادة، فيقول الذابح فقط: بسم الله والله أكبر، ولا يصلي على النبي ﷺ في هذا المقام؛ لأن الصلاة عليه في هذا المقام تُشعر بإشراكه مع الله في الذبح، والذبح من أنواع العبادة التي يجب أن تكون خالصة لله-عز وجل-وكذلك لا تشرع في المواضع التي لا يشرع فيها السلام كحال الخطبة، إلا عند ذكره ﷺ، وكذا حال قضاء الحاجة ونحو ذلك.

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٤٥٠، ٤٥١-٤٦٢)، «تيسير الكريم الرحمن» (٦/ ٢٤٥).

(٣) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٥٤٥)-من حديث أبي هريرة-رضي الله عنه.

(٤) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٥٤٦)-من حديث علي بن أبي طالب-رضي الله عنه، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح غريب».

(٥) أخرجه مسلم في الصلاة-الصلاة على النبي ﷺ بعد التشهد (٤٠٨)، وأبوداود في الوتر-في الاستغفار (١٥٣٠)، والنسائي في السهو-الفضل في الصلاة على النبي ﷺ (١٢٩٦)، والترمذي في الوتر-فضل =

وعن عمر- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**أتاني جبريل فقال: من صلى عليك من أمتك واحدة صلى الله عليه عشر صلوات، ورفعه عشر درجات**»(١).

والصلاة عليه ﷺ تبلغه من البعيد والقريب، فعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تجعلوا بيوتكم قبورًا، ولا تجعلوا قبري عيدًا، وصلوا عليَّ فإن صلاتكم تبلغني حيثما كنتم**»(٢).

والصلاة على غيره ﷺ من المؤمنين تشرع مع الصلاة عليه تبعًا لا استقلالًا كأن يقال: اللهم صل وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم إلى يوم الدين، ونحو ذلك.

ومعنى: صلاة المؤمنين بعضهم على بعض: الدعاء من بعضهم لبعض.

ومعنى سلام بعضهم على بعض: الدعاء لهم بالسلامة من الآفات والشرور والفتن ومن كل سوء ومكروه.

وهذا مما يؤكد على أنه ينبغي للمسلِّم والمسلَّم عليه أن يستحضروا هذا المعنى، قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة:١٠٣] أي: ادع لهم، وقال ﷺ: «**اللهم صل على آل أبي أوفى**»(٣).

وسأل النبي ﷺ رجل فقال: يا رسول الله، هل بقي من بر أبويّ شيء أبرهما به بعد موتهما؟ قال: «**نعم، الصلاة عليهما والاستغفار لهما**»(٤).

أي: الدعاء والاستغفار لهما.

الصلاة على النبي ﷺ (٤٨٥).

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٢/ ١٨٩).

(٢) أخرجه أبوداود في المناسك-باب زيارة القبور (٢٠٤٢)، وصححه الألباني.

(٣) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٩٨)، ومسلم في الزكاة (١٧٨)، وأبوداود في الزكاة-دعاء المصدق لأهل الصدقة (١٥٩٠)، والنسائي في الزكاة-صلاة الإمام على صاحب الصدقة (٢٤٥٩)، وابن ماجه في الزكاة-ما يقال عند إخراج الزكاة (١٧٩٦)، وأحمد (٤/ ٣٥٣، ٣٥٤، ٣٥٥)-من حديث عبدالله بن أبي أوفى-رضي الله عنه.

(٤) أخرجه أبوداود في الأدب (٥١٤٢)، وابن ماجه (٢٦٦٤) من حديث أبي أسيد مالك بن ربيعة الساعدي رضي الله عنه.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات وجود الملائكة، وهم عالم غيبي خلقوا من نور؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ﴾ الآية.

٢- الإخبار بأن الله- عز وجل- وملائكته الكرام يصلون على النبي؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ﴾.

٣- شرف الملائكة عند الله- عز وجل- حيث أضافهم لنفسه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ﴾.

٤- مشروعية الصلاة والسلام على النبي ﷺ وتأكيد ذلك وأنها من الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ٥٦﴾، وهي من واجبات الصلاة، وذلك في التشهد.

٥- إثبات نبوته ﷺ، وعلوُّ منزلته ﷺ ورفعة قدره عند ربه، وفي الملأ الأعلى، وعند المؤمنين.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا (٥٧) وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا (٥٨)﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا (٥٧)﴾.

قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ جملة خبرية، ومعنى ﴿يُؤْذُونَ اللَّهَ﴾ أي: يصفونه بما هو منزه عنه، وما لا يليق به، ويعصونه ويخالفون أمره ويصدون الناس عن دينه وغير ذلك.

ومن ذلك جعل الشركاء معه، كما قال المشركون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر:٣].

وجعْل الولد له، كما قالت اليهود والنصارى فيما حكى الله عنهم: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٣٠)﴾ [التوبة:٣٠]، وكما قال عز وجل عن المشركين: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨)﴾ [مريم:٨٨]، [الأنبياء:٢٦].

وعن أبي موسى الأشعري- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**لا أحد أصبر على أذى يسمعه من الله عز وجل، إنهم ليدعون له ولدًا وإنه ليعافيهم ويرزقهم**»(١).

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «**قال الله- عز وجل: كذّبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي، فقوله: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون عليّ من إعادته، وأما شتمه إياي، فقوله: اتخذ الله ولدًا، وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد**»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٩٩)، ومسلم في صفة القيامة (٢٨٠٤).

(٢) أخرجه البخاري في التفسير (٤٩٧٤، ٤٩٧٥)، والنسائي في الجنائز (٢٠٧٨).

ومن ذلك وصفه بالنقص، كالفقر والتعب وغير ذلك، كما قالت اليهود: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران:١٨١]، وقولهم: إنه عندما خلق السموات والأرض تعب فاستراح يوم السبت، فردّ الله عليهم بقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ [ق:٣٨] أي: من تعب أو نصب أو إعياء.

وكإنكار صفات كماله أو بعضها، كما فعلت المعطلة والجهمية والمعتزلة والأشاعرة وغيرهم.

وكتمثيل صفاته بصفات المخلوقين، كما فعل أهل التمثيل والتشبيه.

ومن ذلك سب الدهر، كما قال عز وجل في الحديث القدسي: «**يؤذيني ابن آدم يسب الدهر، وأنا الدهر، بيدي الأمر، أقلِّب الليل والنهار**»(١).

ومن ذلك مضاهاة خلق الله- عز وجل- بالتصوير، قال تعالى في الحديث القدسي: «**ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي، فليخلقوا حبة، أو ليخلقوا شعيرة**»(٢).

﴿وَرَسُولَهُۥ﴾ أي: ويؤذون رسوله، وفي عطف وصف الرسول ﷺ على اسم الله- عز وجل- بالواو التي تقتضي الجمع والتشريك دليل على أن أذية الرسول ﷺ أذية لله، كما قال ﷺ: «**ومن آذاني فقد آذى الله**»(٣)، كما أن طاعته ﷺ طاعة لله، قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠].

وأذية الرسول ﷺ تكون بالأذية لشخصه في حياته بالقول والفعل؛ فالأذية بالقول كرمْيه ﷺ بأنه ساحر أو شاعر أو كاهن أو مجنون، كما ذكر الله- عز وجل- بالقرآن، ومن ذلك الطعن في أزواجه ﷺ كعائشة- رضي الله عنها- وفي تزويجه صفية بنت حيي- رضي الله عنها- وفي إمرة أسامة بن زيد وغير ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الجاثية (٤٨٢٦)، ومسلم في كتاب الألفاظ في الأدب-باب النهي عن سب الدهر (٢٢٤٦)، وأبوداود في الأدب (٥٢٧٤)-من حديث أبي هريرة-رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في اللباس (٥٩٥٣)، ومسلم في اللباس والزينة (٢١١١)-من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) سيأتي تخريجه قريبًا.

والأذية له بالفعل كما في وضع سفهاء قريش سلى الجزور على ظهره وهو ساجد ووضع القاذورات على عتبة بابه، ووضع الشوك في طريقه، كما فعلت أم جميل، ورمي سفهاء أهل الطائف له بالحجارة حتى أدموا عقبيه، وكسر رباعيته وشجه في رأسه ووجنتيه يوم أُحد، ومحاولة اليهود إلقاء الحجر عليه من أعلى، ومحاولة قتله أكثر من مرة، ومحاربته ودينه والتحزب ضده وغير ذلك.

كما تكون أذيته ﷺ بمعصيته ومخالفة أمره والصد عن اتباعه، فكل ذلك مما يتأذى به ﷺ حتى إنه ليخشى عليه من ذلك، ولهذا يسليه الله- عز وجل- ويطمئنه بقوله: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ [فاطر:٨]، وقوله: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣)﴾ [الشعراء:٣]، وقوله: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ [البقرة:٢٧٢].

عن عبدالله بن مغفل المزني قال: قال النبي ﷺ: **«الله الله في أصحابي، لا تتخذوهم غرضًا بعدي، فمن أحبهم فبحبي أحبهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه»**(١).

والآية عامة في كل أذية له ﷺ لشخصه أو لدينه، بقول أو فعل، فمن آذاه فقد آذى الله، كما أن من أطاعه فقد أطاع الله.

﴿لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ هذا خبر «إنَّ» في قوله: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾**، وفي هذا أعظم التهديد والوعيد لمن آذى الله ورسوله»؛ لأن الله توعده باللعنة في الدنيا والآخرة والعذاب المهين مما يدل على أن هذا من أكبر الكبائر.

واللعن من الله- عز وجل- هو الطرد والإبعاد عن رحمته.

فالمعنى: أبعدهم الله عن رحمته في الدنيا والآخرة، وإذا طردهم الله- عز وجل- عن رحمته في الدنيا والآخرة فليس لهم إلا عذابه في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا بالشقاء والمصائب وقتالهم ومعاقبتهم وتحتم قتل من سب الرسول ﷺ وآذاه منهم(٢)، وفي

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٨٧)، والترمذي في المناقب، باب فيمن سب النبي ﷺ (٣٨٦٢)، وقال الترمذي: «حديث حسن غريب».

(٢) انظر: «تيسير الكريم الرحمن» (٦/ ٢٤٦).

الآخرة في النار، ولهذا قال بعد هذا:

﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ وهذه الجملة معطوفة على ما قبلها، و«أعد» بمعنى: جهز.

﴿عَذَابًا مُّهِينًا﴾ أي: عذابًا وعقوبة تهينهم وتذلهم حسًّا ومعنى؛ حسًّا بما يقاسونه من حر النار ولهيبها وجحيمها وزقومها وزمهريرها، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء:٥٦].

وتهينهم معنًى، أي: إهانة معنوية تحطم معنوياتهم من التقريع لهم والتوبيخ والتبكيت وتيئيسهم من الخروج منها، كقوله عز وجل: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾ [المؤمنون:١٠٨]، وقوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ [الأنعام:١٣٠]، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ [الزمر:٧١]، وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾﴾ [الملك:٨]، وقوله تعالى: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [الزخرف:٧٧]، وقوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الدخان:٤٧-٥٠]، أي: ذق العذاب والإهانة ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾، أي: في زعمك، وفي هذا غاية التهكم به، والإهانة له.

حتى إن إبليس لعنه الله يتبرأ منهم وهو معهم في النار، ويقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [إبراهيم:٢٢].

والعذاب المعنوي لا يقل عن العذاب الحسي، بل هو أشد منه؛ لأن العذاب المعنوي ينصب على القلب، ويحطم المعنويات.

ولو أن شخصين فعلا خطأ فجيء بهما إلى الحاكم فضرب أحدهما خمسين سوطًا، وأطلق سراحه، وأجلس الآخر عنده، فكان بين آونة وأخرى يلحظه بعينيه، ويقول: أنت فعلت كذا، وأنت فعلت كذا، يوبخه، لكان هذا أشد عليه مما لو ضُرب مائة

سوط، وأطلق سراحه مع صاحبه، ولهذا المعنى استحب أهل العلم أن يختن الطفل وهو صغير في المهد؛ لأنه في هذا السن لا يشعر إلا بالألم الحسي، فإذا خف الألم نام، فيشفى سريعًا بإذن الله- عز وجل- بخلاف ما لو أُخِّر ختانه حتى كبر فإنه يجتمع عليه مع الألم الحسي الألم المعنوي والتخوف، مما يسبب بطء الشفاء.

وهذا اللعن والعذاب المهين مجازاة لهم على أذيتهم لله ورسوله وتكبرهم عن الحق وعصيانهم ومخالفتهم أمر الله ورسوله؛ ولهذا يقال لأحدهم: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ [الدخان:٤٩] أي: ذق العذاب والإهانة الحسية والمعنوية؛ لأنك خالفت أمر الله ورسوله تكبرًا وزعمًا منك إنك أنت العزيز الكريم.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾.

بعد ما ذكر الله- عز وجل- الوعيد الشديد لمن آذى الله ورسوله وذلك بطردهم عن رحمته في الدنيا والآخرة، وإعداد العذاب المهين لهم، ذكر حكم الذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ «الذين» اسم موصول في محل رفع مبتدأ يفيد العموم فكل من آذى المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فهو داخل تحت الوعيد المذكور سواء كان مؤمنًا أو كافرًا.

وأذية المؤمنين قد تكون بالقول باللسان من السب والشتم والكذب وشهادة الزور عليهم والقذف لهم ونحو ذلك.

وقد تكون بالفعل بالضرب أو القتل أو الاعتداء على ممتلكاتهم بالغصب أو السرقة أو الغش، أو التقصير فيما يتولاه من أعمال المسلمين، كما هو حال الكثيرين، ونحو ذلك.

وكأن يؤذي جيرانه بتتبع عوراتهم أو أن يضع في داره ما يؤذي جيرانه من رحى أو نار تكون خطرًا على جيرانه أو تؤذيهم بدخانها ونحو ذلك.

وذكر الله المؤمنات؛ لزيادة التأكيد وبيان أن أذية المؤمنين ذكورهم وإناثهم سواء في التحريم والجرم والعقوبة، لكن كلما كان المؤمن أو المؤمنة حقه أعظم كانت أذيته أشد

كالقريب والجار.

﴿بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟﴾ ﴿مَا﴾: اسم موصول بمعنى «الذي» أي: بغير الذي اكتسبوه، أو مصدرية، أي: بغير اكتسابهم، والمعنى: بغير جرم ارتكبوه، أو ظلم واعتداء فعلوه وفي هذا الرد على الجبرية القائلين بأن الإنسان مجبور على أفعاله، لا اختيار له.

﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَـٰنًا﴾ الجملة في محل رفع خبر المبتدأ ﴿وَٱلَّذِينَ﴾.

والبهتان: هو الكذب الذي يبهت صاحبه، يقال: بُهت الرجل، أي: انقطع وتحير، قال تعالى: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ [البقرة:٢٥٨] فالكذب يبهت قائله ويحيرهويبهت المرمي به ويحيره.

عن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**أتدرون ما الغيبة**»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «**ذكرك أخاك بما يكره**». فقيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «**إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهتّه**»[1].

ومعنى بهتَّه: كذبت عليه.

وعن عائشة- رضي الله عنها- أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه: «**أي الربا أربى عند الله**؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: **أربى الربا استحلال عرض امرئ مسلم**، ثم قرأ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾»[2].

ووصف الأذى سواء كان بقول أو بفعل بالبهتان وهو الكذب، أما الأذى بالقول فلا إشكال في وصفه بالبهتان، وأما الأذى بالفعل فكأن صاحبه يرى أنه محق بما فعل وهو كاذب، ومن هنا وُصف بالبهتان.

﴿وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ أي: ذنبًا بينًا ظاهرًا، قال ابن كثير[3]: «وهذا هو البهت البيّن، أن

---

(١) أخرجه مسلم في البر-باب تحريم الغيبة (٢٥٨٩)، وأبوداود في الأدب-باب الغيبة (٤٨٧٤)، والترمذي في أبواب البر-ما جاء في الغيبة (١٩٣٤).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣١٥٣)-الأثر (١٧٧٨).

(٣) في «تفسيره» (٦/ ٤٧٠).

يحكي أو ينقل عن المؤمنين والمؤمنات ما لم يفعلوه، على سبيل العيب والتنقص لهم، ومن أكثر من يدخل في هذا الوعيد الكفرة بالله ورسوله، ثم الرافضة الذين ينتقصون الصحابة ويعيبونهم بما قد برأهم الله منه، ويصفونهم بنقيض ما أخبر الله عنهم، فإن الله- عز وجل- قد أخبر أنه قد رضي عن المهاجرين والأنصار ومدحهم، وهؤلاء الجهلة الأغبياء يسبونهم وينتقصونهم، ويذكرون عنهم ما لم يكن، ولا فعلوه أبدًا، فهم في الحقيقة منكوسو القلوب، يذمون الممدوحين، ويمدحون المذمومين».

فأذية المؤمنين والمؤمنات بغير جرم اكتسبوه بهتان وكذب وذنب بيّن محرم غاية التحريم، كما تحرم أيضًا أذية من دخل في حكم المؤمنين من ذمي ومعاهد ومستأمن.

لكن إن كانت أذية المؤمنين والمؤمنات أو من دخل في حكمهم بسبب جرم كان منهم ومن باب معاقبتهم، أو أخذ الحق منهم، أو إقامة الحد عليهم، أو لأجل منعهم من ظلم أنفسهم أو غيرهم ونحو ذلك، فليس ذلك من البهتان والإثم، بل إن هذا قد يكون واجبًا لمنعهم من ظلم أنفسهم وظلم غيرهم شريطة ألا يزيد ذلك عن جرمهم، ولا يسمى هذا أذية إلا من باب المشاكلة كما في قوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [٤٠]، وقوله: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ﴾ [النحل:١٢٦].

الفوائد والأحكام:

١- الوعيد الشديد والتهديد الأكيد للذين يؤذون الله ورسوله، وأن ذلك من كبائر الذنوب؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗا ٥٧﴾ فهم ملعونون مبعدون عن رحمة الله في الدنيا والآخرة ولهم العذاب المهين في النار.

٢- أن من آذى رسول الله ﷺ فقد آذى الله؛ لأن الله- عز وجل- عطف اسم الرسول أو وصفه على اسمه- عز وجل- فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾.

٣- وجوب تعظيم الله- تعالى- وتعظيم رسوله ﷺ.

٤- دفاع الله- عز وجل- عن رسوله ﷺ.

٥- إثبات الآخرة، والنار وأنها معدة لتعذيب الكفار وإهانتهم.

٦- تحريم أذية المؤمنين والمؤمنات بغير جرم كان منهم بأي نوع من الأذى، قولًا كان

أو فعلًا، أو غير ذلك، والتحذير الشديد من ذلك، وأن من آذاهم فقد احتمل بهتانا عظيمًا، وذنبًا بيِّنًا كبيرًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾، وفي هذا وعيد وتهديد لمن آذى المؤمنين.

٧- دفاع الله- عز وجل- عن المؤمنين.

٨- أن أذية من ارتكب جرمًا من المؤمنين وعقوبته على ذلك ليست من الأذى المتوعد عليه؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟﴾.

٩- الرد على الجبرية الذين يقولون إن الإنسان مجبور على أفعاله لا اختيار له؛ لقوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ۝٥٩﴾.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ﴾ تصدير الخطاب بالنداء له ﷺ، ونداؤه بوصف النبوة، وأمره بقوله تعالى: ﴿قُل﴾: مع أنه مأمور بتبليغ القرآن كله، وهو واجب عليه، بل هو رسالته ومهمته التي بعثه الله بها؛ كل هذا يدل على العناية والاهتمام بها بعد هذا الخطاب والنداء والأمر.

وقدّم أزواجه ﷺ؛ لأن الغيرة عليهن أشد، ومسؤولية الزوج عنهن أعظم، وهن اللاتي كن في عصمته ﷺ حال نزول الآية، رضي الله عنهنّ.

﴿وَبَنَاتِكَ﴾: وهن أربع: فاطمة ورقية وزينب وأم كلثوم- رضي الله عنهن- والمقصود من كان منهن موجودًا حال نزول الآية؛ لأنه إذا كانت الآية نزلت في السنة السادسة من الهجرة فإن بعضهن قد مات.

وقدمهن على نساء المؤمنين؛ لأن مسؤولية الوالد عن أولاده من بنين وبنات أعظم، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ [الأحزاب:٦].

وقال ﷺ: «**خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى، وابدأ بمن تعول**»(١).

﴿وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ من زوجات وبنات، وأمهات وأخوات، وعمات وخالات وغيرهن.

وفي إضافة النساء إلى المؤمنين حث وإغراء على الامتثال؛ ولأن المؤمنين هم الذين يمتثلون أوامر الله ويجتنبون نواهيه وتنفعهم الذكرى، كما قال عز وجل: ﴿وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٥٥﴾ [الذاريات:٥٥].

كما أنه يجب على من كان في حكم المؤمنين من الذميات والمعاهدات والمستأمنات أن يلتزمن ذلك من حيث الظاهر لئلا يُفتتن بهن.

كما أن في إضافتهن إلى المؤمنين إشارة إلى مسؤولية الرجال المؤمنين عن نسائهم كما

(١) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٢٦)، وأبوداود في الزكاة (١٦٧٦)، والنسائي في الزكاة (٢٥٣٤)-من حديث أبي هريرة-رضي الله عنه.

قال عز وجل: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء:٣٤]، وقال ﷺ: «**والرجل راعٍ في أهل بيته ومسؤول عن رعيته**»(١).

﴿يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ﴾ هذه الجملة في محل جزم جواب الأمر ﴿قُل﴾.

ويحتمل أن تكون الجملة في محل نصب مقول القول ﴿قُل﴾.

ومعنى ﴿يُدۡنِينَ﴾ يقربن ويرخين، و﴿مِن﴾: للتبعيض، أي: يقربن ويرخين عليهن بعض جلابيبهن.

والجلابيب: جمع جلباب، وهو الرداء والملحفة قال الجوهري في «الصحاح»(٢): الجلباب: الملحفة. وأنشد:

تمشي النسور إليه وهي لاهية ... مشي العذارى عليهن الجلابيب

أي: يغطين بها وجوههن وصدورهن، وهو شبه العباءة يغطي جميع بدن المرأة.

وقال: ﴿يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ﴾، ولم يقل: «يدنين إليهن جلابيبهن»؛ ليكون الجلباب عليها وملاصقًا لبدنها شاملًا له.

والمعنى: يقربن ويرخين عليهن بعض جلابيبهن وأرديتهن اللاتي يرتدينها ويلبسنها، بحيث تغطي الوجه والصدر والنحر مع بقية الجسم إذا خرجن لحاجاتهن، أو كن بحضرة رجال أجانب.

عن أم سلمة- رضي الله عنها- قالت: «لما نزلت هذه الآية ﴿يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ﴾ خرج نساء الأنصار كأن على رءوسهن الغربان من السكينة، وعليهن أكسية سود يلبسنها»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في الجمعة (٨٩٣)، ومسلم في الإمارة (١٨٢٩)، وأبوداود في الخراج (٢٩٢٨)، والترمذي في الجهاد (١٧٠٥)-من حديث ابن عمر-رضي الله عنهما.

(٢) انظر:«الصحاح» مادة:«جلب»، وقد نسب الجوهري البيت المذكور لـ «جنوب» أخت عمرو ذي الكلب في رثائها له.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣١٥٤)-الأثر (١٧٧٨٥)، وانظر:«تفسير ابن كثير» (٦/ ٤٧١).

ولما أمر ﷺ بخروج النساء إلى العيد للصلاة قالت أم عطية: يا رسول الله، إحدانا ليس لها جلباب؟ قال: «**تلبسها أختها من جلبابها**»(١).

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى أمر أزواج النبي ﷺ وبناته ونساء المؤمنين بأن يدنين عليهن من جلابيبهن.

﴿أَدۡنَىٰٓ﴾: أقرب، ﴿أَن يُعۡرَفۡنَ﴾، أي: يميزن عن غيرهن من نساء الجاهلية، وذلك بأن يعرفن ويميزن بأنهن مؤمنات متحجبات عفيفات محتشمات، بعيدات عن الريبة، فلا يطمع بهن مَن في قلبه مرض.

وكذا ليميزن عن الإماء، ويعرفن بأنهن حرائر؛ لأن الحرائر أبعد عن الريبة والفاحشة من الإماء.

ولهذا رُوي أن هندًا امرأة أبي سفيان لما أُخذ عليهن البيعة بأن لا يسرقن ولا يزنين إلى غير ذلك قالت: «وهل تزني الحرة؟»(٢).

فدلت الآية على وجوب ستر المرأة وجهها عند الرجال الأجانب ولهذا قالت عائشة- رضي الله عنها- في ذكرها حديث الإفك: «فخمرت وجهي» يعني: لما رأت صفوان(٣).

وقد استدل شيخ الإسلام ابن تيمية بقوله تعالى: ﴿قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ﴾ الآية على أن الحجاب خاص بالحرائر دون الإماء؛ لأنه لم يقل: «وما ملكت يمينك»، والإماء لا يدخلن في نساء المؤمنين، قال: مع ما في الصحيح أنه لما اصطفى صفية بنت حيي قالوا: «إن حجبها فهي من أمهات المؤمنين، وإلا فهي مما ملكت يمينه»(٤).

---

(١) سيأتي تخريجه قريبًا.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٨/ ٥١٢) من طريق العوفي عن ابن عباس-رضي الله عنهما-من أثر طويل. وهذا الطريق ضعيف، وذكره ابن كثير في «تفسيره» (٨/ ١٢٥). وقال:«وهذا أثر غريب وفي بعض ألفاظه نكارة».

(٣) سبق تخريجه.

(٤) أخرجه البخاري في المغازي (٤٢١٣)-من حديث أنس بن مالك-رضي الله عنه.

وهذا يدل على أن الحجاب عندهم مختص بالحرائر(١).

وهكذا كانت الإماء في عهده ﷺ وفي عهد خلفائه لا يحتجبن؛ نظرًا لابتذالهن في الخدمة، ودنو مكانتهن، فلا يُتبعهن نفسه إلا رديء النفس ضعيف الإيمان، لكن إذا خيفت الفتنة، وضعف داعي الإيمان، بل وضعفت النفوس، فإنه يجب على الإماء من الخدم وغيرهن الحجاب، كما هو الحال بالنسبة للقواعد من النساء اللاتي قال الله فيهن بعدما أباح لهن وضع الثياب، قال: ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾ [النور:٦٠] بل إذا خيفت الفتنة وجب عليهنّ الاستعفاف.

﴿فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ أي: فلا يتعرض لهن أحد بأذى ممن في قلوبهم مرض لمعرفتهم أنهن حرائر مؤمنات محجبات عفيفات محتشمات بعيدات عن الريبة والسوء.

وهذا من عناية الله- عز وجل- بأزواجه ﷺ وبناته ونساء المؤمنين وحفظه لهن؛ لأن في الحجاب لهن عزة ورفعة وكرامة وصيانة وحفظًا وسلامة من الفتن والشرور، وصدق الله العظيم: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٥٠﴾ [المائدة:٥٠].

﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٥٩﴾ «كان»: مسلوبة الزمان، أي: كان الله- عز وجل- وما زال غفورًا رحيمًا، أي: ذا مغفرة واسعة، يستر الذنب ويتجاوز عن العقوبة. وذا رحمة واسعة عامة وخاصة.

وكثيرًا ما يقرن- عز وجل- بين صفة المغفرة وصفة الرحمة؛ لأن بالمغفرة زوال المرهوب، وبالرحمة حصول المطلوب، وغالبًا ما يقدم المغفرة على الرحمة؛ لأن التخلية قبل التحلية.

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام.

٢- وجوب الحجاب على أزواج النبي ﷺ وبناته ونساء المؤمنين، وذلك بأن تغطي المرأة وجهها وجميع بدنها أمام الرجال الأجانب؛ لقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ﴾.

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٤/ ٤٩٥).

والأدلة على وجوب الحجاب على المرأة كثيرة معلومة، منها:

قوله تعالى في هذه السورة: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب:٥٣].

وإذا كان هذا خطابا لمن سأل أزواج النبي ﷺ وهن أطهر نساء العالمين، فغيرهن يجب عليهن الحجاب من باب أولى؛ لأن خوف الفتنة بهن وعليهن أشد.

ومنها هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾﴾.

ففي هذه الآية الكريمة أَمَرَ الله- عز وجل- نبيه ﷺ بأن يأمر أزواجه وبناته ونساء المؤمنين بأن يدنين عليهن من جلابيبهن، وذلك عند الخروج من البيت للحاجة ولهذا تسمى هذه الآية آية الحجاب.

قال ابن عباس- رضي الله عنهما- في تفسير الآية: «أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن في حاجة أن يغطين وجوههن من فوق رؤوسهن بالجلابيب، ويبدين عينًا واحدة»(١).

وعن أم سلمة- رضي الله عنها- قالت: «لما نزلت هذه الآية: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ خرج نساء الأنصار كأن على رؤوسهن الغربان من أكسية يلبسنها»(٢).

وهكذا رُوِيَ عن جمع من السلف تفسير الآية بنحو من هذا(٣).

واختاره جمع من المفسرين منهم: الطبري(٤)، والجصاص(٥)، والزمخشري(٦)،

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٩/ ١٨١)-من طريق علي بن أبي طلحة-عن ابن عباس، وأخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣١٥٤).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣١٥٤.

(٣) انظر:«جامع البيان» (١٩/ ١٨١-١٨١)، «تفسير ابن أبي حاتم» (١٠/ ٣١٥٤-٣١٥٥)، «تفسير ابن كثير» (٦/ ٤٧٠-٤٧١)، «الدر المنثور» (٥/ ٢٢١).

(٤) في «جامع البيان» (٢١/ ٣٣).

(٥) في «أحكام القرآن» (٥/ ٢٥٤).

(٦) في «الكشاف» (٣/ ٢٧٤).

والقرطبي[١]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية[٢]: «ثم لما أنزل الله- عز وجل- آية الحجاب بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ حجب النساء عن الرجال».

ومنها قوله تعالى في سورة النور: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ [النور:٣١]. فإن الوجه من أعظم الزينة المنهي عن إبدائها، بل هو أصل الزينة وموضع الجمال من المرأة وعدمه، وماذا عساه أن يُخفى من الزينة إذا انكشف الوجه، وماذا بقي مستورًا إذا كشف الوجه، لم يبق إلا ما كان من العورة.

أما قوله: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾، فالمراد به ما لا يمكن ستره وإخفاؤه كالثياب الظاهرة ونحو ذلك، كما سبق بيانه.

ومنها: قوله تعالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور:٣١]، عن عائشة- رضي الله عنها- قالت: «يرحم الله نساء المهاجرات الأُول لما أنزل الله: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ شققن مروطهن فاختمرن بها» وفي رواية أنها كانت تقول: «لما نزلت هذه الآية: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ أخذن أزرهن فشققنها من قبل الحواشي فاختمرن بها»[٣].

وهذه الآية من أقوى الأدلة على وجوب ستر الوجه؛ لأن الخمار وهو ما يوضع على الرأس إذا أسدل وأرخي على الجيب ستر الوجه والنحر من باب أولى.

ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النور:٣١]. فإظهار الزينة- ومن أهمها كشف الوجه- لا يجوز إلا لمن استثنى الله- عز وجل- في هذه الآية.

ومثل هذه الآية قوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ

---

(١) في «الجامع لأحكام القرآن» (١٤/ ٢٤٣).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ١١٠).

(٣) أخرجه البخاري في التفسير (٤٧٥٩)، وأبوداود في اللباس (٤١٠٢).

﴿وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَۚ﴾ [الأحزاب:٥٥].

قال ابن كثير(١): «لما أمر تعالى بالحجاب من الأجانب بيّن أن هؤلاء الأقارب لا يجب الاحتجاب منهم».

ومنها قوله: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ﴾ [النور:٣١] فإذا نهين عن الضرب بأرجلهن؛ لئلا يعلم ما يخفين من زينتهن من الخلاخل ونحوها، فهن منهيات عن كشف وجوههن من باب أولى وأحرى لأنها أصل الزينة.

ومنها قوله تعالى: ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍۖ﴾ [النور:٦٠].

فيجوز للقواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحًا وضع الثياب وكشف الوجه والكفين والرأس، ونحو ذلك، ما لم يردن بذلك التبرج بالزينة.

وفي ذلك دلالة على وجوب الحجاب مطلقًا بالنسبة لغير القواعد، وكذا بالنسبة للقواعد إذا قصدن بذلك التبرج بالزينة(٢).

ومنها ما جاء في حديث عائشة- رضي الله عنها- قالت: «كان الركبان يمرون بنا ونحن محرمات مع رسول الله ﷺ، فإذا حاذونا سدلت إحدانا جلبابها على وجهها من رأسها، فإذا جاوزونا كشفناه»(٣).

---

(١) في «تفسيره» (٦/ ٤٤٦).

(٢) انظر:«أضواء البيان» (٦/ ٥٩١، ٥٩٢)، «رسالتان في الحجاب» لسماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز، وفضيلة الشيخ محمد بن عثيمين-رحمهما الله تعالى. وانظر:«حكم السفور والحجاب ونكاح الشغار» لسماحة الشيخ ابن باز رحمه الله، ص(١٥-٢٣).

(٣) أخرجه أبوداود في المناسك-المحرمة تغطي وجهها (١٨٣٣)، وابن ماجه في المناسك-المحرمة تسدل الثوب (٢٩٣٥)، وفي إسناده:يزيد بن أبي زياد، قال ابن حجر:«ويشهد له ما روي عن فاطمة بنت المنذر قالت:«كنا نخمر وجوهنا ونحن محرمات، ونحن مع أسماء بنت أبي بكر الصديق» أخرجه مالك في «الموطأ» كتاب الحج-تخمير المحرم وجهه، ص(٤١٥)، حديث (١٠٥٠)-وإسناده صحيح. وهذا-والله أعلم-يحتمل أنهن يفعلن ذلك عند الحاجة، كما أشار إليه ابن قدامة في «المغني» (٣/ ٣٢٦).

وهذا من أقوى الأدلة على وجوب الحجاب، إذ لو لم يكن الحجاب واجبًا لما احتجبن عند مرور الركبان وهن محرمات؛ لأن الواجب على المحرمة كشف وجهها ما لم تكن بحضرة رجال أجانب، وهذا باتفاق أهل العلم(١).

ومنها قول عائشة- رضي الله عنها- في ذكر حديث الإفك: «**فخمرت وجهي وكان قد رآني قبل الحجاب**» تعني صفوان بن المعطل- رضي الله عنه(٢).

وقولها في قصة خروج سودة- رضي الله عنها، ورؤية عمر- رضي الله عنه- إياها قالت عائشة: «خرجت سودة بعدما ضرب الحجاب، فرآها عمر...» الحديث(٣).

ومنها: حديث أم سلمة- رضي الله عنها- قالت: بينما نحن عند رسول الله ﷺ أقبل ابن أم مكتوم فدخل عليه وذلك بعدما أمرنا بالحجاب» الحديث(٤).

فهذا من عائشة وأم سلمة- رضي الله عنهما- يدل على وجوب الحجاب.

ومنها: أن النبي ﷺ لما أمر بإخراج النساء إلى مصلى العيد. قالت أم عطية: يا رسول الله، إحدانا لا يكون لها جلباب، فقال النبي ﷺ: «**لتلبسها أختها من جلبابها**»(٥).

ففي هذا الحديث دليل على اعتياد النساء عدم الخروج بلا جلباب.

وفي قوله ﷺ: «**لتلبسها أختها من جلبابها**» دليل على وجوب التستر.

ومنها: قوله ﷺ: «**من جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة**»، فقالت أم سلمة: فكيف تصنع النساء بذيولهن؟ قال: «**يرخينه شبرًا**» قالت: إذن تنكشف أقدامهن. قال: «**يرخينه ذراعًا ولا يزدن عليه**»(٦).

---

(١) انظر: «المغني» (٣/ ٣٢٦)، وانظر: «رسالتان في الحجاب» ص(٣٣).

(٢) أخرجه البخاري في المغازي (٤١٤١)، ومسلم في فضائل الصحابة-فضل عائشة-رضي الله عنها- (٢٤٨٨)، وأبوداود في النكاح (٢١٣٨)، وابن ماجه في النكاح (١٩٧٠)، وأحمد (٦/ ١٩٤)-من حديث عائشة-رضي الله عنها.

(٣) سيأتي تخريجه بتمامه.

(٤) أخرجه أبوداود في اللباس (٤١١٢)، والترمذي في الأدب (٢٧٧٨)، وقال: «حديث حسن صحيح».

(٥) أخرجه البخاري في الحيض-شهود الحائض العيدين (٣٢٤)، ومسلم في العيدين-إباحة خروج النساء في العيدين إلى المصلى (٨٩٠)-من حديث أم عطية-رضي الله عنها.

(٦) أخرجه النسائي في الزينة-ذيول النساء (٥٣٣٨)، والترمذي في اللباس-ما جاء في ذيول النساء =

فإذا وجب ستر القدمين فستر الوجه أوجب من باب أولى وأحرى.

ومنها: قوله ﷺ: «**إذا كان لإحداكن مكاتب، وكان عنده ما يؤدي فلتحتجب منه**»(١)؛ وذلك لأن المملوك لا يجب على سيدته الاحتجاب منه.

فإذا كان هذا في المكاتب يجب الاحتجاب عنه إذا كان عنده ما يؤدي فغيره يجب الاحتجاب عنه من باب أولى وأحرى.

هذه أهم الأدلة التي استُدل بها على وجوب الحجاب على المرأة المسلمة وهي أدلة واضحة ولله الحمد، وهناك أحاديث أخرى ذكروها لكنها ليست بواضحة الدلالة، أو ضعيفة فآثرت تركها وفيما ذكر كفاية وغنية لطالب الحق.

وقد ذهب بعض أهل العلم إلى جواز كشف المرأة وجهها عند الرجال الأجانب مستدلين بعدد من الأدلة لا يسلم لهم منها دليل واحد، إما لضعفها، أو لعدم دلالتها على ما ذهبوا إليه، ومنها ما يلي:

ما رواه خالد بن دريك عن عائشة- رضي الله عنها- أن أسماء بنت أبي بكر- رضي الله عنها- دخلت على رسول الله ﷺ وعليها ثياب رقاق، فأعرض عنها رسول الله ﷺ، وقال: «**يا أسماء، إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يرى منها إلا هذا وهذا، وأشار إلى وجهه وكفيه**»(٢).

=

(١٧٣١)-من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. وقال:«حسن صحيح».

(١) أخرجه أبوداود في العتق-المكاتب يؤدي بعض كتابته فيعجز أو يموت (٣٩٢٨)، والترمذي في البيوع-ما جاء في المكاتب.

(٢) أخرجه أبوداود في اللباس-باب فيما تبدي المرأة من زينتها (٤١٠٤)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٧/ ٨٦) قال أبوداود:«وهذا مرسل، خالد بن دريك لم يدرك عائشة-رضي الله عنها».

وكذا قال أبوحاتم الرازي ذكره ابن كثير عنه في «تفسيره» (٦/ ٤٧-٤٨).

وقد رواه البيهقي من طريق خالد بن دريك وسكت عنه، ورواه من طريق آخر فيه عبدالله بن لهيعة، وقال:«إسناده ضعيف».

وقال صاحب الجوهر النقي عن الطريق الأول:«فيه الوليد بن مسلم عن سعيد بن بشير، والوليد بن مسلم مدلس، وابن بشير قال يحيى:ليس بشيء، زاد ابن نمير منكر الحديث، وضعفه النسائي وقال ابن حبان فاحش الخطأ».

=

وهذا الحديث فيه أكثر من علة فهو مرسل؛ لأن خالد بن دريك لم يدرك عائشة- رضي الله عنها- كما ذكر ذلك أبوداود بعد سياقه هذا الحديث وكذا ذكره غيره من الأئمة كأبي حاتم الرازي وغيره. وكذا ضعف إسناده البيهقي؛ لأن فيه عبدالله بن لهيعة.

وأيضًا في إسناده «سعيد بن بشير» ضعيف، كما ذكر ذلك ابن حجر وغيره.

فهذا الحديث هو أقوى وأصرح حديث يستدل به من أجاز كشف المرأة وجهها عند الأجانب، فيه ثلاث علل، تكفي واحدة منها لتضعيفه، فكيف إذا اجتمعت. إضافة إلى احتمال كونه قبل نزول الحجاب.

ومن أدلتهم: ما رواه ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «كان الفضل رديف النبي ﷺ، فجاءت امرأة من خثعم، فجعل الفضل ينظر إليها، وتنظر إليه، فجعل النبي ﷺ يصرف وجه الفضل إلى الشق الآخر، فقالت: إن فريضة الله أدركت أبي شيخًا كبيرًا لا يثبت على الراحلة، أفأحج عنه؟ قال: «نعم»، وذلك في حجة الوداع» وفي بعض الروايات: «فجاءت امرأة وضيئة، أوحسناء من خثعم»(١).

قالوا: فكون الفضل ينظر إليها وتنظر إليه، ووصفها بأنها وضيئة أو حسناء يدل على أنها كاشفة عن وجهها.

وقد أجيب عن هذا بأنه ليس في شيء من روايات الحديث التصريح بأنها كاشفة عن وجهها، وأن النبي ﷺ رآها على ذلك وأقرها عليه، ومجرد كونه ينظر إليها وتنظر إليه لا يدل على ذلك إذ قد تكون منتقبة، كما أن وصفها بأنها وضيئة أو حسناء لا يستلزم كونها كاشفة لوجهها إذ قد يعرف حسنها من النظر إلى قدها وقوامها، بل قد يعرف من رؤية بنانها فقط، ولهذا منعه النبي ﷺ من ذلك(٢).

وقد تكون محرمة فلم يأمرها النبي ﷺ بتغطية وجهها وقد يكون النبي ﷺ أمرها

=

وقال ابن حجر في «التقريب» (١/ ٢٩٢): «ضعيف». وانظر: «أضواء البيان» (٦/ ٥٩٧).

(١) أخرجه البخاري في الحج-حج المرأة عن الرجل (١٨٥٥)، ومسلم في الحج-الحج عن العاجز لزَمَانَةٍ وَهَرَمٍ ونحوهما أو للموت (١٣٣٤)، وأبوداود في المناسك (١٨٠٩)، والنسائي في «مناسك الحج» (٢٦٣٥)، والترمذي في الحج (٩٢٨)، وابن ماجه في المناسك (٢٩٠٧).

(٢) انظر: «أضواء البيان» (٦/ ٥٩٩-٦٠٢).

بتغطية وجهها، ولم ينقل.

ومنها ما رواه جابر بن عبدالله- رضي الله عنه- قال: «شهدت مع رسول الله ﷺ الصلاة يوم العيد فبدأ بالصلاة قبل الخطبة، بغير أذان ولا إقامة، ثم قام متوكئًا على بلال، فأمر بتقوى الله وحث على طاعته، ووعظ الناس وذكَّرهم، ثم مضى حتى أتى النساء، فوعظهن وذكَّرهن، فقال: «**تصدقن فإن أكثركن حطب جهنم**» فقامت امرأة من النساء، سفعاء الخدين[1] فقالت: لِمَ يا رسول الله؟ قال: «**لأنكن تكثرن الشكاية وتكفرن العشير**» قال: فجعلن يتصدقن من حليهن يلقين في ثوب بلال من أقراطهن وخواتمهن»[2].

قالوا: فقول جابر: «سفعاء الخدين» يدل على أنها كانت كاشفة عن وجهها، إذ لو كانت محتجبة لما علم أنها سفعاء الخدين.

وأجيب عن هذا: بأنه ليس في الحديث ما يدل على أن النبي ﷺ رآها كاشفة عن وجهها، وأقرها على ذلك. ولا سبيل إلى إثبات ذلك، وكون جابر وصفها بأنها سفعاء الخدين يحتمل أن وجهها انكشف من غير قصد فرآها جابر وحده.

ولهذا روى الحديث عدد من الصحابة منهم أبوسعيد الخدري وابن عباس وابن عمر- رضي الله عنهم- كما روى ذلك عنهم الإمام مسلم وغيره، كما رواه غيرهم من الصحابة ولم يذكر واحد منهم أنها سفعاء الخدين سوى جابر.

ويحتمل أيضًا أن المرأة المذكورة كبيرة في حكم القواعد من النساء لا يجب عليها الحجاب، وقد يكون ذلك قبل نزول آية الحجاب، فإن صلاة العيد شرعت في السنة الثانية من الهجرة وآية الحجاب في سورة الأحزاب نزلت سنة خمس أو ست من الهجرة. وعلى كلٍّ فليس في الحديث ما يدل على أن الرسول ﷺ رآها كاشفة عن وجهها وأقرها على ذلك[3].

ومنها: ما روته عائشة- رضي الله عنها- قالت: «كن نساء المؤمنات يشهدن مع

---

(١) سفعاء الخدين: أي في خديها تغير وسواد- انظر: «النهاية»، «لسان العرب» مادة: «سفع»، «أضواء البيان» (٦/ ٥٩٩).

(٢) أخرجه مسلم في صلاة العيدين (٨٨٥)، والنسائي في صلاة العيدين (١٥٧٥).

(٣) انظر: «أضواء البيان» (٦/ ٥٩٨-٥٩٩).

رسول الله ﷺ صلاة الفجر متلفعات بمروطهن، ثم ينقلبن إلى بيوتهن حين يقضين الصلاة ما يعرفهن أحد من الغلس»(١).

ووجه استدلالهم من هذا الحديث قول عائشة: «ما يعرفهن أحد من الغلس» بمعنى أنهن لولا الغلس والظلمة لعرفن، ولا يمكن معرفتهن إلا إذا كن كاشفات لوجوههن.

وأجيب عن هذا بأنه ليس بمسلم لهم؛ لأن المرأة قد تعرف وهي ليست كاشفة لوجهها، فتعرف بمشيتها وطولها أو قصرها، ونحافتها أو جسامتها ونحو ذلك.

فعن عائشة- رضي الله عنها- قالت: «خرجت سودة بعدما ضرب الحجاب لحاجتها، وكانت امرأة جسيمة لا تخفى على مَن يعرفها، فرآها عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- فقال: يا سودة، أما والله ما تخفين علينا، فانظري كيف تخرجين. قالت: فانكفأت راجعة ورسول الله ﷺ في بيتي وإنه ليتعشى وفي يده عَرْق، فقالت: يا رسول الله، إني خرجت لبعض حاجتي فقال لي عمر كذا وكذا، قالت: فأوحى الله إليه، ثم رفع عنه، وإن العرق في يده ما وضعه، فقال: **«إنه قد أُذن لكن أن تخرجن لحاجتكن»**(٢).

وأيضًا فإن عائشة التي روت هذا الحديث الحجاب واجب عليها وعلى جميع أزواج النبي ﷺ بالإجماع فكيف يستدل به على جواز كشف الوجه بالنسبة لعموم النساء؟! وإذا سقط الاستدلال به في حق عائشة وأزواج النبي ﷺ فلماذا لا يسقط الاستدلال به في حق غيرهن؟!

ومنها: ما رواه سهل بن سعد- رضي الله عنه- «أن امرأة جاءت إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، جئت لأهب لك نفسي، فنظر إليها رسول الله ﷺ، فصعَّد النظر إليها وصوبه، ثم طأطأ رأسه، فلما رأت المرأة أنه لم يقض فيها شيئًا جلست»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في الصلاة-في كم تصلي المرأة من الثياب (٥٧٨)، ومسلم في المساجد-استحباب التبكير بالصبح في أول وقتها (٦٤٥)، وأبوداود في الصلاة (٤٢٣)، والنسائي في المواقيت (٥٤٦)، والترمذي في الصلاة (١٥٣)، وابن ماجه في الصلاة (٦٦٩).

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة الأحزاب (٤٧٩٥)، ومسلم في السلام (٢١٧٠).

(٣) أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٥٠٣٠)، ومسلم في النكاح-باب الصداق وجواز كونه تعليم قرآن =

قالوا: فكون النبي ﷺ نظر إليها وصعَّد النظر فيها وصوَّبه يدل على أنها كاشفة وجهها.

وأجيب أن هذا ليس بمسلم، وليس في الحديث ما يدل على أنها كاشفة وجهها.

وليس في كونه ﷺ نظر إليها وصعد فيها النظر وصوبه ما يدل على ذلك لا من قريب ولا من بعيد، بل ينبغي أن يحمل على إطلاقه من حيث النظر إلى مجمل جسمها كطولها وقصرها ونحو ذلك.

وأيضًا فإنه لو أعجبته لقبلها، والخاطب يجوز له أن ينظر من مخطوبته ما يرَغِّبه في نكاحها من وجهها ورأسها وكفيها ونحو ذلك كما في حديث المغيرة- رضي الله عنه- أنه خطب امرأة، فقال له النبي ﷺ: «**انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما**»(١).

وفي حديث جابر- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا خطب أحدكم المرأة فقدر أن يرى منها ما يدعوه إلى نكاحها فليفعل**». فَخَطَبْتُ جارية، فكنت أتخبأ لها حتى رأيت منها ما دعاني إلى نكاحها وَتَزَوُّجِهَا، فتزوجتها»(٢).

كما استدلوا بما روي عن ابن عباس- رضي الله عنهما- في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ [النور:٣١] أنه فسر قوله: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ بالوجه والكفين(٣)، وقد ذكرت في تفسير هذه الآية في سورة النور ما يعارض هذا، أولًا: من الآية نفسها، وهو قوله بعد ذلك: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾، وهذا يدل على وجوب ستر الوجه؛ لأن الخمار إذا سدل على الجيب ستر الوجه من باب أولى.

وثانيًا: من قول ابن عباس نفسه، وكذا قول ابن مسعود- رضي الله عنهم، وجمع من السلف، وأن الراجح في معنى الآية ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ مما لا يمكن إخفاؤه

= وخاتم حديد (١٤٢٥).

(١) أخرجه النسائي في النكاح (٣٢٣٥)، والترمذي في النكاح (١٠٨٧)، وابن ماجه في النكاح (١٨٦٦). وحسنه الترمذي، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه أبوداود في النكاح (٢٠٨٢)، وحسنه الألباني.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٧/ ٢٥٨، ٢٦٠).

كالعباءة والثياب الظاهرة ونحو ذلك.

قال العلامة الشنقيطي- رحمه الله -(١) بعد أن ذكر كثيرًا من الأدلة السابقة وفندها: «وبالجملة فإن المنصف يعلم أنه يبعد كل البعد أن يأذن الشارع للنساء في الكشف عن الوجه أمام الرجال الأجانب، مع أن الوجه هو أصل الجمال، والنظر إليه من الشابة الجميلة هو أعظم مثير للغريزة البشرية، وداع إلى الفتنة، والوقوع فيما لا ينبغي».

وهذا أمر يدركه كل من اعتبر من ذوي الأبصار، ومن الذي يرضى أن يقلب الرجال أنظارهم في وجه زوجته وابنته وأخته وهو يعد نفسه من ذوي الشيمة والوقار، وليس هناك في الحقيقة دليل واحد صريح صحيح يدل على جواز كشف المرأة وجهها حتى مع أمن الفتنة لو كان ممكنًا فكيف وأمن الفتنة بين الرجال والنساء أشبه بالمستحيل؟! وفي الحديث: «**لا يخلون رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان**»(٢).

وقال فضيلة الشيخ محمد بن عثيمين- رحمه الله(٣): «اعلم أيها المسلم أن احتجاب المرأة عن الرجال الأجانب، وتغطية وجهها أمر واجب، دل على وجوبه كتاب ربك تعالى، وسنة نبيك محمد ﷺ، والاعتبار الصحيح، والقياس المطرد».

ولا ينبغي أن يُغتَّر بما عليه الكثير من نساء البلاد الإسلامية وغيرها من كشف الوجه والتبرج فإن الحق أحق أن يُتَّبع ويكفيك دليلًا على وجوب الحجاب أن الدعاة إلى نزعه وكشف المرأة وجهها هم دعاة التغريب الذين لا بصيرة لهم ولا عقول، بل هدفهم جر المجتمع الإسلامي إلى مستنقع الرذيلة، وإخراج المرأة المسلمة من بيتها، ومخالطتها للرجال ونزعها ثوب الستر والخلق والعفاف لتبقى دمية لهم وأُلعوبة ودعاية لبراجهم وبضاعتهم الكاسدة، فيا ويلهم ثم ويلهم، ثم ويلهم، إذ خدعوا المرأة، وظلموها وأهانوها وأنزلوها من العز المكين الذي أراده الله لها في الحياء والستر والعفاف إلى الذل والمكان الحضيض بالتبذل والسفور والفجور.

٣- الإشارة إلى مسؤولية الرجال وقوامتهم على النساء؛ لقوله تعالى: ﴿وَنِسَآءِ

---

(١) في «أضواء البيان» (٦/ ٦٠٢).

(٢) ذكره الترمذي في الرضاع بعد حديث «الحمو الموت» (١١٧١).

(٣) في مقدمة رسالته في الحجاب ص(٧)، وانظر ما بعدها إلى ص(٣٧).

﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، فأضاف النساء إلى الرجال المؤمنين إشارة إلى مسؤوليتهم عنهن.

٤- أن من الحكمة في إيجاب الحجاب على النساء حمايتهن وحفظهن من أن يتعرض لهن بالأذى أو يطمع فيهن مَن في قلبه مرض؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾.

٥- إثبات الحكمة والعلة في أحكام الله تعالى.

٦- لا يجب الحجاب على الإماء؛ لعدم ذكرهن في الآية، لكن إن خيفت الفتنة بهن أو عليهن وجب عليهن الحجاب.

٧- إثبات صفة المغفرة الواسعة لله- عز وجل- والرحمة الواسعة له- سبحانه، رحمة ذاتية ثابتة له- عز وجل- ورحمة فعلية يوصلها إلى من شاء من خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

٨- بالمغفرة زوال المرهوب، وبالرحمة حصول المطلوب؛ لهذا جمع الله- عز وجل- بينهما، وقدم المغفرة على الرحمة؛ لأن التخلية قبل التحلية.

* * *

قال الله تعالى: ﴿۞ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾.

أمر الله- عز وجل- في الآية السابقة رسوله ﷺ بأن يأمر أزواجه وبناته ونساء المؤمنين بأن يدنين عليهن من جلابيبهن لكي يعرفن فلا يتعرض لهن بأذى سدًّا لذريعة الفساد، ثم توعد عز وجل المنافقين ومرضى القلوب من الزناة وغيرهم، والمرجفين في المدينة فسدّ باب الشر والفساد من الجهتين.

قوله تعالى: ﴿۞ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾﴾.

قوله: ﴿۞ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ اللام: موطئة للقسم، والتقدير: والله لئن لم ينته المنافقون، و«إن»: شرطية، و﴿لَّمْ﴾: حرف نفي وجزم، ﴿يَنتَهِ﴾ فعل مضارع مجزوم بـ﴿لَّمْ﴾، وعلامة جزمه حذف حرف العلة الياء، إذ أصله «ينتهي».

و﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾: جمع منافق، وهو من يظهر الإيمان ويبطن الكفر، مشتق من نافقاء اليربوع، وهو المخرج الذي يجعله في آخر جحره، عليه قشرة من التراب، فإذا داهمه عدو من باب جحره، ضرب النافقاء بأعلى رأسه، وخرج منها ونجا.

والمنافقون أعظم أهل الكفر جرمًا، وأعظمهم خطرًا على المسلمين؛ لأنهم بين ظهراني المسلمين؛ ولهذا كان عذابهم أشد، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾ [النساء:١٤٥].

ولم يذكر متعلق قوله: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ فلم يقل: لئن لم ينته المنافقون عن كذا وكذا، أو عما هم عليه من كذا وكذا؛ ليعم كل ما هم عليه مما يخالف أمر الله من النفاق والكيد للإسلام ومخالفة أمر الله وأذية المؤمنين والمؤمنات، وغير ذلك مما هم عليه وما يصدر عنهم من الفساد والشرور قولًا أو فعلًا.

﴿وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾: معطوف على ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ أي: ولم ينته الذين في قلوبهم مرض.

ومرض القلوب نوعان: مرض حسي جسدي، وهو اعتلال صحتها، ومرض معنوي وهو أشد، وهو قسمان: مرض شبهة وشك ونفاق وكفر، وهو ما عليه المنافقون. ومرض شهوة وينقسم إلى ثلاثة أقسام: شهوة فرج، وشهوة بطن، وشهوة اتباع الهوى. ويحتمل أن المراد بمرض القلوب هنا مرض شهوة الفرج وفعل الفاحشة؛ لقوله قبل هذا: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ ولهذا قال عكرمة وغيره: «هم الزناة ههنا»[1].

ويقوي ذلك أن الله ذكر المنافقين، ثم عطف عليهم الذين في قلوبهم مرض، والعطف في الأصل يقتضي المغايرة.

ويحتمل أن المراد بالذين في قلوبهم مرض هم المنافقون، فهم مرضى القلوب بلا شك، وقد يجتمع فيهم مع مرض الشبهة مرض الشهوة، وعلى هذا فيكون العطف للتوكيد. والأول أولى.

﴿وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ المرجفون: جمع مرجف، والإرجاف، التزلزل. قال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١﴾ [الزلزلة:١] أي: ارتجفت ارتجافها الشديد.

ومنه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦﴾ [النازعات:٦] أي: النفخة الأولى في الصور التي يتزلزل منها كل شيء، ويموت كل حي إلا من شاء الله.

فالمرجفون هم الذين يعملون على إرجاف الناس وزلزلتهم، وعلى تخويفهم ونشر الرعب بينهم، يقول قائلهم: جاءتكم الحرب، العدو كثير العدد والعدة، سيُهزم جيش المسلمين، لا إسلام بعد اليوم، هلك الناس، ونحو ذلك.

وفي الحديث: «**من قال هلك الناس فهو أهلَكُهم**»[2] بفتح الكاف، أي تسبب في هلاكهم، وبضم الكاف، أي: أشدهم هلاكًا.

وسمي من يقول تلك المقالات مرجفًا؛ لأنه يدخل الخوف والرعب في قلوب الناس فيزعزع ثقة الإنسان بالنصر والتمكين للدين والخيرية التي في الأمة، وثقة

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٤٧١).

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلاة والآداب (٢٦٣٣)، وأبوداود في الآداب (٤٩٨٣)-من حديث أبي هريرة-رضي الله عنه.

الإنسان بنفسه وبمقدرات الأمة، ويزلزل ما في نفوس الناس من الأمن والطمأنينة، والواجب زرع الثقة في نفوس المؤمنين، والتفاؤل بالخير وحُسن الظن بالله- عز وجل- وتقوية العزائم

كما أن من أسباب تسمية هذه الأقاويل بالأراجيف؛ أنها لا ثبات لها ولا حقيقة، بل هي محض الكذب والباطل.

وهذه الأوصاف الثلاثة: النفاق، ومرض القلوب، والإرجاف في المدينة، يحتمل أن تكون صفات لموصوف واحد كما قيل:

إلى الملك القرم وابن الهمام   وليث الكتيبة في المعترك

ويحتمل أن يكون كل وصف منها لطائفة؛ لأن العطف في الأصل يقتضي المغايرة وهذا أولى.

﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾: جواب القسم في قوله: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ واللام في قوله: ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ﴾: واقعة في جواب القسم. والإغراء بمعنى الحث والتحريض على التسلط عليهم والتنكيل بهم، بالتعزير أو التأديب أو القتل، أو غير ذلك.

﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾﴾. ﴿ثُمَّ﴾: للتراخي.

أي: لا يساكنونك ﴿فِيهَآ﴾ أي في المدينة بعد إغرائك بهم.

﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾، ﴿إِلَّا﴾: للحصر، أي: إلا وقتًا قليلًا، أو إلا قليلًا منهم بحيث يتضايقون من السكنى في المدينة ومجاورتك ويضطرون للخروج منها؛ لأنهم ليسوا أهلًا لمجاورتك والسكن معك في المدينة، بل ليس لهم في الأرض كلها مقر، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء:١٠٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الأعراف:١٢٨].

فمن كان في بقائه بين ظهراني المؤمنين ضرر عليهم ينبغي إجلاؤه.

قوله تعالى: ﴿مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾﴾.

قوله: ﴿مَّلْعُونِينَ﴾ حال: أي: حال كونهم ملعونين، أي: مطرودين مبعدين من رحمة الله- عز وجل- فلا يألفهم أحد، ولا يحب قربهم وجوارهم أحد، لما هم عليه من

النفاق، وسيئ الأخلاق.

﴿أَيْنَمَا﴾: أداة شرط تفيد العموم في المكان، أي: في أي مكان.

﴿ثُقِفُوٓاْ﴾ :فعل الشرط، أي: في أي مكان وجدوا.

﴿أُخِذُواْ﴾: جواب الشرط، ومعناه: الإمساك بهم، أي: في أي مكان وجدوا أخذوا وأمسك بهم، قال ابن كثير[1]: «لذلتهم وقلتهم».

﴿وَقُتِّلُواْ تَقۡتِيلٗا﴾ أي: إن الحكم فيهم هكذا أن يؤخذوا في أي مكان وجدوا، ويُقَتَّلوا تقتيلًا، فهي جملة خبرية بمعنى الإنشاء والأمر، أي: إن الحكم فيهم أن يؤخذوا في أي مكان وجدوا ويقتّلوا تقتيلًا.

﴿وَقُتِّلُواْ﴾ مبالغة (قُتِلوا)، و﴿تَقۡتِيلٗا﴾ مصدر منه، وجاء الفعل ومصدره بصيغة المبالغة لتأكيد وجوب قتلهم وأنه حتم لا هوادة فيه.

وهذا من أشد الوعيد لأهل هذه الصفات من المنافقين ومرضى القلوب وأهل الإرجاف، مما يوجب البُعد والحذر من صفاتهم المذمومة، وقد اتفق أهل العلم على أن هذا الوعيد بإغراء الرسول ﷺ بهم وتسليطه عليهم لم يقع، فلم يُخرجوا من المدينة، ولم يقتّلوا، وقد اختلف أهل العلم في سبب ذلك:

فمن أهل العلم من قال: إن هؤلاء المنافقين ومرضى القلوب والمرجفين في المدينة انتهوا عما هم عليهم من إظهار هذه الأمور، فلهذا لم يقع ما توعدهم الله به.

وقال بعض أهل العلم: إنهم لم ينتهوا عما هم عليه، ولكن لم يقع هذا الوعيد عليهم، لحكمة اقتضت ذلك، وهذا من باب إخلاف الوعيد، وهو غير مذموم، بل إنه من مكارم الأخلاق بخلاف إخلاف الوعد فإنه مذموم.

قال الشاعر:

وإنــي وإن أوعدتــه أو وعدتــه ... لمخلـف إيعـادي ومنجـز موعـدي

وقد ترك ﷺ في أكثر من موقع قتل أفراد من المنافقين، ممن قد يستحقون القتل درءًا للفتنة، ولئلا يقال: إن محمدًا يقتل أصحابه.

---

(١) في «تفسيره» (٦/ ٤٧٢).

قوله تعالى: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾.

قوله: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾: مفعول مطلق لفعل محذوف، أي: سن الله ذلك سنة و﴿ سُنَّةَ ﴾ مضاف، ولفظ الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾ مضاف إليه أي: سنن الله، والسنة الطريقة.

وسنة الله- عز وجل- وسننه تنقسم إلى قسمين: **سنن شرعية**، شرعها الله- عز وجل- لعباده على ألسن رسله وفيما أنزله من كتبه- عز وجل- وهي تتفق في أصولها، كالدعوة إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له، والنهي عن الشرك، وتحريم الفواحش والإثم والبغي بغير الحق، والقول على الله بلا علم، وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ ﴾ [النحل:٣٦]، وكما قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأعراف:٣٣].

وتختلف هذه السنن الشرعية في فروعها باختلاف الأمم والأزمان، قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ ﴾ [المائدة:٤٨].

والقسم الثاني: السنن الكونية، وهي ما يجريه الله- عز وجل- قدرًا وكونًا من أحوال لا تتبدل ولا تتغير كنصر المؤمنين، وعقوبة المكذبين، ونصر المظلوم، والانتقام من الظالم.

والمراد بقوله هنا ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾ أي: سنته وسننه الكونية، ولهذا قال بعد ذلك: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾.

﴿فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ ﴾ أي: في الذين مضوا من قبل من الأمم في إيقاع العقوبات في المنافقين ومرضى القلوب والمرجفين وغيرهم من الكفرة والمكذبين وفي تسليط رسله وأوليائه المؤمنين عليهم، وقهرهم لهم، وإيقاع العقوبات فيهم.

﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ الواو: عاطفة، والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح خطابه.

والمعنى: ولن تجد لسنة الله الكونية تبديلًا، لا منه عز وجل، ولا من غيره، أي: إن سنن الله- عز وجل- الكونية لا يمكن أن تتبدل ولا تتغير، بل هي ثابتة، ولابد من

وقوع ما قدره الله وقضاه كونًا، ومن ذلك نزول العقوبات على من يستحقها من المكذبين وإن كانت قد تختلف كما قال عز وجل: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت:٤٠].

بخلاف السنن الشرعية فإن الله- عز وجل- قد يبدلها بغيرها كما قال عز وجل: ﴿۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ﴾ [البقرة:١٠٦]. وقال عز وجل: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ﴾ [الرعد:٣٩]، وقال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة:٤٨].

وربما تُبدل من الخلق بحيث يبدلون ويغيرون فيما شرع الله- عز وجل- من السنن الشرعية، وربما جعلوا مكان السنة بدعة.

الفوائد والأحكام:

١- توعد الله- عز وجل- للمنافقين ومرضى القلوب والمرجفين الذين يحاولون زعزعة الثقة في نفوس المؤمنين، وزرع الخوف والرعب في قلوبهم بتسليط الرسول ﷺ عليهم وإغرائه بهم قال تعالى: ﴿۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾﴾.

٢- أن المنافقين ومرضى القلوب وأهل الإرجاف ليسو أهلًا لمجاورة النبي ﷺ.

٣- جواز النفي والإخراج لمن في بقائه بين ظهراني المسلمين ضرر عليهم من أهل النفاق والإرجاف، ففي هذا حسم لمادة شرهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

قال السعدي رحمه الله(١): «وهذا فيه دليل على نفي أهل الشر، الذين يتضرر بإقامتهم بين أظهر المسلمين، فإن ذلك أحسم للشر وأبعد منه».

٤- أن الله يسلط رسله على من يشاء لقوله تعالى: ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾.

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» (٦/ ٢٤٩).

٥- دفاع الله- عز وجل- عن نبيه ﷺ، ودينه.

٦- التحذير من صفات المنافقين ومرضى القلوب وأهل الإرجاف وبخاصة الذين يسعون إلى زعزعة الثقة بمقدرات الأمة الإسلامية.

٧- طرد المنافقين ومرضى القلوب والمرجفين عن رحمة الله، وإبعادهم، وأخذهم وتقتيلهم أينما وجدوا؛ لقوله تعالى: ﴿ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ ﴾.

٨- سنة الله تعالى الكونية التي لا تتغير ولا تتبدل، في إيقاع العقوبات على المنافقين ومرضى القلوب والمرجفين وغيرهم من الكفرة والمكذبين؛ لقوله تعالى: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾﴾.

قوله: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ﴾ الخطاب للنبي ﷺ: وقوله: ﴿يَسْأَلُكَ﴾ بالمضارع ولم يقل: سألك؛ دليل على كثرة هذا السؤال وتكرره منهم في الماضي والحاضر، وأنه مازال مستمرًا وروده منهم، وأن السؤال عنها يكثر، وذلك لعظمتها، وشدة أهوالها، ولهذا جاء السؤال عنها في سورة الأعراف، وفي سورة النازعات، وهما مكيتان، وفي هذه السورة سورة الأحزاب، وهي مدنية.

﴿عَنِ السَّاعَةِ﴾ أي: عن القيامة والنفخ في الصور، وقيام الناس من قبورهم إلى المحشر.

والسؤال عن الساعة يحتمل أن يكون الحامل عليه التكذيب بها واستبعادها وهذا يصدر من الكفار المنكرين للبعث والحساب والجزاء على الأعمال.

ويحتمل أن يكون السؤال عن الساعة سؤال استفهام عنها متى تكون مع الإيمان بها وبالبعث وبالجزاء على الأعمال، وهذا قد يصدر من بعض المؤمنين.

كما جاء في حديث أنس- رضي الله عنه- أن رجلًا سأل النبي ﷺ متى الساعة؟ فقال ﷺ له: «**ماذا أعددت لها؟**» فقال: ما أعددت لها كثير صلاة ولا صيام، ولكني أحب الله ورسوله، فقال ﷺ: «**المرء مع من أحب**»(١).

﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ﴾ أي: قل لهم يا محمد، فلقنه الله- عز وجل- جواب سؤالهم، أي: استمر في رد علمها إلى الله الذي يقيمها، وصدر هذا الجواب بقوله: ﴿قُلْ﴾؛ ليتبين للناس أن هذا الجواب وهو قوله: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ﴾ صادر من الله- عز وجل-

(١) سيأتي تخريجه قريبًا.

وليس من الرسول نفسه فيقتنعوا بذلك ويوقنوا به.

﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾، ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر، وهي: كافة ومكفوفة، أي: ما علمها إلا عند الله، كما قال عز وجل: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [الأعراف:١٨٧]، وقال عز وجل: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾﴾ [النازعات:٤٢-٤٥]، وقال عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان:٣٤]، وقال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [فصلت:٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [الزخرف:٨٥].

والمراد بقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾، أي: علم قيامها عند الله تعالى، فلا يعلمه إلا الله وحده، كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾ [الأعراف:١٨٧]، أي: علم قيامها عند ربي وحده فلا يعلمه إلا ربي؛ ولهذا لما سأل النبي ﷺ جبريلُ عنها قال له: «**ما المسؤول عنها بأعلم من السائل**»(١).

والمعنى: فإن كنت يا جبريل لا تعلم متى تكون، فأنا لا أعلم ذلك من باب أولى.

وفي هذا دليل على أنه ﷺ لا يعلم الغيب، والذي منه البعث، كما قال عز وجل: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [النمل:٦٥].

﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ الواو: عاطفة، و«ما» يحتمل أن تكون: نافية، أي: إنك لا علم عندك عنها، بل علمها عند الله عز وجل.

ويحتمل أن تكون «ما»: استفهامية بمعنى: أيّ شيء يعلمك بها حتى تُسأل عنها، أو حتى يسألوك عنها، والمقصود نفي علمه ﷺ بها؛ لأن الله طوى علمها عنده فلا يعلمها إلا هو- سبحانه وتعالى.

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٥٠)، ومسلم في الإيمان (٩، ١٠)، والنسائي في الإيمان وشرائعه (٤٩٩١)، وابن ماجه في المقدمة (٦٤)-من حديث أبي هريرة-رضي الله عنه، وأخرجه من حديث عمر بن الخطاب-رضي الله عنه، ومسلم في الإيمان (٨)، وأبوداود في السنة (٤٦٩٥)، والنسائي في الإيمان وشرائعه (٤٩٩٠)، وابن ماجه في المقدمة (٦٣).

ولهذا يقولون: إذا قال: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ فإنه لا يدريه، ومن هذا قوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾﴾ [عبس:٣].

وإذا قال: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾ فإنه يدريه، كقوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾﴾ [البلد:١٢] ثم قال: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾﴾ [البلد:١٣]، وكقوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾﴾ [القارعة:١٠]، ثم قال: ﴿نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾﴾ [القارعة:١١]، وقوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾﴾ [الهمزة:٥]، ثم قال: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴿٧﴾﴾ [الهمزة:٦، ٧].

قوله: ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ ﴿لَعَلَّ﴾: للتوقع، أي: وما يعلمك عنها، ويتوقع أن توجد وتقع قريبًا، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾﴾ [الشورى:١٧]، وقال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾﴾ [القمر:١]، وقال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنبياء:١].

فالساعة قريب؛ لأن عمر الدنيا كلها مهما طال فهو قليل بالنسبة للآخرة، وأيضًا: فإن من مات قامت قيامته.

وعلى هذا تكون جملة: ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ جملة مستأنفة.

وقال بعضهم: إن قوله: ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ سد مسد مفعولي ﴿يُدْرِيكَ﴾ الثاني والثالث، لكنه علق بـ﴿لَعَلَّ﴾ أي: وما يدريك عن موقع قربها، أي: لا تدري عن قربها أيضًا، ومن لا يدري عن قربها لا يدري وقت وقوعها من باب أولى.

فنفى الله- عز وجل- أن يكون الرسول ﷺ عالمًا بها أو بقربها، وإذا انتفى علم الرسول ﷺ بذلك فانتفاء علم غيره من باب أولى.

وبهذا يرد على من يضربون مددًا لقيام الساعة، وأنها مجرد تخمينات وتخرصات، إذ اختص الله- عز وجل- بعلمها.

وقد أخفى الله- عز وجل- وقوعها عن الخلق جميعًا، بما فيهم الرسل- عليهم الصلاة والسلام- ومن بينهم أشرفهم وأفضلهم رسولنا- عليه الصلاة والسلام-.

كما أخفى ليلة القدر، وأخفى على الإنسان ما قدره له ومتى يموت- وذلك لحكم عظيمة منها الاجتهاد في العمل استعدادًا لها خوف وقوعها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ

ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾﴾ [طه:١٥].

وهذا بخلاف ما لو ضرب لها أو حدد لها وقت معين، فقد يستبعد البعض مدة وقوعها فيكون ذلك سببًا للفتور وعدم الاجتهاد.

كما قد يكون ذلك سببًا لحصول القنوط واليأس ممن يكونون موجودين قبيل قيامها، خوفًا من قرب آجالهم ونقص أعمارهم.

ولهذا أخفاها الله عز وجل؛ ليجتهد السابق واللاحق من الناس في الاستعداد لها، ويكونوا بين الخوف والرجاء إلى لحظة قيامها، حتى لا يشعر من تقوم عليهم الساعة إلا وقد قامت، وذلك أن الإنسان إذا انقطع عنه الأمل في الحياة لا يعمل لدينه ولا لدنياه، بل يستسلم للموت قبل الموت.

ويؤخذ من الآية قرب قيام الساعة كما قال عز وجل: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل:١]. وقوله: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل:٧٧].

وقال ﷺ: «**بعثت أنا والساعة كهاتين**. وأشار بإصبعيه السبابة والوسطى»(١). وليس في السؤال عنها فائدة.

ولهذا لما سأل رجل رسول الله ﷺ عن الساعة وجهه لما هو أهم، وما فيه الفائدة: فقال له: «**وماذا أعددت لها**» كما في حديث أنس رضي الله عنه: «أن رجلًا سأل النبي ﷺ عن الساعة، فقال: متى الساعة؟ قال: «**وماذا أعددت لها**»؟ قال: لا شيء، إلا أني أحب الله ورسوله ﷺ، فقال ﷺ: «**أنت مع من أحببت**»(٢).

وفي مضمون هذا: أنها آتية لا محالة، وليس المهم متى تكون، بل المهم الاستعداد لها.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾﴾.

أي: اعلم أيها السائل واحذر أن تقوم الساعة عليك وأنت من هؤلاء.

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق-قول النبي ﷺ:«**بعثت أنا والساعة كهاتين**» (٥٣٠١)، ومسلم في الفتن وأشراط الساعة (٢٩٥٠)، وأحمد (٣٨٨)-من حديث سهل بن سعد-رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في المناقب (٣٦٨٨)، ومسلم في البر والصلة (٢٦٣٩)، والترمذي في الزهد (٢٣٨٥).

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، ﴿إِنَّ﴾ حرف توكيد ونصب، واللعن من الله: هو الطرد والإبعاد عن رحمته، فمعنى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ الإخبار بأن الله طرد الكافرين وأبعدهم عن رحمته.

و﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: هم الذين جحدوا وجود الله أو ربوبيته أو ألوهيته، أو أسماءه وصفاته، أو جحدوا ذلك كله وكذبوا به، وضد الكفر الإيمان.

﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾: معطوف على قوله: ﴿لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: هيأ لهم، فهي معدة مهيأة موجودة تنتظر الكفرة والعصاة. نسأل الله السلامة.

﴿سَعِيرًا﴾، أي: نارًا مستعرة متوقدة مشتعلة، تسعَّر بهم يوم القيامة، وهم من وقودها كما قال عز وجل: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [البقرة:٢٤].

فجمع الله لهم بين العقوبتين: إبعادهم وطردهم من رحمته، وإدخالهم النار المستعرة، وتعذيبهم فيها.

وفي هذا وما بعده وعيد وتهديد للكافرين الذين الساعة موعدهم، كما قال عز وجل: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾ [القمر:٤٦] وتحذير للسائل عنها وغيره من سلوك طريقهم.

قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾﴾.

قوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ أي: حال كونهم خالدين فيها أبدًا، أي: ماكثين في النار مقيمين فيها باستمرار فلا خروج لهم منها، ولا زوال لهم عنها، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾ [المائدة:٣٧].

والخلود: يطلق على المكث المستمر، وهو المراد هنا، ويطلق على المكث الطويل.

﴿أَبَدًا﴾، أي: خلودًا مستمرًّا أبد الآباد بلا انقطاع، كما قال تعالى في سورة النساء: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [النساء:١٦٨، ١٦٩].

وقال تعالى في سورة الجن: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾﴾ [الجن:٢٣].

وهذا ما عليه جمهور أهل العلم أن النار لا تفنى ولا يفنى عذابها، وهو اختيار أكثر محققي أهل العلم، بل هذه عقيدة أهل السنة والجماعة أن النار والجنة كل منهما مؤبدة لا تفنى.

﴿لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا﴾ يغيثهم، ويتولاهم ويحقق لهم ما يطلبون.

﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ ينصرهم وينقذهم من النار، ويبعد عنهم ما يكرهون. كما قال تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدثر:٤٨].

قال ابن كثير(١): «أي: ليس لهم مغيث ولا معين ينقذهم مما هم فيه».

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾﴾.

قوله: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾، ﴿يَوْمَ﴾ ظرف زمان، متعلق إما: بـ«أعد»، أو بـ﴿خَٰلِدِينَ﴾، أو بـ﴿يَجِدُونَ﴾، أو متعلق بمحذوف، أي: اذكر ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾.

وتقليب الشيء صرفه من جهة إلى جهة أخرى.

فمعنى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾ أي: تصرف من جهة إلى جهة أخرى؛ لتذوق كل جهة من أجسادهم وكل عضو منهم نصيبه من عذاب النار، كما يُقلَّب اللحم على النار لينضج جميعه، وهذا يدل على شدة عذابهم والعياذ بالله.

وخص الوجه بالذكر مع أن التعذيب لجميع البدن؛ لأن تقليب الوجه يدل على تقليب بقية الجسم؛ ولأن تعذيب الوجه أعظم إهانة وأشد ألمًا من بقية البدن، ففي تقليبه وتعذيبه ألم حسي ومعنوي، كما قال عز وجل: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾﴾ [القمر:٤٨].

﴿يَقُولُونَ﴾ حال: أي: حال كونهم ﴿يَقُولُونَ﴾. ويحتمل أن تكون ﴿يَقُولُونَ﴾ جملة مستأنفة حكاية من الله- عز وجل- عن قولهم، أي: إنهم يقولون: كذا وكذا.

﴿يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ «يا»: حرف تنبيه، أو حرف نداء والمنادى محذوف،

---

(١) في «تفسيره» (٦/ ٤٧٢).

والتقدير: يا ربنا ليتنا﴿أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾.

أي إنهم يتمنون أن لو كانوا في الدار الدنيا أطاعوا الله وأطاعوا الرسول، وهذا يدل على شدة حسرتهم وندمهم.

ومما يدل على زيادة حسرتهم وبلوغهم غاية التحسر تصديرهم الكلام بـ«يا» التي قد يراد بها التنبيه على زيادة حسرتهم، وقد يراد بها التمني، وحذفوا المنادى مبادرة لذكر التمني والأسى.

والتمني: طلب ما يظن أو يعلم عدم حصوله وتعذره واستحالته كما في قول الشاعر:

ألا ليت الشباب يعود يومًا ... فأخبره بما فعل المشيب[1]

وهيهات أن يعود الشباب يا شيخ.

وما تمناه الكفار بعد دخولهم النار من كونهم أطاعوا الله وأطاعوا الرسول ضرب من المستحيل، كما قال الله عنهم: ﴿وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ﴿٢٨﴾ لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا ﴿٢٩﴾﴾ [الفرقان:٢٧-٢٩]. وقال تعالى: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ﴿٢﴾﴾ [الحجر:٢].

وقوله: ﴿أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ بحذف الألف من ﴿أَطَعۡنَا﴾ لفظًا في الموضعين، وهي ثابتة في الخط ولا يشتبه هنا ضمير المتكلم بنون النسوة؛ لأن السياق يدل على المعنى.

والطاعة: فعل المأمور وترك المحظور، وضدها المعصية: ترك المأمور وارتكاب المحظور.

﴿وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾: معطوف على ما قبله بتكرار العامل؛ لأن طاعة الرسول ﷺ واجبة استقلالًا بما جاء في سنته المطهرة، مما لم يرد في القرآن الكريم، وكل ذلك وحي من عند الله- عز وجل- كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ

(١) البيت لأبي العتاهية. انظر: «ديوانه» ص٣٢.

يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم:٣، ٤].

والألف في قوله: ﴿ٱلرَّسُولَا﴾؛ للإطلاق، كما في قوله فيما سبق في السورة: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ۝١٠﴾ [الأحزاب:١٠]، وكما في قوله في الآية التالية لهذه الآية: ﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا ۝٦٧﴾.

وفي هذه الألف في المواضع الثلاثة ثلاث قراءات:

قراءة بإثباتها وصلًا ووقفًا، وقراءة بحذفها وصلًا ووقفًا، وقراءة بحذفها وصلًا وإثباتها وقفًا.

و«ال» في ﴿ٱلرَّسُولَا﴾ للعهد الذهني، أي: الرسول المعهود نبينا محمد ﷺ، أي: يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا رسولنا محمد ﷺ، بفعل الأوامر وترك النواهي.

ويحتمل أن يكون ﴿ٱلرَّسُولَا﴾ هنا اسم جنس يشمل كل الرسل عليهم الصلاة والسلام، فيتمنى كفرة كل أمة أنهم أطاعوا رسولهم الذي أرسل إليهم، أي: يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا رسوله إلينا، بفعل الأوامر وترك النواهي.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا ۝٦٧﴾.

قوله: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ﴾ أي: قال الأتباع: ﴿رَبَّنَآ﴾ منصوب على النداء، أي: يا ربنا، وحذف حرف النداء.

﴿إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا﴾ قرأ يعقوب وابن عامر: «ساداتنا» بالجمع وكسر التاء. وقرا الباقون: ﴿سَادَتَنَا﴾ بالإفراد وفتح التاء(١).

والمفرد منها: «سيد» وجمعه: «سادة»، وجمع الجمع: «سادات» والسيد: هو ذو الشرف والقدر والمكانة في قومه المقدم فيهم.

وجاء بالجمع، بل وبجمع الجمع؛ إشارة لكثرة هؤلاء السادة، وما أكثرهم عند أهل البدع والكفر والضلال- لا كثّرهم الله- يلبس أحدهم عمامة ورداء ويقال له السيد وهو أجهل من حمار أهله فيَضل ويُضل الناس.

---

(١) انظر: «النشر» (٢/ ٣٤٩).

وفي حديث مطرّف عن أبيه- رضي الله عنه- قال: انطلقت في وفد بني عامر إلى رسول الله ﷺ فقلنا: أنت سيدنا. فقال: «**السيد الله- تبارك وتعالى**» قلنا: وأفضلنا فضلًا وأعظمنا طولًا. فقال: «**قولوا بقولكم، أو بعض قولكم، ولا يستجرينكم الشيطان**»(١).

﴿وَكُبَرَآءَنَا﴾: جمع «كبير»، وهم من فوق الأسياد، كالأمراء والسلاطين ونحوهم.

أي: إنا أطعنا هؤلاء السادة والكبراء فيما يأمروننا به وينهوننا عنه، وقلدناهم فيه.

﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ أي: فبسبب طاعتنا لهم أضلونا السبيلا، أي أبعدونا وتيّهونا وضيعونا عن سبيل الحق، والطريق المستقيم.

و«ال» في ﴿ٱلسَّبِيلَا۠﴾ للعهد الذهني أي: السبيل المعهود المعروف، صراط الله وسبيله، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام:١٥٣]، وقال تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ [الحجر:٤١].

وهو سبيل الحق الموصول إلى الله، وإلى السعادة في الدنيا والآخرة، والفوز بالجنة والنجاة من النار.

قال ابن كثير(٢): «أي: اتبعنا السادة، وهم الأمراء والكبراء من المشيخة، وخالفنا الرسل، واعتقدنا أن عندهم شيئًا، وأنهم على شيء، فإذا هم ليسوا على شيء».

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا ﴿٦٨﴾﴾.

قوله: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ﴾ أي: يا ربنا أعط هؤلاء السادة والكبراء ضعفين من العذاب، أي: مثلي عذابنا، أي: كثر عذابنا مرتين، وذلك بسبب كفرهم وإغوائهم إيانا. وضعف الشيء: كثره مرتين.

﴿وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا﴾ قرأ عاصم ﴿كَبِيرٗا﴾ بالباء، وقرأ الباقون: «كثيرًا» بالثاء(٣).

فيحتمل أن بعضهم يقول: «كبيرًا» وبعضهم يقول: «كثيرًا»، أو أنهم أحيانًا

(١) أخرجه أبوداود في الأدب (٤٨٠٦).

(٢) «تفسيره» (٦/ ٤٧٣).

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٤٧٣)، «النشر» (٢/ ٣٤٩).

يقولون: «كبيرًا» وأحيانًا يقولون: «كثيرًا». و«كبيرًا» من حيث الكيفية، و«كثيرًا» من حيث الكمية.

واللعن من بني آدم معناه: الدعاء بالطرد والإبعاد عن رحمة الله- عز وجل- فهؤلاء يدعون الله- عز وجل- على سادتهم وكبرائهم، أن يطردهم ويبعدهم من رحمته وجنته، طردًا وإبعادًا كبيرًا وكثيرًا.

وهؤلاء الأسياد والكبراء مستحقون لهذا الدعاء، وسيضاعف لهم العذاب؛ لأنهم ضلوا وأضلوا، كما قال عز وجل: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت:١٣]، وقال ﷺ: «**ومن سن في الإسلام سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة، لا ينقص من أوزارهم شيئًا**»(١).

فيا سبحان الله، كيف كان هؤلاء الأتباع يُعظِّمون هؤلاء السادة والكبراء ويجلّونهم ويحترمونهم ويحبونهم في الدنيا، ثم انقلبوا عليهم في الآخرة، أشد ما يكون عداوة، يدعون عليهم بمضاعفة العذاب والطرد والإبعاد الكبير عن رحمة الله، وهذا مصداق قول الله- عز وجل: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ [البقرة:١٦٦، ١٦٧].

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾ [الفرقان:٢٧-٢٩].

وقوله تعالى عن وليِّهم الشيطان: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [إبراهيم:٢٢].

---

(١) أخرجه مسلم في العلم (١٠٧١)، والنسائي في الزكاة (٢٥٥٤)، والترمذي في العلم (٢٦٧٥)، وابن ماجه في المقدمة (٢٠٣)-من حديث جابر بن عبدالله-رضي الله عنه.

قال ابن القيم[1]: «تمنى القوم طاعة الله ورسوله حين لا ينفعهم ذلك، واعتذروا بأنهم أطاعوا كبراءهم ورؤساءهم، واعترفوا بأنهم لا عذر لهم في ذلك، وأنهم أطاعوا السادات والكبراء وعصوا الرسول، وآلت تلك الطاعة والموالاة إلى قولهم: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾ وفي بعض هذا عبرة للعاقل وموعظة شافية».

الفوائد والأحكام:

١- كثرة سؤال الناس عن الساعة متى تكون؛ لقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ فالمسلمون يسألون عنها سؤال استفهام واستعلام. والكفار يسألون سؤال استبعاد وتكذيب.

٢- أن علم الساعة ومتى تكون وكيف تكون من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾، وإنما أخفاها الله- عز وجل- ليجتهد الناس بالاستعداد لها.

٣- قرب وقوع الساعة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾.

٤- أن الرسول ﷺ مع عظم منزلته عند ربه لا يعلم متى تكون الساعة؛ لأنها من علم الغيب الذي اختص الله به؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾.

كما قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾﴾ [النازعات:٤٢-٤٤].

ولهذا قال ﷺ فيما حكى الله عنه: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ﴾ [الأعراف:١٨٨].

وفي هذا الرد على من يخمنون ويتخرصون ويضربون مددًا وهمية لقيام الساعة.

٥- لعنة الله للكافرين وإبعادهم من رحمته وجنته وتهيئة النار المستعرة لهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾﴾.

٦- أن النار مخلوقة موجودة الآن معدة لأهلها؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾.

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» (٣/ ٤٢٩).

٧- تخليد الكافرين في النار خلودًا أبديًّا؛ لقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗا﴾.

٨- أنه لا ولي للكافرين يتولاهم ولا ناصر ينصرهم ويدفع عنهم عذاب النار؛ لقوله تعالى: ﴿لَّا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا﴾.

٩- شدة عذاب الكفار في النار، وأنه يجمع لهم فيها بين الإهانة المعنوية والعذاب الحسي؛ لقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ﴾.

١٠- تحسر الكافرين وهم في النار، وتمنيهم وهم في غمرات العذاب أنهم أطاعوا الله وأطاعوا الرسول؛ لينجوا من العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾.

١١- أن طاعة الرسول ﷺ واجبة استقلالًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ بتكرار العامل فما أمر الرسول به يجب طاعته فيه وإن لم يرد في القرآن الكريم.

١٢- أن ضلال أكثر مَن ضل مِن الناس بسبب طاعة الأسياد والكبراء من السلاطين وعلماء السوء ودعاة الضلال والتقليد الأعمى لهم، مما يوجب الحذر منهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ٦٧﴾.

١٣- إثبات ربوبية الله العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ﴾.

١٤- أن سبيل الله وطريق الحق واحدة؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾.

١٥- تبرؤ التابعين من المتبوعين يوم القيامة يوم لا ينفعهم ذلك، ودعاؤهم عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا ٦٨﴾ كما يتبرأ المتبوعون من تابعيهم.

١٦- ينبغي الحذر من طاعة السلاطين والكبراء في معصية الله تعالى، والحذر من قرناء السوء ودعاة الشر والضلال.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾﴾.

قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ﴾ ﴿لَا﴾: ناهية، و﴿تَكُونُواْ﴾ مجزوم بها، وعلامة جزمه حذف النون، ﴿كَٱلَّذِينَ﴾ الكاف: للتشبيه بمعنى «مثل».

أي: لا تكونوا مثل الذين آذوا موسى. وموسى: هو نبي الله موسى بن عمران- عليه الصلاة والسلام- كليم الله، وأفضل أنبياء بني إسرائيل وأحد أُولي العزم من الرسل- عليهم الصلاة والسلام.

والذين آذوا موسى هم بنو إسرائيل، وأذاهم له- عليه السلام- بمخالفته، وبأنواع الأذى بالقول والفعل، كما هو حالهم مع رسل الله عامة، كما قال الله عنهم: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [البقرة:٨٧].

ويدل قوله تعالى: ﴿فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ﴾ على أن أذيتهم له بقولهم فيه ما ليس فيه، وما هو بريء منه، وقولهم: «إنه آدر» أي: كبير الخصيتين، أو منتفخ الخصيتين، أو به برص ونحو ذلك.

وذلك أنهم كانوا لا يستحون فيغتسلون عراة، وكان موسى- عليه الصلاة والسلام- حييًّا، فيغتسل وحده، فقالوا: ما منعه أن يغتسل معنا إلا أنه آدر، أو فيه برص أو نحو ذلك.

﴿فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ﴾ أي: برأه الله من الذي قالوه، أو من قولهم، بالفعل حتى رأوا بعيونهم سلامته مما عابوه به، وأنه من أحسنهم وأسلمهم خلقة، فكان يغتسل ذات يوم وحده، ووضع ثوبه على حجر، فلما اغتسل وأتى ليلبس ثوبه فرّ الحجر بثوبه، فكان يتبعه، ويقول: ثوبي حجر، ثوبي حجر، حتى وقف على ملأ من بني إسرائيل، فرأوه عريانًا، وإذا هو من أحسن الناس خلقة وأسلمهم من العيب، فبرأه الله مما قالوا فيه وعابوه به، أي: أظهر لهم براءته من ذلك.

عن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن موسى- عليه السلام- كان رجلًا حييًّا ستّيرًا، لا يُرى من جلده شيء استحياءً منه، فآذاه من آذاه من**

بني إسرائيل، فقالوا: ما يستتر هذا التستر إلا من عيب بجلده، إما برص، وإما أُدْرة[١]. وإما آفة، وإن الله- عز وجل- أراد أن يبرئه مما قالوا، وإن موسى- عليه السلام- خلا يومًا وحده فوضع ثيابه على حجر، ثم اغتسل، فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها، وإن الحجر عدا بثوبه، فأخذ موسى عصاه فطلب الحجر، فجعل يقول: ثوبي حجر، ثوبي حجر، حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل، فرأوه عريانًا أحسن الناس خلقًا وأبرأه مما كانوا يقولون: قال: وقام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه وطفق بالحجر ضربًا بعصاه، فوالله إن بالحجر لندبًا من أثر عصاه ثلاثًا أو أربعًا أو خمسًا- قال: فذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾﴾»[٢].

وعن ابن عباس عن علي بن أبي طالب- رضي الله عنهما- في قوله: ﴿فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ﴾ قال: «صعد موسى وهارون الجبل فمات هارون- عليه السلام- فقال بنو إسرائيل لموسى- عليه السلام- أنت قتلته، كان ألين منك، وأشد حياءً، فآذوه في ذلك، فأمر الله الملائكة فحملته فمروا به على مجالس بني إسرائيل فتكلمت بموته، فما عرف موضع قبره إلا الرخم، وإن الله جعله أصم أبكم»[٣].

قال ابن كثير[٤] بعد ذكر القصتين: «يحتمل أن يكون الكل مرادًا، وأن يكون معه غيره، والله أعلم».

وقد أوذي موسى عليه السلام بأمور كثيرة، منها قول بني إسرائيل له: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [المائدة:٢٤]، وقولهم: ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾ [البقرة:٦١]، وقولهم: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء:١٥٣]، ومجادلتهم إياه في ذبح البقرة، وغير ذلك كثير.

---

(١) الأَدَرة: كبر وانتفاخ الخصيتين. انظر: «لسان العرب» مادة: «أدر».

(٢) أخرجه البخاري في الأنبياء (٣٤٠٤)، ومسلم في الفضائل (٣٣٩)، والترمذي في التفسير (٣٢٢١)، وأحمد (٢/ ٥١٤-٥١٥)، والطبري في «جامع البيان» (١٩/ ١٩٢-١٩٤).

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٩/ ١٩٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣١٥٨)-الأثر (١٧٨٠٢).

(٤) في «تفسيره» (٦/ ٤٧٥).

عن عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه- قال: قسم رسول الله ﷺ ذات يوم قسمًا، فقال رجل من الأنصار: إن هذه القسمة ما أُريد بها وجه الله. قال: فقلت: يا عدو الله، أما لأخبرن رسول الله ﷺ بما قلت. قال: فذكر ذلك للنبي ﷺ، فاحمر وجهه، ثم قال: «رحمة الله على موسى، لقد أُوذي بأكثر من هذا فصبر»(١).

﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ أي: وكان موسى- عليه السلام- ﴿عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾.

وقدم قوله: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ على ﴿وَجِيهًا﴾ إشارة إلى أن العبرة بوجاهة الإنسان عند الله، لا عند الخلق، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات:١٣].

قال ابن كثير(٢) في معنى: ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾: «أي: له وجاهة وجاه عند الله عز وجل».

والجاه والوجاهة: القدر والمكانة الرفيعة، أي: إنه- عليه السلام- ذو قدر ومكانة رفيعة عند الله- عز وجل-.

فهو كليم الرحمن، كما قال عز وجل: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ [النساء:١٦٤].

ومن أولي العزم من الرسل، وهو أفضل أنبياء بني إسرائيل.

وكان مستجاب الدعوة، شفع في أخيه هارون بقوله: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ [طه:٢٩-٣٥] فأجاب الله سؤاله بقوله تعالى: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ [طه:٣٦]، وقال تعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا﴾ [يونس:٨٩].

وليس معنى كونه وجيهًا أن يُتوسل به وتطلب منه الأمور التي لا تطلب إلا من الله.

وإذا كان نبي الله موسى- عليه السلام- عند الله وجيهًا، وكذا نبيه عيسى ابن مريم- عليه السلام- كما قال عز وجل عنه: ﴿وَجِيهًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [آل

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء (٣٤٠٥)، ومسلم في الزكاة-إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام (١٠٦٢)، وأحمد (١/ ٣٨٠، ٣٩٥-٣٩٦).

(٢) في «تفسيره» (٦/ ٤٧٦).

عمران:٤٥] فإن نبينا محمدًا ﷺ أعظم جاهًا عند الله منهما ومن جميع الأنبياء والمرسلين، فهو خليل الله، وسيد الأولين والآخرين، وأفضل أولي العزم، وصاحب الحوض المورود والشفاعة الكبرى والمقام المحمود، ومع ذلك فقد أوذي ﷺ بأنواع كثيرة من الأذى، فوضع السَلى على ظهره وهو ساجد، وشج رأسه ووجهه وكسرت رباعيته في أُحد، ورمي بالحجارة حتى أدميت قدماه، وأريد اغتياله أكثر من مرة، ورمي بالسحر والشعر والكهانة والجنون إلى غير ذلك، فصبر الصبر الجميل، وكان يقول: «**رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون**»(١).

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ﴾.

٢- تشريف المؤمنين وتكريمهم بندائهم بوصف الإيمان، والحض على الاتصاف بهذا الوصف، وأن اجتناب النهي بعده من مقتضيات الإيمان وأن عدم اجتنابه يعد نقصًا في الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾.

٣- تحريم أذية الرسول ﷺ؛ لنهي الله عز وجل المؤمنين أن يكونوا كبني إسرائيل الذين آذوا نبي الله موسى- عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ﴾، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾[الأحزاب:٥٧].

٤- أذية بني إسرائيل لموسى عليه السلام، وتبرئة الله عز وجل له عليه السلام مما رموه به من قولهم: إنه آدر، أو أنه قتل هارون، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ﴾.

٥- مكانة موسى- عليه السلام- العظيمة ووجاهته عند ربه؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾﴾، ولهذا دافع الله عنه وبرأه مما رماه به بنو إسرائيل.

٦- عناية الله تعالى بنبيه ﷺ، ودفاعه عنه، وتسليته له ﷺ، وتخفيف الأمر عليه، وأنه قد أوذي موسى والرسل من قبله؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟

---

(١) أخرجه البخاري في استتابة المرتدين (٦٩٢٩)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٩٢)، وابن ماجه في الفتن (٤٠٢٥)-من حديث عبدالله بن مسعود-رضي الله عنه.

عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾ [الأنعام: ٣٤].

ولهذا قال ﷺ لما آذاه قومه: «رحم الله أخي موسى لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر»[١].

* * *

(١) سبق تخريجه.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾﴾.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: اتقوا الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

﴿وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ الواو: عاطفة، ﴿قَوْلًا سَدِيدًا﴾: معطوف على ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ من عطف الخاص على العام؛ لأنه من تقوى الله، وبيْن: «قولوا»، و﴿قَوْلًا﴾: جناس اشتقاق، و﴿قَوْلًا﴾ مفعول مطلق و﴿سَدِيدًا﴾ صفة له.

والقول السديد: الذي يسد مكانه؛ لأن لكل مقام مقالًا، فلا الشدة في موضع اللين، ولا اللين في موضع الشدة، بل لكل منهما موضعه المناسب.

وهو القول الصواب الموافق للشرع والعقل، قال تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ﴾ [الإسراء:٥٣]، وقال تعالى: ﴿۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ﴾ [النساء:١٤٨].

وقال ﷺ: «**إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقًا**»(١).

ولما قال معاذ: يا نبي الله: وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ قال ﷺ: «**ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم أو على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم**»(٢).

وسمي القول المناسب سديدًا؛ لأنه يسد مكانه، ومنه يقال: سد مجرى الماء أي: وضع فيه سدة تمنع تسرب الماء.

فالقول المناسب في المكان المناسب هو القول السديد، فللصغير قول يناسبه سواءً

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٩٤)، ومسلم في البر والصلة والآداب (٢٦٠٧)، وأبوداود في الأدب (٤٩٨٩)، والترمذي في البر والصلة (١٩٧١)، وابن ماجه في المقدمة من حديث عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي في الإيمان (٢٦١٦)، وابن ماجه في الفتن (٢٩٧٣)-من حديث معاذ بن جبل-رضي الله عنه-وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

كان توجيهًا أو عتابًا، وللكبير كذلك كلام يناسبه، ولصاحب المكانة كعالم أو أمير أو شيخ كبير كلام يناسبه، وللمحسن كلام يناسبه، وللمسيء كلام يناسبه، وللمُصِر على المعصية كلام يناسبه، ولغير المُصِرّ كلام يناسبه وهكذا.

ولهذا رُوي أن النبي ﷺ لما أنشده النابغة الجعدي قصيدته التي منها قوله:

ولا خير في حلم إذا لم تكن له بوادر تحمي صفوه أن يكدرا

ولا خير في جهل إذا لم يكن له حليم إذا ما أورد الأمر أصدرا

قال له: «لا فُضَّ فوك» قالوا: فعاش مائة وثمانين سنة لم يسقط له سن[1].

قوله تعالى: ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١)﴾.

قوله: ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ هذا وعد من الله- عز وجل- لمن اتقاه وقال قولًا سديدًا بإصلاح عمله ومغفرة ذنوبه. نسأل الله التوفيق.

ومعنى قوله: ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ أي: يجعلها صالحة مشتملة على شرطي صلاح العمل، وهما: إخلاص العمل لله- عز وجل- ومتابعة الرسول ﷺ.

أي: يصلح لكم أعمالكم الدينية والدنيوية، وييسر أموركم كما قال عز وجل: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق:٢، ٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧)﴾ [المائدة:٢٧].

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ أي: يسترها عن الخلق، ويتجاوز عن العقوبة، فلا يعاقبكم عليها.

ولكي تنال- أخي الكريم- هذا الوعد من الله- عز وجل- عليك بتقوى الله في جميع أمورك، واجعل قولك سديدًا، تأمل فيما تقول قبل أن تقول، اختر من العبارات أنسبها ومن الكلام أطيبه، لا تأخذك المواقف، أو الحماس، أو الغضب، عالج الأمور بحكمة.

---

(١) انظر: «ديوان النابغة الجعدي» ص(٦٩)، «الإصابة» (٣/ ٥٣٩).

واعلم أن الشيطان كما قال ابن القيم- رحمه الله: «قد يأمر بسبعين بابًا من الخير ليصل إلى باب من الشر أعظم من ذلك، أو ليمنع بابًا من الخير أعظم من ذلك»[١].

وكما قيل:

وقد يأمر الشيطان بالخير قاصدًا وصولًا إلى شر من الخير أعظم

واعرف الفرق بين التعبير الحسن وخلافه كما حكى الله عن امرأة فرعون آسية بنت مزاحم رضي الله عنها أنها قالت في دعائها: ﴿رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ﴾ [التحريم:١١] ولم تقل (بيتًا عندك) قال ابن كثير رحمه الله[٢] تنويهًا بتعبيرها الحسن: «قال العلماء: اختارت الجار قبل الدار».

وكما حكى الله عن بلقيس ملكة سبأ لما قيل لها: ﴿أَهَٰكَذَا عَرۡشُكِۖ﴾؟ قالت: ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَۚ﴾ [النمل:٤٢] فلم تنف أن يكون هو؛ لأن أوصافه أوصاف عرشها، ولم تقل: إنه هو لبُعد المسافة بين مُلكها في اليمن وبين ملك سليمان في فلسطين في الشام[٣]. وكان عرشها محروسًا بحراسة شديدة.

فالقول السديد خير وأفضل من الصمت، والصمت خير من القول غير السديد، وقد قال ﷺ: **«ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت»**[٤].

وقد قيل: «الصمت حكمة وقليل فاعله»[٥]، وقال الشاعر:

ولئن ندمت على سكوتك مرة فلتندمن على الكلام مرارًا[٦]

وقال الآخر:

---

(١) انظر: «التفسير القيم» ص(٦١٣).

(٢) في «تفسيره» (٨/ ١٩٩).

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٢٠٤).

(٤) أخرجه مسلم في الإيمان (٤٧)، وأبوداود في الأدب (٦٠١٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) تنسب هذه المقالة للقمان. انظر «الجامع» لابن وهب ص٥٠٧ (٣٩٤)، و«الزهد والرقائق» لابن المبارك، و«الزهد» لنعيم بن حماد ١/ ٢٨٩ (٨٤١)، وقد أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» ٧/ ٧٤ (٤٦٧٢) مرفوعًا إلى النبي ﷺ من حديث أنس رضي الله عنه.

(٦) البيت لأبي العتاهية. انظر: «ديوانه» ص٥٤٢.

جراحات السنان لها التئام ... ولا يلتام ما جرح اللسان[1]

وقال الآخر:

يموت الفتى من عثرة بلسانه ... وليس يموت المرء من عثرة الرجل
فعثرته بالقول تودي برأسه ... وعثرته بالرجل تبرى على مهل[2]

وقال الآخر:

احفظ لسانك أيها الإنسان ... لا يلدغنك إنه ثعبان
كم في المقابر من قتيل لسانه ... كانت تهاب لقاءه الأقران[3]

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ الواو: استئنافية، و«من»: شرطية، ﴿يُطِعِ﴾ فعل الشرط مجزوم، وعلامة جزمه السكون، وحذف منه حرف العلة الياء؛ لالتقاء الساكنين، قال الناظم:

إن ساكنان التقيا اكسر ما سبق ... وإن يكن لينًا فحذفه استحق

والطاعة: بمعنى الموافقة، فطاعة الله ورسوله بفعل ما أمر الله به ورسوله وترك ما نهى الله عنه ورسوله.

وعطف وصف الرسول ﷺ على اسمه- عز وجل- بالواو التي تقتضي الجمع والتشريك؛ لأن طاعة الرسول ﷺ طاعة لله- تعالى- كما قال عز وجل: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النساء:٨٠].

﴿فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط، و«قد»: للتحقيق، والفوز معناه: السلامة من المرهوب، والحصول على المطلوب، والنجاة من النار، ودخول الجنة.

﴿فَوۡزًا﴾: مفعول مطلق، و﴿عَظِيمًا﴾: صفة له، ولا يمكن أن يقدِّر عظمة هذا الفوز إلا الذي وصفه بأنه عظيم، وهو العظيم- سبحانه وتعالى.

---

(١) البيت منسوب لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه. انظر:«فيض القدير» للمناوي ٦/ ١٣٩، «روح البيان» للمولى أبي الفداء ٩/ ٥٠٦.

(٢) البيتان لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه. انظر:«ديوانه» ص١٦٠.

(٣) البيتان للشافعي. انظر:«ديوانه» ص١١٦.

والمعنى: ومن يطع الله ورسوله فقد فاز وربح بالنجاة من النار ودخول الجنة والتنعم بها فيها من النعيم العظيم، كما قال عز وجل: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران:١٨٥]، ومن أعظم هذا الفوز والنعيم: النظر إلى وجه الله الكريم، كما قال عز وجل: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦]، فالحسنى: الجنة، والزيادة: النظر إلى وجه الله الكريم- نسأل الله من فضله.

الفوائد والأحكام:

١- تكرار النداء للمؤمنين بقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾؛ لتوكيد التنبيه والعناية والاهتمام والتشريف والتكريم لهم، وأن ما أمر الله به بعد هذا، وهو تقوى الله من مقتضيات الإيمان، وعدمه نقص في الإيمان.

٢- وجوب تقوى الله؛ لقوله تعالى: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾، والأمر للوجوب.

٣- وجوب تحري القول السديد الصواب الذي يسد مكانه ويوافق الحق؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا﴾.

٤- أن من جزاء تقوى الله وتحري السداد في القول توفيق الله للعباد وإصلاح أعمالهم ومغفرة ذنوبهم؛ لقوله تعالى: ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾.

٥- إثبات صفة المغفرة لله تعالى.

٦- أن صلاح الأعمال ومغفرة الذنوب مطلب لكل مؤمن.

٧- الترغيب في طاعة الله- تعالى- ورسوله، وأنها سبب للفوز العظيم؛ بالسلامة من المرهوب، والحصول على المطلوب؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾، ولا يقدر قدر عظم هذا الفوز إلا العظيم سبحانه وتعالى.

٨- جواز عطف اسم الرسول ﷺ أو وصفه على اسم «الله»- عز وجل- في باب الطاعة؛ لأن طاعة الرسول ﷺ طاعة لله تعالى.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾.

قوله: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ﴾ ﴿إِنَّا﴾ المتكلم هو الله- عز وجل- بضمير العظمة؛ لأنه العظيم- سبحانه وتعالى.

أي: إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض عرض تخيير، لا إيجاب.

و﴿الْأَمَانَةَ﴾: كل ما ائتمن عليه الإنسان من الأعمال والأقوال والأموال والأحوال، مأخوذة من «الأمن»، وهو طمأنينة النفس وعدم الخوف، قال تعالى عن يعقوب- عليه السلام- أنه قال: ﴿هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف:٦٤]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ [آل عمران:٧٥].

وسواء كانت الأمانات مما بين الله وبين خلقه، وهي الأمانة العظمى، أو مما بين الخلق بعضهم مع بعض.

ويدخل في ذلك دخولًا أوليًّا أمانات الولايات، كما جاء في سبب نزول قوله تعالى في سورة النساء: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء:٥٨] حيث كان سبب نزولها أخذ النبي ﷺ مفتاح الكعبة من عثمان بن أبي طلحة(١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية(٢): «أما أداء الأمانات ففيه نوعان: أحدهما: الولايات، وهو كان سبب نزول الآية(٣).. والقسم الثاني من الأمانات: أمانات الأموال.. من الأعيان والديون الخاصة والعامة، مثل رد الودائع، ومال الشريك،

(١) انظر: «جامع البيان» (٨/ ٤٩١-٤٩٢)- تحقيق أحمد شاكر، «أسباب النزول» للواحدي، ص(١٠٥).
(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٢٤٦-٢٦٥).
(٣) يعني آية النساء: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [الآية:٥٨].

والموكل والمضارب، ومال اليتيم، ووفاء الديون، وبدل القرض، وصدقات النساء، وأجور المنافع ونحو ذلك...».

وقال ابن كثير[1] في كلامه على قوله تعالى في سورة النساء: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء:٥٨]: «وهذا يعم جميع الأمانات الواجبة على الإنسان من حقوق الله- عز وجل- على عباده من الصلوات والزكوات والكفارات والنذور والصيام وغير ذلك، مما هو مؤتمن عليه لا يطلع عليه العباد، ومن حقوق العباد بعضهم على بعض كالودائع وغير ذلك مما يأتمنون به بعضهم على بعض من غير اطلاع بينة على ذلك».

ويدخل في ذلك أيضًا: أمانة تعليم العلم الذي علمه الله الإنسان، بل إن هذا من أعظم الأمانات، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران:١٨٧].

ومن أعظم الأمانات: الولايات على مصالح المسلمين، عن أبي ذر- رضي الله عنه- قال: قلت: يا رسول الله، ألا تستعملني؟ قال: فضرب بيده على منكبي، ثم قال: **«يا أبا ذر، إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا مَن أخذها بحقها، وأدى الذي عليه فيها»**[2].

قال ﷺ: **«إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة»**، قيل: يا رسول الله، وما إضاعتها؟ قال: **«إذا وُسِّدَ الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة»**[3].

ومن كان مؤتمنًا على عمل من أعمال الأمة ومصالحها وجب عليه أن يؤدي ما ائتمن عليه بالقيام به على الوجه المطلوب، كالحكام والقضاة والأمراء والمدرسين والموظفين وغيرهم، فيجب إسناد الأعمال في مصالح الأمة إلى أهلها والحذر كل الحذر من أن تسند لمن لا يصلح لذلك؛ لأن من أعظم الخيانة لله ولرسوله وللمؤمنين أن يسند الأمر إلى غير أهله، وذلك من علامات الساعة.

---

(١) في «تفسيره» (٢/ ٢٩٨).

(٢) أخرجه مسلم في الإمارة (١٨٢٥).

(٣) أخرجه البخاري في العلم (٥٩)، وأحمد (٢/ ٣٦١)-من حديث أبي هريرة-رضي الله عنه، وانظر:«السياسة الشرعية»، ص(١٦)، «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٢٤٧-٢٦٢).

ومن أعظم الأمانات أيضًا: أداء الشهادة، وكذا كل ما ائتمن عليه الإنسان من عمل، أو سر، أو وديعة استودعها، أو غير ذلك. فإذا ائتمنك زيد أو عمرو على عمل وجب أن تؤديه إليه بأن تقوم به على الوجه المطلوب.

وإن ائتمنك على قول كسرٍّ أفضى به إليك وجب أن تحفظه، قال ﷺ: «**إن من شر الناس منزلة يوم القيامة الرجل يفضي للمرأة وتفضي إليه، ثم ينشر سرها**»(١).

وكذا إذا ائتمنك على قول تحملته كشهادة، أو سلام أو نحو ذلك، وجب تأديته كما تحملته.

وإن ائتمنك على مال من نقود أو غير ذلك وجب أداؤه إليه من الديون وغيرها، قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ [البقرة:٢٨٣].

وقوله: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ﴾ قال ابن عباس- رضي الله عنهما: «الأمانة: الفرائض، عرضها الله على السموات والأرض والجبال، إن أدوها أثابهم، وإن ضيعوها عذبهم، فكرهوا ذلك وأشفقوا من غير معصية، ولكن تعظيمًا لدين الله أن لا يقوموا به، ثم عرضها على آدم فقبلها بما فيها، وهو قوله: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ يعني: غِرًا بأمر الله»(٢).

﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا﴾ أي: إن هذه المخلوقات العظيمة وهي السموات والأرض والجبال امتنعت من تحمل هذه الأمانة العظيمة؛ إيثارًا للسلامة.

﴿وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ أي: خفن من عدم القدرة على القيام بها، وإعطائها حقها إذا تحملنها؛ ولهذا امتنعن من حملها إشفاقًا منها لا معصية لله عز وجل واستكبارًا، كما فعل إبليس- لعنه الله- ولكن تعظيمًا لله عز وجل ولدينه، وخوفًا ألا يقمن بها لعظم مسؤوليتها.

وعلى هذا فعرض الأمانة على هذه المخلوقات العظيمة عرض حقيقي، بكيفية لا نعلم كنهها، الله يعلمها.

---

(١) أخرجه مسلم في النكاح (١٤٣٧)، وأبوداود في الأدب (٤٨٧٠)، وأحمد (٣/ ٦٩)-من حديث أبي سعيد-رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٩/ ١٩٧-١٩٨).

وقيل: إن هذا من ضرب المثل، كقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١].

والمعنى على هذا: أن السموات والأرض والجبال لو كانت مكلفة، وطلب منها حمل الأمانة لأبت وامتنعت لما في حملها من المشقة(١).

﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أي: جنس الإنسان، وهو آدم وذريته؛ رغبة وطمعًا في الثواب والجزاء.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾: الجملة تعليلية، فيها بيان أن سبب حمل الإنسان لهذه الأمانة العظيمة التي امتنعت من حملها السموات والأرض والجبال على عظم خلقها كونه ﴿ظَلُومًا جَهُولًا﴾. والظلم في الأصل وضع الشيء في غير موضعه على سبيل العدوان، وهو نوعان: ظلم الإنسان لنفسه بالكفر والمعاصي، وظلم الآخرين بالتعدي عليهم وعلى حقوقهم.

والإنسان لا يخلو من ظلم لنفسه ولغيره إلا من رحم ربك.

والجهل: يطلق على ما يضاد العلم، وعلى السفه المنافي للحكمة. والإنسان غالبًا لا يخلو من هذا ومن هذا.

قوله تعالى: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾﴾.

قوله: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ اللام: لام التعليل أي: إن الله- عز وجل- جعل هذه الأمانة وهذه التكاليف؛ لأجل أن يثيب المطيع ويعاقب العاصي. والعذاب: هو العقوبة والنكال، ويكون حسيًّا ومعنويًّا في الدنيا والآخرة.

﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ﴾ هم الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، قال ابن كثير(٢): «وهم الذين يظهرون الإيمان خوفًا من أهله، ويبطنون الكفر متابعة لأهله».

---

(١) انظر: «تيسير الكريم الرحمن» (٦/ ٢٥٤).

(٢) في «تفسيره» (٦/ ٤٨١).

وقدمهم لأنهم أشد كفرًا من المشركين وغيرهم من الكفار، وخطرهم أعظم، وعذابهم أشد.

﴿وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ هم الذين أشركوا مع الله غيره في الدعاء والعبادة، فسووا غير الله بالله فيما هو من خصائص الله، كالعبادة والذبح والنذر والاستغاثة ونحو ذلك كما قال المشركون فيما حكى الله عنهم: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الشعراء:٩٨،٩٨]، وهم الذين ظاهرهم وباطنهم الكفر بالله.

﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ الواو: عاطفة. و«يتوب»: معطوف على ﴿لِّيُعَذِّبَ﴾.

والتوبة من المخلوق معناها: الرجوع إلى الحق والإنابة إلى الله، والرجوع من الكفر إلى الإيمان، ومن المعصية إلى الطاعة.

والتوبة من الله معناها: توفيقه لعبده أن يتوب، وقبول توبته إذا تاب، كما قال عز وجل: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟﴾ [التوبة:١١٨] أي: ثم وفقهم للتوبة ليتوبوا فيقبلها منهم.

أي: ليتوب الله على المصدقين والمصدقات، المنقادين لله ظاهرًا وباطنًا.

فلله الحكمة البالغة أن حمّل الإنسان هذه الأمانة؛ ليتميز من يقوم بها في الظاهر دون الباطن؛ وهم المنافقون والمنافقات، ومن لا يقوم بها لا ظاهرًا ولا باطنًا؛ وهم المشركون والمشركات؛ ليحق على الفريقين عذاب الله- عز وجل.

ويتميز من يقوم بها ظاهرًا وباطنًا؛ وهم المؤمنون والمؤمنات؛ ليتوب الله عليهم ويغفر لهم ويرحمهم.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًۢا﴾ الواو: مستأنفة، و«كان»: مسلوبة الزمان، أي: كان الله وما زال غفورًا رحيمًا، أي :ذا المغفرة الواسعة، وهي: ستر الذنب عن الخلق والتجاوز عن العقوبة، وذا الرحمة الواسعة؛ رحمة ذاتية ثابتة له عز وجل، ورحمة فعلية يوصلها من شاء من خلقه؛ رحمة عامة لجميع الخلق، ورحمة خاصة بالمؤمنين، كما قال عز وجل: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ [الأحزاب:٤٣].

الفوائد والأحكام:

١- عظم الأمانة، ولهذا عرضها الله على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾.

٢- حمل الإنسان لهذه الأمانة العظيمة لظلمه وجهله؛ لقوله تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾.

٣- عموم الأمانة لجميع التكاليف فيما بين الله- عز وجل- وبين خلقه، وفيما بين الخلق بعضهم مع بعض.

٤- أن الله جعل التكاليف وهي الأمانة التي حملها الإنسان؛ لأجل أن يثيب المطيع ويعاقب العاصي؛ لقوله تعالى: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾.

٥- تهديد المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات؛ لقوله تعالى: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾. وأن المنافقين وعيدهم أوكد، وعذابهم أشد؛ لأن الله قدمهم بالذكر في الآية.

٦- وعد الله المؤمنين والمؤمنات بالتوبة؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾.

٧- إثبات صفة المغفرة الواسعة لله- عز وجل- والرحمة الواسعة له عز وجل؛ رحمة ذاتية ثابتة له سبحانه، ورحمة فعلية يوصلها من شاء من خلقه؛ رحمة عامة لجميع الخلق، ورحمة خاصة بالمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

٨- جمعه عز وجل للمؤمنين بين المغفرة التي بها زوال المرهوب، والرحمة التي بها حصول المطلوب.

٩- أن التخلية قبل التحلية؛ لتقديم المغفرة على الرحمة.

* * *

فهرس الموضوعات

تفســير سورة الروم ٥
المقدمة ٧
أ- اسم السورة: ٧
ب- مكان نزولها: ٧
جـ- فضلها: ٧
د- موضوعاتها: ٧
تفسير قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢...﴾ الآيات [١-١٠] ١٢
تفسير قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ۝١١...﴾ الآيات [١١-١٩] ٢٦
تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٞ تَنتَشِرُونَ...﴾ الآيات [٢٠-٢٧] ٣٤
تفسير قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلٗا مِّنۡ أَنفُسِكُمۡۖ...﴾ الآيات [٢٨-٣٢] ٤٥
تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرّٞ دَعَوۡاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيۡهِ...﴾ الآيات [٣٣-٤٠] ٥٥
تفسير قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ...﴾ الآيات [٤١-٤٥] ٦٧
تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرۡسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٖ...﴾ الآيات [٤٦-٥٣] ٧٦
تفسير قوله تعالى: ﴿۞ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ...﴾ الآيات [٥٤-٦٠] ٨٧
تفســير سورة لقمان ٩٥
المقدمة ٩٧

أ- اسم السورة:.. ٩٧
ب- مكان نزولها:.. ٩٧
ج- موضوعاتها: ٩٧
تفسير قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ...﴾ الآيات [١-١١]......... ١٠١
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ...﴾ الآيات [١٢-١٩] ١١٣
تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً...﴾ الآيات [٢٠-٢٨].. ١٣٣
تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ...﴾ الآيات [٢٩-٣٤] ١٤٦
تفســير سورة السجدة... ١٦٣
المقدمة ١٦٥
أ- اسم السورة:.. ١٦٥
ب- مكان نزولها:.. ١٦٥
ج- فضلها:.. ١٦٥
د- موضوعاتها:... ١٦٥
تفسير قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ...﴾ الآيات [١-٩].. ١٦٨
تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ...﴾ الآيات [١٠-١٧].. ١٧٧
تفسير قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا...﴾ الآيات [١٨-٢٢] ١٨٩
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ...﴾ الآيات [٢٣-٣٠]............ ١٩٥
تفســير سورة الأحزاب.. ٢٠٥
المقدمة ٢٠٧

أ- اسم السورة: ٢٠٧
ب- مكان نزولها: ٢٠٧
جـ- فضلها: ٢٠٧
د- موضوعاتها: ٢٠٧
تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ...﴾ الآيات [١-٣] ٢١٢
تفسير قوله تعالى: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ...﴾ الآيتين [٤، ٥] ٢٢٣
تفسير قوله تعالى: ﴿ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ...﴾ الآية [٦] ٢٣٨
تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ ...﴾ الآيتين [٧، ٨] ٢٤٨
تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ...﴾ الآيات [٩-٢٠] ٢٥٢
تفسير قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ...﴾ الآيات [٢١-٢٧] ٢٧٣
تفسير قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ ...﴾ الآيتين [٢٨، ٢٩] ٢٨٧
تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ...﴾ الآيتين [٣٠، ٣١] ٢٩٦
تفسير قوله تعالى: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ...﴾ الآيات [٣٢-٣٤] ٣٠٢
تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ ...﴾ الآية [٣٥] ٣٢٧
تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ...﴾ الآية [٣٦] ٣٤٩
تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ ...﴾ الآية [٣٧] ٣٥٤
تفسير قوله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ...﴾ الآيتين [٣٨، ٣٩] ٣٦٦

تفسير قوله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ...﴾ الآية [٤٠] ٣٧١

تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا...﴾ الآيات [٤١-٤٨] ٣٧٧

تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ...﴾ الآية [٤٩] ٣٨٧

تفسير قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ...﴾ الآية [٥٠] ٣٩٤

تفسير قوله تعالى: ﴿۞ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ...﴾ الآية [٥١] ٤١١

تفسير قوله تعالى: ﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ ...﴾ الآية [٥٢] ٤١٩

تفسير قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ ...﴾ الآيتين [٥٣، ٥٤] ٤٢٥

تفسير قوله تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ...﴾ الآية [٥٥] ٤٤١

تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ...﴾ الآية [٥٦] ٤٤٦

تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ...﴾ الآيتين [٥٧، ٥٨] ٤٥٢

تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ...﴾ الآية [٥٩] ٤٦٠

تفسير قوله تعالى: ﴿ ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ...﴾ الآيات [٦٠-٦٢] ٤٧٥

تفسير قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ...﴾ الآيات [٦٣-٦٨] ٤٨٢

تفسير قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ ...﴾ الآية [٦٩]

.... ٤٩٤

تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا...﴾ الآيتين [٧٠، ٧١]
.... ٤٩٩

تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا ...﴾
الآية [٧٢، ٧٣].. ٥٠٤

فهرس الموضوعات.. ٥١١

* * *

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

دار ابن الجوزي 8428146
9 786038 274958